

تكوين الدكتوراه: الماء في تاريخ المغرب

أطروحة جامعية

لنيل شهادة الدكتوراه في موضوع:

الماء والتحويلات الاجتماعية بالبوادي المغربية

(609هـ/1212م – 986هـ/1578م)

الأستاذة المشرفة:

الدكتورة عائشة كنتوري

إعداد:

عمر بنعيش

السنة الجامعية

2021 – 2022م

إهداء:

إلى والدي الكريمين محمد ورقية

إلى روح جدتي - رقية العمر - رحمها الله

إلى الغالية أختنا فاطمة بنعيش

إلى اخوتي وجميع أسرتي الصغيرة والكبيرة

إلى جميع أصدقائي ورفاق دربي

إلى كل معلم ومتعلم، وكل أستاذ وطالب علم

إلى كل من شاركنا الطريق والحلم يوما أو سيأتي...

أهدي هذا الجهد والعمل سائلا العلي القدير أن ينفع بها، إنه سميع مجيب.

عمر بنعيش

شكر وعرفان:

وفي بعض المقام تبعض الشكر كفر، وكثيره عرفان واعتراف، وكيف يوجه القليل منه وفضل الواجب له الشكر كثير، وفي الحديث: "لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ"، فالشكر لله تعالى على ما أنعم به علينا من توفيقه لإتمام هذا البحث، وهدانا إليه من سبل العلم، وخص به طريقنا نحوه من أعلام في التلقين والمواكبة وشيوخ في التاريخ.

ثم إن لساننا ليعجز عن إيفاء أستاذتنا الدكتوراة عائشة كتوري ما تستحق من عبارات الشكر والتناء، لإشرافها على هذا البحث، وعلى كل ما لقيناه منها من دعم ومساندة طيلة مسارنا الجامعي، وما خصت به هذا البحث من تعهد ومتابعة وإرشاد وتوجيه وتصويبات، فالله نسأل لها الحفظ وخير الجزاء، وأن يجعل كل ذلك في ميزان حسناتها.

الشكر موصول وهو واجب إلى جميع أستاذتنا في شعبة التاريخ وماستر الماء في تاريخ الغرب، بكلية الآداب - جامعة القاضي عياض - مراكش العامرة، على ما انتفعنا منهم من علم وتوجيه. ثم إن البحث أسهم في ترتيبه وتصويب أفكاره ولسانه، أناس لا يستقيم ختم الشكر دون أن توجه بعظمه إليهم في هذا المقام، راجين من الله تعالى أن يجعل عملهم ذاك في ميزانهم المقبول، وأن يجازيهم عنا خير الجزاء.

دليل الاختزالات المستعملة في البحث

♦ ت: توفي.

♦ ج: جزء.

♦ د.ت: بدون تاريخ الطباعة.

♦ ص ص: الصفحات.

♦ ص: صفحة.

♦ ط: طبعة.

♦ ع: عدد.

♦ م. س: مصدر أو مرجع سابق.

♦ م: ميلادية.

♦ هـ: هجرية .

♦ و: ورقة.

♦ /: الموافق.

❖ **Ed:** éditeur(s), édition(s).

❖ **Ibid. (Ibidem):** dans le même ouvrage

❖ **N°:** numéro.

❖ **Op.cit:** ouvrage pré-cité.

❖ **P.U.F:** Presses Universitaires de France

❖ **P:** Page.

❖ **PP:** Pages.

❖ **T:** Tome.

❖ **Vol:** Volume.

مقدمة

يعتبر مجال البادية حقلا خصبا للبحث التاريخي، حيث شغل اهتمام عدد من الباحثين وأُنْتُجَت حوله مجموعة من الدراسات والأبحاث، غير أن إشكالاته التاريخية لا تزال تغري بالبحث المشتغلين في حقل الدراسات التاريخية على وجه الخصوص.

وإذا كان الماء ووجوده إحدى ضروريات استمرار الحياة وقيام الحضارات ونشوء المدن والحواضر...، فإن أهميته في حياة البادية والبدو تتجاوز الاستعمالات اليومية من شرب وطهارة... إلى الإسهام في تشكل البنى والتنظيمات الاجتماعية، فنجد القبائل أهم مظاهر التجمعات البشرية بالبوادي المغربية، تُخْضِعُ الموارد المائية لِتَدَاوِير اجتماعية، يعنى بها جميع أفراد القبيلة، الشيء الذي يفترض معه أن يسمح لنا رصد أنظمة المياه ببعض المجالات القروية، بفهم وتفسير العديد من الظواهر الاجتماعية.

وعليه، فنقديم مشروع عمل في تاريخ البادية المغربية من نافذة عنصر الماء، يجد بعض أسسه من الرغبة في الاستفادة من التراكم الحاصل في ترتيب المادة حول البوادي المغربية عموما، فيما أن جديته تنبع من سعي للنبش في جزء من تاريخ المجتمع البدوي، وأنماط تعيشه وانتظامه، فيما تقديم البحث لفترات زمنية أبعد مما هو معتاد في المونوغرافيات المعاصرة، يتماشى وطموح في الوقوف عند المحاولات الأولية لتشكيل الأنظمة الاجتماعية ذات الصلة بالماء.

1- تحفظات:

يختزن البحث، بعضا من الإشكاليات الأولية التي يستوجب التصريح بها هنا، ترتيبا للقراءة والفهم، وتهم مسائل التحديد المجالي والزمني وكذا ضبط مفاهيم العنوان.

أ- التوطين والتوقيت:

لاشك أن التحديد المجالي (التوطين) للبحث، يعتبر من أولى الخطوات المنهجية اللازمة في إطار التعريف به بعد تحديد فكرته (العنونة)، ويمكننا أخذ البادية المغربية مفهوما لمكان الحدث الذي لا يخرج في موضوعنا عن جملة تلك التحولات الاجتماعية المرتبطة بعنصر الماء في الفترة المخصصة للبحث، البادية المغربية هنا في جزء منها "مفهوم تاريخي"، لا تخرج عن

تعيّنها كـ"وسيلة للنقد ومعيّار لتمحيص الأخبار"¹ (مسألة التقنيات ونظم التدبير المائية)، وفي نفس الآن فهي (البادية) تصور لوطن أو مجال الحدث، الذي يبعد عنا زمنيا فيما نملك شواهد مادية عنه، نتساءل معها عن مدى إمكانية مساءلتها لإعادة بناء الحدث المختزل في عنوان البحث، والذي يضم جملة حوادث أخرى من قبيل؛ التحول الاجتماعي/ تطور القبيلة/ العرف المائي....

تحديد فترة البحث خطوة منهجية أخرى تؤرق بال المؤرخ، ولئن كان التعبير "توقيت" يعني التأطير الزمني للتحوّلات الطبيعية، "داخل سلم زمني وحسب قواعد معلومة"، يلزم لتحقيقه وجود أثر عنه أو حدث، لتترجم مقولة "لا تاريخ بدون وثيقة" بالتعبير "لا تاريخ بدون وسيلة للتوقيت"²، وعليه فإن التأطير الحدثي للبحث³؛ والذي نتلمس فيه بعض الوجاهة؛ يبدأ بحدث هزيمة العقاب (609هـ/1212م)، وينتهي بحدث جل آخر هو واقعة وادي المخازن (1578م). كلا الحدثين مرتبط بالعنصر الخارجي، ولكن لهما وحدة في التعيين، تعيين مسار اتجاه التاريخ المغربي، فمن حدث بداية التراجع بالأندلس (1212م) إلى القيام بصد التدخلات الخارجية واسترجاع جزء من هبة البلاد (1578م)، ظهر التقهقر الذي عاش عليه المغرب وبواديّه خلال هذه الفترة نتيجة لضعف السلطة المركزية، والذي يحمل في عمقه تحولا اجتماعيا لا يمكن أن تخطئه عين المؤرخ، وهذا الفضاء الزمني هو الذي أطلق عليه في البحث "نهاية العصر الوسيط"، تماشيا مع اصطلاح نقلناه عن الأستاذ محمد القبلي⁴.

تجدر الإشارة إلى أن التعبير "نهاية العصر الوسيط" في البحث، لا يوافق تمام الموافقة حيزه الزمني في دراسة الأستاذ محمد القبلي، ذلك أن ما حده الأستاذ عند تاريخ صعود السعديين إلى الحكم أي تاريخ 1544م، يمتد في هذا البحث إلى واقعة وادي المخازن، والتي

¹ - عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 4، 2005. ج1، ص 257.

² - نفسه، ص 260.

³ - أو ما عبر عنه عبد الأحد السبتي بـ "الحدث البنية" والذي يتحصل "متى صاغ المؤرخ إشكاليات تساعد على إثراء قراءة المصادر" عبد الأحد السبتي، "التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج: ملاحظات أولية"، ضمن كتاب: البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 14، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989، ص 52.

⁴ - محمد القبلي، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، ط1، 2017.

يبدو أنها شكلت حدثًا يمكن موازنته مع حدث الانطلاق (هزيمة العقاب)، إذ كلاهما ارتبط بالبعد الإقليمي للمغرب، وفي الوقت الذي دشنت فيه هزيمة العقاب للتراجع الإسلامي والمغربي بالأندلس فإن واقعة وادي المخازن أعادت الهيبة والاحترام للمغرب وضمنت له استقلاله النسبي على الأقل لفترة من الزمن، ثم إن ما تبناه القبلي وغيره بخصوص التحقيب للوسيط المغربي، بانتقال السلطة من العصبية القبلية إلى النسب الشريف، لا يبدو ذا كثير إضافة في سياسة المخزن السعودي ذاته ما قبل واقعة وادي المخازن، إذ ظل اعتماده على نفس أساليب الدول قبله في التعبئة للحرب وتنظيم شؤون الحكم، فيما أنه وبفضل الدفعة المعنوية والمادية التي كسبها أحمد المنصور الذهبي -أكبر المستفيدين من انتصار وادي المخازن- والذي قام بتحديث هام لبناء السلطة بالمغرب لا سيما في شقها العسكري، الأمر الذي يمكن البناء عليه للتصريح بدخول المغرب للعصر الحديث مع حادثة وادي المخازن.

ب - توجيه للعنونة:

يبدو أن المقاربة التي وضع فيها الماء موضوعا لتاريخ المغرب؛ مفتاحا أو زاوية من جملة زوايا إعادة البحث في بعض قضايا (تاريخ المغرب)، يوازيها بالنسبة لموضوعنا تداخلات وتقاطعات فيما يرتبط بالشريك الثاني للماء في عنونة الموضوع ونعني "البادية"، وهذا ما يظهر جليا في أبسط إطلالة على العديد من الأبحاث المنجزة حولها ومجتمعاتها، التي وسمت بالقرية/ القروي، الزراعي، الفلاحي الرعوي القبلي... لكن الأكيد أن تعريف البادية يتجاوز حتما معنى القرية، وإن كان البعض سعى إلى توسيع مجالها (القرية) ليتجاوز هو الآخر معنى التقارب الجغرافي البسيط لعدد من المساكن والمزارع ليشمل ساحات الرعي وفضاءات الدفن...¹

وبقدر اتساع مفهوم البادية بالمعاجم العربية، فإن القرية في الفكر الأوربي تفرض جملة شروط للتحقق، قد لا تتناسب وأغلب التعاريف التي انطلق منها الباحثون المغاربة، فليست

¹-Adrian VERHULST, «Villages et Villageois au Moyen Age», Actes Des Congrès De La Société Des Historiens Médiévistes De L'enseignement Supérieur Public, 21^e Congrès, Caen, 1990, p10.

القرية بتجمع السكن، ولا تعتبر بتعدد المنازل ولا بانتشارها... فهي في أحسن الأحوال تجمع¹، يتطلب ترتيب الأرض التي تكون المنازل وأماكن لقاءاتها، والسيطرة عليها، وتحديد مساراتها².

وعليه فالتصور الاجتماعي الذي انطلق منه فيرهلست أدريان Adrian VERHULST³ حول القرية، لا يتماشى مع طرح القبيلة جماعة لسكنى البادية بمغرب العصر الوسيط، ذلك أن عماد تحليله قائم على مغزى كون القرية تجمعاً بشرياً غير منعزل يهدف إلى خلق تماسك للوقاية من التهديد الخارجي، فيما البناء القبلي أساسه عناصر القرابة والتي سنرى أنها عرفت تحولات كبيرة خلال الفترة موضع الدراسة.

من جهة أخرى، فإن بعض أساليب تعيين عنوان البحث تأتي من العمل على تعابير المصادر نفسها، التي نطقت فيما يعني موضوعنا تقريباً بجل المصطلحات المستعملة إلى اليوم في تعيين الفضاء خارج إطار المدن، غير أن العين لا تكاد تخطئ تبنيها (المصادر) أساساً لعبارات؛ بواديه/ قراه/ مداشره... تترد هاته العبارات كثيراً في حديث المصادر عن حركات الجيوش واكتساح المجال، ولست في معرض الدخول في التمييز بينها إذ سيأتي ذلك في سياق البحث، لكن من المهم الإشارة إلى أن هذا كان موجهاً لاختيار لفظة بادية عنواناً يحيل ليس فقط إلى المجال بل وكذا ساكنيه، هؤلاء الذين تباينت مساميتهم من باحث إلى آخر فهم جماعة المزارعين (المجتمع الزراعي) لدى عمر بنميرة، وجماعة القرويين (المجتمع القروي)⁴ عند عبد الرحمان المودن (إيناون)، وهم في البحث هذين معا (المزارعين والقرويين) والرحل وأهل الصحراء والبدو... إذ كل التعابير تصح لوصف أهل مجال متعدد الخصائص.

لا تنتهي إشكاليات المصطلح التي يطرحها عنوان البحث عند اللفظ بادية فقط، فمسألة التوطين والتي تفرض وضع الموضوع في مجاله المحدد، أي النظر إلى البادية المغربية مفهوماً مؤطراً بالمجال والزمان والدلالة، يجعلنا أمام بعض المفاهيم الأولية التي نطقت بها النصوص

¹-Robert FOSSIER, «Villages et Villageois», Actes Des Congrès De La Société Des Historiens Médiévistes De L'enseignement Supérieur Public, 21^e Congrès, Caen, 1990, p208

²-Ibidem.

³-Adrian VERHULST, «Villages et Villageois Au Moyen Age», op. cit, pp 9-12.

⁴- عمر بنميرة، النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان الثامن والتاسع/ 14 و15)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 67، مطبعة الأمانة- الرباط، ط1، 2012، ص 19

المصدرية وتفرض علينا الوقوف عندها وأحيانا تدفعنا نحو تبنيها أيضا، هنا يكفي الحديث عن مصطلح أو تعبير واحد، "الوطن" تردد هذا المصطلح كثيرا في سياقات متعددة في مصادرنا، لكنه حتما لم يكن ليشمل كل المعاني والدلالات التي له اليوم مفهوما تاريخيا¹، إنه يحيل حسب ما يفهم من إشارات المصادر إلى مجالات نزول وتردد القبائل المغربية، كما أنه يرتبط بالماء ومستقر الأهل من الزوجة والولد. ويرتبط به من حيث الدلالة مفهوم البلد، لكن يمكن التمييز بينهما تجاوزا، فنجعل الأول موطننا للمتقنين من البدو، والثاني موطننا للمستقرين من البدو، لا ينتهي النقاش عند هذا المستوى، ومع ذلك فإن هذا يبقى مثالا واحدا على ما يتضمنه البحث من إشكاليات في التعريف التاريخي بالأشياء، خاصة أن مجال الدراسة والاشتغال يبعد زمنيا على الأقل بما قد يفقد معه الكلمات مدلولها أو يحرفها تبعا للتحليل المعاصر، وعليه كان منا بعض التجاوز في استعمال المصطلح ليس تهاونا، ولكن تقاديا للغو الذي قد يحجب الكثير من الوقائع وينتهي بنا إلى دوامة من الغموض.

لا يتوقف النقاش حول العنونة عند هذا الحد، إذ إنه حين ملاحظة الفرق بين شكل نظام الاستقرار/ التجمع بالبادية الأوربية والمغربية، فإنه تراود الباحث تساؤلات من قبيل؛ أيكون النظام القبلي بالبادية المغربية حتمية اجتماعية-طبيعية؟ ألم يقل ابن خلدون إنه لسكنى البادية لا بد من قبيلة؟ أليس الأساس عصبية وقدرة على المدافعة؟ ولم المدافعة والصدام لولا التنازع على الموارد؟ فهل نكون أمام انعكاس بيئي على أهل البادية المغربية؟ ثم إن الحتمية الجغرافيا انحراف -حسب العروي-، فكيف نبني على الانحراف؟ وبأي تصور سببي/ دافعي مع توينبي أم اختياري مع فوكل؟ لقد تسربت بعض من هذه التساؤلات للبحث بشكل أو بآخر، فكان لزاما التنبيه للقلق الذي سيطرحة التعيين (البادية) مفهوما في العنوان، حين التنزيل في فصول ومحاور البحث.

عموما إن البحث سوف يأخذ مصطلح "البادية" إلى أقصى عمومياته، والتي تعني ضد الحاضرة، وهو ما سنقف عليه من خلال إعادة البحث في اللفظة بادية وفق المعاجم العربية، ومن تم إعادة ترتيب التصور التاريخي للمفهوم بدوي، أو أهل البادية في تاريخ المغرب.

¹ - العروي، مفهوم التاريخ، م. س، ج1، ص ص 256-258

ثاني العناصر التي تحمل بعض الإشكاليات في العنوان هي تعبير المغرب، بداية يظهر أن هذه الإشكالية وإن كانت ترتبط بمدلول المجال، هي مسألة منهجية مرتبطة بعدم الخلط بين مفاهيم عصرنا والعصر الذي نود الاشتغال عليه، فالاصطلاح التاريخي المشروع نوعا ما هو التسمية "المغرب الأقصى"، والتي غدت رائجة مع نهاية العصر المرابطي في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد، مجالا متميزا ضمن بقية مجموع المجال الإقليمي المجاور له¹، غير أن العبارة "المغرب الأقصى" لم تكن تحمل محتوى جغرافيا صرفا بقدر ما أنها مضمون جغرافي-سياسي وعسكري في نفس الآن.² وقد أفرز هذا الترابط تقالدا للرقعة المجالية التي تعنيها جراء التنافس المريني-العبد الوادي، خلال الفترة قيد الدراسة. غير أن نواته (مجال المغرب الأقصى) قد حددت دائما من جهة الشرق بواسطة الخط التقريبي الواصل بين أراضي ملوية السفلى وبين شرقي أراضي توات، أو ما أسماه ابن خلدون "ببلاد بودة وتمنطيت في قبلة المغرب الأقصى".³

2- الإشكالية:

تتلخص إشكالية هذا العمل في التساؤل حول؛ إمكانية توطين الجذور المحتملة للسلوك الاجتماعي في مواجهة الماء بالبادية المغربية، ويمكن ترجمة هذا التساؤل في السؤال الإشكالي الآتي: الماء والتحولات الاجتماعية بالبوادي المغربية ما بين 609هـ/1212م - 986هـ/1578م، أية علاقة؟

لا شك أن حدوث تحولات في البنيات الاجتماعية بالبوادي المغربية خلال الفترة المدروسة، يستوجب وجود آليات مساعدة على نجاح هذه التحولات، ومن ضمنها عنصر الماء موردا طبيعيا أساسيا لاستمرار الحياة، وخلق فرص الاستقرار، فهل انحصر دور هذا العنصر في طبيعته الكونية أم أنه ارتقى مع هذه التحولات إلى أحد العناصر المتحركة في ثبات واستمرارية السلم وحالة التساكن الاجتماعيين والعكس؟ وأي دور له في تشكيل البنى القبلية؟ ثم كيف تأثر تدبير الماء بمجمل هذه التحولات؟ وما مظاهر هذا التأثير وحدوده؟ كيف واجه

¹ - محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط (علائق وتفاعلات)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1،

1997، ص 42

² - نفسه.

³ - نفسه، ص 43.

الإنسان بالبادية المغربية أزمته الماء والمجتمع القبلي؟ هل الأعراف المائية بالبادية المغربية رد فعل على التحول الاجتماعي؟...

3- معطيات، تصور وفرضيات:

كتب عبد الأحد السبتي عن التاريخ والمعرفة التاريخية، "التاريخ معرفة يحددها الممكن من الشواهد، وتتحكم فيها جملة من العوامل: شروط التأليف، تصورات حول الإنسان والمجتمع، واختيارات منهجية صريحة أو ضمنية"¹، وإذا ما حللنا هذا القول أمكن الحديث عن ضرورة توفر معطيات حول الماضي شواهد عنه، وجاز ترتيبها في؛ "شروط التأليف" أو التعبير "لا تاريخ بدون وثائق" بمعنى آخر بدون وقائع ومعطيات، ومن بعد توفر المعطيات التاريخية وإدراك الباحث لها يأتي وضع التصور وفرضيات" حول موضوع الكتابة أو البحث، ثم الانطلاق منها في سياق مسارات واختيارات منهجية محددة.

إن، فعل الكتابة التاريخية مسار متسلسل من العمليات، يفترض اليوم تأطيره بتصورات ابتدائية للانطلاق بعدما يكون الباحث على معرفة ودراية بقاعدة الانطلاق، وهذا ما سيتعين تحديده بالنسبة لهذا العمل ضمن هذه المقدمة، فما هي بعض الأسس والمعطيات التاريخية التي يمكن البناء عليها في هذا الباب؟ وما هي التصورات والفرضيات التي يمكن أن توجي بها في سياق موضوع البحث؟

تعد السنوات الأخيرة من حكم الموحدين فترة هامة في تاريخ المشهد السكاني بالمغرب الأقصى، فقد شكلت هزيمة العقاب سنة 609هـ وما ترتب عنها من خسائر بشرية هامة، نقطة تحول أساسي في تاريخ المغرب بشكل عام، وتاريخ بوادييه على وجه الخصوص، حيث سمح الفراغ الديموغرافي الناتج عن الخسائر الكبيرة في الرجال، بدخول قبائل بني مرين، في جيش كالسيل، وأمم كالنمل أو الجراد المنتشر، على حد تعبير صاحب الأنيس المطرب². ونتيجة الضعف الذي دب في مجموع البلاد بعدما فقدت أبطالها وحماتها، استحوذ بنو مرين على

¹ - عبد الأحد السبتي، التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج: ملاحظات أولية، ضمن كتاب: البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم، م. س، ص 43.

² - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1973، ص 282.

جميع بوادي المغرب، بل وأخرجوا عليها عمالهم وحفاظهم، مكرسين بذلك أزمة المخزن الموحيدي، ومن ورائه أزمة البادية المغربية.

انعكس دخول قبائل بني مرين للمغرب على البادية المغربية، إذ بمجرد ما تمكنت من دخول البلاد، "تفرقت في أنحاء، وشنوا الغارات على بلاده وأرجائه، فمن أذعن لهم بالطاعة سالموه، ومن بدأهم بالحرب قاتلوه وقصموه، ففر الناس أمامهم يمينا وشمالا، ولحقوا بالجبال المنيعه..."¹، وفي ظل ضعف الدولة الموحدية عن رد جموع المرينيين. كان على ما يبدو ساكنة البوادي أول من عانى من سطوة هذه القبائل، والأکید كذلك أن هاته القبائل التي جاءت طمعا في الاستفادة من خيرات البلاد، من أراض خصبة ومزارع طيبة وعيون وأنهار مطردة، لم تكن لتتخلى عن مزاحمة القبائل في مواطنها، ما سيخلق تنافسا حول الموارد الطبيعية من أرض وماء.. لتتأجج بسبب ذلك مجموعة من الصراعات المحلية، خاصة في الأوقات التي تندر فيها المياه.

بعدما تمكن المرينيون من الحكم برزت سياستهم تجاه الشرفاء ورجال الصلاح، كأحد عناصر دعم مشروعاتهم السياسية، ولئن اختلف دور وحجم الطرق الصوفية في بداية حكمهم عما سيكون عليه الحال أواخر دولتهم، فإن تأثير الحركة الصوفية في سكنى البوادي لا شك كانت له انعكاسات هامة على استقرار البدو واستغلالهم للأرض والماء، فوجود الشيخ الصوفي كان في الغالب ما يستتبعه توفير الأمن لمجاوريه من سكان القرى ومريديه، وهو ما كانت تفقده البوادي المغربية ويؤثر سلبا على الاستغلال الطبيعي للموارد الطبيعية المتوفرة.

شكلت نهاية حكم بني مرين نهاية مرحلة دول العصبية القبلية، ومن المفارقات أن تعوض الحركة الصوفية دور القبائل في تمهيد البلاد للحاكم، فهل يقوم هذا دليلا على انكسار العصبية القبلية نتيجة لركون القبائل نحو الاستقرار واستغلال الأرض، وما يستتبع ذلك من ركون النفس إلى المهادنة ونبذ العنف والحروب، وعليه افتراض قيام تجمعات بشرية على شكل أنوية قرى صغيرة ومداشر بهدف استغلال الموارد الطبيعية من أرض وماء...

تمثل ندرة الماء التي كانت تشكل أحد العوامل الأساس في نشوء الصراعات حوله، بالنسبة للمغرب معطى بنيويا، إذ غالبا ما تجتاح البلاد موجات من الجفاف وقلة التساقطات،

¹ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م. س، ص 283.

وهو الأمر الذي كانت تترتب عليه مجموعة من المشاكل والاختلالات الاجتماعية، ناهيك عن ما قد يحدث نتيجة لاستمرار هذه الموجات من خسائر بشرية واقتصادية تؤدي إلى حدوث تغيرات ديموغرافية، ولا يمكن عزل البادية مجالا يعتمد الوجود البشري فيه كلياً على الماء لسقي المزروعات وشرب الماشية عن هذه التحولات.¹

إن، شكلت التطرفات المناخية إحدى العوامل المؤثرة على الوضع الديموغرافي بالبوادي المغربية، ولاشك أن لهذه التغيرات تأثيراً على تدبير الموارد المائية، وقد يكون هذا ما ترجمته لنا بعض نصوص النوازل الفقهية من حدوث خلافات بشأن الحقوق المائية وما تسببه ندرة المياه من خلاف حول الأحقية في أولوية الاستغلال.²

وهكذا يتوقع أن تكون البادية المغربية قد عاشت في الفترة ما بين 609هـ³ و986هـ، على وقع متغيرات بشرية وسياسية طبعت التحول التاريخي للمغرب الوسيط، وحددت الكثير من معالم تدبير واستغلال مجاله، وما بين الحدثين السابقين نتساءل عن أهمية الماء في أحداث التحولات الاجتماعية التي عرفتها البوادي المغربية خلال هذه الفترة؟

4- أهمية البحث:

تأتي أهمية هذا العمل إلى جانب سؤاله الإشكالي في بعده؛ الموضوعي والزمني، فمن حيث الموضوع كثيراً ما يتردد في الدراسات المونوغرافية المغربية، الحديث حول أهمية المجال القروي في دراسة الأعراف والتنظيمات المائية، لكن قلما نجد من يقف عند محاولة رصد خط انتقال هاته الأعراف أو تحديد أصولها، وكيفية انسجامها مع البنى الاجتماعية بمجال البادية، ودور التدرج التاريخي في قيام ما يمكن تسميته بالمجتمعات المائية الصغيرة بمناطق مختلفة

¹ - محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1987، ص 13.

² - العلمي عيسى بن علي الحسني، النوازل، تحقيق المجلس العلمي بفاس، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، مطبعة فضالة- المحمدية، 1406هـ / 1986م، ج2، ص ص 203 - 204.

³ - كتب الناصري متحدثاً عن دخول المرينيين إلى المغرب: "قلما كانت سنة عشر وستمئة، أقبل نجعهم على عادته... حتى إذا اطلوا على المغرب... ألفوه قد تبدلت أحواله وبادت خيله ورجاله وفنيت حماته وأبطاله وعريت من أهله أوطانه وخف منها سكانه وقطانه، ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت... فأقاموا بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم...". الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق؛ جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، 1954، ج3، ص 5.

من أرض المغرب. وفي هذا السياق تأتي فكرة هذا البحث كمحاولة لتقديم بعض الملاحظات حول مثل هذه الاشكالات التاريخية، وكذا محاولة لاستغلال التراكم الاستغرافي حول البادية المغربية في التساؤل عن تطور التدبير الاجتماعي للماء، وتأثيره وتأثره بالمتغيرات التاريخية للفترة المحددة للدراسة.

من جهة أخرى، فالبحث في الفترة الممتدة من بداية القرن السابع إلى أواخر القرن العاشر الهجريين، يجد أساسه فيما سبق وتم إبرازه من أحداث تهم البادية المغربية، ناهيك عن أن طول الفترة المعينة للبحث تسمح بإنجاز ووضع مقارنات وتشديد الملاحظات حول تأثير المتغيرات البشرية ببادية المغرب، وانعكاساتها على تدبير الموارد المائية وتنظيم استغلالها.

5- مسألة المنهج:

هل نملك منهجا كفيلا بتفكيك كل الإشكاليات التي يطرحها موضوع البادية؟ كيف يمكن الاستفادة من تراكم الموضوعات حول البادية في ترسيم معالم دراسة متعددة المقاربات في ظل منهج تاريخي واحد؟

تبدو آليات المنهج التاريخي -من وصف (تعريف) واستقصاء واستنباط- الأقرب لمقاربة موضوع البحث، هذه الآليات التي لا تعدو أن تكون عمليات وصف واستقصاء، ليس فقط للميدان وإنما لشواهد من تاريخه، على كل ما جاء شهادة عن ماضيه¹، مما اختزلته النصوص المصدرة أولاً، ومما سجلته العديد من الدراسات والأبحاث حوله من جهة ثانية، ثم لما بقي من أثر الأولى ظاهراً في بعض المجالات البدوية من جهة ثالثة، ثم إن استقصاء الواقع المنقول في المصادر هو أساس توجيه عمليات الاستنباط التي حكمت مضمون البحث في سياق الاستدلال والبرهنة²، هذا ولم يقف البحث عند هذه الآليات فقط، بل تم الاستعانة بآليات مناهج علمية أخرى.

¹ - إبراهيم بوطالب، "البحث الكولونيالي حول المجتمع المغربي في الفترة الاستعمارية حصيلة وتقويم"، ضمن كتاب: البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم، م. س، ص 107.

² - كتب العروي: "يأتي الاستدلال من موافقة حتمية استقرائية لمعادلات استنباطية وهو ما يسميه ابن خلدون بالبرهان". عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، م. س، ج1، ص 299.

لاشك أن التفسير في التاريخ "يستلزم وجود صفة مشتركة بين الحاضر والماضي"¹ والتي تتخذ إما شكل قواعد متواترة تجري على الماضي والحاضر، وإما تجربة مستمرة باتصال للسند من الماضي نحو الحاضر، ولعل التقنيات المائية تدخل ضمن هذا الإطار، إذ هي آليات تقليدية يستمر بعضها إلى اليوم مؤثرا في مجال البادية المغربية، التي تشكل "المكان الذي تكمن فيه العصور الوسطى" الحقيقية²، ومن تم فبعض الأساليب التقليدية لتدبير الماء تحمل في طياتها استمرار الحدث التاريخي، فهي شواهد مادية عن الماضي، وحتى في حال انقطعت صلتها به، فإنها تأتي آنذاك كما عبر العروي أمثلةً عنه³، وبهذا المنطق تم الاعتماد على وضع بعض الصور والرسوم البيانية من أجل التوضيح وتقديم تمثيلات عن بعض مضامين إشارات المصادر عن التقنيات المائية.

6- خطة البحث:

تقديم مادة البحث تفرض وجوبا القيام بتقسيم منهجي لمضامنها، وذلك وفق ترتيب يراعي تجميع الأفكار في إطارات تخدم فكرة البحث. وعليه، جاء تصميم هذا العمل متأثرا بمادته المصدرية وإشكاليته وتأطيره المنهجي، مقسما إلى مقدمة وخاتمة، وبابين بخمسة فصول مع تمهيد ونتائج وخلاصات لكل باب، وذلك على الشكل التالي:

مقدمة؛ وتضم تقديمًا للموضوع، ومعالجة لبعض التحفظات والقضايا المرتبطة بعنوان البحث وبعض مفاهيمه، واللازم تقديم شرح حولها لتلافي الإشكاليات التي قد تطرحها.

الباب الأول؛ ويضم ثلاثة فصول، تمهد للموضوع، بدءاً من تشريح بعض جزئياته لسانيا ثم موضعها جغرافيا واجتماعيا (الفصل الأول)، مروراً إلى تقديم الإطار النظري للتحويل الاجتماعي بالبادية المغربية من خلال تحليل مقارنة ابن خلدون (الفصل الثاني)، وانتهاء بملاحظة تلاقح الجغرافيا بالمجتمع والتاريخ في قالب تداخل أنماط تَعْيُش أهل البادية (الفصل الثالث).

الباب الثاني؛ ويضم فصلين، وفيهما تم استكمال الرصد التاريخي لمظاهر التحول الاجتماعي في علاقتها بال عمران البشري، من حيث هو في ارتباط بعنصر الماء؛ تساكُن وسكن

¹ - العروي، مفهوم التاريخ، م. س، ج1، ص 310.

² - Robert FOSSIER, «Villages Et Villageois», op. cit, p207

³ - العروي، مفهوم التاريخ، م. س، ج1، ص 314.

وتقنيات مائية (الفصل الأول)، وأخيرا بما هو (العمران البشري) نظام أو أنظمة اجتماعية أثرت وتأثرت بالتنظيم والتدبير الاجتماعي للماء (الفصل الثاني).

خاتمة؛ وتشمل خلاصات واستنتاجات لما انتهى إليه البحث.

7-المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

لما كانت الكتابة حول البادية من المواضيع التي حظيت مؤخرا باهتمام العديد من الدراسات التاريخية خاصة المونوغرافية منها، فإن إعادة طرح الموضوع في صيغة النيش في الإشكاليات الاجتماعية المرتبطة بعنصر الماء، تجعل من تجدد المشاكل البيولوجيا التي يطرحها البحث في تاريخ البادية المغربية تطفو إلى السطح من جديد، خاصة حينما يكون الموضوع مرتبطا بفترة العصر الوسيط حيث يطغى الخبر السياسي والعسكري على المصادر التقليدية، فيما يأتي بعده من حيث الخبر التاريخي، الحديث عن المدينة طاغيا على الخبر عن البادية وأهلها، لكن كل ذلك لا يعني وقوف الباحث عاجزا عن إيجاد المسالك المفضية إلى الموضوع.

لقد سمحت الطفرة الهامة التي تحققت على مستوى إخراج النصوص التاريخية المغربية وإعادة تحقيقها، ثم توسيع دائرة التأليف الممكن استثمارها في الكتابة التاريخية لتشمل كتب الجغرافيا، الفقه واللغة...، بالإضافة إلى تعزيز دائرة المناهج العلمية الموظفة في البحث التاريخي، الذي تخلص من عباءة الحدث السياسي والعسكري ووسع من اهتمامه بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي، بل وتاريخ الذهنيات...

هكذا إذن، وباستحضار مختلف العناصر المرتبطة بتناول موضوع الماء والبادية بمغرب "نهاية العصر الوسيط"، فإننا نكون فيما يخص المادة التي تخدم بناء الموضوع أمام ركام متعدد الأصناف والتأليف، ما بين مصادر عربية مغربية متنوعة التخصصات، ودراسات تاريخية مغربية وأجنبية تحقق الفائدة المنهجية مزدوجة غالب الأحيان مع الفائدة المعرفية، ناهيك عن تأليف علوم أخرى خاصة، الجغرافيا والسوسيولوجية، لما لهما من ارتباط بموضوع البحث وما تحقق لدى أهلها من سبق في تناوله ومن أنساق نظرية وتطبيقية مفيدة في دفع السؤال التاريخي نحو مواضع تنقل البحث في الماضي من صوره النمطية إلى آفاق أرحب. وعليه، فإن كان الموضوع تاريخيا فإن مادته المصدرية والمرجعية تنوعت ما بين مصادر ومراجع عربية ومغربية وبين دراسات وأبحاث أجنبية مترجمة وبلغتها الأصل.

وعموماً، يمكن تقديم بعض العناوين التي تردد استعمالها وعظمت فائدتها بالنسبة لصياغة مضمون ومنهج البحث، وفق ترتيب إجرائي نضعه كالآتي:

أ- المصادر:

يجمل ابن خلدون حال تعامل أهل الحواضر مع شؤون البادية بالقول: "الحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة"¹، ويبدو أن هذه الحالة تتسحب على مؤرخي المغرب الوسيط، الذين لا يتشوفون إلى أحوال البادية والبدو في غير ما ارتبط بالسياسة والحرب. ومع ذلك فقد استفاد هذا البحث من عدد من المصادر المختلفة من المؤلفات الإخبارية وكتب التراجم والمناقب، وبشكل أكثر من كتب الرحلات والجغرافيا... ومن العناوين البارزة في هذا الباب نضع حسب التصنيف السالف، ما يلي:

❖ الكتب الإخبارية

تنوعت مساهمة هذا الصنف من الكتابات كما العناوين التي تم الاعتماد عليه فيه، وعموماً فقد كانت لها الإضافة الهامة في ضبط الأحداث وترتيب الوقائع، وفي فهم التحولات موضوع البحث وموضعها الزمانية وأبعادها التاريخية، ومن التأليف التي تردد الرجوع إليها في هذا الباب نذكر:

ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط 3، 1983م.

مؤلفي ابن أبي زرع الفاسي؛

الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط، 1972.

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1973.

كتاب ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ/1988م.

¹ - ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر - بيروت، ط2، 1408هـ/1988م، ج1، ص 152.

وتعد مختلف هذه المؤلفات ومن شابهها في نقل الرواية عن أحداث الفترة المدروسة، وثائق وشهادات مفيدة للتموقع زمانيا في دوامة الأحداث، بل إن روايتها وتفسيراتها أحيانا تأتي بالمزيد من الإضافات بخصوص تفكيك الوضع الاجتماعي بالبادية المغربية، وهنا تبرز نصوص ابن خلدون بشكل أساس كأحد أهم ركائز هذا العمل.

❖ كتب الرحلات والجغرافيا

عززت مادة هذه التأليف البحث من ناحية التأطير المجالي ووقائعه دعمت إسهام الجغرافيا في كتابة التاريخ وفهم أحداثه، حملةً بعض الإشارات المفيدة في تتبع الجانب الإثنوغرافي ببوادي مغرب الفترة المدروسة وما قبلها¹، كما مكنت معطياتها من الوقوف عند جملة الآليات التقنية والاجتماعية لتدبير الماء التي عرفها مجال البادية المغربية، بل واتخذت مطلقا لتقديم محاولات للتأصيل التقني لبعض التقنيات المائية وملاحظة أثر الحراك المجالي للجماعات القبلية في خريطة انتشار ليس فقط التقنيات المائية بل وكذا تسمياتها وأشكال التدبير الاجتماعي. ومن أبرز العناوين التي تم الاعتماد عليها في هذا الباب نذكر:

كتاب أبي عبيد الله البكري، **المسالك والممالك**، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992. وهو على الرغم من تقدمه زمنيا على الفترة المدروسة إلا أن قيمته تكمن في إسهام معطياته في رسم الصورة الذهنية حول تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالبادية المغربية بوجه عام، وما ارتبط منها بالقسم الجنوبي بوجه خاص.

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للشريف الإدريسي، مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة، 1422هـ/2002. وهو من المصادر الغزيرة الفائدة بالنسبة للموضوع، وتكمن إضافته إلى جانب مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة- أفق عربية، بغداد، 1986. في كونهما مصدرين لا بد منهما لملاحظة التحولات التي عرفها المجال المغربي عموما وباديته على وجه الخصوص في العهد الموحيدي، والذي يمتد زمن البحث على سنواته المتأخرة.

¹ - محمد حبيدة، التاريخ والجغرافية التاريخية، ضمن كتابه: **بؤس التاريخ (مراجعات ومقاربات)**، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015، ص ص 143-152.

الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983. ويعتبر هذا الكتاب العماد الأساس للصورة المجالية التي دار حولها الكثير من التحليل المثبت في البحث، ولاشك أن قيمته المعرفية تجعل منه واحدا من التآليف التي لا يستقيم الحديث عن تاريخ مغرب نهاية العصر الوسيط دون الاطلاع على مادته.

❖ كتب المناقب والتراجم

تمثلت إضافة هذا النوع من المصادر فيما تقدمه من مادة نَعْرُ في غيرها من المصادر التقليدية، ومن تم تسهم في ردم بعض الثغرات التي يخلفها نقص إحاطة المصادر الإخبارية في الموضوع، ثم إن مادة هذا القسم من المصادر شكلت في بعض أجزاء البحث عماد محاور بل وفصولا في حد ذاتها، وأعني تلك المرتبطة بالأساس بدور الصوفية في التحول الاجتماعي ببادية مغرب نهاية العصر الوسيط، ومن العناوين البارزة في هذا الإطار:

كتاب؛ التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، لابن الزيات التادلي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997. وامتدت إضافة هذا المصدر الذي يبتعد زمنيا شيئا ما عن الفترة المدروسة إلى تقديم معطيات ليس فقط على الجانب الصوفي وإنما إيراد إشارات حول الوضع الزراعي وتوزيع الوحيش...

البادسي عبد الحق بن إسماعيل، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، المطبعة الملكية، 1982. يعتبر هذا المصدر مكملا لخريطة الصلحاء التي تقدم بها ابن الزيات، فقد عين البادسي غايته من تأليفه بتجاوز الغياب الذي طال صلحاء منطقة الريف في مؤلف التشوف، غير أن إفادة هذا المصدر هو الآخر تجاوز الوضع الصوفي إلى تقديم إضافات قيمة حول الوضع الاجتماعي وحياة الناس ومعاشهم وكذا انتعاشهم...

ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتابع ومن لهما من الأتباع، لمحمد المهدي الفاسي، تحقيق وتعليق عبد الحي العمراوي وعبد الكريم مراد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1994. والذي شمل ذكرا لأعلام الصوفية الجزوليين وأتباعهم، للفترة ما بين القرنين 10

و12 الهجريين، وقد سمحت لنا مادته برصد معالم تفاعل الصوفي مع مجاله البيئي والبشري، ومن تم تأثير الاستيطان والتوطين الصوفي على تدبير الموارد المائية.

❖ كتب النوازل

لم يخف على أحد مدى أهمية هذا الصنف من التآليف الفقهية في تسليط الضوء على جملة مواضيع ذات العلاقة بالمجتمع والمعاملات الاجتماعية، وقد استفاد البحث كثيرا من نصوص النوازل الفقهية في بناء التصور الخاص بأثر عنصر الماء على التفاعلات البيئية داخل جماعة أهل البادية، وكذا في فهم أشكال التدبير الاجتماعي السائد بالبادية المغربية نهاية العصر الوسيط، ومن العناوين البارزة التي تم الاعتماد عليها في إنجاز هذا البحث، نذكر؛
الونشريسي أحمد، **المعيار المغربي والجامع المغربي عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب**، تخريج مجموعة من الفقهاء تحت إشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، دار الغرب الإسلامي - بيروت (1401هـ/1981م)، وتتبع أهمية هذا المصدر من معاصرة صاحبه للفترة المدروسة وشساعة مضمونه، إذ يعتبر من بين أضخم الموسوعات الفقهية المالكية إن لم يكن أضخمها.

ب- المراجع باللغة العربية:

وتتأسس من جملة من الأبحاث المغربية والأجنبية، الخاصة بالتاريخ وبعض الحقول المعرفية الأخرى (الجغرافيا وعلم الاجتماع أساسا)، إلى جانب المعاجم اللغوية والمتخصصة، وهي بوجه عام لا تنقص من حيث أهميتها بالنسبة لبناء الموضوع من أهمية المصادر السالفة، ومن بين المجالات التي تنتمي إليها هذه المصنفات، وكذا بعض العناوين البارزة فيها نذكر:
كتابات وأبحاث الأستاذ محمد القبلي؛

مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، مطبعة فضالة-المحمدية (المغرب)، ط1، 1987.

الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط (علائق وتفاعل)، دار توبقال للنشر - الدار البيضاء، ط1، 1997.

لكن وبشكل أساس أطروحته التي أعاد ترجمتها تحت عنوان؛ **المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، ط1، 2017.

وإجمالاً، فقد شكل النفس التحليلي في كتابات الأستاذ محمد القبلي، مساحة للتفكير وتوسيع زاوية فهم الحدث التاريخي في بعده الاستراتيجي، والذي يتجاوز واقع الفعل إلى دوافعه ونتائجه البعيدة، وقد أفادت مختلف القراءات التي قدمها حول تفاعلات السياسي والديني والاقتصادي في مغرب "نهاية العصر الوسيط"، مادة أساساً للبناء والتحليل في عدد من فصول هذا العمل.

من جهة أخرى برزت المونوغرافيات كأحد ركائز البحث في تاريخ البوادي المغربية بوجه عام، وتوطر أسئلتها فضاء المبحر في أتون هذا المخاض، فلم يكن هذا العمل ليشكل الاستثناء في هذا الباب، حيث ظلت تمثالتها للمجال والموضوع مستحضرة بشكل دائم، ليس فقط أثناء التفكير في الموضوع، ولكن في أوقات كثيرة أيضاً من فترة تحريره. ومن العناوين الأساس التي تم الاعتماد عليها في هذا الباب نجد بحث أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان (1850-1912)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 1983. حيث حمل هذا العمل عدداً من الإشكالات الموضوعية لمنطقة دراسته نحو الماضي، مجسداً بذلك لتوجيه **جاك بيرك** في النبش في الماضي عن خيوط التنظيم الاجتماعي.

من العناوين التي أسهمت في بلورة البحث كذلك نذكر؛ أعمال محمد الطويل خاصة منها، **الفلاحة المغربية في العصر الوسيط**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس - كلية الآداب والعلوم الانسانية - الرباط، السنة الجامعية: 1987-1988. وقد لعب هذا العمل دوراً أساساً في ترتيب المشهد الفلاحي ببادية الفترة المدروسة، وفي الكشف عن جملة محدداته الجغرافية والمناخية، بل وحتى الاجتماعية. وإلى جانبها يأتي العمل المتميز للمرحوم بنميرة عمر، **النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان الثامن والتاسع / 14 و 15م)**، مطبعة الأمنية - الرباط، ط1، 2012. هذا العمل الذي يشكل واحدة من الأعمال الرائدة في توظيف مادة النوازل الفقهية في الكتابة التاريخية المغربية، أسهم بقراءته المستفيضة حول أحوال المجتمع الزراعي؛ الذي وسم به أهل البادية في الكشف عن جملة العلاقات الاجتماعية التي نقلتها نصوص النوازل الفقهية خلال الفترة التي تتناسب والفترة المدروسة، كما أن من جملة تقاطعات هذا العمل مع البحث مسألة تدبير المياه، سواء

على المستوى التقني أو الاجتماعي، ومن تم فقد نهل من أفكاره وأسلوبه في التحليل الشيء الكثير وقدم من الإضافات المعرفية والمنهجية ما يجعل من ذكره هنا أمرا مفروغا منه. وينضاف إلى هذه العناوين مرجعان أساسان تمت ترجمتهما ضمن سلسلة عالم المعرفة، وهما؛

آلاف السنين من الطاقة، لكارتسيف فلاديمير وبيوتر خاز انوفسكي، ترجمة محمد غياث الزيات، سلسلة عالم المعرفة، ع 187، يوليو 1994.

العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، دونالد هيل، ترجمة أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، ع 305، يوليو 2004.

وكلاهما أسهما في تناول الجانب التقني في تدبير الماء بالبادية المغربية، وإنجاز مقارنة مفتحة على التطور الحضاري للتدبير التقني للماء.

وختاما للمراجع المكتوبة باللغة العربية، نأتي على بعض عناوين المعاجم التي ترددت مادتها كثيرا في البحث، وشكلت إضاءاتها جزءا هاما من مضمونه، بإعانتها على تشكيل المعنى القريب من زمن الحدث، ومن تم الإعانة على حسن قراءة النص المصدري بلسان زمانه، ثم في تحديد بعض المفاهيم غير التاريخية التي تم توظيفها في البحث، ومن بين المعاجم المعتمدة في هذا الإطار، نذكر:

لسان العرب، لابن منظور، دار صادر - بيروت، ط3، 1414هـ. ويمثل نموذجا للمعاجم العربية المتعددة التي تم الاعتماد عليها كثيرا في شرح العديد من العبارات المختزنة في متن النصوص المصدرية، وروعي في ذلك عامل الزمن، إذ تم الاعتماد على المعاجم التي تعود للفترة المدروسة أو ما قبلها، تقاديا للتطور الذي قد يعرفه استعمال نفس المصطلح عبر الزمن.

تكملة المعاجم العربية، لدوزي رينهارت بيتر آن، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمّد سليم النعيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط1، (من 1979 - 2000م). ويعتبر هذا المؤلف من المعاجم الأساس التي تردد استعمالها في متن البحث، ومن تم إضافتها لمضمونه.

معجم الإتنولوجيا والإنتربولوجيا، لبونت بيار وميشال ايزار وآخرون، ترجمة مصباح الصمد، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، بيروت - لبنان، ط2،

1432هـ/2011م. وهو مثال للمعاجم المتخصصة التي تم توظيفها في بناء البحث وفهم بعض المصطلحات غير التاريخية.

ج- مراجع بلغات أجنبية:

تَمَكَّنَ هذا النوع من الأبحاث بفضل الركّام المنهجي ودقة ملاحظات أصحابه من "تجميع معطيات كثيرة حول البنيات الاجتماعية والقبائل وأشكال المعاش والعادات والتقاليد والمعتقدات واللهجات بالجبّال والسهول والواحات"¹، ومن تم فإن العودة إليها في بناء مضان هذا العمل تعتبر تحصيل حاصل وضرورة منهجية ومعرفية قد يقلل انتفاؤها في البحث من قيمة تحليلاته ومخرجاته، ولهذا السبب تمت العودة إلى عدد لا بأس به من هذه التآليف، سواء في صيغها المترجمة أو بلغتها الأصلية، ومن النماذج التي يمكن تقديمها في هذا الإطار، نذكر:

دراسة طارق مدني (Tarik Madani)

- Madani Tarik, **L'eau dans le monde musulman médiéval**, Thèse de Doctorat de L'université Lyon II, 2003.

وشكلت مادة هذا البحث فضاء للوقوف عند جملة ما انتهى إليه البحث في تدبير الماء بالمغرب، وأسهمت مادتها في التعرف على عدة أبحاث وكذا قضايا الماء التي عالجتها، خاصة منها تلك المتعلقة بالدراسات التفسيرية للأنظمة المائية، والتي أعاد الكتابة حول بعضها في مقالة له تحت عنوان "أركيولوجيا الماء: مقاربات ومجالات"، ونشرت ضمن كتاب المؤتمر الخامس عشر للاتحاد العام للآثاريين العرب (13-15 أكتوبر 2012) - جامعة محمد الأول - وجدة، ج2، 1433هـ/2012م، الصفحات من 1399-1412.

دراسة جاك بيرك Berque Jacques؛

- Berque Jacques, **Les Structures Sociales Du Haut-Atlas**, P.U.F, Paris.

وهي من أولى الدراسات التي وجهت الأنظار نحو أهمية البحث في الخلفية التاريخية لتشكل الأنظمة الاجتماعية في علاقتها بتدبير المجال وموارده الطبيعية، والتي منها مورد الماء، ناهيك عن إسهامه في إعادة التعريف بالقبيلة.

بحث لويس ماسينيون louis Massignon؛

¹ - محمد حبيدة، بؤس التاريخ مراجعات ومقاربات، م. س، ص33.

- louis Massignon, **le Maroc dans les premières années du XVI siècle, tableau géographique d'après Léon l'africain**, Alger, 1906.

وهو قراءة في نصوص كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان، وتحويلاً لمادتها في قالب جغرافي، كما تميزت الدراسة بتضمنها للعديد من الخرائط التمثيلية لتوزيع السكن والعناصر البشرية...

وإلى جانب هذه العناوين السابقة استفاد البحث كذلك من عدة مقالات حول البادية من قبيل إسهامي **ديمنجون ألبرت** Demangean Albert حول السكن القروي، بمجلة الحوليات الجغرافيا؛

- «La Géographie de L'habitat Rural», **Annales de Géographie**, 15 janvier 1927, N°199.

- «La Géographie de L'habitat Rural (Deuxième Article)», **Annales de Géographie**, Année 1927, N°200.

وقد شكلت مادة هاتين المقالتين، إلى جانب مقالة ل: **مايكل بيرون** MICKAEL PEYRON¹، موجهاً أساساً لتقديم القراءة في موضوع السكن بالبادية المغربية في ارتباط بعنصر الماء.

وعموماً، فبالإضافة إلى هذه العناوين التي تمت الإشارة إليها والتوقف عندها هنا، تم الاعتماد على عدد آخر من المصادر والمراجع التي تعددت إفاداتها للبحث، ما بين الإضافة المنهجية والمعرفية، والمساعدة على الفهم... وبما أن هذا المقام لا يسمح بأكثر مما قدم فإننا نترك جردها إلى آخر هذا العمل.

وختاماً، لا يسعني في هذا المقام إلا أن أجدد شكري وامتناني لكل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل، وأخص بالذكر أستاذتي الدكتورة عائشة كنتوري، التي تولت الإشراف عليه وخصته بملاحظاتها وتوجيهاتها، كما أشكر ثلة الأساتذة والباحثين الذين أفادوا البحث بأفكارهم وتصويباتهم، كما لا يفوتني وصل الدعاء بالخير والتوفيق لكل أستاذتي ومعلمي، وكل من أوجدهم الله في مساري الدراسي. والله أسأل للجميع التوفيق والسداد.

¹ -MICKAEL PEYRON, **Habitat Rural Et Montagnarde dans le Haut Atlas de MIDELE (MAROC)**, Revue De Géographie Alpine, Tome 64, N3; 1976, pp 327-363.

الباب الأول
الماء والإنسان ببداية مغرب "نهاية
العصر الوسيط"

تمهيد

يقع مفهوم البادية المغربية، كما تحديد مجالها بالنسبة لهذا البحث، في مرتبة المدخل الضروري للفهم، وإذا جرت العادة اتخاذ المجال أو المكان منطلقاً معيناً على الفهم، بما يقدمه من معطيات ويوفره من عناصر تساعد على تفسير بعض السلوك البشري، فمن الواضح أنه بالنسبة لموضوع "المجتمع البدوي"، يتقدم إلى مقام الفاعل الأول والعنصر المتحكم في السلوك ليس فقط الاجتماعي، بل وكذا الثقافي، لأهل البادية، الذين ما حملوا صفة "البدو" إلا لشدة تأثرهم بمعطياتها (البادية) وارتهاان وجودهم وحياتهم بموجوداتها وخصائصها الطبيعية.

ويقدر ما يشكله مجال البادية منطلقاً لفهم "التحولات الاجتماعية لأهل البادية المغربية"، أساً للموضوع، فإنه كذلك يطرح العديد من الإشكاليات المرتبطة بالتعريف المستخلص من تعابير النصوص المصدرة حول البادية، والمستهدف في هذا البحث من تاريخ تفاعل أهلها مع عنصر الماء. وهذه الإشكاليات، وإن بدت منفصلة عن غايته المركزية، إلا أن ما تم الوقوف عليه من مادتها التاريخية والمعجمية يجعلنا أمام مدخل مفاهيمي في غاية الإفادة للبحث، بما يمنحه من منافذ لقراءة النصوص المصدرة وفهم تعابيرها.

يروم هذا الباب معالجة المستوى المكاني لموضوع البحث، ورصد آليات تحكمه في الفعل الاجتماعي، بما هو (المجال) ثابت طبيعي (تضاريسي ومناخي) يتحكم في متحول تاريخي (مجتمع أهل البادية)، وتتأسس هذه المعالجة على مناقشة مجموعات من المنطلقات التاريخية ذات الصلة بعنصر الماء والتحول الاجتماعي، وهي:

- البادية مجال لجماعات بشرية ترتبهن إلى ما توفره الطبيعة، ما يعني أن رصد خصائص مجال البادية المغربية الطبيعية والبشرية، كفيل بوضع صورة حول الحياة الاجتماعية.
- يقوم استيطان البادية على الانتظام في بنية القبيلة. وعليه، فتحول نظام القبيلة هو تحول لأهل البادية وانعكاس له.
- يمثل المناخ أبرز أوجه التفاعل بين عنصر الماء وأهل البادية المغربية، فهو محدد أساس لأثر الطبيعة في السلوك الاجتماعي.

توحي هذه المنطلقات بوجود تأثير لعنصر الماء في الحياة الاجتماعية بالبادية المغربية، يختلف من مجال لآخر، تبعاً لتباين خصائص المجال البدوي وشكل الانتظام داخله، وهو

التأثير الذي يسهم المناخ في تعزيز وضبط إيقاعاته، فيما يبدو ترابطا بين الإنسان وخصائص باديته، رباط أصبغ تاريخه الاجتماعي بتقلبات محيطه البيئي. فهل بقيت التجمعات البشرية بالبادية المغربية، حبيسة المعطى البيئي، المتمثل هنا في عنصر الماء أساسا؟ وما أوجه التحول في بنيته الاجتماعية وفقا لذلك؟ وهل عجز المغاربة، من أهل البوادي، عن تقديم إجابات للتقلبات المناخية، كفيلة بالحد من أثرها على وضعية الموارد المائية بمجاله الحيوي؟

وفق هذه الأسئلة والمنطلقات السالفة الذكر، سوف نقف في هذا الباب عند ثلاثة محطات، تَمَثِّل أولها لعنصر المكان/ المجال، أو ما وسمناه في أحيان كثيرة من هذا الباب والبحث عموما، بالمشهد، تعبيراً مستعاراً من مفهوم جغرافي، يحمل ذات المقاصد التي نرمي إلى تحقيقها من هذا الباب، ولهذا العنصر من البحث تم تخصيص الفصل الأول، مقسماً إلى شقين مركزيين، يعنى أولها بالضبط اللساني لمدلول البادية الجغرافي وعناصره البشرية، بما يفيد كونهما معا يمثلان المجال الطبيعي المتمم لمجال الحاضرة أو المدينة، بما أنهما معا فضاءين للحياة البشرية، وخلال هذه المحطة سوف يعمل البحث على رصد تجليات موضوعة عنصر الماء عاملاً أسهم في تحديد معنى المجال (البادية)، وفي رسم معالم المشهد البدوي ببوادي المغرب خلال العصر الوسيط.

الوقفة الثانية في هذا الباب، ترصد لمظاهر التحول الاجتماعي لأهل البادية المغربية، والتي تشكل في علاقة بعنصر الماء أس موضوع البحث، واعتمادنا في رصد وفهم واقع هذا التحول، يتأسس رأساً على تفسير ابن خلدون للبنيات الاجتماعية بالمغرب، وذلك لاعتبارات عدة أهمها: عنصر المعاصرة/ المعاشية للفترة المعنية بالبحث، ثم لما لتحليلاته من مكانة مرجعية في مقارنة الظاهرة القبلية بالمغرب. وعليه، جاء هذا الفصل من هذا الباب مستعرضاً لأفكار وتحليلات ابن خلدون وصائغاً على منوالها قوالب تصلح لتقديم قراءة في التبدلات التي مست مجتمع بادية المغرب خلال الفترة المدروسة، وذلك تمهيداً لتحديد تأثير عنصر الماء في توجيه حركيتها.

المحطة الثالثة في هذا الباب، تعود بنا إلى جزء من المشهد الطبيعي، لكن هذه المرة في ارتباط وثيق بالبعد الاجتماعي، لنلامس في الفصل الثالث أثر المناخ في المشهد الاجتماعي بالبادية المغربية، وذلك من منطلق اعتبار مختلف الأنشطة الاقتصادية والعمرانية وأنماط الاجتماع البشري بالبادية المغربية، انعكاسات مباشرة أو غير مباشرة للأثر الطبيعي على

الإنسان البدوي، وهنا تتوفر للبحث مادة غزيرة من النصوص والإشارات المصدرة حول مواطن قيام المناخ بالتأثير على حياة أهل البادية المغربية، وإسهامه في تباين الأنماط المعاشية وأساليب البقاء والتكسب، وهي الأشياء التي تتحكم في النهاية في شكل وآليات الانتقال التاريخي لمجتمع البادية من محطة تاريخية إلى محطة أخرى امتداداً للأولى.

بالمحصلة، فهذا الباب من البحث يستهدف في ثلاثة فصول، التحديد المفاهيمي للمجال المدروس، ورصد تحولاته البشرية والتاريخية، وعلاقة كل ذلك بعنصر الماء، ومن ثم فهو شبه إطار نظري لتحليل مظاهر الارتباط بين عناصر الموضوع؛ الماء والمجتمع بالبادية المغربية. ولاعتبارات التداخل الزمني الواجب استحضاره في تناول القضايا التاريخية بوجه عام، والتي لا تقبل القطع النهائي لفترة زمنية عن باقي الفترات السابقة أو اللاحقة لها، إلا فيما كان اعتباراً منهجياً لتبسيط الفهم. فإن مضمون هذا الباب نهل من الزمن السابق للعهد المدروس، بما يتم الصورة ويملاً ما يقع من فراغات في المادة المصدرة للفترة المدروسة.

وأخيراً تجب الإشارة، إلى أن مبدأ التحليل في هذا الباب، فرض تبني الخطاب الاجتماعي والجغرافي، وكذا مقاربتيهما، وذلك لما تمثله عناصرها لآليات التحليل في البحث من قواعد ومنطلقات أساس، يضاعف التخلي عنها من قدراته على التفسير والفهم، لذلك كان استقدامها وتبني بعض آرائها ضرورة منهجية يصعب إغفالها.

الفصل الأول

البدو والبادية؛ المفاهيم - المجال والمجتمع

لا يزال مفهوم البادية في الأدبيات التاريخية محط العديد من التحديات، ذلك أنه على الرغم من تقدم المعرفة التاريخية في هذا الباب، إلا أن صعوبة التحديد تظل رفيقة المجال والإنسان المستوطن للبادية، إشكال يزداد حدة كلما توغلنا في الماضي، فما بين مدينة رفيقة السلطان والتاجر وحتى الفقيه والمؤرخ، تحظى البادية بفرص قليلة في ثنايا أحاديث العسكرة تارة، ومسالك التاجر والحاج تارة أخرى. على مستوى المعجم نقف عند مجال غير عام يحصر المدن الحواضر، ويترك الباب مشرعا أمام البادية لتغطية الكل المتبقي؛ من الجغرافيا البشرية حيث البدو البادون، أي المنطلقون لما بعد الحضر والمجمع العمراني، ومن الجغرافيا الطبيعية حيث تلاوين المجالات الريفية والواحية والصحراوية...

امتد إشكال البادية إلى الدراسات التاريخية، فحددت البوادي بحوزات المدن، وعينت بالمجالات الزراعية، وأحيانا أخرى بالقرى الريفية... إلا أن الغريب أن تعبير البدو لطالما ارتبط بالرحل من أهل الصحراء، فيما بقيت الصحراء في الأدبيات التاريخية المغربية مجال عبور نحو السودان بقصد التجارة، يقطنها البدو الرحل المرتبطون بالواحات الشمالية ومراقبة المسالك، والذين ظل خطرهم على أهل الشمال ممن حصروا ذهنيا في الحضر، ومن هنا تجد تقسيمات من قبيل البربر البتر والبرنس تبريرها، غير أن الواقع والتاريخ يشهدان أن المجال البدوي، - والذي يحق وسمه بهذا التعبير - ظل إلى حدود الأمس القريب - إن لم يكن إلى اليوم - رهين فضاء من الأرض المغربية تستوطنه جماعات عرقية متباينة الأصول، تنتظم في الغالب الأعم في مكون القبيلة، التي عرفت تطورات في مكوناتها البشرية على مر التاريخ، لتتعدد معه تنظيماتها الاجتماعية ويصعب على الباحث وضعها في مضمون مفاهيمي محدد، وبين مجال البادية والجماعة المستعمرة له (القبيلة)، نتيه في منظومة من المفاهيم والخصائص التي لا يمكن بدون المرور عليها تحقيق إدراك كاف للموضوع.

يسعى هذا الفصل من البحث إذن، إلى مقارنة بعض من المفاهيم الأساس للمجال والإنسان بالبادية المغربية، في سياق الفترة المعينة للدراسة، مع ما يكون حتميا في مثل هذه المواضيع من انفتاح على معطيات تتجاوز زمن البحث نحو المستقبل تارة، ورجوعا للماضي تارة أخرى. سنتطرق في هذا المضمار للتفصيل في عنصرين نراهما عصب الموضوع وهما؛ البادية مفهوما وخصائص طبيعية، ثم البادية متغيرا وحياة اجتماعية.

١. المفاهيم والخصائص

لا شك أن الوقوف عند جملة من المصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالبادية، يعتبر خطوة أساساً في البحث، فهي تقدم لنا عدداً من الخصائص اللغوية والاصطلاحية التي تسهم في قراءة النصوص المصدرة، وضبط بعض المحددات الجزئية المرتبطة بالحياة البدوية وكيفية التنظيم والانتعاش بالبادية، ومن ثم فهي مداخل مهمة لما بين نصوص المصادر التاريخية، ومادة أساس لوضع تصور ومقاربة منهجية للموضوع.

1- المفاهيم والمصطلحات

جاء في لسان العرب لابن منظور: "البدو والبادية والبداة والبداوة... خلاف الحضر، والنسب إليه بدوي، نادر، وبدوي، وهو على القياس، لأنه حينئذ منسوب إلى البداوة... وبدا القوم بداء خرجوا إلى البادية، وقيل للبادية بادية لبروزها وظهورها؛ وقيل للبرية بادية لأنها ظاهرة بارزة"¹، ولهذا قيل للمواضع التي "يبتدي إليها البادون بادية أيضاً، وهي البوادي، والقوم أيضاً بواد جمع بادية"² وفي تاج العروس "البدو، وهو الظهور والبروز... [و] البادية اسم للأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري قيل: بدوا، والاسم البدو"³ فالبادية إذن مجال للرعي، والبدو نسبةً إليه على القياس إلى البداوة، فيقال تبدى الرجل إذا أقام بالبادية.⁴

وفي علاقة مصطلح البادية بالماء، يأتي قول الأزهري: "البادية خلاف الحاضرة، والحاضرة القوم الذين يحضرون المياه وينزلون عليها في حمراء القيظ، فإذا برد الزمان ظعنوا

¹ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط3، 1414هـ، ج14، ص 67.

² - نفسه.

³ - الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج1، ص50. وتتفق مع هذا القول جل المعاجم العربية في تعريفها للبادية. انظر: سلمة بن مسلم العوثي الصُّحاري، الإبانة في اللغة العربية، تحقيق عبد الكريم خليفة وآخرون، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط - سلطنة عمان، ط1، 1420هـ/1999م، ج2، ص 291.

اليمان بن أبي اليمان البندنجي، التفقية في اللغة، تحقيق خليل إبراهيم العطية، الجمهورية العراقية - وزارة الأوقاف - إحياء التراث الإسلامي، مطبعة العاني - بغداد، 1976م، ج1، ص707.

⁴ - الزبيدي، تاج العروس، م. س، ج37، ص ص 149-150.

عن أعداد المياه وبدوا طلبا للقرب من الكأ، فالقوم حينئذ بادية بعد ما كانوا حاضرة".¹ فهي إذن، على قول صاحب التهذيب "المناجع ضد المحاضر... وقيل للبرية: بادية لأنها ظاهرة بارزة".²

ارتبط مصطلح البادية والبدو إذن، بالانتجاع وارتداد المسارح للرعي وما يرتبط بها من سعي وراء الماء والكأ، ويؤكد هذا الطرح ابن منظور الذي يضيف على التعاريف السابقة قوله: "والبادية أيضا: الذين يتباعدون عن أعداد المياه ذاهبين في النجع إلى مساقط الغيث ومنابت الكأ"³، لقد حددت البادية في المعاجم العربية إذن، بالاعتماد على النشاط الرعوي، فكان الماء أساسا للتميز بين البوادي -أي مسارح الرعي شتاء- حيث تتبع مواضع سقوط المطر في الصحاري، والمحاضر حيث النزول على مواضع الماء صيفا.

إذن، فنقيض البدو في المعاجم العربية هم الحاضرون، وهم ذاتهم البادون حين "يرجعون إلى المحاضر في القيظ وينزلون على الماء العَدَّ ولا يفارقونه إلى أن يقع ربيع بالأرض يملأ الغدران فينتجعونه"⁴، وفي الوقت الذي يبدو فيه وكأن ابن منظور ارتبك في التحديد حين جعل الناجعة من القوم بمعنى واحد مع البادية، فقوم "ناجعة ونواجع وبادية وبواد بمعنى واحد".⁵ إلا أنه يستدرك بالشرح مفصلا في البادية من الأعراب والحضر، فكتب "وكل من نزل على ماء عَدَّ ولم يتحول عنه شتاء ولا صيفا، فهو حاضر، سواء نزلوا في القرى والأرياف والدور المدرية أو بنوا الأخبية على المياه فقرروا بها ورعوا ما حواليلها من الكأ. وأما الأعراب الذين هم بادية فإنما يحضرون الماء العَدَّ شهور القيظ لحاجة النعم إلى الورد غبا ورفها وافتلوا الفلوات المكثنة، فإن وقع لهم ربيع بالأرض شربوا منه في مبادهم الذي انتووه"⁶، فإن استأخر القطر ارتتوا على ظهور الإبل بشفاههم وخيلهم من أقرب ماء عَدَّ يليهم، ورفعوا أظماءهم إلى السبع والثمن

¹ - الأزهرى الهروي، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 2001م، ج14، ص ص 142-143.

² - نفسه، ج14، ص143.

³ - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج4، ص 198.

⁴ - نفسه.

⁵ - نفسه.

⁶ - من الإنتواء بمعنى القصد، "يقال انتوى القوم منزلا بموضع كذا أي قصده". أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية - بيروت، ج2، ص631.

والعشر، فإن كثرت فيه الأمطار والتف العشب وأخصبت الرياض وأمرعت البلاد جزأ النعم بالرطب واستغنى عن الماء، وإذا عطش المال في هذه الحال وردت الغدران والتناهي فشربت كرها وربما سقوها من الدحلان".¹

هكذا إذن، يأتي اصطلاحى البادية والبدو في المعاجم العربية في إطارين غير متناسبين، فالبادية بمعنى الظهور والبروز، تحيل على الفضاء والمجال الواسع، فيما البداوة جماعة بشرية فهي حبيسة نوع من النجعة المنتقل عن مواضع الماء، فكان التعبير بادية وبدو يحملان حقيقة دلالات أكبر من المحدد الاصطلاحي الذي أجملته لهما المعاجم العربية، وهذا ما يتبدى من خلال التعريف اللغوي للبادية على أنها الظهور والبروز²، فيما تكون النسبة إليها على القياس إلى البداوة بدوا.³ وعلى هذا الأساس تصبح البادية مجالا أكبر من مجرد مراعي الإبل فتعني الفضاءات الشاسعة والظاهرة من غير الحاضر فيها الإنسان لوجود الماء ووفرته صيفا وشتاء. بينما تكون البداوة تعبيراً عن حالة اجتماعية مرتبطة بنمط العيش.

ومن العبارات المرتبطة بالبادية نجد؛ الناحية⁴، البرية والريف⁵ وضاحية البلد، الفلاحون والزراع⁶،... فالبرية "الصحراء نسبت إلى البر... وقال شمر: البرية: المنسوبة إلى البر، وهي برية إذا كانت إلى البر أقرب منها إلى الماء، والجمع البراري"⁷، والريف "الخصب والسعة"⁸ في المآكل، والجمع أرياف... [وهو أيضاً] ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها، والجمع أرياف

¹ - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج4، ص 198.

² - نفسه، ج14، ص 67.

³ - الزبيدي، تاج العروس، م. س، ج37، ص ص 149-150.

⁴ - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج1، ص298.

⁵ - محمد أيت حمزة، مادة "الريف"، معلمة المغرب، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا - الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، ج13، ص ص 4527-4529.

⁶ - رينهارت بيتر آن دوزي، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط1، من 1979 - 2000م، ج1، ص 260.

⁷ - الزبيدي، تاج العروس، م. س، ج10، ص158.

⁸ - صاحب الكافي، المحيط في اللغة، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت- لبنان، 1414هـ/1994م، ط1، ج10، ص256.

وريفوف... ورافت الماشية أي رعت الريف...¹، وقيل أيضا هو "كل أرض فيها زرع ونخل".² فعلى خلاف الاختزال الاصطلاحي للمعاجم العربية للفظ البادية في المجالات الرعوية، فمصطلح الريف يختص بالمجالات الزراعية حيث الماء³، بل إن من اللغويين العرب من جعل الريف والحضر شيئاً واحداً، ذلك أن الأزهرى مثلاً يرى أن "الريف: حيث يكون الحضر والمياه".⁴ فيما تأتي ضاحية البلد ضمن مرادفات البادية، فيقال للبادية الضاحية، و"ضاحية المدينة ما يليها من البادية".⁵ كما يعرف أهل البوادي إلى جانب البدو بالفلاحين والزراع، وهي كلها مرادفات للمشتغلين بالفلاحة من رعي وزراعة، والتي يرى ابن خلدون أنها أساس انتعاش وتعريف البدو.⁶

هكذا إذن، يتبدى البدو ومجال استيطانهم البادية، مجالا ونمطاً عيش واستقرار، تبرز خصائصه في تنوع مجالاته (صحراء/ ريف/ ضاحية...)، وكذا خصائصها الجغرافيا خاصة ما ارتبط منها بوجود عنصر الماء من حيث القرب والبعد والندرة، ثم الخصوبة الطبيعية وما توفره من مراعي للسائمة أو إمكانيات للاستيطان والزراعة. وفي مقابل هذا التنوع الذي يميز مجال البادية، فإن البدو القاطنين له يتراوح عيشهم بين القيام بأعمال الفلح والزراعة أو ممارسة الرعي، وهي أنشطة إنسانية ضرورية للعيش، بل ومما تبتدئ به عملية الاجتماع البشري الذي هو قوام العمران حسب التعبير الخلدوني، الذي يمكن الانطلاق من تحديده لنمط عيش أهل البادية لوضع مفهوم لها يجعل منها مجالين متمايزان، المجال الريفي، والذي يرتبط بالزراعة

¹ - الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ/1987م، ج4، ص 1367.

² - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج9، ص128. الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط2، ج2، ص97.

³ - دوزي، تكملة المعاجم العربية، م. س، ج5، ص 266.

⁴ - الأزهرى، تهذيب اللغة، م. س، ج15، ص172.

⁵ - نفسه، ج5، ص99.

⁶ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ - 1988م، ج1، ص ص149-150.

والخصب، ثم مجال الفيافي والصحاري وهي مجال تتقل القبائل في حلها وترحالها¹، فيما يشكل مجال الاتصال بين هذين المجالين مجالا ثالثا نصف مستقر ونصف رحل.

2- وقفة مع خصائص المجال البدوي المغربي

تتميز البادية المغربية نتيجة لتنوع مجالاتها التضاريسية والمناخية، بتعدد الخصائص والمؤهلات الطبيعية وحتى البشرية، ولرصد بعض معالم هذا التنوع نقف مع بعض الاشارات المصدرة، وعلى العموم، فمن خلال التمهيد اللغوي السابق لكل من البادية والبدو وما يرتبط بها من اصطلاحات فرعية، يتضح لنا ارتباط المشهد² البدوي بمكونين أساسيين يمكن اتخاذهما كوجهين للتمييز بين المجالات البدوية، وهذين العنصرين هما؛ المحدد الطبيعي والمكون البشري.

2-1 تباين طبيعي:

تسمح لنا المصادر الجغرافية لتاريخ المغرب الوسيط بتحديد جملة من ملامح الطبيعية التضاريسية والمناخية للمجال المغربي، والتي يبدو من خلالها أن التنوع التضاريسي للبلاد أسهم في تشكل تنوع مناخي، وبالمحصلة تعدد في المشاهد الجغرافية. وعموما فيمكن التمييز

¹ محمد حسن، البادية والمدنية الإفريقية في العهد الحفصي، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، تونس، (د. ت)، ج1، ص 89.

² يعرف روجي برونّي (R.brunet) المشهد على أنه ببساطة "ما يشاهد"، والذي يكون بفعل المشاهدة منفصل عنا وينتمي إلى العالم الواقعي، ومن تم يصبح موضوعا لتحليل علمي مباشر، ومن جهة ثانية يكون (المشهد) جزءا منا بالمعايشة والإحساس. (Un Brunet, (R.); Analyse des Paysages et Sémiologie, Éléments pour) (Débat, L'espace Géographique, N°2, 1974. وعليه جاء تصنيف إدورد رالف (Relph Edward) للغابات التي يسعى الباحثون في الجغرافيا تحقيقها "وصف المشاهد الإقليمية بشيء من الدقة مع التوكيد على العوامل التاريخية والثقافية والطبيعية التي تضافرت لتخلقها [...]؛ محاولة إبرازها كأشكال وأنساق إقليمية تساعد على التصنيف؛ إدراك المشهد كشهادة على الثقافة والقيم والممارسات البشرية التي رسمته" (Relph Edward; Rational) (Landscapes And Humanistic Geography, London-Croom Helm, 1981, p49). انظر؛ محمد بلفقيه، الجغرافيا القول عنها والقول فيها، المقومات الإستراتيجية، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، ط1، 1423هـ/2002م، ص ص 49-134.

وقد استعان بهذا المفهوم بعض الباحثين في التاريخ لرصد مظاهر التحول في الزراعة المغربية خلال العصر الوسيط. انظر؛ حميد تيتاوا، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، ضمن أعمال ندوة: الفلاحة في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ط1، 1440هـ/2019م، ص 98.

بين ثلاثة مشاهد أساس فيما يرتبط ببادية المغرب الوسيط، وهي؛ الجبال والسهول ثم الصحراء وهوامشها، وقد خلفت لنا المصادر الوسيطية في هذا الباب عددا لا بأس به من الإشارات، التي سوف نقف عند بعضها خلال هذه النقطة ونستعين بأخرى في مواضع أخرى من هذا العمل.

أ- الجبال مصدر للماء ومجال للرعي:

يحفل المجال المغربي بمساحات هامة من الجبال، والتي طالما لعبت دورا هاما في تاريخه الممتد، وتحفظ لنا الإشارات المصدرة الوسيطية في هذا الإطار بعدد لا بأس به من النصوص التي يتبدى فيها الجبل ليس فقط مجالا جغرافيا جامدا، بل وموردا طبيعيا أيضا، وفضاء تاريخيا متحركا.

جغرافيا يمكن التمييز بين ثلاثة مجالات جبلية متفردة بالمغرب، وهي على التوالي؛ المجموعة الريفية، ومجموعة الجبال الرعوية، ثم مجموعة الأطلس الكبير الغربي والأطلس الصغير، فإذا كانت حسب نفس الباحث جبال الريف متميزة بغزارة التساقطات مع الفقر العام للتربة، فإن المجموعة الثانية والتي تمتد من الأطلس المتوسط إلى الأطلس الكبير الأوسط، تشكل "خزان مياه" حقيقي للبلاد، وهي كذلك مجال الغابات والمراعي التي يجوبها الرعاة والمزارعون أنصاف الرحل أو المتنقلون، وفي الأخير تأتي المجموعة الثالثة، مجموعة الأطلس الكبير الغربي والأطلس الصغير، حيث استقر القرويون وخلقوا لهم نظاما قرويا يمزج بين الفلاحة السقوية والبورية واستغلال مراعي المرتفعات.¹

الجبل مصدرا لمياه عدد من الأنهار:

يرتبط الحديث عن الاستيطان بفكرة وجود الماء أصل الحياة، وكثيرا ما تردد القول بارتباط الاستقرار بمصادر الماء، لكن قلما يتم الانتباه إلى ارتباط المشهد المائي بالمغرب على وجه الخصوص بالجبال، ومن خلال مجموعة من نصوص المصادر التاريخية يتضح لنا أن الجبال كانت المزود الأساس للأودية والأنهار المغربية بالماء²، وفي هذا الإطار نستحضر عددا من الإشارات لجغرافيين ورحالة من مؤلفي العصر الوسيط، فعلى بعد ثلاثة أميال من

¹ - محمد الناصري، الجبال المغربية مركزيته - هامشيتها - تنميتها، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة المناهل - الرباط، ط2، 2003، ص ص 24-25.

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 72-73.

مراكش. كتب الإدريسي مثلاً: "نهر لها يسمى تانسيفت وليس بالكبير لانه دائم الجري، وإذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقى ولا يذر وهذا الوادي يأتي إليه الماء من عيون ومياه منبعثة من جبل درن من ناحية مدينة اغمات ايلان".¹

ومن نفس الجبل (درن) ينفجر كل من؛ "نهر نفيس ووادي أغمات ونهر موقوا، وهو يقع في وادي وانسيفين، وهو يجري إلى (بلاد برغواطة)، ومنها وادي وارزين، وهو يقع في وانسيفين، ومنها وادي أقديم، وهو وادي سلا. ويخرج من هذا الجبل في القبلة إلى الصحراء نهر درعة²، وهو نهر عظيم ينصب في بحر نول في البحر المحيط. ومن هذا الجبل ينبعث وادي غريس، وهو [نهر] سجلماسة الذي يعرف بوادي زيز، وينصب في هذا الوادي عدة أودية تتبع كلها من ذلك الجبل واجتماعها كلها في موضع يقال له فاكنسا، وهذا الوادي يقع في البحر وراء درعة³ بعد مسافة بعيدة".⁴

هكذا، يتحول جبل درن إلى خزان حقيقي للماء أصل الحياة، إذ يشكل مصدراً لمجموعة من الأودية⁵ نذكرها تالياً -حسب معطيات أحمد هوزالي⁶- وفق التقسيمات الثلاث للأطلس الكبير، كما هو موضح في الجدول أدناه.

جدول رقم 1: الشبكة المائية للأطلس الكبير

الأطلس الكبير الغربي	الأطلس الكبير الأوسط	الأطلس الكبير الشرقي
- اتجاه الشمال نحو تانسيفت، نجد أودية: نفيس، غيغاية، الزات، غدات، أوركا... - اتجاه الجنوب نحو واد سوس، عدة أودية أهمها تينفوت. - غرباً نحو المحيط عدة أودية أهمها واد القصب	-روافد درعة: واد مكون وواد دادس -روافد أم الربيع: وادي تساوت وواد الأخضر وواد العبيد	وادي زيز

¹ - الشريف الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة، 1422هـ/2002، ج1، ص235.

² - مجهول، *الاستبصار في عجائب الأمصار*، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة- افاق عربية، بغداد، 1986، ص206.

³ - درعة من إدرا ومهناء، عميق لمن ينظر من أعلى، ومنها درا أي بلاد درعة التي يشرف عليها سكان الأطلس من الجهة المعاكسة أي الجنوبية. انظر؛ أحمد التوفيق، الهامش رقم 98 من كتاب *التشوف إلى رجال التصوف*، م. س، ص 114.

⁴ - أبي عبيد البكري، *المسالك والممالك*، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج1، ص 239.

⁵ - الوزان، *وصف إفريقيا*، م. س، ج1، ص ص 72- 73.

⁶ - هوزالي أحمد، مادة "الأطلس الكبير"، *معلمة المغرب*، م. س. ج2، ص ص 499-502.

أسهم توفير الجبال للإمدادات المائية لمختلف الأنهار والأودية المغربية، في توجيه الإنسان المغربي نحوها، ومن تم تحويلها إلى معاقل للنجاة ومواطن للاستقرار، وكذا ممرات تجارية، فكان أن شكلت، بحق، مجالات تاريخية طبعت أحداثها تاريخ المغرب الوسيط.

الجبل مسرح للرعي:

مثلت الجبال بالنسبة للرعاة، فضاءات خصبة للرعي، وذلك لما تتوفر عليه من خصب وكلاء، والاشارات على هذا من كتب الرحلات والجغرافيا كثيرا، نأخذ مثالا عنها صفة بلغية نعت بها البكري جبل الدرق، "وهو قاعدة بني مرزوق بن عوف من مصمودة وسكناهم منه بموضع يقال له صدينة"¹، وذلك بعدما وصفه (جبل الدرق) بكونه "سكة"، والسكة في اللغة "السطر المصطف من الشجر والنخيل"²، فهي إذن تعبير عن الخصب، وهذا ما يتأكد من الأوصاف التي يستتبع بها البكري وصف سكنى بني مرزوق بصدينة، إذ هم بـ "قرية ذات مياه سائحة وهي أطيب تلك البلاد مزارع... [ثم أن بأعلا جبل الدرق منها] مساح واسعة ومروج خصبة للماشية"³. أي أنها قرية بني مرزوق بموضع على غاية من المنعة والخصب، ما يسمح لهم بالجمع بين نشاطي الرعي والزراعة.

وتتخذ الجبال مراعي صيفية، ومن ذلك ما يرصده نص للوزان، تحدث فيه عن أرباب الماشية من أهل الشاوية المتنقلين في جزء من الأطلس "أثناء الصيف لترعى فيه ماشيتهم، ويستحيل عليهم تماما أن يمكثوا هنالك في فصل الشتاء، لأنه عندما يسقط الثلج تهب ريح خطيرة من الشمال تقتل الحيوانات التي تصيبها في هذه الناحية، وتقضي على الناس كذلك"⁴، ويبدو أن هذه التنقلات الفصلية التي كانت تقود القبائل الرعوية بالأطلس بعيدا عن مساكنهم ليست لها أهمية جغرافية فقط بل إنها -حسب أحد الباحثين- تضيء كل تاريخ المغرب.⁵

¹ - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص785.

² - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج10، ص441.

³ - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص785.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص73.

⁵ - Jean Célérier, «La Transhumance Dans Le Moyen- Atlas», Hespéris, T(3) VII, 1927, 1^{er} trimestre, p 67.

ب- الغنى الطبيعي للسهول:

توفر المنبسطات لأهل البوادي إمكانيات هامة للزراعة والاستقرار، حيث تتمتع بإمكانيات فلاحية هامة، فأجود السهول يقول الوزان "ما امتد بين الأطلس والمحيط، كناحية مراكش وإقليم دكالة¹ وجميع تادلا وتامسنا مع أزغار إلى مضيق جبل طارق".² كما يصف الإدريسي فحص قرية تونين ما بين مراكش ومدينة سلا على أنه "فحص أفيح لا عوج به ولا أمتا وطول هذا الفحص مرحلتان... وضحن هذا الفحص كله نبات الشوك المسمى بالسدر المثمرة بالنبق وفيه السلاحف البرية التي تفوق السلاحف البحرية كبرا وعظما وأهل تلك النواحي يتخذون من جلودها دساتي للغسل ومعاجن لدقيق الحنطة وغيره".³ فيما تستقر على بسيط تامسنا قبائل متفرقة وكلها "أصحاب حرث ومواش وجمال والغالب عليهم الفروسية، وآخر سكناهم مرسى فضالة...".⁴

من جهة أخرى، تزخر المناطق السهلية بوفرة إنتاجها الفلاحي⁵، فقبالة دار المرابطين الكثيرة الزروع والمواشي والإبل والبقر، "فحص طويل قد انحشرت إليه طيور النعام فهي في أكنافه سارحة وعلى مراقبه دارجة، وهي آلاف لا تحد ولا تعد، وأهل تلك النواحي يصيدونها طردا بالخيول فيقبضون منها جملا كبارا وصغارا وأما بيضها الموجود في هذا الفحص فلا يحاط به كثرة ولا يحصل ومنه يحمل إلى كل البلاد، وطعامها وخيم يفسد المعد، وأما لحوم النعام فلهوم باردة يابسة، وشحومها نافعة عندهم من الصمم تقطيرا ومن سائر الأوجاع البدنية".⁶

¹ - منطقة سهلية واسعة ما بين نهري أم ربيع شمالا ووادي تانسيفت جنوبا، كانت تجاورها تامسنا وهسكورة وجرجاجة وتمتد على صقعها الحالي على مواطن عبدة والرحامنة، ويحمل معناها ثلاثة احتمالات:

1. هي تسمية قوم هم إيدوكال وفيها أدو بمعنى تحت أو أسفل، أو إدو ومعناها أهل وأكالن: الأراضي أو الأطيان وتسمتها في المعنى تسمية فرقة مجاورة بحوز مراكش كانت تسمى إدركال، وإدرا معناه عميق لمن ينظر من أعلى.

2. قد تول التسمية على أنها من تيديكلت أي راحة اليد التي يشبه بها البسيط، وهي مشهورة كاسم بالصحراء، وقد تكون بهذا المعنى مرادفة لتامسنا التي تطلق على السهل المجاور.

3. ذهب ماسينيون إلى أن معنى دكالة هو المجتمعون، وربما ظن أنهم من إمدوكال أي الأصحاب. أحمد التوفيق، الهامش رقم 98 من كتاب: **التشوف إلى رجال التصوف**، م. س، ص 114.

² - البكري، **المسالك والممالك**، م. س، ج1، ص72.

³ - الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م. س، ج1، ص236.

⁴ - نفسه، ص ص 236-237.

⁵ - الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ج1، ص197.

⁶ - الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م. س، ج1، ص ص 237-238.

وبآخر فحص خراز "واد فيه ماء جار دائما وعليه غابات ثمار والأسود فيها ظاهرة للناس عادية عليهم بالليل والنهار، ظاهرة لا تستتر في غياضها، وبهذه القرية المسماة اكسيس بيت متخذ لصيد الأسود حتى إنه ربما صيد منها في الجمعة الثلاثة والأربعة والأكثر من ذلك والأقل والأسود تفر من النار إذا رأتها ولا سبيل لها على صاحب نار".¹ وبادية ما بين نهري اغمات وتتسيفت "خصيبة جيدة التربة. يقال إنها تعطي أحيانا خمسين ضعف ما يزرع فيها"² ومثلها البادية فيما بين أنماي ونهر اغمات.³ أما أهل بولعوان على ضفة نهر أم الربيع فأغنياء جدا "بحبوبهم وماشيتهم. لكل واحد من السكان مائة زوج من الثيران أو أقل أو أكثر، ومحصولات تبلغ حوالي حمل دابة من القمح، ومنهم من تبلغ محصولاتهم الزراعية ثلاثة آلاف حمل، والأعراب هم الذين يشترون هذا القمح ويتزودون منه للعام كله".⁴ فيما تنتج بادية مدينة أزمو الكثير من القمح، إلا أنه لا يرى فيها بستان ولا حديقة إلا قليلا من شجر التين.⁵

على الرغم مما سبقت الإشارة إليه من غنى وخصوبة السهول إلا أن استغلالها واجهته مشاكل ترتبط أساسا بالأمن⁶، فبضاحية تكوداست بناحية هسكورة⁷ توجد سهول على طول نحو ستة أميال، بها حقول قمح جميلة، يؤدي عنها الفلاحون الخراج للأعراب.⁸ ومن أهمية هذه المنطقة أن حصد بها أمير المدينة -على عهد الوزان- نحو سبعة آلاف مد من القمح والشعير... وله كذلك أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والماعز لا يأخذ من نتاجها سوى الصوف والشعر، لأنه يترك اللبن والجبن للرعاء الذين يعطونه مع ذلك شيئا من السمن⁹، ذلك

¹ - الإدريسي، *نزهة المشتاق*، م. س، ج1، ص238.

² - الوزان، *وصف إفريقيا*، م. س، ج1، ص136.

³ - نفسه، ص137.

⁴ - نفسه، ص155.

⁵ - نفسه، ص157.

⁶ - محمد الطويل، *الفلاحة المغربية في العصر الوسيط*، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، إشراف محمد زنيبر، جامعة محمد الخامس - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، السنة الجامعية: 1987-1988، ص 163.

⁷ - هسكورة: اسم اتحادية قبائل كانت إلى العصر المريني تعرف بهذا الاسم، وموطنهم على سفحي الأطلس الأوسط حسب التعبير الحالي؛ من واد دادس جنوبا إلى واد العبيد شمالا، وأصل التسمية: اسكورن، وهي الحجل. أحمد التوفيق، *الهامش رقم 96، من كتاب التشوف إلى رجال التصوف*، م. س، ص ص 113-114.

⁸ - الوزان، *وصف إفريقيا*، م. س، ج1، ص167.

⁹ - نفسه، ص168.

أن هذه الأشياء ليست ذات قيمة كبيرة بهذه السهول، حيث الجميع يملك الماشية الصغيرة بكثرة، فلا يباع منها غير الجلود والصوف والزيت في أماكن تبعد عنهم بمسيرة سبعة أيام.¹

ت-الصحراء ومشكلة الماء:

يبرز مجال الصحراء في المصادر الوسيطية، فضاءً لانتجاع الإبل وممارسة التجارة البعيدة المدى، كما أنه أقل المجالات البدوية المغربية استيطاناً، فهو مفاوز يتعذر عبورها في غير الشتاء وبغير دليل خبير بمواضع الماء، كما يتعذر استيطانها لغير العصبية ذات البأس الشديد والقادرة على المدافعة كما أنها تشكل الملاذ المفضل للقبائل للفرار من مغارم الدول ومرتبات الجباية المخزنية.

يعد الماء أحد أهم عناصر التأثير بالوسط الجغرافي ببادية الصحراء، ولتيسير استيطانها وعبور أطرافها، عمَدَ البدو إلى إنجاز العديد من التقنيات المائية أهمها حفر الآبار، وعلى هذا الأساس جاءت المشاهد الجغرافية حول بادية الصحراء ممعنة في وصف المسالك وتحديد مواطن الماء بها، فمن تآمدولت إلى "أجرو ستّ مراحل كلّها على مياه"²، ولإبراز بعض معالم مشكلة الماء بهذا المجال، نتوقف عند جملة من الإشارات المصدريّة الخاصة به، من خلال مؤلف المسالك والممالك للبكري (ج2)، وذلك من خلال الجدول أسفله.

جدول رقم 2: محطات الطريق الصحراوي بين المغرب وبلاد السودان الغربي من خلال المسالك والممالك للبكري - ج2

الصفحة	نص الإشارة	المجال
846	بئر الجمّالين "هذه البئر عمقها أربع قامات من أنباط عبد الرحمان بن حبيب".	بئر الجمّالين
847-846	"ماء يسمّى ندفس آبار يحتقرها المسافرون، فلا تلبث أن تنهار وتتدفن"	ماء ندفس
847	"بئر كبيرة يقال لها وين هيلون".	وين هيلون
847	"أرض سواء صحراء ربّما وجد فيها الماء على صفاء تحت الرمل من بقية الأمطار".	أرض سواء
847	"ماء نزر يقال له تازقّي"	ماء نزر
847	"بئر أنبطها عبد الرحمان بن حبيب واحتقرها في حجر أدعج صلب طولها أربع قامات"	
847	"بئر يقال لها ويطونان، وهي كبيرة لا تنزف، مأوها زعاق يسهل شاريه من"	بئر ويطونان

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 168.

² - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص855.

	الناس والأنعام، وهي من عمل عبد الرحمان بن حبيب أيضا طولها ثلاث قامات".	
أوكازنت	"أوكازنت أرض زرقاء، ينبط أهل الرفاق فيها الماء على ذراعين وثلاث"	847
مجابة جبال	"مجابة جبال رمل معترضة لا ماء فيها، وهو أصعب موضع بطريق أودغست، أربعة أيام"	847
آبار وانزميرن	"وانزميرن آبار قريبة الرشاء فيها العذب والشريب، وعليه جبل طويل صعب كثير الوحوش. وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان، وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق ويتخذونه مرصدا لهم لعلمهم بإفضاء الطرق إليه وحاجة الناس إلى الماء فيه".	847
حدّ بني وارث	"بئر عظيمة في حدّ بني وارث قبيل من صنهاجة، على تلك البئر شجر يقال له السفنى، وهو شجر الإلهيلج إلا أنه لا يثمر".	847
ماء أغرف	"ماء يقال له أغرف آبار ملحة تردها أذوات لصنهاجة فتصلح عليه وتصحّ به، وكلّ ماء ملح فموافق للإبل".	848
أقر تتدى	"أقر تتدى تفسيره مجتمع الماء فيه أصناف كثيرة من الشجر وفيه الحناء والحبّ".	848
بئر واران	"ماء يقال له بئر واران ماؤها زعاق".	848
أرض صنهاجة	"أرض لصنهاجة كثيرة الماء من الآبار ثلاثة أيام"	848
الطريق من وادي درعة في الصحراء إلى بلاد السودان		
بئر تزامت	"بئر معينة غير عذبة، وهي إلى الملوحة أقرب قد أنبسطت في حجر صلد من عمل الأول، ويزعم قوم أنّ بني أمية صنعتها".	857
بئر الجمالين	"كلّها غير عذبة"	857
بئر تسمى ناللي		
المجابة الكبرى	"مجابة ماؤها على ثمانية أيام... وذلك الماء في بني ينتسر من صنهاجة"	857

فرضت طبيعة الصحراء القاحلة على أهلها والعابرين لها الالتزام بمواضع الماء، وهذا ما يتبدى من خلال نصوص المشاهدات الجغرافية التي خلفتها لنا نصوص المصادر التاريخية، لكن تدابير عبور هذه المفاوز كانت تتطلب صفات أخرى وطرق نجاة مضافة إلى ما سبق من لزوم مواضع الماء، ومن هذه الصفات ما جاء على لسان الإدريسي بخصوص عبور صحراء نيسر، فهذه الصحراء يسلكها المسافرين، "في زمان الخريف وصفة السير بها أنهم يوقرون أجمالهم في السحر الأخير ويمشون إلى أن تطلع الشمس ويكثر نورها في الجو ويشد الحر على الأرض، فيحطون أجمالهم ويقيدون أجمالهم ويعرسون أمتعتهم ويخيمون على أنفسهم ضاللا تكنهم من حر الهجير وسموم القائلة، ويقىمون كذلك إلى أول وقت العصر وحين تأخذ

الشمس في الميل والانحطاط في جهة المغرب، يرحلون من هناك ويمشون بقية يومهم، ويصلون به المشي إلى وقت العتمة ويعرسون أينما وصلوا، ويببتون بقية ليلهم إلى أول الفجر الأخير ثم يرحلون وهكذا سفر التجار الداخلين إلى بلاد السودان على هذا الترتيب لا يفارقونه لأن الشمس تقتل بحرهما من تعرض للمشي في القائلة عند شدة القيظ وحرارة الأرض، وبهذا السبب يلزمون النقلة على هذه الصفة التي ذكرنا¹.

كما يتوجب على "التجار أن يحملوا الماء في القرب على ظهور جمالهم، وخصوصا في الطريق الرابطة بين فاس وتبكتو..." لما فيها من مسافات طويلة ينعدم فيها وجود الماء²، وقد يعتمد المسافرون إلى الإبل لتخزين الماء فيستخرجونها عند الحاجة "فيشرب بعضه ويقسم الآخر إلى أن يقع العثور على بئر أو يهلك المسافرون عطشا"³.

2-2 تنوع في أنماط الاستقرار

تبعا للتنوع الطبيعي للبادية المغربية فإن أشكال الاستقرار بها تباينت هي الأخرى، ولعل أقرب تصنيف لهذا الواقع هو ما يتبدى لنا من خلال قراءة العلامة ابن خلدون للعمران البدوي، وتصنيفه إلى:

- مستقرين
- أنصاف رحل
- رحل

يوازي التوزيع أعلاه المعتمد على نمط أو أنماط المعاش وشكل التكسب، تقسيم آخر يقوم أو يرتكز على شكل العمران، فنجد الرحالة والجغرافيين يتحدثون عن قرى ومدامر ومراكز ومواطن وبلدات... وهي تعابير لا تتفك على ما يبدو تحيل على شكل الاستقرار وعلاقة الجماعات البدوية بالمجال.

ومن المترتبات الاجتماعية على الحياة البدوية وفق المشهد العام لبادية المغرب خلال العصر الوسيط، نجد خاصية التنوع في العلاقات الاجتماعية القبلية منها على وجه

¹ - الادريسي، نزهة المشتاق، م. س، ج1، ص ص 107-108.

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 75.

³ - نفسه، ص 76.

الخصوص، فيأتي الحديث عن قبائل غارمة، وقبائل ظاعنة، وقبائل مترحلة، بل ونعثر حتى على تعابير انحلال عناصر أو جماعات في جماعات أكبر... وغيرها من أوجه التفاعلات الأفقية، تتماهى وتشكل المجال البدوي المغربي خلال الفترة المدروسة. فيما عموديا تبرز التباينات العرقية والتي ربما تحولت إلى تباينات طبقية، خاصة ومضمون حديث المصادر يهم شكل التكسب ومصادر الثروة وطرق استغلال المجال، فكانت النغمة العصبية تقتضي تقديم العصبية العرقية، فيما كل انهيار أو خضوع يضع الفرد داخل المجموعة البدوية في مرتبة أدنى، وهكذا يفرض عليه القيام بأعمال أدنى من المعتبر اجتماعيا، فكانت المعادلة هذه تقضي إلى تقديس حاملي السلاح على المشتغلين في الفلح، على الرغم مما يمكن تسجيله عند هذا المستوى من جدلية تاريخية بين ممارسة الرعي شكلا من أشكال الانحدار الحضاري، وفي الوقت نفسه واجهةً للنزعة التحريرية ورفض الوصاية حتى وإن كانت من سلطة ذات صبغة شرعية كالمخزن.

في الوقت الذي توجد شبه مسلمة على أن القبيلة هي التنظيم المرادف لحياة البادية المغربية خلال العصر الوسيط عموما، فإن مفهوم القبيلة المغربية ضمن نفس الفترة يطرح بنفسه عدة إشكالات، ذلك أنه مثلا يصعب الربط بين قيم العصبية (الخلدونية) وتحدي الاستقرار بمجال مشترك؟! كيف يمكن خلق الوحدة المجالية للمجموعات البشرية المتجاورة في ظل مفهوم التوسع القبلي الغريزي؟ إن مثل هذه التساؤلات تدفعنا نحو افتراض وجود عدة مستويات من التلاحم العصب- قبلي بمجال البادية المغربية خلال الفترة المدروسة، ويمكننا دعم هذا الافتراض بمجموعة من الإشارات في النقطة الثانية من هذا الباب.

لمحاولة فهم بنية الجماعات البشرية بالبادية المغربية خلال فترة نهاية العصر الوسيط، يمكننا الانطلاق من مسألة العصبية القبلية، ولكن ليس صيغة واحدة تصلح لفهم كل الوحدات القبلية، بل مستويات مختلفة تتباين من حيث الدور الذي تلعبه والمحصلة الاجتماعية التي تفرزها، وعليه نضع الجدول أدناه، ثم نشرع في تفكيك خطابه.

جدول رقم 3: مستويات التعصب القبلي

عصبية شديدة	قبائل رحل الصحراء
عصبية مصلحة	قبائل أنصاف الرحل
انحلال العصبية	القبائل المستقرة

إن التنظيم الاجتماعي بالبادية المغربية وفق هذا الشكل، يقتضي وجود اصطلاحات مختلفة للقبيلة تتناسب مع شكل انتظامها اجتماعيا (الخريطة رقم 1)، والذي يخضع بدوره لموقعها ضمن دائرة الانتاج ومسار التحول من البداوة نحو الحضارة، وفي هذا السياق سجل روس إ. دان بخصوص قبائل المغرب الشرقي ما يلي "إذا كانت بنيات القرابة المتشعبة جدا هي التي تميز التنظيم الاجتماعي عند البدو [الرحل]، فإن الذي يميز ذلك في الواحات هو السكن والطبقة الاجتماعية"، حيث لا تمتد القرابة العائلية يضيف "في العديد من القرى [الواحية] خارج الأسوار، كما أن الفرد يعرف بنسبه الخاص داخل القصر الخاص وليس داخل قبيلة معينة".¹

باعتبار السكن أحد منافذ قراءة واقع وتحديات مجتمع ما، فإنه من الواضح أنه بدوره قد خضع لثلاثية المعاش الخلدونية، وإن أمكن تسجيل خضوعها لتفريعات أكثر داخل كل بنية أو مشهد عمراني ناتج عن تباين مجالي. وعموما فالمصادر تسمح لنا بالوقوف عند تنوع في مساكن بدو المغرب خلال فترة الدراسة، ولهذا نرى رصد الظاهرة في شموليتها في موضع آخر من هذا العمل، فيما نسجل هنا فقط تنوع السكن البدوي وفق مستوى تدخل وحاجيات الإنسان المغربي، لنقف عند مشهد الخيام والسكن الخفيف سهل النقل، نوعاً يختص به الرحل وأنصاف الرحل بالمجالات الصحراوية وشبه الصحراوية، ومنها انتقل نحو السهول الأطلسية بفعل توطين القبائل العربية هناك.

الجدول رقم 4: أنواع المساكن البدوية حسب لويس ماسينيون ² Louis Massignon			
على مستوى التجمعات السكنية		على مستوى شكل السكن	
دوار	مجموعة خيام	نوالات	
دشر	قرى (مجموعة مساكن) مفتوحة	تيفرمت	مساكن ب"الطابية" على شكل أبراج معزولة
قصر	قرى (مجموعة مساكن) محصنة	ايكودار	مخازن جماعية

وعلى خلاف بسيط مع الرحل فإن أنصاف الرحل، يعمدون إلى إحداث واستعمال عناصر سكنية أخرى غير الخيام من قبيل؛ اللجوء للكهوف واتخاذ اصطبلات بدائية

¹ - روس إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية (1881-1912)، ترجمة أحمد بوحسن، منشورات زاوية، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، ط1، 2006، ص 44.

² - Louis Massignon, *Le Maroc Dans Les Premières Années du XVI siècle*, Tableau Géographique D'après Léon L'Africain, Alger, 1906, pp 117-118.

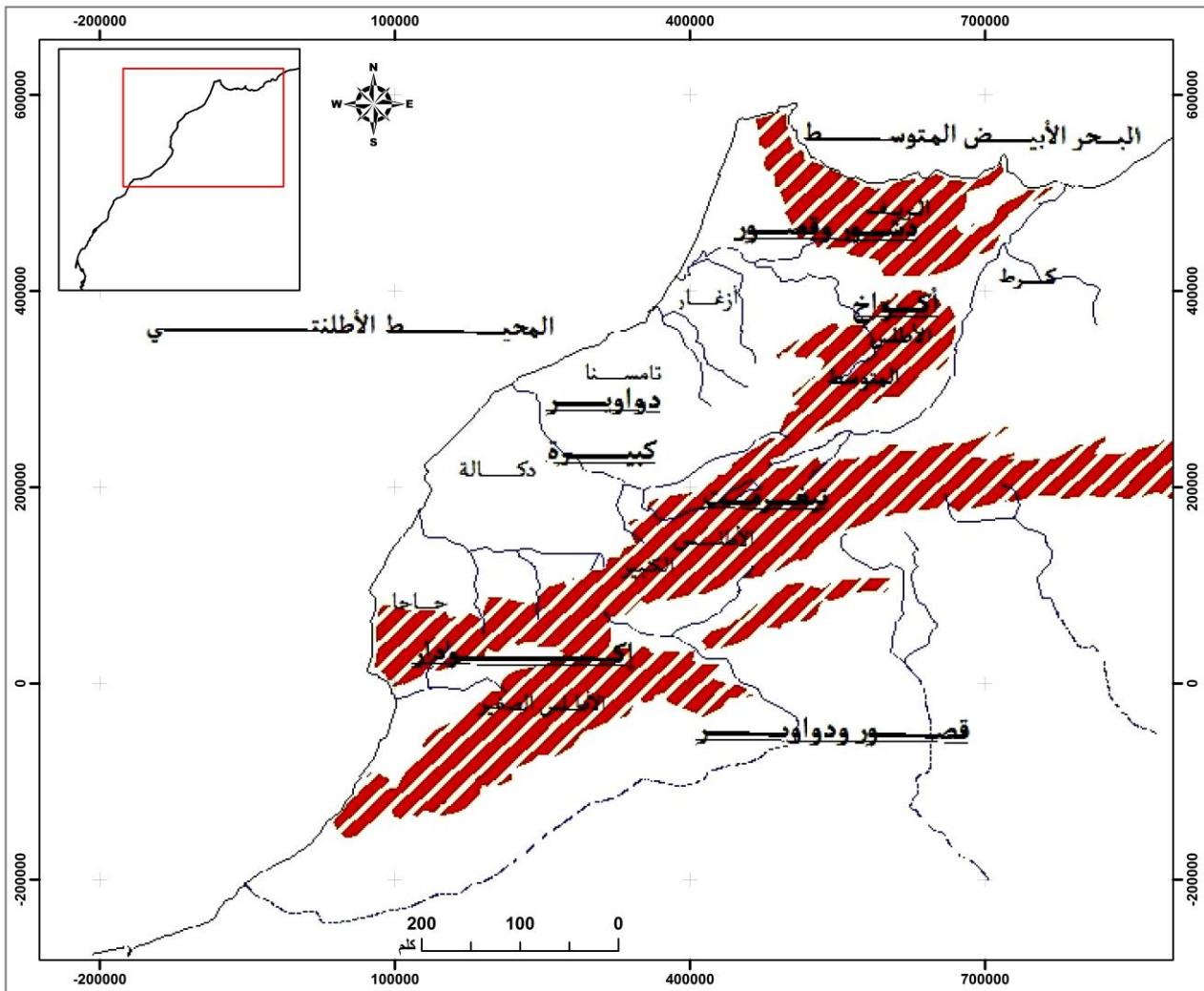
لحيواناتهم... وغيرها مما توظف فيه موجودات الطبيعة ويقل معه تدخل الإنسان، وذلك على خلاف ما يعتمد إليه المستقرون والذين تحتويهم القرى والمداشر، حيث يتم بناء الدور التي لا يستبعد أن تكون أصلاً للفظـة "الدوار"¹ المنتشرة اليوم دلالةً على القرية أو المدشر، ليتحول المشهد معها إلى منازل بحوائط وسقوف وغيرها. وعلى الرغم من قيام تباين واضح في الجودة ومكونات البناء فإن ما يهـمنا عند هذا المستوى هو إبراز تميز هذا النوع من السكن عن غيره مما يتناسب وطبيعة المعاش.

تتباين مواضع اتخاذ المساكن بالبوادي المغربية خلال الفترة المدروسة، وفق تباين المعطيات الطبيعية لمجال الاستيطان، ولا تسمح لنا المعطيات المصدرية في هذا الإطار بالوقوف عند جميع أشكال هذا الاستيطان، إذ ظلت تقدم معطيات تهـم القسم الشمالي من البلاد فيما تندر معطياتها بخصوص القسم الصحراوي وهوامشه، وكذا المجالات الجبلية اللهم ما كان من بعض الإشارات الطفيفة هنا وهناك.²

¹ - في معرض حديثه عن المونة عرف رينهارت بيتر أن دُوَري الدوار على أنه: "Douar (مجمع الخيم)". دوزي، **تكملة المعاجم العربية**، م. س، ج10، ص13. وهو؛ "مخيم الأعراب تصف فيه الخيام على شكل دائرة وتكون المواشي في وسط الدائرة". وهي كلمة موجودة عند الإدريسي وابن بطوطة [ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ، ج2، ص 43/ ج3، ص186]. دوزي، **تكملة المعاجم العربية**، م. س، ج4، ص 440. وفي لسان العرب لابن منظور عن "الدوار صنم كانت العرب تنصبه يجعلون موضعاً حوله يدورون به، واسم ذلك الصنم والموضع الدوار". (ابن منظور، **لسان العرب**، م. س، ج4، ص297). فهل يكون تعبير الدوار مستحدثاً من الدار حيث مدار حياة البدو المستقرين، أم يكون نتيجة ارتباط عمران مناطق ما بدار زعيم أو ولي صالح؟ فينطبق دوران الناس على الصنم ومركزيته على دوران ديدن الحياة بقرية ما بدار شخص يمثل حرمة المكان وصمام أمنه واستقرار الناس فيه.

² - من قبيل حديث البكري عن انتشار عدة حصون بالقرب من حصن تامدولت، وهو "حصن فيه مياه ونخل كثير، ويشرف عليه جبل فيه معدن فضة معلوم هناك... ولهم هناك حصون". البكري، **المسالك والممالك**، م. س، ج2، ص861.

خريطة رقم 1: أشكال التجمعات القرية بالمغرب¹



عموماً، فمن الواضح أن المشهد العام لهذا الاستيطان البدوي، كان ينحو نحو قيام تجمعات سكنية في المناطق السهلية وسفوح الجبال في شكل قرى، وبضواحي المدن² على شكل دواوير³ ومداشر⁴، وفي بعض الأحيان يتبدى الأمر منازل مستقلة عن بعضها البعض،

¹ - الخريطة انجاز شخصي بالاعتماد على معطيات خريطة:

Louis Massignon, **le Maroc dans les premières années du XVI siècle**, op. cit, p 116.

² - البكري، **المسالك والممالك**، م. س، ج2، ص ص792-794

³ - في اللسان "الدار: المحل يجمع البناء والعريضة، أنثى؛ قال ابن جني: هي من دار يدور لكثرة حركات الناس فيها، والجمع أدور وأدور في أدنى العدد". ابن منظور، **لسان العرب**، م. س، ج4، ص298.

⁴ - مجموعة بيوت، أو القرى المفتوحة. انظر:

louis Massignon, **le Maroc dans les premières années du XVI siècle**, op. cit, pp 117-118 .

بل ويتخذ أحيانا أخرى شكل سكن بدائي لا يغير من موجودات الطبيعة شيئا، وبشكل عام فهي متباينة على منوال التباين في المعاش والتنوع الطبيعي¹، تختلف تباعا لشكل الجماعة البدوية بين رحل يسهل تموضعهم بالمجال والانتقال منه، وبين جماعة المستقرين وأنصاف الرحل الذين يتخذون سفوح الجبال² وضفاف الأودية³، وفي بعض الأحيان قمم الجبال مجالات للاستقرار والسكن.

استأثرت الأنهار المغربية عموما، باهتمام الرحالة والجغرافيين العرب خلال العصر الوسيط، باعتبارها مظهرا من مظاهر خصوبة المجال، وتبعاً لذلك جاءت أوصافهم مهتمة بطبيعة جريانها وشكلها ومصادر مياهها وكذا بطبيعة الاستقرار حولها، وسنأتي فيما يلي ببعض الإشارات الخاصة باستيطان البدو بجانب الأودية والأنهار، وكيفية معالجتهم لمشاكل عبورها.

يذكر البكري أن عرب خولان؛ قرية كبيرة "آهلة كثيرة الخير، وهي على نهر زلول... تلقاه قبل الوصول إلى قلعة ابن خرّوب. وبالقرب منها أيضا دمنة عشيرة بلد طيّب لصنهاجة. ثم قرى متصلة لكتامة، إلى حاضرة سوق كتامي، وهي قاعدة إدريس بن القاسم بن إبراهيم كبيرة شريفة على نهر واد لكس بها سوق عامرة وجامع. ثم تسير إلى قصر دنهاجة، وهو على تلّ وتحتة نهر عظيم..."⁴، ومن مدينة البصرة إلى نهر رداد مرحلة في "قرى كثيرة عامرة"⁵ من جهة أخرى ف"وادي مغار لكتامة أيضا قرار كبير، بلد للزرع والضرع"⁶.

ويبدو أن الدشر يتميز عن القصر بانفتاحه على خلاف القصر المحصن، وهذا ما يدعم ما نحى إليه المعنى اللساني للفظه دشر، والتي تحيل على معاني الانفتاح الحرية والاطلاق. (دوزي، **تكملة المعاجم العربية**، م. س، ج4، ص 357). فيما لا يستبعد أن يكون تعبير الدشر تحريفا للفظه مجشر، بإبدال الجيم دالا، والتي يبدو أن أصلها "يدل على أن معناها المرعى أي المكان ترعى فيه الماشية، غير أنها أصبحت تدل على ضيعة فيها عبيد ودواب ويقر وغنم وغير ذلك. دوزي، **تكملة المعاجم العربية**، م. س، ج2، ص 215.

¹ - محمد الطويل، **الفلاحة المغربية في العصر الوسيط**، م. س، ص 191.

² - البكري، **المسالك والممالك**، م. س، ج2، ص 785-788.

³ - عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، المطبعة الملكية، 1982، ص 122.

⁴ - البكري، **المسالك والممالك**، م. س، ج2، ص 788.

⁵ - نفسه، ص 790.

⁶ - نفسه، ص 793.

وعلى نحو أربعة أميال من فاس على وادي سبو "قرى كثيرة"¹، تتصل إحداها بالأخرى وعلى واديهما كروم وبساتين كثيرة²، كما أن المتوجه من فاس إلى المسيلة يأخذ الطريق من كرائطه "على باب زناتة وهو واد وقرى متصلة ذوات أسقاء وبعض هذه القرى متصلة بمياه ايناون ومخرج ذلك إلى قلعة كرماطه"³، وفي بلد زناتة ما بين فاس وسجلماصة موضع يقال له "الأحساء رمل، يحفر فيه فينبعث الماء على ذراع ونحوه".⁴

وبالقسم الجنوبي على الساحل يوجد على وادي السوس "أسواق كثيرة إلى البحر المحيط"⁵، وعلى وادي ماست في مسيرة يومين "قرى كثيرة، وهو ينصب في البحر المحيط، وماست التي أضيف إليها الوادي رباط مقصود عندهم له موسم عظيم ومجمع جليل وهو مأوى للصالحين". بينما تأتي تامدلت "على نهر عنصره من جبل على عشرة أميال منها، وما بينهما بساتين، وعلى هذا النهر أرحاء كثيرة، وأرضها أكرم أرض وأكثرها ريعا تعطى للحبة مائة".⁶

مقابل هذا جذب الأنهار للإنسان المغربي للاستيطان، فإنها (الأنهار) شكلت كذلك عائقا أمام التجارة بالمغرب الوسيط، إذ "تظهر أودية الأنهار مشكلة في النقل البري"⁷، وتعتبر أحيانا على زنبيل⁸ لا يسع أكثر من ثلاثة أشخاص، فقد كتب صاحب الاستبصار: "وبوادي سبو فوق فاس نحو مسيرة يوم، مضيق ما بين جبلين، يسمى ذلك الموضع بتاغيت، معناه بلسانهم الحق، وذلك المضيق نحو مسيرة يومين، وكان من يسكن بقرب تلك الحوافي، إنما يعبر الوادي في زنبيل معلق بين الجانبين في حبل قد شد طرفاه في الحافتين، يسع ذلك الزنبيل نفسين وثلاثة، وعلى ذلك المعبر حبل من الضفتين جميعا، فإذا دخل الزنبيل جذبته أهل الضفة

¹ - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص828.

² - ابن حوقل، صورة الأرض، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، 1938م، ج1، ص88.

³ - نفسه.

⁴ - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص834.

⁵ - نفسه، ص852.

⁶ - نفسه، ص855.

⁷ - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي بالمغرب الإسلامي خلال القرن 6هـ/12م، دار الشروق، بيروت، 1983، ص317. أحمد زروق، الكناشة صور من الذكريات الأولى، تقديم وتحقيق علي فهمي خشيم، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة- ليبيا، 1980م، ص ص29-30.

⁸ - من الزنبيل وهو "القفة، والجمع زيل. الجوهري: الزيل معروف فإذا كسرت شددت فقلت زبيل أو زنبيل، لأنه ليس في الكلام فعيل، بالفتح" (ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج11، ص301). وفي تكملة المعاجم العربية، نجد "زنبيل، زنبيل: قفة، سلّة من الخوص". دوزي، تكملة المعاجم العربية، م. س، ج5، ص286.

الأخرى إليهم، وبين الزنبيل وبين الماء مهوى بعيد. قال الناظر، ورأيت مضيقا في وادي وانسيفن بين معدن عرام وبين قلعة مهدى ببلد فزاز، ينحدر الوادي كله في سعة بلاط قدره 20 شبرا أو نحوها، وعليه قنطرة محدثة وعليها لوح كبير؛ وهذا الوادي هو المعروف بأمر ربيع، وهو مثل وادي سبو، ولو عاينه أهل الأمر، أدام الله نصرهم، لأحدثوا عليه قنطرة على قوس واحد مثل قنطرة السيف المشهورة. وبمثل هذه الآثار تفتخر الملوك، فهي من أعظم منافع البشر¹، وعلى وادي ورغة مجاز الخشبة "في بلد شريف وقرارات كثيرة شبيهة بالمدن. ثم قرى متصلة وأكبرها قرزاوة بني حصين، إلى بلد مغيلة"².

ويصف الوزان إحدى أخطر تقنيات الربط بين ضفاف الأنهار بالمغرب، فجبل بني يازغة بنى الأهالي "عبارة عجيبة للمرور من ضفة إلى أخرى. فغرسوا في كل جانب من جانبي النهر عمودا عظيما قويا، وثبتوا بكرة في كل واحد من العمودين، ثم مدوا من جانب لآخر حبالا غليظة من الأسل تنزلق في هاتين البكرتين، وشدت إلى هذه الحبال سلة عميقة متسعة متينة، تتسع بسهولة لعشرة أشخاص، ومن أراد أن يعبر النهر لا يسعه إلا أن يدخل السلة، ويجر الحبلين من الطرفين المثبتين بها فينزلقان في البكرتين بسهولة، وهكذا تنطلق السلة نحو الضفة المقابلة"³، وبقدر ما تتضمنه هذه التقنية من مخاطر أثبت بعضها الوزان نفسه⁴، فإنها تجعلنا أمام تساؤلات حول أصولها وكيفية وصول فكرتها لأهالي هذا الجبل؟ كما تجدر الإشارة هنا إلى أن حديث الوزان هذا ليس هو أول كلام عن هذه التقنية، إذ سبق وتوقف عندها مجهول الاستبصار، مع تسجيل عدد من الاختلافات بين الروايتين يبدو منها أن القنطرة قد عرفت تعديلات همت الأدوات (زنبيل/ سلال) وعدد الركاب (2-10/3).

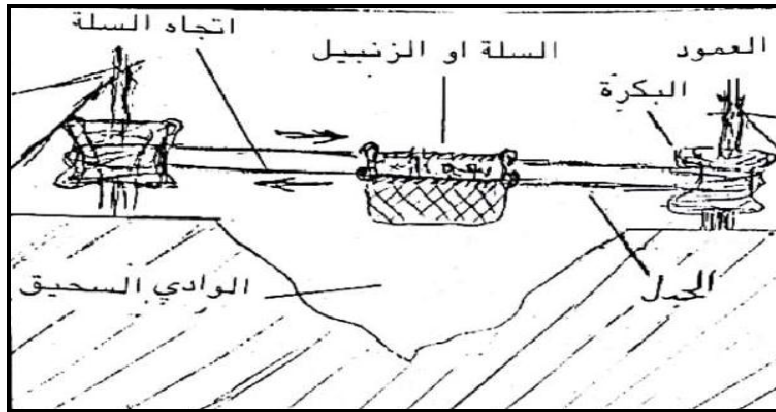
¹ - مجهول، الاستبصار، م. س، ص 185.

² - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج 2، ص 794.

³ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 361.

⁴ - نفسه.

الشكل رقم 1: رسم لتقنية الزنبيل المعلق¹



عموماً، فمن الواضح -حسب السابق من إشارات- أن ضفاف الأنهار والأودية من خلال المصادر الوسيطة، تأتي مجالات بدوية تستغل في مختلف الأنشطة الاقتصادية والبشرية، فهي مواطن للاستقرار ومناطق زراعية. وفي المقابل تنتشر الجموع القبلية في مختلف جبال ومرتفعات بلاد المغرب، حيث تتباين طباعها وأعدادها من جبل لآخر، وهذا ما نقف عليه من خلال جملة مشاهد تاريخية وجغرافية، أدرجها الحسن الوزان ضمن أوصافه للبلاد والسكان، نضع لها الجدول أسفله.

الجدول رقم 5: مشاهد من استيطان جبال المغرب من خلال مؤلف وصف إفريقيا للحسن الوزان

الناحية	الجبل	مستوطنوه وصفاتهم	الجزء/الصفحة
حاحا	جبل إدو عاقل	كثير السكان	110/1
	دمنسرة	مليء بالسكان	111/1
	جبل الحديد	قبيلة رجاجة	112/1
سوس	جبل هنكيسة	ذوو نجدة فائقة يرفضون دفع النائبة للشريف	121-120/1
	جبل إيلال	نبلاء شجعان عندهم خيول كثيرة	121/1
مراكش	جبل نفيفة	أهل بالسكان جدا "متوحشون لا تربية لهم"	138/1
	جبل سمد	"سكانه أنذال خشنون فقراء"	139-138/1
	شيشاوة	سكانه متوحشون جدا ومحاربون لجيرانهم على الدوام	140/1
	جبل سكسيوة	سكانه "لا يرون الأجانب مطلقا"	141-140/1
	جبل تينمل	"يزدحم السكان فيه من كل جهة"	141/1
	جبل كدميوة	"سكانه قرويون فقراء خاضعون للعرب"	141/1
	جبل هنتاتة	يسكنه "رجال شجعان اغنياء يملكون كثيرا من الخيل"	142/1

¹ - محمد الطويل، النقل والتنقل في المغرب خلال العصر الوسيط، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس -أكدال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط، السنة الجامعية 1996-1997، ص 170.

143/1	يسكن به عدد من القبائل	جبل أديمي	
145-144-1	قرى كبيرة تشتمل أحيانا على ألف كانون أو أقل أو أكثر	الأطلس الصغير	جزولة
159/1	يسكنه عدد وافر من الصناع	بني ماجر	ناحية
160/1	يعيش به نساك كثيرون	الجبل الأخضر	دكالة
170/1	سكانه كثيرون	ايت واوذكيت	هسكورة
173/1	"يعج بالسكان ويشتمل على خمسين قصرا... فلاحون أو تجار"	تنزيتة	
175/1	"غير مسكون إلا في منحدره الشمالي"	غجدامة	
175/1	"جبلين... يسكنهما قوم فقراء جدا"	تساوين	
186/1	"فرع من شعب زناكة خفيفو الحركات أقوياء..."	سكيم	ناحية تادلا
188-187/1	يسكنه رعاة "يسكنون أخصاصا"	مغران	
188/1	"يسكن معظمهم في كهوف رطبة..."	دادس	
293/1	"المنحدر المطل على الشمال مليء بتلال ممتازة يقوم عليها عدد لا يحصى من القرى والقصور"	زلاغ	فاس
294/1	"يعد فيه ما يقرب من خمسين قرية وقصرا، وسكانه أغنياء جدا"	زرهون	
300-299/1	مزروع	تغات	السايس
323-320/1	"تسكنها [قبائل] غمارة... رجال أشداء، صبورون على تحمل التعب والشقاء"	رهونة	جبال الهبط
		بني فنزكار	
		بني عروس	
		حبيب	
		بني حسان	
		أنجرة	
		وادراس	
		بني كرافط	
329/1	"يسكنه فرع من غمارة"	بني كيرير	الريف
329/1	"سكانه أولو بأس شديد"	بني منصور	
330/1	"يسكنه قوم أغنى قليلا من الجبليين الآخرين"	بقوية	
330/1	"سكانه خاضعون لأمر بادس"	بني خالد	
330/1	"سكانه فقراء يرتدون احقر لباس من كل الآخرين"	بني يوسف	
331/1	"سكانه فقراء خاضعون لأمر شفشاون الذي يفرض عليهم اتاوات ثقيلة"	بني زرويل	
331/1	"يعيش سكانه في سعة وأمن"	بني ززين	
331/1	به أمير "يحكم العديد من قبائل هذه الجبال"	جبل شفشاون	
332/1	يرتدي سكانه لباسا رديئاً ويملكون عددا وافرا من الماشية (الماعز والثيران)	بني جبارة	

332/1	"كثير السكان فيه مدرسة لطلبة علم الكلام..."	بني يزرو	
333/1	"سكان الجبل جهلة، والضرائب تفقرهم"	تيزرن	
333/1	في غاية البرودة والوعورة "يلبس الناس كلهم عباءة قصيرة من الصوف"	بني بوشيت	
333/1	"سكانه أغنياء..." (من صنهاجة؟)	بني وليد	
334/1	"يرجع أصل سكانه إلى نفس أصل بني وليد، ويضاهونهم غنى وحرية وشرفا..."	جبل مزنيسة	
335/1	"السكان معفون من كل الاتاوات..."	آيشنوم	
335/1	"كثير السكان..."	بني يدز	
335/1	"سكانه أثرياء جدا..."	جبل لوكاي	
336/1	أهله "شجعان مقدمون"	بني وزروال	
337/1	أفقرهم جور الملك	بني ورياكل	
338/1	يثقل ملك فاس كاهل سكانه بالمغارم	بني أحمد	
338/1	"سكانه سكيرون يعبدون الخمر"	بني جنقن	
339/1	لا تفرض على أهله ضرائب ثقيلة لكونهم ينفقون على الفقهاء والطلبة"	بني مسكدة	
339/1	"جميع السكان أغنياء..."	بني ومود	
344/1	فر عنه أهله بعد سقوط مدينة غساسة في يد الاسبان	جبل كبدانة	كرط
344/1	"تتقاسمه عدة قبائل، كلها غنية ومكونة من رجال شجعان وكرماء جدا..."	جبل بني سعيد	
345/1	هجره أهله هو الآخر بعد سقوط غساسة	جبل ازكنكن	
345/1	"السكان أحرار يزرعون أرضهم دون أداء أية إتاوة"	جبل بني توزين	
346/1	سكانه شجعان أثرياء..."	جبل وردان	
356/1	"لا يدفع سكانه خراجا... وقلما يحترمون ملوكهم..."	جبل مطغرة	الحوز
356/1	"شجعان كرماء، لا يقدرّون على الاتجار في السهل لأنهم لا يخضعون لملك فاس ولا يقدمون له أية ضريبة، بسبب كبريائهم وطبيعة جبلهم الذي يمكنهم من الصمود..."	جبل غيابة	
357/1	"شجعان كانوا راجلين أو راكبين... لا يؤدون أية ضريبة، ويمكنهم إيواء المنفيين من فاس... ويعطي هذا الجبل حوالي ستة آلاف محارب، لأنه يضم أربعين قرية كبيرة ومزدهرة"	جبل مكاسة	
357/1	"تسكنه قبيلة غنية قوية تملك الكثير من الخيول ولا تؤدي أية ضريبة"	البرانس	
358-357/1	"السكان شجعان كرماء... عدد القرى نحو خمس وثلاثين تعطي ثلاثة آلاف محارب من الشجعان المجهزين أحسن تجهيز"	بني ورطناج (تسول)	

358/1	خال من السكان بعدما تحالفت قبائل الجبال المجاورة له على أهله فقتلت رجالهم وأحرقت قراهم، ما عدا أسرة اعتزلت في قمة الجبل "فاستقرت هناك مع أولادها وقليل من المال الذي كانت تملكه..."	جبل وبلان (بويلان)
359/1	"تسكنه قبيلة من الرعاع، يمشون حفاة ويلبسون أسمالا حقيرة ويسكنون أكواخا من قصب"	بني يستيتن
360/1	"ليس لسكانه أي بيت من حجر، وإنما كل أكواخه من قصب يستطيعون نقلها من مكان إلى آخر..."	جبل سليلكو (سليلو)
361/1	تسكنه "قبيلة غنية محترمة جدا لأدبها وطريقة عيشها"	جبل بني يازغة
362/1	"بارد جدا بحيث لا يمكن السكن إلا في المنحدر المواجه لفاس"	أزكان
368/1	"يسكنه قوم لا يأبهون بالبرد... لا يؤدون أية ضريبة..."	جبل بني مراسن
368/1	كثير السكان وإليه ينتمي كثير من أدباء فاس...	جبل مسطاطة
369-368/1	"يسكنها قوم من قبيلة زناكة، مرعوبون أقوياء، لا يبالون بالبرد والثلج..."	جبال زيز

تبدو الجبال المغربية أواخر العصر الوسيط من أوصاف الوزان، وحدات شبه مستوطنات بشرية، تختص كل واحدة منها بقبيل أو مجموعات تتباين في الصفات والقابلية للتعامل مع الآخر من منطقة إلى أخرى. إلا أن ذلك لا يمنع من ملاحظة مدى انعكاس الأحوال العامة للمغرب نهاية العصر الوسيط على استيطان الجبل، ذلك أن مختلف مظاهر تشغيب عرب المعقل والتهديد البرتغالي، ناهيك عن الضعف السياسي، وتتصل القبائل من سلطة بني مرين وخلفائهم بني وطاس الضعيفة، هذا دون أن نغفل عن أثر الفقر الجغرافي في السلوك الاجتماعي لبعض سكان الجبال المغربية، كلها عناصر تراكمت لصناعة المشهد الذي حملته معطيات الجدول أعلاه، والتي تفيد في تأكيد بعض القضايا من قبيل؛ حيوية وأهمية الجبل في الاستيطان البشري للبادية المغربية، ثم أثر التقهقر القبلي وضعف السلطة المركزية، وأخيرا تأكيد التباينات المجالية والتمايزات الطبقية، والتي تعكس حالة اجتماعية ذات صلة بالمعطين؛ السياسي، من حيث عطف ورضى السلطة، والذي يقابله غالبا إعفاء ضريبي أو العكس، وما يقابله من تمرد وتسريب. والمعطى الطبيعي من حيث الفقر المجالي لبعض الجبال في مقابل وفرة الموارد وخصوبة الأرض في جبال أخرى، وما ينشأ عن ذلك من اعتزاز بالنفس والموطن، أو سلوك مسالك منبوذة أخلاقيا واجتماعيا.

II. الحياة الاجتماعية لأهل البادية

لا شك أن البداوة نمطاً اجتماعياً تعبير عن أساليب في التنظيم والمعاش والتصرف البشري، سمتها الأساس هي البداءة والتصرف بمنطق الطبيعة، فهي إذن من عوارض العمران حسب النظر الخلدوني¹، وتتفق المعاجم العربية مع صور الإخباريين والرحالة العرب على وصف البدو أهل البادية بصفات تتباين بين الغلظة والقسوة أحياناً، والكرم والشهامة أحياناً أخرى.

ينظم البدو على المستوى الاجتماعي غالباً في شكل جماعات قبلية، إلا أنهم على المستوى الاقتصادي يتباينون حسب طبيعة تكسبهم، ويتدرجون من مزارعين مستقرين إلى رحل منتجعين وبينهما أنصاف رحل، وفي المغرب الوسيط يمكن التمييز بين هذه المراتب الثلاث مجالياً ما بين أهل الصحراء وسكان الجبال والمستقرين بضواحي المدن وفي القرى.

1- البداوة ومسألة التغير الاجتماعي

تمثل المفاهيم والنظريات الخاصة بعلم الاجتماع أحد المداخل التي يمكن البناء عليها في محاولة تصنيف المعطيات المصدرة الخاصة بتاريخ البادية المغربية²، فالتاريخ ما هو إلا اكتشاف وتطبيق قوانين التقدم الاجتماعي. هذه الأخيرة التي تتقدم - حسب ادورد كار-: "الاكتساب الاجتماعي الذي يشكل مصدر التقدم في التاريخ"، والذي بدوره يمكن قياسه بمعيار الأجيال.³

التقاطعات بين علمي التاريخ وعلم الاجتماع كثيرة⁴، والتي منها الاهتمام بدراسة المجتمع بما هو تاريخ في ذاته ومنخرط في حركية هذا الأخير¹، ومن هذا الانفعال التاريخي للمجتمع

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 46.

² - وهذا التوجه يتمشى مع عملية الاغتناء المستمر للمعرفة التاريخية من مفاهيم العلوم الأخرى، والتي شكلت منطلقاً لتمدد قائمة الأسئلة التي صار يطرحها المؤرخ على المصادر. حبيدة محمد، "التاريخ الاجتماعي مارك بلوك ولوسيان فيفر"، ضمن كتاب: المدارس التاريخية (برلين - السوربون - استراسبورغ)، من المنهج إلى التنازع، دار الأمان-الرباط، ط1، 2018، ص 78.

Veyne (P.), *Comment on écrit L'histoire*, Paris, Seuil, 1971, p258

³ - ادورد هاليت كار، ما هو التاريخ؟، ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1976، ص ص 108-110.

⁴ - بيتر بيرك، علم الاجتماع والتاريخ، ترجمة داوود صالح رحمة، منشورات دار علاء الدين، دمشق - سوريا، ط1، 2007.

ظاهرة التغير الاجتماعي، والتي تبدو أجراتها وإمكانية إسقاطها على الواقع التاريخي لمغرب نهاية العصر الوسيط أمرا يسهم، ولا شك في بناء صورة تقريبية للتحوّل الاجتماعي بالبوادي المغربية خلال هذه الفترة.

أ- التغير الاجتماعي (*changement social*)

يحتوي التغير من الناحية اللسانية على معاني أخرى مترابطة فيما بينها: مثل الاضطراب، التجديد، التبدل، التطور، التدرج، الانتقال والتحسين.² والتغير الاجتماعي مفهوماً في علم الاجتماع بالنسبة لإميل دوركايم (Durkheim Emil)، "هو قبل كل شيء مرحلة تاريخية انتقالية بين حالتين مستقرتين للمجتمع".³ المعنى نفسه ذهب إليه عالم الاجتماع الفرنسي روشي (Rocher Guy) حينما كتب على أن "التغير الاجتماعي يتوقف إلى حد ما على التحولات الملحوظة والقابلة للتحقق على مدى فترات زمنية قصيرة".⁴ فهو كل تحول ملحوظ في الزمن "يؤثر بطريقة غير مرحلية أو سريعة الزوال، في بنية أو وظيفة التنظيم الاجتماعي لجماعة معينة ويقوم بتعديل مجرى تاريخها".⁵

إجمالاً، فالتغير الاجتماعي في أدبيات علم الاجتماع يشكل ظاهرة مستديمة، تنجم عنها تحولات على مستوى الجماعة البشرية بأسرها، وقد حاول عدد من منظري هذا العلم وضع إطار نظرية لتفسير حركة التطور التي تعرفها الجماعة البشرية، بما هي "بنية متوازنة يسهم كل عنصر فيها في الإبقاء على المجموعة"⁶، فمن قانون الحالات الثلاث لأوغست كونت -

¹ - عبد السلام ديار، البادية المغربية بين التحديث وإعادة إنتاج البنيات التقليدية -منطقة قرية بامحمد كنموذج-، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، تخصص علم الاجتماع، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- فاس، السنة الجامعية 1993-1994، ص 14.

² - فاطمة مسدالي، المجتمع القروي الدكالي والتغير المرتبط بتدخل الدولة الزمامرة نموذجاً، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع- الرباط، 2005، ص 4.

³ - Alexis Trémoulinas, *Sociologie des Changements Sociaux*, Edition la Découverte, Paris, 2006, p17.

⁴ - Guy Rocher, *Introduction à La Sociologie Générale: Le Changement Social*, Edition HMH. Ltée, 1968, p17.

⁵ - Ibid, p22.

⁶ - جيل فيريول، معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة وتقديم بسام محمد الأسعد، دار ومكتبة الهلال- بيروت، ص 41-42.

والذي ميز بين مراحل اللاهوت، الميتافيزيقا فالعهد الوضعي - إلى تقسيم العمل عند دوركهيلم، الذي يجعل التغير مرتبطاً بالانتقال من مجتمعات قائمة على التضامن الميكانيكي إلى مجتمعات تقوم على التضامن العضوي. وصولاً وليس انتهاء إلى ماركس، الذي ينطلق من صراع الطبقات لتفسير تتابع تطور أنماط الإنتاج أسيوي - قديم - إقطاعي - رأسمالي.¹

من جهة أخرى، يرتبط التغير الاجتماعي ظاهرة اجتماعية بعلة، أو ما اصطلح عليه السوسيولوجيون "المحرك الأول"، الذي يرتبط بالديموغرافية مع كل من "دافيد ريسمن" و"إيستر بورزاب"، وبالتقدم التقني مع "لويس مامفورد"، وبأنظمة القيم والايديولوجيات مع الثنائي "لويس ألتوسير" و"كليفورد غيرتز".²

هذه بشكل مختصر بعض القراءات النظرية لظاهرة التغير الاجتماعي، والتي يهمننا منها وقوفها عند بعض العوارض التي تفسر الظاهرة أكثر من كونها قوالب، يمكن إسقاطها على الواقع الاجتماعي لبدو المغرب بشكل مباشر والقبول بالنتائج خلاصات نهائية، وهذا الموقف في الحقيقة ليس اختياراً ذاتياً بقدر ما يرتبط بموقف بعض الباحثين في علم الاجتماع ذاته، على اعتبار أن نتاج هذا العلم لا يمثل "سوى أطراً للتحليل، أي "هياكل" ضرورية ومفيدة لإتمام بعض البحوث، مما يقتضي التمييز بين النتائج التجريبية وأنماط المعقولة".³ وعلى هذا الأساس فتضمن البحث في الحياة البدوية مثل هذه المفاهيم، وطرق باب النظريات السالفة الذكر سوف يسمح لنا بمقاربة بعض الإشارات المصدرة وفق نظام مفاهيمي مستورد من

¹ - وبالتالي فقد اختلف الباحثون في السوسيولوجية حول ماهية التغير الاجتماعي، وهذا ما حملته بعض التأليف في هذا الباب إذ يمكن التمييز بين ما ركز عليه البعض عن البعض الآخر، وذلك ما بين وصف أشكال التغير الاجتماعي (Les Rostow(w.w), 1962. *Etapes Croissance Economique*, Paris, 1962.) إلى البحث في عوامل التفسير الاجتماعي حيث الربط بين التغير الاجتماعي والشروط المادية للإنتاج (LERNER Daniel, *The passing of traditional society, modernizing the* (Middle East, The free press, New-York, collier-Macmillan limited, London, 1968, pp 46-68. إلى حديث Bourricout و Boudon Raymond عن ارتباط الحديث عن التغير الاجتماعي بتمييز الأسباب الرئيسية للتغيير وعزل السيرورات الأساسية له ثم اتخاذ موقف حول طابعه الخارجي (التغيير) قبل تحديد شكله (تطوري، خطي، دوري، مستمر، أو غير مستمر). (Raymond Boudon et Bourricout. (F.), *Dictionnaire Critique De La Sociologie*, PUF, Paris, 1962).

² - جيل فيريول، معجم مصطلحات علم الاجتماع، م. س، ص 42.

³ - نفسه، ص 44.

تخصص معرفي آخر، أمر بقدر ما أنه يحتوي على جزء كبير من المغامرة، بقدر ما أنه ضروري وذو أهمية ويستوجب استحضار السياق التاريخي بين الفينة والأخرى.

ب- التغير الاجتماعي في سياق التاريخ المغربي

التغير الاجتماعي مفهوم دخيل على التاريخ، غير أنه نظريةً يمكن توظيفها في ميدان البحث التاريخي، ومساءلة النصوص المصدرة انطلاقاً من إشكالاتها حول بعض التحولات البنيوية للتنظيم القبلي بمغرب نهاية العصر الوسيط، والذي يعتبر عماد الحياة البدوية خلال هذه الفترة، فكيف رصدت الإشارات التاريخية نهاية العصر الوسيط لظاهرة التغير الاجتماعي؟

للإجابة على التساؤل السابق وربط مفهوم التغير الاجتماعي بالبحث التاريخي، نقف شيئاً ما عند نظرة ابن خلدون لل عمران البدوي، والذي يجعله أحد قسَمي العمران، الذي هو أساس الاجتماع البشري، والعمران البدوي "مرتبط بالبادية، التي هي مفهوم ذو معنيين، اقتصادي وجغرافي، ومن تم فإنها تدل على السهل والجبل كما تدل على الصحراء... إنها تعني كل الأسوار الموجودة خارج المدينة، ففي هذه البنية الطبيعية تعيش جماعات اجتماعية واقتصادية يشكل عمرانها طريقة حياة البادية"¹. إذن فالبنية الاجتماعية التي تعني البدو بمغرب العصر الوسيط هي كل الجماعات البشرية التي تعيش ضمن البنية الطبيعية للبادية. وتتباين أحوالهم حسب التعابير الخلدونية ما بين؛ البدو الأقحاح، المنتجعون، المزارعون، الضواغن... إلا أن ما يكاد يجمع بينهم هو بساطة الحياة ونمط العيش الذي لا يخرج حسب ابن خلدون عن كونه رعياً أو زراعة.²

كتب ابن خلدون عن جوهر الكتابة التاريخية في علاقة مع ما سبق تحديده من متعلقات مفهوم التغير الاجتماعي، "إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل³ فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار فهو أس للمؤرخ تتبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به

¹ - عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد الشريف بن دالي، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ص 135.

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص ص 42-43

³ - الجيل في اللغة "الصنف من الناس، وقيل الأمة، وقيل كل قوم يختصون بلغة جيل". ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج11، ص 134.

أخباره"¹، ثم إن هذا التأليف يرتبط برغبة المؤرخ في تسجيل ما تعرفه الأمم والأجيال من تغير وكثير انتقال.² وعليه يكتب ابن خلدون-، فإذا ما تبدلت أحوال المغرب والعالم، حتى وكأنما "تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ويقفوا مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلاً يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده".³

يتحدث ابن خلدون هنا عن جملة الأحداث والتحويلات التي عرفها المغرب، ويعني أساساً، الآتي:

← مظاهر التحول الاجتماعي الذي عرفه المغرب آخر المئة الثامنة، بعدما انقلبت أحواله، "وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بما طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم".⁴

← أثر الخراب الذي حل بالعمران منتصف القرن الثامن، جراء "الطاعون الجارف الذي تَحَيَّفَ الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها".⁵

وبالجملة، ما انتهى إليه الوضع نهاية المئة الثامنة، من انتقض لعمران الأرض بانتقاض البشر، وضعف للدول والقبائل، ثم انتهاء لتبدل الساكن، حتى وكأنه يكتب ابن خلدون: "نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة".⁶

وعى ابن خلدون يكتب عابد الجابري- بالمنعطف التاريخي الذي شهده عصره، ورأى فيه إيذانا بتحول جذري كانت نتيجته "خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث"⁷، فأراد أن يسجل

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 42.

² - نفسه.

³ - نفسه، ص ص 42-43.

⁴ - نفسه.

⁵ - نفسه.

⁶ - نفسه.

⁷ - نفسه.

الماضي والحقبة المنتهية -التي هو شاهد عليها- ككل واحد متكامل الحلقات ومتلاحم الأجزاء.¹

التاريخ إذن، تسجيل للتغيرات التي تعرفها الجماعة الإنسانية، وذلك بهدف فهمها ومحاولة تفسيرها، موقف يتماهى فيه مع ابن خلدون **ثيودور هامرو** الذي وإن قلص من فائدة المعرفة التاريخية إلى رغبة في معرفة الماضي لذاته، إلا أنه يقر بالمصلحة الجماعية في معرفة الماضي الذي يشكل أساس التاريخ، "لأن حياة الجماعة لا يمكن أن تستمر دونه، فنحن نحس بحاجة ملحة لمعرفة من أين جئنا؛ كما أننا نشعر بحاجة مماثلة لكي نتخطى حدود سنوات حياتنا القصيرة على الأرض، لنرى وجودنا جزءا من الوجود العام للأمة، أو الجماعة أو الحضارة الإنسانية جمعاء".² لعل الأهمية التي يحملها مثل هذا التصور للتاريخ هي توجيه الدرس التاريخي نحو التفاعلات القيمية للأحداث الماضية، في تكوين وهوية الفرد ضمن المسار العام للجماعة، والذي رصد معالمه الكبرى ابن خلدون، ما جعل مفكرا من طينة عابد الجابري يصف التاريخ بـ"مختبر التجارب" الإنسانية.³

نحن إذن، أمام مسار من التغير الاجتماعي؛ يمكن ملاحظة بعض أوجهه في التحولات الكبرى للجماعات. وفيما يلي تخطيط لمسار الانتقال في الحياة البدوية حسب ابن خلدون، والتي تتخذ شكل أنماط من المعاش، تتناسب وطريق تحول أهل العصبية من رعاة ذوي شظف في العيش وقسوة في المعاش إلى فلاحين مستقرين خاضعين لغيرهم، ممن بيده السلطة وتحت حماية غيرهم.

الشكل رقم 2: خط توضيحي لتصوير ابن خلدون لتطور حياة الجماعات البدوية



¹ - عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط6، أبريل 1994، ص 93

² -Theodore (S.), **Hamerow: Reflections On History And Historians**, The University Of Wisconsin Press, 1987, pp 12-33

³ - عابد الجابري، العصبية والدولة، م. س، ص 92.

من خلال الخط التطوري أعلاه، والذي يبرز التباين في الأنماط المعاشية والاجتماعية للجماعات البشرية البدوية، فإننا نلاحظ حضور المعطى الطبيعي، ممثلاً في البيئة المحيطة بتجمع البدو وموطن سكناهم، وهذه النقطة بالضبط هي المنفذ الذي يمكننا من خلاله تتبع أثر الماء في هذا الانتقال، ذلك أن حاجة الرحل إلى الماء تتباين ومثيلتها لدى المستقرين المشتغلين بالزراعة، وعليه فالماء عنصر في التمايز بين هذه الأنماط. أكثر من ذلك فوفرته، كما ندرته تعتبر عاملاً أساسياً في توجيه أهل البادية نحو النشاط الذي يتلاءم مع بيئتهم. ولا يتوقف تأثير الماء عند هذا الحد إذ يبدو أنه عامل في حركة التغير ذاتها، ويمكن الانطلاق منه والاعتماد عليه أحدَ العوامل في تفسير ظاهرتها وهذا ما سنقف عليه في مواضع مختلفة من هذا البحث.

2-الدورة الاجتماعية لأهل البادية

يضعنا ابن خلدون أمام تصور للتحويلات التاريخية والاجتماعية في سياق عام تحكمه طبائع العمران¹، ووفق هذه الطبائع فإن أهل البادية رعاة أهل إبل أو غنم أو مزارعون، أرباب فلاح ونتاج²، غير أن هذا التصنيف القائم على طبيعة المعاش والتكسب ليس هو الوحيد الذي يمكن الانتباه إليه بخصوص أهل البادية في مؤلف ابن خلدون، ذلك أن وقفة مع بعض التعابير والاصطلاحات التي يوردها، عند حديثه عن بعض الجماعات أو الفروع القبلية تمنحنا صورة أخرى لأحد أشكال التعايش بين أهل البوادي المغربية، ينم عن نوع من التعاقدات الاجتماعية، فقد كتب متحدثاً عن قبائل هواره "أمم كثيرة في مواطن من أعمال تعرف بهم، وظواعن شاوية تنتجع لمسرحها في نواحيها، وقد صاروا عبيدا للمغارم في كل ناحية. وذهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات بسبب الكثرة، وصاروا إلى الافتراق في الأودية بسبب القلة والله مالك الأمور"³.

لا تنتقل أحوال القبائل حسب ابن خلدون من القوة إلى الضعف فحسب، بل يستتبعها كذلك تحول على مستوى العلاقة مع محيطها القبلي، ما كان ينتج عنه نشوء علاقات قائمة

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 1، ص ص 47-49.

² - نفسه، ج 1، ص ص 151-152.

³ - نفسه، ج 6، ص 190.

على استغلال المجال وفق قواعد يفرضها الأقوى ويخضع لقوانينها الضعيف¹، ومن جملة العبارات التي تحينا على هذا الاستنتاج في مؤلف تاريخ ابن خلدون نضع تمثيلا لها في الجدول أسفله.

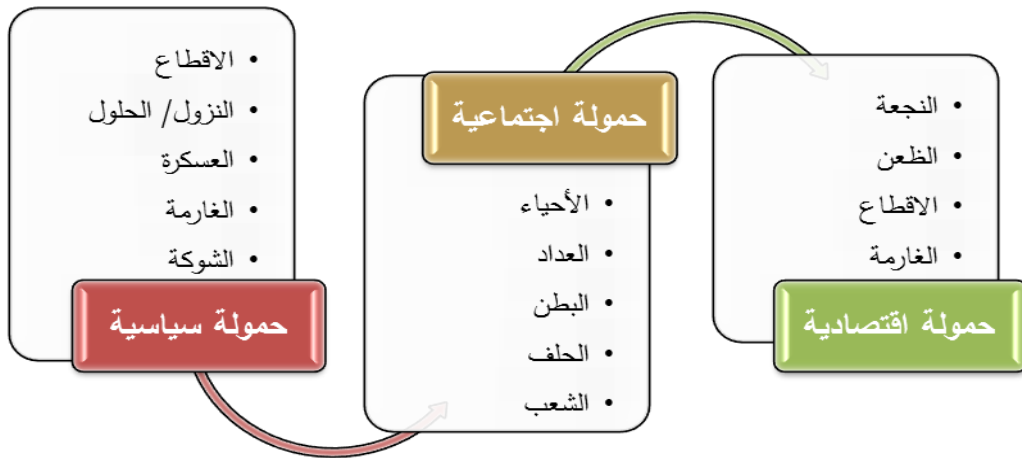
الجدول رقم 6: أحوال التساكن القبلي بالمغرب من خلال كتاب العبر لابن خلدون

السياق	نص الإشارة	المصطلحات	ج/ص
في شأن العرب المستعجمة	"فاستعملتهم الدول وولّوهم الإمارة على أحيائهم وأقطعوهم في الضاحية والأمصار والتلول وأصبحوا جيلا في العالم ناشئا".	الإمارة الإقطاع	6/6
الكلام عن عرب الخلط	"وبالمغرب من بني المنتفق أحياء دخلوا مع هلال بن عامر يعرفون بالخلط، ومواطنهم بالمغرب الأقصى ما بين فاس ومراكش".	الأحياء	16/6
كتامة وصنهاجة ببلاد المغرب	"وترك [إفريقش] كتامة وصنهاجة من قبائل حمير، فاستحالت طبيعتهم إلى البربر واندرجوا في عدادهم، وذهب ملك العرب منهم".	العداد	17/6
استقدام المنصور الموحدي للقبائل العربية للمغرب الأقصى	"فنقل جمهور هؤلاء القبائل إلى المغرب ممن كثرة وشوكة وظواعن ناجعة. فنقل العاصم ومقدم من بطون الأثبج، ومعهم بطون ونقل جشم هؤلاء الذين غلب اسمهم على من معهم من الأحياء وأنزلهم تامستا. ونقل رياح وأنزلهم الهبط فنزل جشم بتامستا البسيط الأفيح ما بين سلا ومراكش أوسط بلاد المغرب الأقصى، وأبعدها عن الثايبا المفضية إلى القفار لإحاطة جبل درن بها وشموخه بأنفه حذاءها، ووشوح أعراقه حجرا عليها فلم ينتجعوا بعدها قفرا ولا ابعدوا رحلة، وأقاموا بها أحياء حلولا، وافترقت جيوشهم بالمغرب إلى الخلط وسفيان وبني جابر..."	الشوكة الظواعن النزول الحلول	37/6
في تضعضع حال قبائل هلال بعد توطيئها بالمغرب	"ثم ضربت الأيام ضرباتها وأخلقت جدتهم وفشلوا وذهبت ريحهم، ونسوا عهد البداوة والناجعة، وصاروا في عداد القبائل الغارمة للجباية والعسكرة مع السلطان"	الناجعة الغارمة العسكرة	37/6
بنو جابر من عرب بني هلال	"تحيز بنو جابر هؤلاء من أحياء جشم إلى سفح الجبل بتادلا وما إليها يجاورون هناك صناكة... فيسهلون إلى البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا دهمتهم مخافة من السلطان أو ذي غلبة... وقد يزعم كثير من الناس أن ورديفة من بني جابر ليسوا من جشم، وأنهم بطن من بطون سدراتة إحدى شعوب لواتة من البربر، ويستدلون على ذلك بمواطنهم وجوارهم للبربر".	الحلف البطن الشعب	-42/6 43

¹ - وهنا تجدر الإشارة إلى وقوع تحول في بعض الأحيان، حتى في العلاقة بين ساكنة المدن وأهل الضواحي يتحول بموجبه هؤلاء إلى تابعين ومشتغلين في خدمة أراضي أهل المدينة وفي هذا الإطار نستشهد بنص شارة للوزان، في معرض حديثه عن بعض فقراء الأعراب الذين يعيشون خارج المدينة في مداشر ويشغلون في زراعة الأرض مناصفة مع أهل فاس، ونفس الشيء سجله عن أرياف مكناس. انظر؛ الوزان، وصف إفريقيّا، م. س، ج 1، ص 207.

مَثَّل هذا الجدول لبعض أحوال الوجود القبلي بالمغرب الأقصى، والأمر نفسه ينطبق على باقي المكونات القبلية الأمازيغية. وعموماً، فالواضح أن المصطلحات التي ضمنها ابن خلدون في متن إشاراتِه في هذا الموضوع توفر لنا مدخلا ذا قيمة في تكوين صورة عن طبيعة التحولات التي كانت تعيش على إيقاعها التنظيمات الاجتماعية البدوية بمغرب الوسيط. ومن خلال جرد الكلمات المفاتيح في نصوص الإشارات المثبتة في الجدول أعلاه، يمكننا الخروج بتصنيف ثلاثي لهذه المفاتيح حسب دلالتها اللغوية، وفق الخطاطة أسفله.

الشكل رقم 3: خطاطة لجوانب التداخل في النظام القبلي بالبادية المغربية من خلال ألفاظ كتاب العبر لابن خلدون



تتأكد الصلة بين العامل السياسي والاقتصادي، وما تعرفه الجماعات البدوية من تحولات في قراءة ابن خلدون للواقع القبلي بالمغرب الوسيط، ومعه يتبدى واقع تنظيمها كانعكاس لموقعها من السلطة والذي يتحدد من خلال مكانتها ضمن النسيج العام للمجتمع ككل، فبين حالات الضعف التي تسمح للسلطة المركزية في تحديد مجال استيطان واستقرار هذه الجماعات، إن لم يكن تحديد وظيفتها واستغلالها في خدمة أغراضها التوسعية أو في جباية القبائل الأخرى، أو حفظ التوازنات القبلية... فيما تسمح القوة والمناعة لأهل البادية فيه بهوامش كبيرة في المناورة والخروج عن سلطان الدولة، وممارسة بعض الأنشطة التي تحس من خلالها بحرية تصرفها وتعتر من وراءها بجموعها.

من مظاهر تباين أحوال أهل البادية المغربية كذلك، نقف على نمط المعاش وشكل التكسب، إذ يضعه ابن خلدون من ضمن المحددات الشكلية لمكانتهم وموقعهم من المشهد

الاجتماعي، فقد كتب واصفا أمم البربر: "ومعاش المستضعفين منهم بالفلاح ودواجن السائمة. ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأطعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة".¹

يمر التنظيم القبلي الذي هو عماد سكنى البادية حسب التصور الخلدوني للعمران البشري من مراحل توازي على ما يبدو مراحل تطور الدول، وهذا ما يمكن استنتاجه من خلال بعض الإشارات، من قبيل قوله أثناء حديثه عن أمم البربر ف"أصابهم الفناء وتلاشت عصاباتهم بما حصل لهم من ترف الملك والدول التي تكررت فيهم، قلت جموعهم وفنيت عصاباتهم وعشائهم وأصبحوا خولا للدول وعبيدا للجباية..."² بعدما كان "يظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي، فيما قرب من الرحلة، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار... وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب".³ ويتناغم هذا النص مع إشارة لصاحب الذخيرة السنية متحدثا عن القبائل المرينية في بداية أمرها وقبل اشتغالها بالسلطة، إذ كتب يقول: "ينزلون بأنعامهم فشي السبابس والصحاري... لا يعمرن إلا القفار، ولا يؤدون لسلطان بدرهم ولا دينار، ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان... [و] لا يعرفون الحرث ولا التجارات، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات، جل أموالهم الإبل والخيول، ودأبهم الحرب وخوضان الليل، وشيمتهم إكرام الضيف، وضرب أعدائهم بالسيف".⁴

إشارات ابن خلدون والمصادر التاريخية معه خلال العصر الوسيط، يعاكس فيها توجه الحرية القبلية -والتي كانت علامة على الرفعة والبأس- توجه الحضارة، فمقابل الانتقال من حياة الرعي واللا استقرار إلى الاستقرار، فالحضارة، تشكل نهاية الدورة وقمة مظاهر الذل، الذي يرتبط بالاستقرار⁵، فيما تأتي حياة الرعي أساساً لحرية القبيلة.

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص 116.

² - نفسه، ص 136.

³ - نفسه، ص 116.

⁴ - ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط، 1972، ص 25.

⁵ - يتفق مع هذا التصور الوزان في تفسيره لانتشار البربر بالمغرب، حيث أنهم "كانوا قديما في حروب طويلة بينهم، وأن المغلوبين الذين أصبحوا أرقاء للمنتصرين اضطروا إلى السكنى في المدن، بينما استولى الغالبون على البوادي التي استقروا فيها". الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 36-37.

إن النمط المفضل في تصنيف أهل البادية هو القيام بالنجعة والنهب، يليه الظعن، حيث الرعي القريب، فالزراعة، التي ترادف الاستقرار، وهو أمر غير مستحب. ويأتي إكراهاً وتتبدى فيه القبائل منهزمة خاضعة، حيث لا تملك مصيرها بذاتها، وتكون عرضة للتفتت والانحلال، وبهذا التطور تنشأ مظاهر أخرى للانتظام الاجتماعي في شكل أحلاف وجماعات بدوية غير ذات القرابة الدموية.

تعتبر تعابير ابن خلدون في هذا الصدد، مفتاحاً لإعادة ترتيب عناصر البنية القبلية، والتي حولتها مجمل التغيرات التاريخية من وحدات تعتمد على القرابة الدموية، وترفع عنوان التعصب للدم، إلى وحدات اجتماعية تتربط وفق الدفاع¹ عن المصالح المشتركة، والمتمثلة في التعاون للدفاع واستغلال المجال، ولا أدل على هذا التحول من واقع العناصر العربية التي أوطنها المنصور الموحي بالسهول الساحلية، والتي تحول أغلبها حسب عدد من الإشارات الواردة في نص مؤلف الحسن الوزان "وصف إفريقيا" إلى مزارعين يعملون في حرث الأرض والاشتغال بالفلاحة، حتى إن بعض فقرائهم عملوا في خدمة أراضي أهل فاس ومكناس مناصفة.²

ونختم هذه النقطة بنص شاهد لابن خلدون، حول سعي القبائل المرينية الغالبة على عهده إلى البحث عن جذور الانتساب للعرب³، لما في طباعهم من مظاهر العزة والأنفة، وهي المدارك التي يعز بها الانتماء خلال تلك الفترة، فكتب: "وإنما حمل نسبة زناتة على الانتساب في حمير الترفع عن النسب البربري، لما يرونهم في هذا العهد خولا وعبدا للجباية وعوامل الخراج، وهذا وهم فقد كان في شعوب البربر من هم مكافئون لزنانة في العصبية أو أشد منهم، مثل هواره ومكناسة، وكان فيهم من غلب العرب على ملكهم، مثل كتامة وصنهاجة، ومن تلقف الملك من يد صنهاجة مثل المصامدة، كل هؤلاء كانوا أشد قوة وأكثر جمعا من زناتة. فلما

¹ - ملحم قربان، *خلدونيات: السياسة العمرانية*، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 1404هـ/1984م، ص ص 136-138.

² - الوزان، *وصف إفريقيا*، م. س، ج1، ص 207.

³ - إسماعيل بن الأحمر، *روضة النسر في دولة بني مرين*، مطبوعات القصر الملكي، المطبعة الملكية- الرباط، 1362هـ/1962م، ص ص 8-9. ابن أبي زرع، *الذخيرة السننية*، م. س، ص 14. ابن أبي زرع، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط، 1972، ص 279.

فנית أجيالهم، أصبحوا مغلبين، فنالهم ضر المغرم، وصار اسم البربر مختصا لهذا العهد بأهل المغرم، فأنف زناتة منه فرارا من الهزيمة¹.... مع أن المذلة للبربر إنما هي حادثة بالقلة ودثور أجيالهم بالملك الذي حصل لهم، ونفقوا في سبله وترفه".²

إذن، قواعد التحول في طرح ابن خلدون واضحة، تسير وفق دورة من التبدلات الاجتماعية للجماعات القبلية، لكن كيف عجز ابن خلدون، ومعه قواعد التحليل التي اعتمدها، في تفسير الوضع على آخر عهده؟

إن حالة الفوضى التي آلت إليها الأوضاع الاجتماعية بالمغرب آخر عهد ابن خلدون³، جعلت الآليات التي اعتمدها في التحليل، تتصادم وجزئيات التحول ومتغيرات الواقع اليومي، الذي يتأثر بالواقع البيئي وتقلبات الحياة اليومية، يصعب التنبؤ به وتوقع حدوثه، فكانت أشياء من قبيل؛ الصراعات العائلية، ومناوشات الزيجات، بل وصراع الأبناء... عناصر يمكن أن تحدث تحولات أكبر من المتوقع، وبذلك يمكن تشبيه الوضع الاجتماعي ودراسته بوضع علم المناخ وتقلباته مطلع القرن الماضي، والتي كانت السبب في ابتداء نظرية الفوضى (علم اللامتوقع).⁴

إن ميزة الاستعانة بتصور هذه النظرية، تكمن في تنبيهها إلى أهمية تأثير الحوادث البسيطة، إذ تنبني فكرة النظرية على أساس "ظاهرة قوامها أن حدوث تغيرات بسيطة في المعطيات الأولية التي تتعامل معها تلك المعادلات، تقضي إلى نتائج هائلة عند الحساب النهائي. وسمت نظرية الكايوس [الفوضى] تلك الظاهرة "الاعتماد الحساس على المعطيات الأولية"⁵، وعلى هذا الأساس يمكننا تصنيف الحوادث التي تهم الحياة القبلية إلى عناصر وتحولات كبرى، وعناصر وتحولات بسيطة، فيما الكل يسير في قالب الحركة، التي وضعها ابن

¹ - بمعنى الظلم وهو اسم من مصدر هضم، و"هضمه يهضمه هضما واهتضمه وتهضمه: ظلمه وغصبه وقهره، والاسم الهزيمة. ورجل هضم مهتضم: مظلوم. وهضمه حقه هضما: نقصه... والهضم جميعا المظلوم. والهزيمة: أن يتهضمك القوم شيئا أي يظلموك". ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج12، ص 613.

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج7، ص 6-7.

³ - نفسه، م. س، ج1، ص 42-43.

⁴ - جايمس غليك، نظرية الفوضى علم اللامتوقع، ترجمة أحمد مغربي، دار الساقي - بيروت - لبنان، ط1، 2008.

⁵ - نفسه، ص22.

خلدون في تحول العناصر القبلية في اتجاه النمو المفضي إلى الانهيار، ثم التشكل من جديد وهكذا دواليه، في شكل دائري غير منتهي.

ومن ضمن المسائل التي تخضع لهذا الشكل قضايا الماء، باعتبار دمج تدبيره في البوادي المغربية بين بساطة شديدة التعقيد، تجعل الباحث أمام أنظمة بسيطة الشكل (دورات تقسيم مياه/ حصص مائية (نوبات)....، لكن بخلفيات وطقوس وخصوصيات ترتبت وفق متغيرات وقوالب اجتماعية غير منضبطة. إننا بالضبط أمام انتظام ينبثق في قلب نظام فوضى من المتغيرات البسيطة¹، إننا فعلا في تتبع "أثر جناح الفراشة" الاختزال الشهير لنظرية الفوضى.²

انتهت القراءة الخلدونية إلى تحول أغلب الجماعات القبلية نحو الاستقرار واستغلال المجال، وحين ضعفت الدولة تحولت أهدافها (القبائل) ليس إلى تعويض المنحل من العصبية، بل اشتغل بعضها بانتزاع ما في يد البعض الآخر، وأخذت في استهلاك أفرادها في صراعات لا تنتهي، ولا تحقق ما كان وضعه لها ابن خلدون من حصول الملك³، فكان الحال وكأن الدورة انتهت إلى غير المتوقع لها نظريا، فحق التساؤل مع هذا الوضع عن الأسباب؟

نتيه الإجابة عن مثل هذا التساؤل بين مختلف التحاليل المقدمة لتفسير هذه الأوضاع التي آلت إليها البلاد، فبين ما تقدمه القراءة الخلدونية أو بالأحرى ما يستفاد من تحليلاتها، التي تحيل على الحتمية الاجتماعية والمصطدمة بواقع غير الذي اعتادت البناء عليه، يأتي البعض الآخر معتمدين على القراءة الخلدونية ذاتها، فينتزع من تحليلاتها بعض الأحكام العنصرية دافعا باتجاه إلصاق التهمة بالدور التخريبي للعرب، فيما يقوم البعض الآخر على النقيض من ذلك بالبحث في اتجاهات أخرى تدمج بين المعطيين الاجتماعي والاقتصادي، مع

¹ - من قبيل تأثير المصاهرة مثلا أو حتى الصراعات الأسرية....

² - اشتهرت هذه العبارة في أوساط خبراء الطقوس، و"تقول إن رفعة جناح فراشة فوق بيجينغ تستطيع أن تغير نظام العواصف فوق نيويورك". جايمس غليك، **نظرية الفوضى علم اللامتوقع**، م. س، ص 22.

³ - كتب غاليمس "وبطريقة ما، فلا شيء يتكرر بالطريقة عينها مرتين". جايمس غليك، **نظرية الفوضى علم اللامتوقع**، م. س، ص 26. فالأمر مرتبط، إذن، بتعديل في المعطيات الفاعلة، ومن ثم في النتيجة النهائية، وهي هنا قيام عصبية قبلية تقوم بالمنهارة وهو ما لم يحدث أو بالأحرى سوف يحدث بعد حين في قالب جديد. (قيام الدولة السعدية).

تقديم الاقتصادي وجعله موجهاً للأول¹، فيكون تفسير ما حدث ضرباً من تداخل الأنماط المعاشية، وليس استنباعاً لما صوره ابن خلدون على أنه حتمية اجتماعية.

تنتهي بنا تحليلات الدورة الاجتماعية للوضع للفترة المدروسة، باصطدام الحتمية الاجتماعية بواقع متحول، لم يتمكن معه ابن خلدون من تحيين آليات قراءته، فانتهى به المطاف متشائماً إلى التصريح بتبدل الجيل ونهاية العالم... فيما حقيقة الأمر تعديلات همت القواعد الاجتماعية تحت تأثير فاعل سوسيو-اقتصادي، تمثل في تزواج الأنماط المعاشية، واتساع ظاهرة خرق الوحدات القبلية بكيانات اجتماعية، تختزل مقومات القبيلة في اتحاد المصلحة والهدف ولربما حتى المجال.

وخلاصة القول، أن ما بين مجال البادية وتحولات البنيات الاستيطانية به، تنتهي التجمعات البدوية إلى وحدات اجتماعية شديدة التعقيد، وهي موضوع الفصل التالي من هذا الباب، والذي سوف نتساءل فيه عن ماهية التحول الذي مس البناء القبلي بالبادية المغربية خلال الفترة المدروسة.

¹ - هكذا نجد العروبي مثلاً، يأتي بالتفسير الاقتصادي (المعاشي) لمقابلة التفسير العرقي. عبد الله العروبي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ط2، 2000، ج2، ص ص 54-55.

الفصل الثاني

البادية مجال للقبلية

يروم هذا الفصل، محاولة البحث في الحياة القبلية بالمغرب، من خلال استقراء بعض المعالم النظرية لبعض ما طرحه ابن خلدون حول الاجتماع البشري، ثم محاولة مساءلتها بالاعتماد على النصوص المصدرة وخلاصات عدد من الأبحاث الاجتماعية حول الموضوع.

لقد قدمت النصوص المصدرة تفاصيل كثيرة عن بعض التحركات القبلية، وأثرها على الحياة السياسية والاقتصادية ببلاد المغرب، وفي الوقت الذي استتف فيه عدد من الباحثين المغاربة على رواد المدرسة الاستعمارية بالمغرب، اعتماد قسّمات وقوالب نظرية جاهزة في تحليل وقراءة المجتمع المغربي، فإنهم أنفسهم بالمقابل وقعوا ضحية الإسقاط المباشر لتصورات ابن خلدون، وهو الشيء الذي انعكس على مجموعة من الحقائق التاريخية، ومن جملتها ظاهرة القبلية ودورها في الحياة الاجتماعية والسياسية للمغاربة، فكيف تمثل ابن خلدون للقبلية نمطاً لاستيطان البوادي؟ وكيف يمكن الاستفادة من إشارات المصادر لمعاودة البحث حول تاريخ القبيلة جزءاً لا يتجزأ من تاريخ البادية¹ بالمغرب الوسيط؟ وفي الختام كيف يمكن الانطلاق من التنظيم القبلي للوصول إلى موضوع الماء موضوعاً رئيسياً لهذا العمل؟

1. العمران البدوي؛ حدود التفسير وإمكانية التأويل

يعتبر التصور الخلدوني حول العمران، بوجه عام، والعمران البدوي منه على وجه الخصوص، إحاطة نظرية بجملة المتغيرات التي كانت تطبع تاريخ البادية المغربية خلال الفترة المدروسة، ولئن تعددت القراءات الخاصة بنظرية ابن خلدون في هذا الشأن، فإن العودة إليها لا تزال تكشف المزيد من الحقائق، وفي هذا الإطار نسعى إلى محاولة استقدام الطرح الخلدوني حول العمران البدوي، ومحاكاته بالواقع القبلي للبادية المغربية خلال الفترة المدروسة، اعتماداً على التفاصيل والجزئيات التي كان يسجلها ابن خلدون في تفسيره للظاهرة الأساس، علم الاجتماع البشري الذي هو العمران.

¹ - ارتبطت القبيلة بسكن الريف والبادية، و"استخدمها بالفعل سكان المدن (العرب والبربر المعربّين والأندلسيين والأتراك) للإشارة إلى سكان الريف، سواء من الرحل أو المستقرين، بما في ذلك كان التنظيم الاجتماعي والسياسي يقوم على الشكل القبلي".

Bellil (R.), «Kabylië: La Région Dans Les Ecrits Arabes», Encyclopédie Berbère, 26/2004, p4016.

1- من التساكن إلى القبيلة

لاشك أن الجماعات البدوية بالمغرب، قد طرحت العديد من الإشكاليات التاريخية لزمرة الباحثين في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، وعلى الرغم من انكباب عدد من الدراسات على تفسير الواقع البدوي، إلا أنها ما انفكت تدور في فلك النظام القبلي وما يرتبط به من أطروحات وتعريف، غير أننا في هذه المحاولة سوف نعمل على البحث في الموضوع من زاوية البحث في موضوع البداوة، من منطلق العمران وفق التعريف الخلدوني، فنأخذ من استيطان البوادي المغربية مظهراً من مظاهر العمران الإنساني، وليس شكلاً للحياة القبلية وفق مفهومه الضيق.

يعرف ابن خلدون العمران على أنه "التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات لما في طباعهم [الناس] من التعاون على المعاش"¹، ومن ثم فهو حال من أحوال الاجتماع الإنساني، والذي يتخذ شكلين بارزين هما؛ العمران البدوي والعمران الحضري، وفي ذلك كتب ابن خلدون "[ومن العمران] ما يكون بدوياً وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال ومنه ما يكون حضرياً وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها"².

ويتخذ العمران البدوي وفق التصور الخلدوني عدة مظاهر، وذلك لاعتبارات عدة، يمكن تقسيمها إلى ما هو؛ طبيعي مرتبط بمورفولوجية الأرض وعوامل المناخ، ثم اعتبارات اجتماعية مرتبطة أساساً بالطبيعة الاجتماعية للكائن البشري، وثالثاً أسس دينية راجعة إلى تأثير رجال الصلاح في دعم فرص الاستقرار بالبادية المغربية.

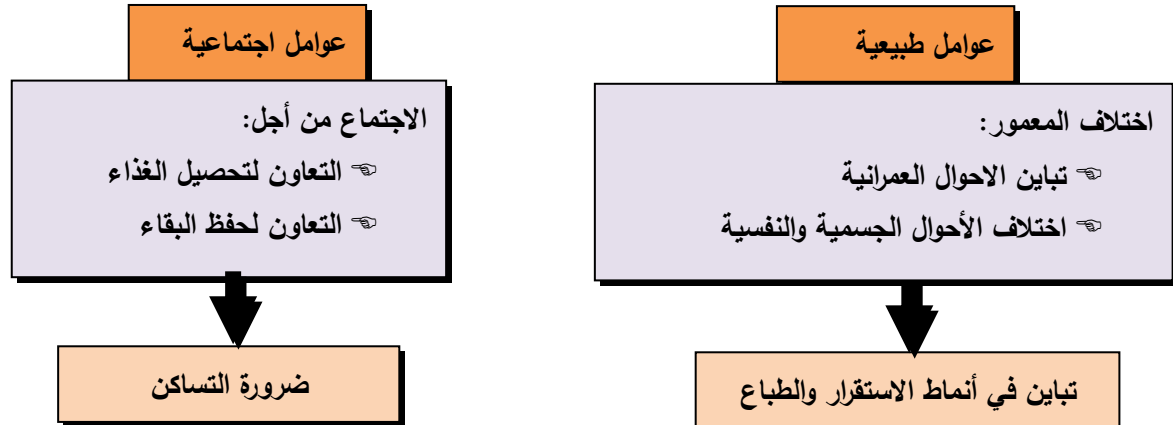
ينتشر العمران البدوي إذن، وفق هذا التصور على مجالات متباينة من ضواحي المدن إلى الجبال، وما يرتبط بها من مساح الرعي، وصولاً إلى مجالات الصحراء وأطرافها في مناطق نجعة الإبل ومواطن الماء ومجاريه بالصحراء وهوامشها، وعلى هذا الأساس، فابن خلدون وفي ثلاثيته السالف ذكرها، ليأتي العمران البدوي في نفس المضمرة، مقسماً إلى عمران الضواحي، حيث البدو المستقرين، وعمران الجبال ومساح الرعي بها، حيث أنصاف الرحل أو أصحاب الشاه، ثم الصحراء وهوامشها حيث الرحل والمشتغلين برعي الإبل، فهل

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 53.

² - نفسه.

يمكننا الحديث عند هذا المستوى على ثلاث أشكال من الاستيطان في البادية المغربية متخذين طبيعة المعاش وشكل التنظيم الاجتماعي منطلقاً لهذا الكلام؟

الشكل رقم 4: خطاطة للعناصر المتحركة في العمران بالبادية



يبدو أن نمط المعاش وشكل التكسب قد أسهم في تباين تنظيم مستوطني بادية المغرب، وربما إلى هذا الاختلاف يعود التضارب، الذي انتبه إليه بعض الباحثين، في مدلول القبيلة بالمغرب¹، فتكون المجالات القريبة من الحواضر أقل ارتهاً بالتنظيم القبلي، على المنوال الأسري الذي يعتمد القرابة الدموية أساساً للاجتماع والتساكن، فيما يتشدد هذا النظام أكثر كلما اتجهنا نحو أهل الصحاري، وبالجملة يكون الإشكال الذي انطلق أساساً من قراءة مفهوم القبيلة عند ابن خلدون يجد جوابه عند نفس المؤرخ، وهذا ما يمكن الاستدلال عليه انطلاقاً من نصوص ابن خلدون، فقد كتب في مقدمة الباب الثاني من مقدمته²: "اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلته من المعاش... فمنهم من يستعمل الفلح من الغرسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو، لأنه متسع لما لا تتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان

¹ - جاك بيرك، "في مدلول "القبيلة" بشمال إفريقيا، ضمن كتاب: الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، ط1، 1988، ص ص 113-125.

² - الباب الثاني في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 149.

اختصاص هؤلاء بالبدو أمرا ضروريا لهم"¹، فإذا كان التساكن ضروريا لتحقيق التعاون على البقاء وقضاء الحاجات، فإن تنوع الحاجيات الإنسانية باختلاف نحل المعاش يقتضي اختلافا كذلك في طبيعة التساكن وما يترتب عنه من علاقات.²

وفي توافق مع الطرح الخلدوني، ينطلق العروي لتحديد القبيلة نظاماً وقائياً من الواقع التاريخي، ذلك أنه يرى أن ما تحمله الكلمة المجردة "قبيلة" من مضامين مختلفة لا يسمح باستخدامها مفهوماً عاماً في تفسير الأحداث باقتحام سر السيرورة المغربية، ذلك أنها (القبيلة) تعني نظاماً اجتماعياً شاملاً (تنظيم الرحل)، كما أنها تعني مجموعة قواعد تخص المعيشة والسلطة وتهدف إلى خلق التوازن بين الأسر (سكان الجبال)، وهي أخيراً تنظيمية أسامي ورموز لتصنيف التجمعات السكنية (سكان السهول والهضاب).³

فكما كان العمران البدوي أسبق من العمران الحضري، فإننا نقف داخل العمران البدوي على مراحل، كتب عابد الجابري: "وفي العمران البدوي تعيش جماعات بشرية تتدرج من البساطة إلى التعقيد، فالبدو الرحل أولاً، ثم رعاة الشياه المتنقلون، ولكن في حدود، ثم المقيمون في التلال والسهول المشتغلون بالزراعة. والرابطة الاجتماعية في هذا النوع من العمران هي النسب. والنسب، سواء كان "حقيقياً" أو "وهمياً" تعتمد فاعليته على الحسب".⁴

إن طرق المعاش وأشكال التكسب، التي جعل منها ابن خلدون أنماطاً ومظاهر لتحول البداوة الإنسانية بوجه عام، وسلسلة في مسار انتقال الجماعات القبلية المغربية من طور إلى آخر ضمن مجال عام للحياة البدوية، كان ميزان التميز فيه هو طبيعة التكسب وشكل المعاش، والذي تحكمه صيرورة تاريخية، جعل منها -ابن خلدون- أساساً لمختلف تحولات البدو نحو الحضارة، بما هي غاية ومقصداً لهم. وبذلك، يكون اهتمام ابن خلدون بالصيرورة التاريخية في

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 150.

² - وفي هذا الإطار وعلى خلاف التصور الخلدوني، يضع الوزان طرحاً آخر يقول فيه بارتباط أهل البادية بتربية الماشية، ويحترف أهل المدن الفلاحة والصناعات اليدوية، فيما تبقى القبيلة الإطار الأشمال للعناصر التي تتوزع المجال ما بين سكان مدن وأهل بادية. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 38.

³ - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ج1، ص 99.

⁴ - عابد الجابري، العصبية والدولة، م. س، ص 93.

فهم الأحداث هو ما يعطي قيمة لتحليلاته بخصوص الظاهرة القبلية، ذلك أن المحيط بها "هو الكفيل بفهم الأحداث فهما أعمق".¹

2- الرابط الاجتماعي لأهل البادية

قبل استعراض موقف ابن خلدون من رابطة النسب، نرى الوقوف عند بعض المعاجم العربية، باعتبارها الوعاء الذي يمكن من خلاله فهم جوانب من فكر ابن خلدون في هذا الإطار. وعموماً، جل المعاجم العربية تتطرق في حديثها عن الجماعات الإنسانية من مسألة النسب، والتي تعتبرها الركيزة الأساس في التنظيم الاجتماعي القائم أساساً من المنظور العربي على ركيزة القرابة الأبوية.

الجدول رقم 7: مراتب النسب عند العرب

المرتبة	معناها	المصدر
الشعب	تشعب القبائل	نشوان بن سعيد الحميري اليمني، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، م. س، 6/ 3473.
القبيلة	ما انقسمت فيه أنساب الشعب تقابل الأنساب	
العمارة	ما انقسمت فيه أنساب القبيلة	
البطن	ما انقسمت فيه أنساب العمارة	
الفخذ ²	ما انقسمت فيه أنساب البطن	
الفصيلة ³	فصيلة الرجل: رهطه الأذنون	تهذيب اللغة، م. س، 12/ 135.

قسم العرب مراتب أنسابهم وفق هذه الرابطة على "ست مراتب تجمع أنسابهم وهي شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، ثم بطن ثم فخذ، ثم فصيلة"⁴، ومنهم من يجعلها سبعا فيضيف الحبل ما بين الفخذ والفصيلة، كقول نشوان بن سعيد الحميري اليمني: "شعبٌ ثم قبيلة ثم عمارة ثم بطن

¹ - عابد الجابري، العصبية والدولة، م. س، ص 116.

² - هناك من يضع الفخذ في مرتبة أعلى من البطن، فهو "دون القبيلة وفوق البطن". الأزدي، جمهرة اللغة، م. س، ج1، ص 582.

³ - ينتهي الأزهري في ترتيب أنساب العرب عند الفخذ ولا يورد الفصيلة، يقول: "الشعب أكبر من القبيلة، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ". الأزهري، تهذيب اللغة، م. س، ج1، ص 281.

⁴ - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، تحقيق عبد الغني الدقر، دار القلم - دمشق، ط1، 1408هـ، ج1، ص 239.

ثم فخذ ثم حبل ثم فصيلة¹، وفيما تمكنت من الاطلاع عليه فإن ابن سعيد الحميري هذا ينفرد بهذا القول، ولم أعر على صيغة للحبل تقترب من معنى يفيد تقسيم الجماعات البشرية، اللهم ما كان من ربط بالحبل بمعنى الحمل²، وهو بذلك يتقابل مع البطن. وقد يكون يقصد به رابطة أخرى تجمع بعض فروع النسب وذلك على شكل العصاب، وهو "الحبل الذي يعصب به فخذ الناقة لتدر [بمعنى تحلب]"³.

يبدو أن ابن خلدون قد استوعب الاختزال اللغوي للانتشار القبلي لدى العرب⁴ وعليه، انتبه إلى أن مجمل العلاقات الاجتماعية بالبادية المغربية خلال عهده تنتهي إلى جماعة القبيلة، التي ينتهي ابن خلدون من خلال قراءته لها إلى أهمية قرابة النسب ضمنها، سواء كان "حقيقيا" أو "وهميا"، فلا تتحدد القبيلة بالنسبة له بما يجمع بين أعضائها من روابط الدم فقط، بل إن وقائع التاريخ تظهر بين الفينة والأخرى أشكالا من الانتساب البعيد⁵، وهي التي وقف عندها ابن خلدون في معرض حديثه عن الأنساب، إذ بعدما بين "أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معانهم"⁶، وضح كيف "أن بعضا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم، أو حلف، أو ولاء، أو لفرار من قومه بجناية..."⁷، غير أن الانتماء بهذا الشكل لا يتم بغير حدوث إدماج عضوي ينتهي بالانتماء

¹ - نشوان بن سعيد الحميري اليمني، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإيراني - د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، ط1، 1420هـ/ 1999م، ج6، ص 3473.

² - النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، م. س، ج1، ص177.

³ - نشوان بن سعيد الحميري اليمني، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، م. س، ج7، ص4571.

⁴ - وهذا ما يمكن تأكيده بتعقيب لأحمد التوفيق رأى فيه أن الكثير من الكتابات التي تناولت أصول القبائل المغربية إنما جرت في ذلك "مجرى كتب الأنساب التي كانت حددت نظرتها وأسلوبها قبل مباشرة الواقع المغربي". أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1912)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط3، 1432هـ/ 2011م، ص 56.

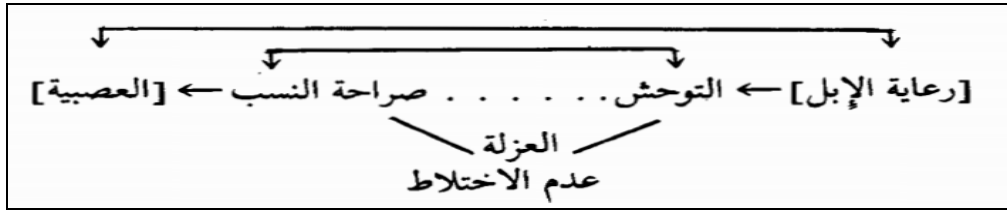
⁵ - المختار الهراس، القبيلة والسلطة تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، نشر المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، مطبعة الرسالة - الرباط، 1988، ص13. روس إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي، م. س، ص ص 41-43.

⁶ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص ص 161-163.

⁷ - نفسه، ص163.

الذي ليس له معنى بغير "جريان أحكامهم وأحوالهم عليه"¹، ثم إن هذا الأمر قد سار من جملة الواقع التاريخي.² كتب ابن خلدون: "ثم إنه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان، ويذهب أهل العلم به، فيخفى على الأكثر، وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب، ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم... ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله"³، وقد كان لهذا العامل أثره على تكون العصبية، إذ يرى فيه ابن خلدون إيذانا باندثارها.⁴

الشكل رقم 5: خطاطة ربط ابن خلدون النسب الصريح بالعصبية القبلية⁵



لاشك أن إقرار ابن خلدون باتساع دائرة الانتساب للقبيلة، لتشمل عناصر لا ترتبط بنفس رابطة الدم، يجعل من تحديده لها سببا للتحويلات الاجتماعية، وفي نفس الوقت ترجمة اصطلاحية للتحديد المعجمي للاجتماع البشري تحت رابطة النسب الأبوي، إذ إن الأهم بالنسبة لواقع المعجم هو توضيح كيفية استمرار الأسماء وسط تشعب القبائل والأفراد، فيما كان ابن خلدون يسعى إلى تبرير الفعل الاجتماعي في علاقته بالممارسة السياسية، فكان أن لاحظ كيفية انعكاس سلامة النسب داخل النظام القبلي -فيما أطلق عليه عابد الجابري "الحسب"⁶- في تزعم القبائل للحركات السياسية وتولي الزعامة، وفي المقابل سوف نرى أن نفس هذا المعطى سيتخذ منه بعض المستشرقين قاعدة لفهم التحويلات القبلية بالمغرب، وفق المتغيرات الاجتماعية تارة وبدوافع طبيعية تارة أخرى.

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص163.

² - وهنا نستحضر تأثير رفة جناح الفراشة في طرح نظرية الفوضى وكيفية تأثير العواض البسيطة على مجرى الأحداث الكبرى، فكما يمكن أن تتسبب رفة ضعيفة لجناح فراشة في مكان ما بإعصار في منطقة أخرى، فإنه كذلك يمكن لتحويلات بسيطة في ديمغرافية لجماعة بدوية، أن تتطور لتصبح تغيرات جذرية مع الزمن.

³ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 163.

⁴ - نفسه.

⁵ - عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، م. س، ص 300.

⁶ - عابد الجابري، العصبية والدولة، م. س، ص 116.

سبق ورأينا كيف حدد ابن خلدون أقسام العمران البدوي، والذي خلصنا فيها إلى إمكانية القول بوجود ثلاثة أصناف من نظم القبائل، تنتشر بمجال بادية المغرب خلال العصر الوسيط، وإذا كان شكل القبيلة يتحدد مجاليا حسب قوتها من ضعفها، فإن النسب الذي نحن في معرض الكلام عنه يعتبر أس القبائل وجوهر وجودها، وكل قبيل ليس له من قوة النسب ما يسمح له بالاستقلال بنفسه يكون مضطرا للدخول في عداد قبائل أخرى¹، كما حدث مع بني قرة من العمور، أحد بطون الأثبج فرع من بني هلال بالمغرب، والذين رغم اتساعهم، إلا أنهم يقول ابن خلدون "متفرقون في القبائل والمدن وحدانا"²، ومثل هذا ما استنتج منه أحمد التوفيق أيضا أن الهياكل "القبيلية رغم عصبيتها كانت حتى في تلك الأزمنة تؤوي أو تقبل جوار مجموعات أجنبية"³.

وتأكيدا لاستحالة بعض فروع القبائل إلى غيرها ممن له القوة والمنعة، أو لتشكيل وحدة قبلية تحفظ لهم المنعة والدود عن الكل، نستشهد بنص ابن خلدون حول بطن الجشم من بني هلال، حيث كتب: "هؤلاء الأحياء بالمغرب لهذا العهد فيهم بطون من قرة والعاصم، ومقدم والأثبج وجشم والخلط. وغلب عليهم جميعا اسم جشم فعرفوا به"⁴، فقرة والعاصم ومقدم من بطون الأثبج المستقدمين إلى المغرب على العهد الموحي، فيما جشم فرع كما الأثبج من فروع بني هلال، أما الخلط فحسب رواية ابن خلدون هم من بني المنتفق من بني عامر بن عقيل بن كعب، غير أن الملاحظ في اندماج هذه البطن ضمن فرع الجشم أنه لم يفقد تسميته وظلت مستمرة فرعاً ضمن جشم، بل وتناوبت الرئاسة على الجمع (جشم) مع سفيان وبني جابر⁵، وذلك على خلاف بطون الأثبج من بني قرة والعاصم ومقدام، الذين يبدو أن توزعهم في القبائل بشكل فردي قضى على أي طموح في استمرار نسبهم في البقاء.

¹ - أو تحت سطوتها، كما حدث لكثير من قبائل الجنوب في سوس والحوز وبلاد حاجا على عهد ابن خلدون، والتي غلبت عليها جموع المعقل، ذلك أنهم "غلبوا كزولة وأصاروهم في جملتهم ومن طعونهم، وغلبوا على القصور التي بتلك المواطن من سوس ونول". ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص 91.

² - نفسه، ج6، ص35.

³ - أحمد التوفيق، اينولتان، م. س، ص 60.

⁴ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص ص40-41.

⁵ - نفسه، ص37.

إن ما يمكن ملاحظته في كلام ابن خلدون بخصوص عدد من القبائل هو انتقالها عكس ما كان يجب أن تصير إليه، من نمو وتوسع وفق منطق المعاجم العربية، أي من الوحدة إلى الانتشار والتوسع وفق رابطة النسب التي تدفعها إلى الحماية والتعصب، إذ على خلاف ذلك كثيرا ما تردد متون المصادر الحديث عن تحول جموع قبلية إلى أحياء أو بيوت خاضعة توضع عليها المغارم وتفرقها الأقطار، ومن ذلك مثلا، ما حدث لكومية قبيلة عبد المومن الموحي التي أكلتها "الأقطار في تجهيز الكتائب وتدويخ الممالك، فانقرضوا، وبقي بمواطنهم الأولى بقايا منهم: بنو عابد وهم في عداد القبائل الغارقة قد انقلب زمانهم، فأهملهم، فحملوا المغرم، وألفوا نهوضهم بالتكاليف. ونظموا مع جيرانهم ولهافة في سوم الخسف والذل واقتضاء الخراج بالنكال والعذاب".¹

وبهذا، يمكننا الانطلاق من مسألة الأنساب عند ابن خلدون عكس ما يراد منها بخصوص العصبية ومنازعة الملك، والقول بتلازم نمو القبائل وفق مسار النسب والتعصب بانتهائها كذلك²، أي أنها بقدر ما تتسع الوحدات العائلية بقدر ما تنتشت في المجال فتتحول إلى أنوية قبائل جديدة على نمط لا يقوم على أساس النسب الصريح، فيكون الدافع للاجتماع عند هذا الحد هو الرغبة المشتركة لجموع بقايا قبلية أو فرع قبيلة في البقاء، لتتظم في شكل مجموعات تعمل على استغلال المجال.³ ثم إنه سرعان ما تأخذ شكل قبيلة بالألفة ومرور

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص 168.

² - وهذا ما يعضده حديث المصادر عن استغراق العصبية الحاكمة في الحروب التي تدخلها الدول بعد تأسيسها، والشئ ذاته يمكن ملاحظته بالنسبة لعدد من القبائل الفاعلة في مسرح الأحداث إذ غالبا ما تنتهي إلى أحياء متفرقة في الوقت الذي تنمو فيه غيرها من التي التزمت السلم، وفي هذا الصدد يمكن التمثيل بجزولة ولمطة بالنسبة لصنهاجة السوس، حيث نمت جزولة بعدما تمكنت من الحفاظ على كياناتها إثر خضوعها الارادي لسلطة الموحيين فيما تشنت لمطة في الصحراء وتفرق من بقي منها بالمنطقة نتيجة مقاومتها للمد الموحي فتراجعت مكانتها، بعدما تغيرت قواعد التفاعل بين المجموعتين عن حالة التكامل التي طبعت تاريخهما قبل ذلك وتعزز مع قيام الدولة المرابطية. (ناعمي مصطفى، مادة "جزولة"، معلمة المغرب، م. س، ج9، ص3000). وبالمثل نجد القبائل المعقلية والتي دخلت المغرب كفريق مستضعف ومنح من المجال أدناه في الوقت الذي منحت فيه بني هلال أخصب مجالات المغرب (السهول الشمالية) إلا أن تحولات الدهر أهلكت جموع بني هلال لكثرة الفتن وتوالي الحروب عليها، فكان الظهور بالمغرب للمعقل على عهد بني مرين وما تلاه.

³ - ومما يمكننا الاستشهاد به في هذا الموضع للتأكيد، ما انتشر خلال الوسيط المغربي من عمليات استئجار للعمال في الأعمال الزراعية وما يرتبط بها من فلاح وغراسة للأرض وحراسة وغيرها. (النادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص ص 254-257 / 423. محمد بن أحمد ابن العطار، كتاب الوثائق والسجلات، تحقيق شالميتا وكورنطي، مجمع

السنين، ومنه تتحول مسألة النسب إلى مجرد عنوان قد يحمل في بعض الأحيان وسم المجال، وهذا ربما ليس بالشيء المستجد على تاريخ المغرب، إذ تحدث البيدق في معرض كلامه عن قبائل الموحدين عن أهل تينمل قبلية¹، تسهم كغيرها من القبائل الأخرى في تجهيز حملات الموحدين، بل إنه تكلم عن مجموعة وسمها بـ"القبائل" تشكلت غالبا من العناصر التي انتظمت في دعوة ابن تومرت من متفرقي القبائل¹، وعليه فالنظام القبلي بالمغرب تنظيم اجتماعي لسكنى البادية أكثر منه عناصر بشرية متصلة بالنسب.²

نحن إذن، أمام نظامين اجتماعيين متوافقي البناء الخارجي (القبيلة)، لكنهما مختلفا العناصر والتركيب البشري، ومثل هذا التحول الاجتماعي لا بد وأن له انعكاسات بعيدة على الحياة الاجتماعية بالبادية المغربية.

وعليه، وجب التمييز بين الحياة القبلية والتنظيم القبلي. فإذا كانت الأولى شاهدة على تحولات عميقة اختزلت في اختلاط الأنساب، وهمت التشكيل البشري للقبيلة، فإن التنظيم القبلي همّ مستويات توزيع عناصر الجماعات البشرية ومراتبها. وهو ما يبدو أنه لم يعرف كثير تحول، بقدر ما كان يتسع فقط، وفق نمو وتطور أفراد القبيلة، ووفق هذا التحليل سوف تشكل

الموثقين المجريطي، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مجريط، 1983، ص 58-73)، الشيء الذي كان ينتقل بسببه العمال من منطقة إلى أخرى ومن غير المستبعد أن تنشأ عنه علاقات اجتماعية قد تدفع بالعمل إلى الاستقرار بالمجال إلى جوار مستأجره، خاصة وأن بعض عمليات المغارسة تتطلب سنوات تمتد إلى خمس سنوات قبل أن تعطي إنتاجها(علي بن يحيى الجزري، المقصد المحمود في تلخيص العقود، الجزء الثاني، تحقيق فايز السلمي، اطروحة لنيل الدكتوراه، جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية، 1422هـ، ج1، ص 369)، فنكون إذن أمام عقود طويلة ما يعني استقرارا من أجل العمل، وربما يكون هذا هو السبب في ظهور تعابير "الأجلاف" ضمن تركيبة بعض القبائل خلال الفترة قيد الدراسة. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص55. ج1، ص363.

¹ - أبي بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص ص 33-35

² - فقد انتهى مصطفى ناعمي مثلا بعد تتبعه لدلالة جزولة وكيفية ظهور هذا الاسم القبلي، إلى ربطه بخصائص المجال (الجيل/ إيكسولن) وأهله (الشجاعة/ توركزة)، ونمطهم المعاشي (إيكزولن/ تربية الأغنام)، ليخلص من خلال الدلالة اللغوية إلى "أن معنى التسمية لا يفيد معنى اثنا بقدر ما يكشف عن نمط معيشي". (ناعمي مصطفى، مادة "جزولة"، معلمة المغرب، م. س، ج9، ص2999). وتوصل روس غ. دان في تتبعه لنظام القرابة لدى القبائل بالمغرب الشرقي إلى أنها تنمو "في معظم الحالات عن طريق استيعاب الوافدين الجدد عليها داخل البنية النسبية أكثر من نموها عبر انتشار النسل". روس إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي، م. س، ص 42.

عملية الاندماج التي سجل حضورها ابن خلدون أساسا لمجموعة من العلاقات التنظيمية الأخرى.¹

الجدول رقم 8: تحول الحياة القبلية من خلال تصور ابن خلدون

طبيعة الاندماج	تعبير ابن خلدون	مستواه	مظهره	انعكاساته
فردى	خولهم ² / رعاياهم/أوزاعا	الفخذ أو الفصيلة	انتساب مستوى أدنى	تراتبية اجتماعية
جماعى	أحلافهم (أحلاف) // عداد/ مظاهرتهم/ أردافهم ³ / لفائف ⁴	القبيلة	انتساب مستوى أعلى	تحالف قبلي

يبدو أن ما احتفظت به نصوص ابن خلدون، وما تختزنه من إشارات تهم التفاعلات الاجتماعية العرضية تارة، وذات البعد التاريخي تارة أخرى، كانت تحمل بوادر انقلابات أفقية⁵ (انتشار) وعمودية (تركيب) في بنية القبائل، سوف يكون لها، ولاشك، بالغ الأثر على مسار التاريخ بفعل التراكم وتبدل الأحوال، إذ أضحى ما كان لا يقوم إلا بتساكن أقرباء الدم يحدث بفعل الحلول والمجاورة في المجال (الموطن)، الذي تحول في بعض الحالات إلى أداة للانتساب، لتتحول أسماء القبائل إلى شكل "أوعية تسكنها عناصر من أصول مختلفة تعرف بتلك الأسماء وتنتماسك عناصرها بفعل الاسم الذي يسهم في تكوين هوية"⁶، كما هي الحال بالنسبة لأولاد عيسى بن رهاب بن يوسف أتباع أولاد يوسف من بطون قبائل رياح، الذين جعل ابن خلدون نسبهم في رياح "بالحلف والموطن"⁷، وقبلهم مع هسكورة الصنهاجية التي أضحت

¹ - تحدث ناعمي مصطفى عن التداخل والتلاقح كـ "أداة لأمثل للتعبير عن كيان من القبائل والفصائل، يعكسان نظام الصيغ التكاملية بين فصائل جزولة. ناعمي مصطفى، مادة "جزولة"، معلمة المغرب، م. س، ج9، ص3001.

² - بمعنى؛ عبيدهم أو رعاة لهم. ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج11، ص224. الأزهري، تهذيب اللغة، م. س، ج7، ص231.

³ - بمعنى أتباعهم. ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج9، ص114.

⁴ - لفائف جمع لفافة وهي: "ما يلف به على الرجل وغيرها، ج: لفائف... ومن لف لفهم، بالكسر والفتح، أو يثْلث، أي: من عد فيهم، وبالكسر: الصنف من الناس، والحزب، والقوم المجتمعون، ج: لفوف". مجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط8، 1426هـ / 2005م، ج1، ص853.

⁵ - أو ما سماه حميد تيتاو مورفولوجية القبلية بمجال المغرب الأقصى. حميد تيتاو، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، م. س، ص109.

⁶ - عبد الله حمودي، "الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية خطوة في طريق تأسيس خطاب انثروبولوجي مستقل"، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 19 - المجلد الخامس - شتاء 2017، ص30.

⁷ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص48.

في عداد المصامدة، بمجاورة مواطنها لجبالهم¹ "متصلة من درن إلى تادلا من جانب الشرق إلى درعة من جانب القبلة".²

وفيما يشبه دعم هذا الموقف، يذهب بعض رواد المدرسة الانقسامية بالمغرب إلى أنه "ليس من الأكيد بتاتا كما تدل على ذلك بعض أسماء القبائل، أن الجد هو الذي يكون في جميع الحالات بمثابة المرجع الوحيد لتعيين أصل القبيلة. فالموقع الجغرافي يلعب نفس الدور"³، كما أن الهجرة، والتي تمثل لإدماج الآخر في بنية القبيلة، تؤدي في بعض الأحيان إلى فقدان الهوية النسبية⁴، الهوية التي يذهب ناعمي مصطفى إلى ارتباط سلبها بالارتباط العضوي بالمكان⁵، والذي رأى فيه "المكمل اللفظي الذي يصوغ المكونة البشرية على صيغة (أيت المكان الفلاني). وهي صيغة قد تجمع بين عدة وحدات قرابية متفاوتة الارتباط ، مما يسلب كل وحدة هويتها الخاصة".⁶

لقد حاول مؤرخو الوسيط ربط القبائل بأصولها "المفترضة"، بعد تفرعها إلى أجزاء وفروع تزداد اتساعا مع الزمن حتى لا يسمح المجال باستمرارها على نفس المكان، فتضطر إلى التوسع فيكون الانتشار ضرورة وحتمية تاريخية واجتماعية، غير أن ذلك لم يمنع من حفظ

¹- يعتقد البعض أن قبيلة ايلان المصمودية التي استوطنت إلى الجنوب والجنوب الشرقي من مراكش ما بين غدات ووادي نفيس، والتي يعود إليها مجال المدينة مع هزميرة (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط 3، 1983 م، ج3، ص206)، قد أخرجت من أرض هسكورة قبل الإسلام أو في القرن الأول عند الفتح. (ابن عبد الحليم، كتاب الأنساب، مخطوطة الخزانة العامة، رمز: ك 1275، نقلا عن أحمد التوفيق، الهامش رقم 621 من كتاب، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 252)

²- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص271.

³- ليليا بنسالم، "التحليل الانقسامي لمجتمعات المغرب الكبير: حسيطة وتقييم"، ضمن؛ الانتربولوجيا والتاريخ...، م. س، ص 24. وضمن هذا السياق يمكن فهم تفسير أحمد التوفيق كذلك لتسمية "أيلان" التي تنسب إليها قبيلة هيلانة، فتكون كما يقول: "اغماط هيلانة أصلها غماط ايلان أي تخصبوا بوضع رسوم سوداء، وهذا تفعله نساء المصامدة، ونحن في مجال يصنع رموزا لتمايزات استراتيجية، ولا فائدة في قول المغرمين بالتفسير بالأنساب: أن ايلان ينسبون إلى جدهم إيلان". أحمد التوفيق، الهامش رقم 621 من كتاب، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 252.

⁴- ليليا بنسالم، "التحليل الانقسامي"، م. س، ص 24.

⁵- وأحيانا تتحول الدلالة البشرية إلى دلالة جغرافية (حسن الفكيكي، مادة "جزولة (الشمال)"، معمة المغرب، م. س، ج9، ص 3002)، فيعرف المجال نسبة إلى المكون البشري الذي طبعه، وهنا يمكننا التمثيل بمختلف التسميات التي حدد بها الوزن مثلا عددا من الوحدات الجبلية. (انظر جدول استيطان الجبال المغربية الفصل الأول من هذا الباب).

⁶- ناعمي مصطفى، مادة "جزولة"، معمة المغرب، م. س، ج9، ص3001.

المؤرخين لهاته الفروع ضمن شجرة "القبيلة الأصل"، فتحت قبيلة صنهاجة مثلا "قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين منهم لمتونة وكدالة ومسوفة ومسراته ومداسة وبنو وارث وبنو دحير وبنو زياد وبنو موسى وبنو فشتال وغير ذلك وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوت الحصر"¹، وما ينطبق على مثال صنهاجة يسري على باقي المجموعات القبلية الأخرى، ويتفرع القبائل وانتشارها تتداخل الفروع القبلية بفعل التحديات الطبيعية والتاريخية التي تحتم التجمع، حتى صارت الجماعة في عرف المغاربة حصانة وأمانا من كل شيء تقريبا، إذ سجل دوفوكو في رحلته كيفية التحاق المسافرين بقافلته لما يعتقدونه من فائدة الجماعة، والذي يعبرون عنه ب"لعمارة مليحة" أي "الجماعة مفيدة" ذلك أن الجماعة أمن، وفي كثير من الأحيان اقتصاد...".²

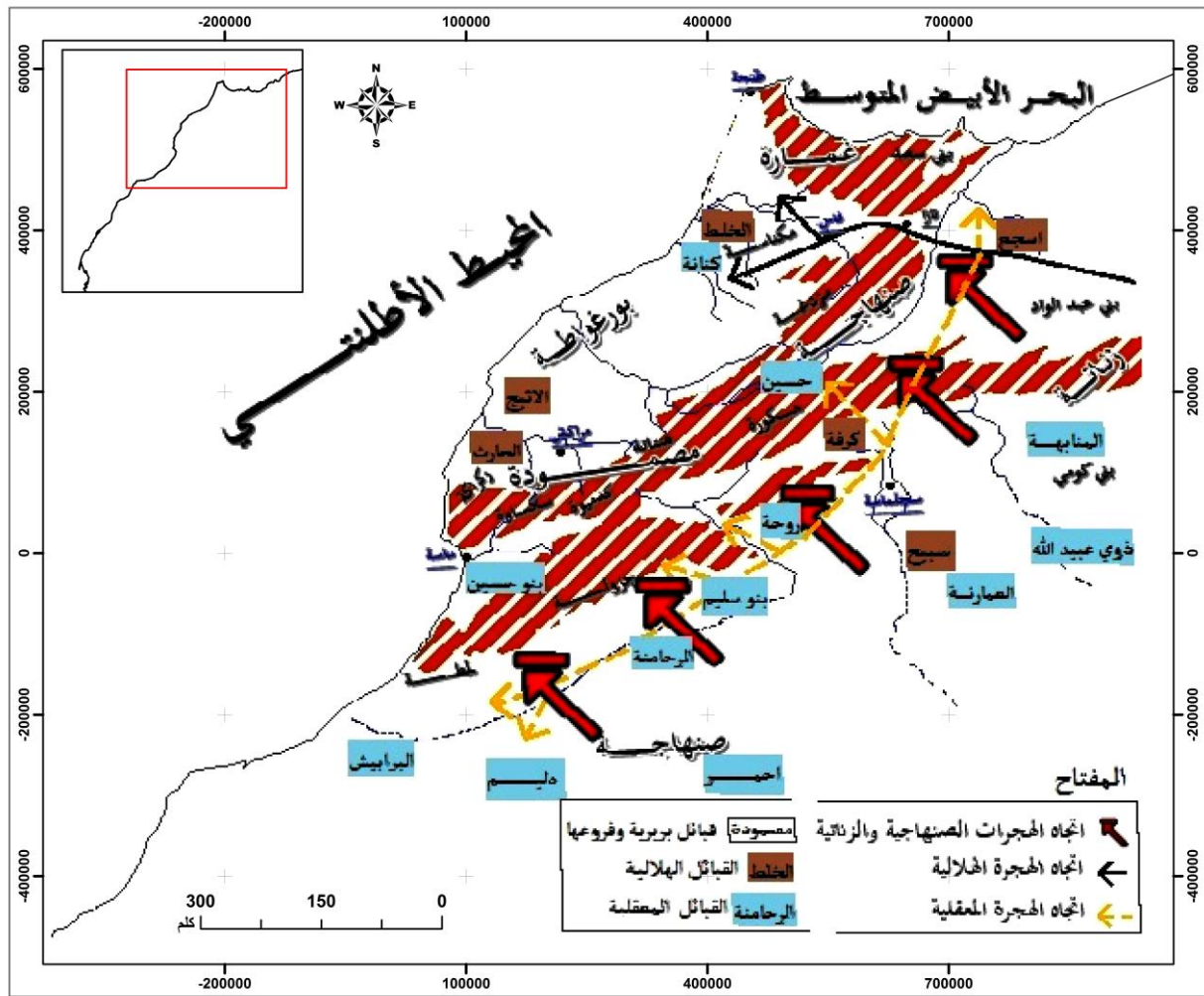
دفعت مثل هذه الملاحظات بجاك بيرك، في محاولة تفسير ما سماه بالالتقاءات الكبرى بالمغرب الوسيط، إلى افتراض اتخاذ هذه التطورات لشكلين متناقضين؛ الانصهار والانشطار، "فالانصهار يضع داخل نفس التسمية عناصر ذات أصل خارجي... وعلى عكس ذلك يقوم الانشطار بتكسير الوحدات وتجزئتها إلى شظايا ترابية أو معنوية: المداشر المتنافسة، العصب، الطبقات والأحزاب".³

¹ - الناصري، الاستقصا، م.س، ج2، ص3.

² - شارل دو فوكو، التعرف على المغرب (1883-1884)، ترجمة المختار بلعربي، إشراف الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، 1998، ص 27.

³ - جاك بيرك، "في مدلول "القبيلة" بشمال إفريقيا"، م.س، ص 118.

الخريطة رقم 2: الانتشار القبلي بالمغرب خلال العصر الوسيط¹



يتضح إذن، أن المجال القبلي تحول إلى أحد عناصر تحديد الهوية والانتساب، كيف لا والفترة قيد الدراسة شهدت تنازع القبائل والبطون السيطرة حول الأراضي (المسارح والمزارع)، فكان أن وجب البحث في طبيعة العلاقة بين المجال والبنىات القبلية الآخذة في التفتت طبيعة فطرية في الاجتماع البشري، وهذا ما سوف نقف عنده في المحاور القادمة من هذا العمل، كما أنها الأداة والمدخل الذي نسعى من خلاله إلى إبراز التفاعل الناتج عن مجمل التحولات، التي شهدتها المغرب خلال الفترة المدروسة، وعلاقته بعنصر الماء في مختلف تجلياته الطبيعية والحضارية.

¹ - خريطة من انجاز شخصي بالاعتماد على معطيات المصادر التاريخية خاصة تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان.

II. التفاعلات القبلية بالبادية المغربية

سنسعى خلال هذا المحور إلى محاكاة بعض الطروحات في تجسيد الحياة الاجتماعية للقبائل المغربية، فإذا كان أساس التفاعل داخل منظومة المجتمع القبلي المغربي يقوم أساساً على ضغط العنصر الأجنبي، والذي يدفع في اتجاه تبني القبلية نمطاً لحفظ الهوية، فإنه يمكننا القول كذلك، باعتبار العناصر الطارئة على المغرب خلال الفترة قيد الدراسة، بمثابة العنصر الخارجي المحفز لآلية التغير والتحول في بنيات المجتمع البدوي، وعليه تكون العناصر الميرينية والقبائل العربية من بني هلال والمعقل بمثابة عامل فاعل في تجدد أو مواصلة التقلبات الاجتماعية والثقافية بالبادية المغربية خلال الفترة قيد الدراسة.

لكن قبل ذلك، لا بد من وقفة مع بعض القراءات الاجتماعية والتاريخية للحياة القبلية بالمغرب، والتي أسهمت في القراءة البيئية -إن صح التعبير- التي تبني تحليلها العروبي، والتي يبدو أنها تطوير للقراءات الاستعمارية في تحليل النظام القبلي بالمغرب، فما هي أبرز نقاط التحليل الاجتماعي للقواعد القبلية بالمغرب؟ وكيف تفاعلت مع التاريخ الاجتماعي للبلاد؟ وما انعكاساتها على القراءة الخلدونية للواقع الاجتماعي؟ وكيف يمكن الاستفادة منها للربط بين النظام الاجتماعي بالبادية المغربية وموضوعة الماء قاعدة البحث؟

1- الالتقاء والتصادم

لاشك أن الالتقاءات القبلية طبعت تاريخ المغرب حتى ما قبل الفترة المحددة للبحث¹، متخذة شكل صراعات² وفتن قبلية، تملأ نصوص المصادر التاريخية¹، فحسب الحموي لم تخل

¹ - فقد تحدث غابرييل كامب، عن كيفية قضاء الرحل الجباليين من زناتة وصنهاجة قبل الفتح الإسلامي على حياة الاستقرار في السهول الجنوبية، على إثر موجة توغلم خلال القرن السادس، الذي ترافق مع التغير المناخي شأن الهجرات العربية فيما بعد خلال القرن السابع، وذلك بسبب الضعف الذي صارت إليه تجمعات المزارعين التي وطنت في الأطراف الجنوبية من المجال الزراعي، فكان لتوغل هذه المجموعات أثر على الحياة الاجتماعية وذلك لما "كان هؤلاء يتميزون بنمط عيشهم ودوابهم الركوبة، وحتى حيواناتهم..."، فليس لزنااتة حسب طرح هذا الأخير نسب في النوميديين والموريين، بقدر ما أنهم اكتسحوا الجيتول، واحتوهم في تجمعات قبلية جديدة، فجعلوا لهم "من خلال عملية الاستيعاب بغرض التحكم والسيطرة نسباً جديداً"، كما أن صنهاجة حسب نفس الباحث تعتبر من بين أهم هؤلاء القادمين وقد "أقامت لها في مناطق مختلفة من المغرب الكبير والصحراء ممالك عديدة". غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات إفريقيا الشرق، 2014، ص ص 165 - 166.

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 369.

جبال البربر أهل المغرب، "من الفتن وسفك الدماء قط، ولهم أحوال عجيبة واصطلاحات غريبة".²

أما ابن حوقل فيربط بعض مظاهر الصراع بالمغرب بالمذهبية، فكتب في شأن "أهل السوس فرقتان مختلفتان مالكيون أهل سنة وموسويون شيعة يقطعون على موسى بن جعفر من أصحاب علي بن ورصند والغالب على الجميع الجفاء والغلبة في العشرة وقلة رقة الطبع والمالكيون من فظاظ الحشوية وبينهم القتال المتصل والدماء الدائمة ولهم بالبلد مسجد جامع تصلّى فيه الفرقتان فرادى عشره صلوات إذا صلت فرقة تلتها الأخرى بعشرة أذانات وعشر إقامات وبالمالكيين من جباسة الأخلاق وبحسب ما نالوا من رفاهة العيش نالوا من الجهل والطيش".³

ومن تكرار مثل هذه الصور، يخلص أحد الباحثين إلى أن الوجود الاجتماعي القبلي بالمغرب خلال العصر الوسيط، إنما هو وجود من أجل الحرب، وهي ملاحظة استخلصها من قراءته لعدد من الإشارات المصدرية، والتي تصور العلاقات القائمة بين التنظيمات القبلية بالمغرب الوسيط كحالة من تولد وتصدير العنف والعنف المتبادل⁴، وهي خلاصة يمكن دعمها بعدد من نصوص الحسن الوزان أيضا⁵، غير أن الواضح كون هذه المشاهد، التي بنى عليها الباحث حميد تيتاو أقرب للنزاعات منها للحروب، ذلك أن أهدافها وعواملها لا تنفك ترتبط بالصراع على المجالات والموارد، وهو ما قد يبرر امتدادها في الزمان، بل وأن "تخضع للمفاوضات والتسويات... [كما في] سفوح الحوز والسهل الساحلي في منطقة حاحة، يتضامن أهل مصمودة من جبل تيشكا وأهل ببيوان مع البدو السفينيين لتنظيم الترحال للرعي من الأعلى إلى الأسفل والاستفادة من الوسط الطبيعي".⁶

¹ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م. س، ص 288

² - ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995، ص 369.

³ - ابن حوقل، صورة الأرض، م. س، ج1، ص ص 91-92

⁴ - حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث 1، منشورات عكاظ- الدار البيضاء، 2010، ص 84.

⁵ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 102/291-103/108-111/112-121/141.

⁶ - دانييل ريفيه، تاريخ المغرب من مولاي إدريس إلى محمد السادس، ترجمة المهندس أحمد ابن الصديق، المركز الثقافي العربي، ط1، 2020، ص 146.

اتخذ التقابل القبلي في مغرب ما بعد القرن السابع الهجري شكل صراع ما بين نمطين معاشيين، نمط البدو الرحل، وما يطبعه من خصال ومظاهر التقشف والغلظة، ونمط المستقرين والساعين في طريق الاستقرار، فكان التصادم المفضي إلى استحداث نمط من التنظيم القبلي، يتأسس على استغلال المجال وفق شروط المنتصر وإمكانيات المجال ذاته¹، بعد أن دعت الضرورة المنتصر إلى مشاركة المجال مع المستوطن قبله، ما نتج عنه تراتبية، خلصت الأبحاث فيما بعد إلى اعتبارها من مميزات الوضع القبلي المغربي²، فيما حقيقتها لا يمكن إلا أن تكون تقهقرا في الأوضاع السكانية لأهل البادية أفرزه تحكم عناصر في أخرى.

الجدول رقم 9: شكل تعامل الغالب من القبائل مع المتغلب عليه منها³

الجهة المتغلبة	الجهة المغلوبة	شكل الاستغلال	نمط عيش المغلوبين
العرب	المصامدة	الجباية	الزراعة
	صنهاجة		
بني حسان	كزولة (جزولة)	خولا (عبيدا) للعسكرة	الرعي
الشبانات	زكرز		
	لخس		

ولعل من أبرز الملاحظات التي يمكن للباحث الانتباه إليها في هذا الصدد، هو تكرار المصادر لمظاهر شدة وبأس مؤسسي جميع الدول، التي شهدتها المغرب إلى حدود الفترة قيد البحث على الأقل، وهي علامة ولا شك تحيل على شدة الاصطدام الذي تحدثه التحركات القبلية ليس فقط على مستوى المجال، ولكن أيضا على صعيد البنيات الاجتماعية، فمظاهر

¹ - من ذلك ما سجله الوزان من فرض الأعراب للإتاوات على البدو المستقرين. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 123-126/ 176. ومنه أيضا ما سجله الباحثون من أن صراع أيت ازك وأيت عطا على وادي تدغة أواخر العهد المريني بفعل تأثير الضغط الإيبيري وانحسار التجارة الصحراوية، مما "أجبرت فرق زدكية على إثره على التنقل والانتشار في أحواض وادي زيز والتخلي الاضطرابي عن أراضيها والاتجاه نحو تحالفات جديدة، والالتزام بطروف املتها حياة الاستقرار بالقصر والتطلع إلى التحكم ومراقبة الطريق التجارية الرابطة بين تافيلالت وفاس". عبد الله تزلي، الاحتلال الفرنسي لمنطقة أيت ازك آثاره العامة، م. س، ص 53.

L. Mezzine, *Le Tafilalt. Contribution à l'histoire du Maroc aux XVII et XVIII siècles*, Pub Fac de Rabat, 1987, p96.

² - فقد تحول العرب الرحل بالسهول الأطلسية إلى فلاحين، وهذا من مظاهر تبدل العوائد التي جعل ابن خلدون الإنسان نتيجة لها لا نتيجة لامتداد نسبه وقرابته، ف"العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها فهو ابن عوائده لا ابن نسبه". ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 482.

³ - نفسه، ج6، ص 92.

من قبل الرغبة في الاستئصال والتكثيف بالأعداء وتهجير القبائل¹، كلها تفيد ولاشك بتوفر ظروف خلق أنظمة اجتماعية جديدة لا يمكن معها القبول بكفاية الحماية العائلية لضمان استمرار النسل والبقاء في المجال.

فقد لاحظ أحمد التوفيق مثلا، وثيقة اتصال أهل هسكورة بالسهول الداخلية في اتجاه الساحل، الشيء الذي تثبته عرى الروابط التي كانت تجمع بين عدد من الشيوخ والمريدين من الاينولتانيين وأهل الساحل²، غير أن هذا التمدد الهسكوري نحو الساحل بدأت تضيق آفاقه "منذ بداية القرن السابع الهجري، باحتلال رحل زناتة وبني هلال للبسات الممتدة من الأطلس إلى المحيط"³، وبالفعل فقد شكل توطين مجموعة القبائل العربية المستقدمة من إفريقية بالسهول الأطلننتية (أزغار وتامسنا وتادلة) عاملا مضافا في تغيير الخريطة البشرية بالمغرب الأقصى⁴ (الخريطة رقم 3)، الشيء الذي انعكس على البنيات العقارية والأنشطة الزراعية⁵ والرعية⁶، إذ اتسعت دائرة الإقطاعات المخزنية ما بعد الموحيدين، وأصبحت تهدد المجالات القبلية، الشيء الذي يظهر بشكل جلي مع كل ثورة أو تمرد اتجاه السلطة القائمة، إذ غالبا ما تتحول أراضي الخارجين عنها إلى مجالات تتصرف فيها الدول بالإقطاع.⁷

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 37.

² - أحمد التوفيق، اينولتان، م. س، ص 70.

³ - نفسه.

⁴ - حميد تيتاو، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، م. س، ص 109

⁵ - ذلك أنه يقول الحجاج الطويل، اضطر السكان تحت ضغط ظروف الاضطرابات السياسية والاجتماعية وانعدام الأمن إلى اللجوء نحو "المناطق الجبلية والمناطق الوعرة القليلة الخصوبة فتعاطوا الزراعة وغرسة محدودة، الهدف منها معاشي قبل كل شيء" (محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 74)، وتدعم مشاهدات الوزان هذا الطرح. انظر؛ الجدول رقم 5: مشاهد من استيطان جبال المغرب، ص 51 من هذا البحث.

⁶ - حميد تيتاو، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، م. س، ص ص 110-113

⁷ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 139.

الجدول رقم 10: توطين القبائل العربية بالمغرب من خلال كتاب العبر -الجزء السادس-

القبيلة	البطون	موطن نزولهم	الصفحة
القبائل	الأثبيج	أنزلهم المنصور بتامسنا مع الجشم	33 - 30
	الجشم	أنزلوا بتامسنا	37
	رياح	بلاد الهبط ما بين قصور كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى أزغار البسيط الفيح هناك إلى ساحل البحر الأخضر.	44
المغزل	ذوي عبيد الله	مواطنهم ما بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة.	77
	ذوي منصور	من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها الى سجماسة وعلى درعة وعلى ما يحاذيها من التل مثل تازي وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمقدر.	
	ذوي حسان	من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن المثلثين من كدالة مستوفة ولمتونة.	

ورث المرينيون عن السلطة الموحدية وضعا بشريا سمته البارزة تضعضع البنية القبلية وعموم المشهد البشري بأرض المغرب، كيف لا وقد بدأ تأثير استئزال عرب بني هلال بالسهول الأطلسية (الجدول أعلاه)، وبدأت انعكاساته تترد على التحركات الموحدية ذاتها نحو السهول، ناهيك عن تقاوم مسلسل التعديات على السكان، ومع هزيمة الموحدين بمعركة العقاب سنة 609هـ/1212م. تضافرت العوامل المشجعة على استباحة أرض المغرب، والتي انعكست ولاشك على بناء القبلية، وكذا على أنماط العيش وأساليب التكسب¹، خاصة بعدما عرفه المجال المغربي من استقرار نسبي، جراء قيام الموحدين بتشجيع الاستيطان والعمل الزراعي²، وتطور نظام الإقطاعات المخزنية³، وقد سار المرينيون على نفس السياسة الموحدية في إقطاع

¹ - حميد تيتاو، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، م. س، ص 113

² - ينظر في هذا الصدد: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، م. س، ج3، ص ص 110 - 458.

ALLAIN (ch), «Reconnaissances Archéologiques Dans Le Massif des Rehamna et la Bahira II, une organisation agricole almohade dan la Bahira», Hesperis, T XLI, 1954, 3^e-4^e trimestres, pp 435-458.

³ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 139 / 256-263

الأراضي لمكافأة الحلفاء بشكل عام، وأقربائهم من قبائل بني مرين وأبناء عمومتهم الوطاسيين وحلفائهم المعقل.¹

تحدث الوزان عن عملية تقسيم عبد الحق المريني "الأراضي بين أفخاذ قبيلته وبين أبنائه الأربعة... [ف] خصصت أربعة أقاليم لأبناء عبد الحق، والأقاليم الثلاثة التي لم تقسم بعد قسمت إلى سبعة أقسام خصصت لفروع قبيلة بني مرين الأربعة، ولقبيلتين أخريين من أقاربهم المجاورين لهم"²، ومن غير المستبعد أن يكون هذا التقسيم هو السبب في الخلافات التي ظهرت على الحلف المريني فيما بعد³، خاصة مع تباين الإمكانيات الاقتصادية بين هذه الأقاليم.⁴

وهكذا اقتسم المرينيون الأولون وأحلافهم أرض المغرب⁵، فكان لبني حمامة كرسيف⁶ ونواحيه، وكان لبني عسكر تاويريت⁷ وتازة وفندلاوة⁸، وكان لبني ورتاجن دبو⁹ ونواحيه، وكان لبني وطاس قسم الريف، ولا يعرف القسم الذي كان من نصيب بني تنعلوفت. "أما انصباء

¹ - حميد تيتاو، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، م. س، ص ص 111-115

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 348

³ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج7، ص ص 227-229. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، م. س، ص73.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 193-370

⁵ - يدرج عمر بنميرة هذا التقسيم أو ما وسمته المصادر ب"التوزيع" ضمن عملية إقطاع التملك الذي ميز سياسة الإقطاع على العهد المريني الأول، فيما ركنت السلطة المرينية فيما بعد إلى اعتماد إقطاع الجباية. عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 256-263.

⁶ - لقد شكل قصر كرسيف الواقع على نهر ملوية، قصبة بني مرين تخزن فيه حبوبها عندما كانت تسكن الصحراء، غير أن إمكانياته الفلاحية ضعيفة إذ لا يوجد في السهل الذي يحيط به سوى القليل من الأراضي الزراعية، على شكل بساتين صغيرة مغروسة بالكروم وأشجار الخوخ والتين، فيما يبدو القصر وسكانه في حالة من البداء وبشاعة العمران. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 350-351.

⁷ - وقد شكلت هذه المدينة نقطة صراع مستمر بين بني مرين وبني عبد الواد، انتهت بقيام أحد ملوك بني مرين بتدميرها سنة 780هـ، ثم اقطاعها لأحد رؤساء الأعراب، غير أن أهلها خرجوا عنها فأضحت خالية موحشة على عهد الوزان. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 349-350.

⁸ - قلعة فندلاوة قلعة بربر بني حجاج، الذين منهم الشيخ عبد الله بن محمد بن الحجاج المعروف بابن الياسمين توفي ذبيحا بمراكش سنة 601هـ. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، م. س، ص39

⁹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص351.

ألفافهم فقد كان أزغار لبني يربنيان، وكان للمطالسة صحراء قارت على ضفاف ملوية، وكان لبني توجين الريف الشرقي وما يتصل به".¹

لقد سبق ملاحظة كيفية تحول رابطة النسب في بعض نصوص ابن خلدون إلى مجرد أوعية للتكافل والتضامن الاجتماعي أكثر منها حقيقة ثابتة، لكننا هنا سوف نعمل على تقديم مجموعة من الأمثلة على عمق التحول الذي يعنيه انزواء الجماعات المتحدة النسب الحقيقي، لتحل محلها الجماعات المتحدة الهدف والمجال إن صح التعبير، والذي يبدو أنه نمط وعي به ابن خلدون، بل وتبناه في طرحه حول العصبية القبلية، إذ كتب: "ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات مفترقة وعصبية متعددة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبية فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى... ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها فإن كافأتهما أو مانعتها كانوا أقتالا وأنظارا ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا وزادت قوة في التغلب إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد وهكذا دائما".²

إن هذه القراءة الخلدونية تصدق رأسا على التجربة المرينية، ذلك أن العديد من المؤشرات تحيل على عدم استطاعة المرينيين التفوق على مختلف العصبية المنتشرة بالمغرب لولا التحام عصبيتهم بعصبية وفرق أخرى، لعل أبرزها القوة العقلية³، هذا بطبيعة الحال إلى جانب استغلال ضعف المخزن الموحيدي، الذي لم يكن له حسب ابن عذاري "حكم البوادي... وكثرت الفتن بين القبائل"⁴، والاستغلال بمظلة الدعوة الحفصية بتونس.

ومع أن هذه القراءة المغلفة بالبعد السياسي لغاية تأسيس الملك، إلا أن إسقاطها على تفسير الواقع الاجتماعي بالبادية المغربية نهاية العصر الوسيط، يبدو أيضا أمرا منطقيا بل ويمكن دعمه بشواهد تحليلية في هذا المجال، ففكرة التوسع التي فسرت بها الكثير من الأحداث

¹ - مولاي النقي العلوي، أصول المغاربة، إعداد وإخراج علال ركوك وحفيظة الهاني، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، 2016، ص 257

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص ص 174-175.

³ - نفسه، ج6، ص77.

⁴ - ابن أبي زرع، الانيس المطرب، م. س، ص 288

والوقائع المرتبطة بالحياة القبلية بالمغرب، تتناسب إلى حد ما مع الحتمية الجغرافية¹، أو الانحراف الجغرافي بتعبير عبد الله العروي.²

لنتساءل عند هذا المستوى من الفهم، عن مدى إمكانية استعارة تصور راتزل حول الجغرافيا السياسية، لفهم الحياة القبلية بالمغرب الوسيط؟ يبدو الأمر مقبولا إلى حد ما، خاصة أنه قد يسمح لنا بتفسير بعض الظواهر التي عرفت البادية خلال هذه المرحلة. إن هذا الطرح يقوم على وجود ثلاثة عناصر تحكم الإنسان وتؤثر في تطوره، وهي المكان بمعنى الموقع، ثم الحيز من حيث هو المجال الجغرافي الذي تتوسع فيه الجماعات، وأخيرا الحدود الطبيعية.³

وعلى هذا الأساس تتحول القبيلة إلى تجمع بشري يحتل قطعة من الأرض، وتتحرك في مجال وسمه راتزل بمجالها الحيوي.⁴ وتسعى إلى تحقيق حدوده الطبيعية، والتي تمتد خلالها (الحدود) إلى أن توقفها قوة منافسة أخرى. ويأتي هذا الفعل الجماعي - حسب راتزل - تحت ضغط العامل السكاني، كما يتشارك في فعله "الرعاة الرحل والزراع المستقرين على السواء".⁵

إن هذا الفهم للمجال في علاقته بالبنىات القبلية، يتماشى في مبناه العام (قطعة أرض بعناصر بشرية محددة) مع ما فسر به محمد القبلي محاولات توحيد المغرب الكبير خلال العصر الوسيط، ذلك أن هذا الامتداد الجغرافي كان يشكل في ذهنية معاصريه وحدة مجالية، تضم عدة أقاليم "تكون منطقة جغرافية واحدة ومجالا حيويا أو معاشيا واحدا"⁶ وهو مجال القبائل، فيما تأتي الحدود ضمن نفس التحليل في مستوى ما سماه ب "عصب عرقي"، وهو الذي تُمَيِّزُ وَفَقَهُ "الأراضي على أساس العصبية النازلة أو الحاكمة سواء على مستوى الإقليم

¹ - Claval (paul), **Géographie Humaine Et Economique Contemporaine**, Puf Fondamental, 1984, p33

² - عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**، م. س، ج2، ص ص 254-256.

³ - محمد بلفقيه، **الجغرافيا القول فيها والقول عنها**، النشر العربي الإفريقي، الرباط، 1991، ص 74.

⁴ - كتب هيلدبرت إزنار (Hildebert Isnard) أنه صار لزاما على الجغرافي "أن يؤكد بأن كل مجتمع بشري يعيش ضمن حيز معين يعتبر ذلك الحيز ضروري لاستمراره وبقائه سواء كان هذا الشعور إرثا بيولوجيا أو تقليدا ثقافيا" هيلدبرت إزنار، **الحيز الجغرافي**، ترجمة محمد إسماعيل الشيخ، مطبوعات جامعة الكويت - الكويت، 1994، ص 22.

⁵ - محمد بلفقيه، **الجغرافيا القول فيها والقول عنها**، م. س، ص 74.

⁶ - محمد القبلي، "ملاحظات حول التجارب الحدودية الوسيطية ببلاد المغرب الكبير"، ضمن: **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، مطبعة فضالة - المحمدية (المغرب)، ط1، 1987، ص 9.

أو على صعيد المنطقة"¹، وكل محاولة لتوحيد هذه المجالات كانت تتأسس على فكرة "الزعامة العصبية" لضم باقي الوحدات المجالية الأخرى، مستعينة بالتضامن العصبي واللحمة القبلية خارج إقليمها، وعليه فمحاولات التوحيد هذه، والتي تتقابل مع ما قام راتزل بوسمه بالتوسع، هي محاولة لربط المجال ككل بالعناصر المتغلبة²، وفق قواعد التحليل الخلدوني، وليس التوسع والهيمنة الإمبريالية بهدف الاستغلال.

وبهذا التمثيل، يمكننا تقديم التجربة المرينية في التقدم لغزو المغرب، فكان أن شكلت منطقة تازا³ وحوض ملوية⁴ مجالهم الحيوي بمفهوم راتزل⁵، فيما امتداد طموحهم السياسي يتجاوز ذلك إلى مناطق المغرب الخصبة، وفيما يبدو أنه محاولة لضمان هذه القاعدة الحيوية لبنى مرين بالمغرب منح أبو بكر المريني رباط تازا وجميع ملوية لأخيه⁶، إذ كان المرينيون يقول ابن خلدون "يطرقون في صعودهم إلى التلول والأرياف منذ أول دولة الموحيدين وما قبلها جهات كرسيف إلى وطاط، ويأمنون بمن هنالك من بقايا زناتة الأولى: مثل مكناسة بجبال تازي، وبني يرنيان من مغراوة الموطنين قصور وطاط من أعالي ملوية. فيتقلبون بتلك الجهات عام المربع⁷ والمصيف، وينحدرون إلى مشاتهم⁸ بما امتاروه من الحبوب لأقواتهم"¹.

¹- محمد القبلي، "ملاحظات حول التجارب الوحوية الوسيطية ببلاد المغرب الكبير"، م. س، ص 10.

²- نفسه، ص 11.

³- ومن أهمية هذه المدينة أن كانت عادة ملوك فاس من بني مرين إقطاعها لثاني أبنائهم، كما أنهم يقيمون بها الصيف كله ليس فقط لطيب هوائها ولكن لحراسة البلاد وحمايتها من أعراب الصحراء الحاملين لتمور سجماسة لاستبدالها بالحبوب. (الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص 355)، والكلام هنا عن جموع كرفة المتواجدين في مواطن مختلفة بدون رؤساء، والقائمين على حمل التمر من سجماسة إلى مملكة فاس، ومنها يحملون الأقوات الضرورية لسجماسة. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 52.

⁴- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة- الدار البيضاء، ط 2000/1420، ج 2، ص 9.

⁵- محمد بلفقيه، الجغرافيا القول فيها والقول عنها، م. س، ص 74.

⁶- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م. س، ص 294. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، م. س، ص 73.

⁷- في لسان العرب، "المربع والمرتبعة والمرتبعة: الموضع الذي ينزل فيه أيام الربيع"، ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج 8، ص 104.

⁸- منازلهم خلال الشتاء أو بالأحرى مواطن نزولهم في فصل الشتاء، ففي لسان العرب "تشتى المكان: أقام به في الشتوة. تقول العرب: من قاط الشرف وترجع الحزن وتشتى الصمان فقد أصاب المرعى. ويقال: شتونا الصمان أي أقمنا بها في الشتاء. وتشتينا الصمان أي رعيناها في الشتاء. وهذه مشاتينا ومصايفنا ومربعنا، أي منازلنا في الشتاء والصيف والربيع. وشتوت بموضع كذا وتشتيت: أقمت به الشتاء". (ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج 14، ص 421). وقد

إن، فبقدر ما رأى المرينيون في هذا المجال ملجأ لهم في حال ما خرجت الأمور عن سيطرتهم²، فالواضح أنهم قد تخوفوا من طعن الأقرباء أيضا³، فكان اختيار أبي بكر لأخيه يعقوب نقاديا لأي طارئ⁴. هذا إذن عن تفسير راتزل للتوسع القبلي، لكن ما قال به القبلي يحتاج لمبرر ودعوى لدى الراغبين في توحيد البلاد، وهنا نقع فيما يخص التجربة المرينية على إشكالية التخطيط الأولي لغاية الحكم، ومن تم توحيد المجال.

ففي الوقت الذي اعتبر فيه عبد الله العروي، نشاط التنافس القبلي على أرض المغرب حين ضعف الموحدون، نوعا من التنافس على شرعية الخلافة⁵، فإن القبلي -المهتم بالتفسير المجالي- رأى فيه تحركا رعويا مدفوعا بدوافع التوسع المجالي الصرف بعيدا عن كل اعتبار آخر، بالرغم مما تدعيه - يقول - الأسطوغرافية المرينية الرسمية والشبيهة بالرسمية⁶، ومنه فعامل "انتزاع الأرض واكتساح المراعي السهلية عامل مؤسس لا محالة بالنسبة للتجربة المرينية كلها"⁷، وهذا القول، يتناقض مع ما سبق وصرح به القبلي ذاته من أن التجارب الوحدوية ببلاد المغرب الكبير لم تكن توسعية، بقدر ما أنها كانت تسعى إلى توحيد العناصر تحت زعامة عصبية متغلبة.

كان بني مرين "يعدون في انتجاعهم الشتوي إلى سهول الزاب وما يليه من الأراضي الدافئة". مولاي النقي العلوي، أصول المغاربة، م. س، ص 257.

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 7، ص 224.

² - وهذا ما يتضح من تصرفهم بعد هزيمتهم أمام الموحدين سنة 642هـ ومقتل زعيمهم محمد بن عبد الحق. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 7، ص 227.

³ - فالإلى جانب حالات المخالفة السابقتين التي قام بها بنو عسكر، حاول بنو وطاس الفتك بأبي يحيى بن عبد الحق غيرة ومناسفة بعد فراره من حملة السعيد الموحدي سنة 645هـ ونزوله ببلادهم (تازوفا بالريف). ينظر؛ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 7، ص 227-229، وكذا، ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، م. س، ص 73.

⁴ - ومما يؤكد على حيوية هذه المناطق بالنسبة لحكم بني مرين ما أشار إليه الوزان من وجود معسكرات تحفظ الماء للمتقل من تازا إلى دبدو، حيث أن البادية بينهما شديدة الحر والجفاف على مسافة ثمانين ميلا. وقد عانى منها جنود محمد الشيخ المريني في حملته ضد أمير دبدو صيف (يونيه ويوليه) 904هـ، حتى "مات الكثير منهم من شدة الحر في الذهاب والإياب". الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 353-354.

⁵ - العروي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ج 2، ص 178-179.

⁶ - محمد القبلي، "حول البشرية بمجال المغرب الأقصى"، م. س، ص 44.

⁷ - Mohammed kably, **Société Pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen -Age**, Paris, Maisonneuve et larose, 1986, pp 1-15.

وبالعودة إلى الطرح السابق لراتزل حول المجال، نكون فيما يخص القبائل أمام وحدات جغرافية متجانسة، كيانات جغرافية تسجل "المراحل التاريخية المتعاقبة للاستيطان البشري"¹، وهي هنا تعني الحلول بالمكان ثم استيطانه، قبل إنجاز عمليات التوسع تحت ضغط التزايد الديموغرافي. وهذا يسمح لنا بفهم التصرف المريني نحو السهول الأطلسية، غير أنه في المقابل يكاد يتصادم مع التصرف الموحي بنفس المجال، فنحن إذن، أمام وحدات بشرية متباينة الفاعلية اتجاه نفس المجال أحياناً، وهذا ما يؤكد الواقع التاريخي "الذي يصف استغلالات متنوعة أو متعاقبة للبيئة الواحدة"². وعليه، فإن تفاعل القوى الطبيعية والأعمال البشرية يترتب عنه واقع اجتماعي، ومنه يمكننا الانطلاق لملاحظة المشهد المائي، أحد مظاهر المشهد الزراعي، الذي تعتبر هياكله من ضمن المواضيع "التي غالباً ما يؤكد البحث على ثباتها وديمومتها"³.

من جهة أخرى، يحمل النص السابق لابن خلدون ملامح تراتبية هرمية تسود النظام القبلي، ذلك أن حديثه عن اجتماع بيوتات وتقديم بيت للزعامة يتماثل وتراتب الأفراد داخل المجتمع القبلي، ولعل من مظاهره ما سجله الوزان بخصوص عرب حسين من المعقل الذين "غالباً ما يوجد من بينهم أعراب آخرون، لكنهم يعدون من أتباعهم"⁴، كما أن العمارنة من ذوي منصور "يوجد بينهم عدد وافر من أجلاف الأعراب"⁵ والجلف المنسلخ من أهله، ولعل من البديهي أن ينعكس هذا الأمر على توزيع الموارد والتي من جملتها الماء، وهو ما سوف نستجلي حقيقته في موضع آخر من هذا البحث إن شاء الله.

أسهمت الرغبة في التوسع إذن، -حسب ابن خلدون- في انتشار العصبية، وهو ما يتحقق والحالة هذه بخضوع واندماج عناصر مختلفة في تكتل واحد، كيف يمكن استثمار هذه الملاحظة إذن، على مستوى الواقع الاجتماعي لأهل البادية؟ أو ليست ترجمة لما اعتبره الوزان تحول "المغلوبين إلى أرقاء للمنتصرين..."⁶، ثم إن التوسع يفرض أحياناً إلى المجاورة¹، والتي

¹ - محمد بلقيش، الجغرافيا القول فيها والقول عنها، م. س، ص 75

² - نفسه، ص 70

³ - نفسه، ص 150.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 55.

⁵ - نفسه.

⁶ - نفسه، ص 36-37.

كثيرا ما تنتهي إلى ما تكرر المصادر من مظاهر التصارع والفتن، ومن ذلك ما كان بين أهل بادية تامسنا من زناتة وهوارة وصنهاجة من مسالمة تارة، وحروب ضارية تارة أخرى²، وقد يحصل أن يغلب الطارئون على أهل البلد، فتتسج بينهم علاقات عمودية أساسها إما فرض الضرائب على المستقرين، أو انتزاع الأرض منهم وتملكها عنهم، ومن ذلك انتزاع المعقل لقصور الصحراء التي اختطها زناتة بعدما ملكت بلاد المغرب³، ومن هؤلاء المعقل العمارنة من ذوي منصور الذين يستوطنون الصحراء المجاورة لسجلماسة، ولهم بها "واحات كثيرة تمكنهم من العيش كأمرأ"، بل أن منهم فرقة خاصة يمتد سلطانها على بعض الأراضي الزراعية الواقعة بنوميديا، حيث تمدهم أراضيهم الزراعية وقراهم بمداخل كثيرة مهمة⁴، إذ يؤكد أن مختلف الأراضي التي تملكها هؤلاء الأعراب عن أهلها كان يتم استغلالها وفق قاعدة سيطرة الغالب على معاش وإرادة المغلوب.⁵

ويبدو أن أحمد التوفيق قد اعتمد على نفس المبرر، حينما أرجع أصل مجموعة هسكورة إلى اندماج غزاة قادمين من الصحراء مع أهالي المنطقة، وهو ما اعتمد في تفسير غموض أسماء المجالات التي تستقر بها القبائل الهسكورية، فكتب: "ونحس بأن أَلغاز أسماء مثل فطواك وغجدام وكلاوه وسكور، ترجع إلى كونها تشكل شواهد على طبقة لغوية يرجع عهدها إلى عهد غزاة هاجموا المنطقة من الصحراء، وربما من بلاد كوش، واندمجوا في السكان المحليين أو تعلموا لغة السكان المجاورين، وأصحاب هذه اللغة الغربية، على ما يبدو، هم المسؤولون عن البنية القبلية، التي تكونت تحت هذه الأسماء والتقسيمات في القرون الغامضة، والتي اجتهدت الكتابات العربية الأولى في تفسيرها"⁶، وعلى هذا الأساس، يمكننا الحديث عن

¹ - حميد تيتاو، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، م. س، ص 113

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 37.

³ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 6، ص 77.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 55.

⁵ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 259. حميد تيتاو، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، م. س، ص 113.

⁶ - أحمد التوفيق، إينولتان، م. س، ص 58.

مقاربة مخالفة للطرح الذي وضعه المؤرخون ونسابة الوسيط، لكنها تتبنى نفس تقسيماتها الاجتماعية.

يعمد أحمد البوزيدي بدوره إلى نفس القراءة، إذ كتب في معرض التمهيد لأطروحاته حول التاريخ الاجتماعي لدرعة، أثناء حديثه عن سمات قبيلة القصر بالواحة: "تتساكن بقصور واحات درعة عناصر بشرية متباينة الأعراق والأصول، تعتبر في الواقع من بقايا القبائل والمجموعات البشرية التي تعاقبت على تعمير بلاد درعة... وقد فقدت هذه العناصر البشرية كل مفهوم لمعنى القبيلة في إطارها البدوي، كما تخلت عن كل إحساس بالانتماء إلى مجموعة بشرية معينة عن طريق القرابة الدموية، أو الانتساب إلى جد مزعوم. وقد تحولت هذه العناصر إلى الاستقرار والارتباط بالأرض، بعدما فقدت كل ما يذكرها بأصولها القديمة، وأصبحت تشكل ما يمكن تسميته "بقبيلة القصر"¹.

كما يدعم هذا الطرح ما سبق ولاحظه عبد الله الحمودي من أن جماعة القبيلة لا تتجمع في مكان واحد، "لاختلاف الموارد وتوافرها في أمكنة متباعدة، بحسب الظروف المناخية والسياسية والاقتصادية"². وفي هذا الإطار يمكننا الاستشهاد بما سجله البيدق بشأن فرع المهاجرين من فرق الموحدية التي شملت عملية التمييز، إذ تضم أهل الفحص وأهل الجبل، كما أن ولهاصة من أفخاذ كومية ولهاصة الوطاء ولهاصة الجبل³، ولعل هذا الشكل من التوزيع تعزز بمظاهر الاندماج والاختلاط القبلي، والذي قد يتم "بالقوة والغلبة، وبإخضاع المهزومين إلى الاعتراف بذلك بوسيلة تقديم الذبائح، وهي عملية كانت بعض القبائل المغربية تسميها "تعرقية"⁴، كما أن الإدريسي سجل على أن بدرعة "جمل"⁵ وأخلط من البربر بدرعة⁶.

¹ - أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن 17 مطلع القرن 20) دراسة في الحياة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، آفاق متوسطية، 1994، ص 8

² - عبد الله حمودي، "الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية"، م. س، ص 30.

³ - البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، م. س، ص 47-49/51.

⁴ - عبد الله حمودي، "الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية"، م. س، ص 31.

⁵ - "الجمل: الجماعة من الناس". ابن منظور، ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج 11، ص 123.

⁶ - الإدريسي، نزهة المشتاق، م. س، ج 1، ص 226.

أما الوزن فإنه يذهب، في تفسير إقبال الأمراء لكاهل سكان البهاليل، كونهم "ليسوا سوى أجلاف".¹

2- التفتت

إذا كنا في المحور السابق، قد وقفنا كثيرا عند الطرح الخلدوني في مسألة التنظيمات القبلية، وهو الطرح الذي يعكس الاتجاه العام للكتابات السابقة والمعاصرة لابن خلدون، بل وعلى أثرها سار المؤرخون والباحثون في أصول المغاربة من بعده، فإن اتجاها آخر في البحث التاريخي والاجتماعي يرى عكس التشكيل القبلي الموضوع خلال فترة الوسيط المغربي، ذلك أن البناء القبلي المغربي بالنسبة له ليس سوى نتيجة اجتماعية لتحولات تاريخية عرفت بها البلاد، وهكذا نجد جاك بيرك يشكك في حقيقة وجود مضمون واقعي للقبائل المغربية، يتعدى رمزية الأسماء القادمة من العصر الوسيط المغربي²، ويذهب العروي في نفس الاتجاه فيجعل البنية القبلية المغربية نتيجة لضغط الوجود الأجنبي على أرضه.

إذ يرتبط الاتجاه العام للمجتمع المغربي، بشكل لا مراء فيه في تفتت متواصل، فكان أن تم الانتقال من شعوب إلى قبائل فبطون، إذ لا شك، يكتب الأستاذ عبد الله العروي: "أن حجم الجماعات المذكورة يتقلص تقلصا مستمرا"³، غير أن هذا التفتت/ التبعض ليس ملازما للمجتمع في كل العهود والحقب بقدر ما أنه "واقع حادث في ظروف محددة".⁴

وإذا كان العروي، قد مثل لإبراز خلاصته في هذا الباب لمثال الشعب الليبي أو البربري قديما، فإنه بإمكاننا التمثيل بنفس المقاييس والضوابط لنموذج القبائل الصنهاجية مثالا على ذات التحولات، وعلى منوالها يمكن النظر لباقي المكونات القبلية المغربية الأخرى. فلماذا صنهاجة؟

مثلت صنهاجة "لأنموذج القبيل" الذي تفرعت عناصره وتباينت مواطنها حتى استعصى على النسابة الإحاطة بروابطها، وكذا بزمان حصول استيطانها، خاصة ما عرف منها بصنهاجة القسم الشمالي، ثم إن هذا القبيل لعهد ابن خلدون، والذي يشكل أس هذا البحث هو "من أوفر

¹ - الوزن، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص363.

² - جاك بيرك، "في مدلول "القبيلة" بشمال إفريقيا"، م. س، ص ص 119-121.

³ - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ج1، ص94.

⁴ - نفسه.

قبائل البربر، وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما بعده، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر"¹، فصنهاجة، بهذه الخصائص، تمثل أنموذجاً يمكن إسقاط الصورة التي وضعها العروبي عليه، فهي تجمع بين التنوع المناطقي بين أهل الشمال وسكان الجنوب، والذي شكل بالنسبة لسكان المغرب القديم حداً فاصلاً بين فترتي ما قبل - التاريخ وقبيل - التاريخ، وما ترتب عنه تميز مغربان بصفة تدريجية؛ مغرب صحراوي حافظ على سمات حضارة العهد الحجري الصقيل كما تبلورت في وادي النيل، ومغرب متوسطي.² وهذا الوضع المميز لفترة ما قبيل - التاريخ المكتوب رمز له الكتاب القدامى بتعارض الليبيين/ الزواثل.³

وفي المقابل تنقسم مواطن صنهاجة بدورها إلى قسم شمالي، يضم صنهاجة الطبقة الأولى (بلكانة بالمغرب الأوسط وإفريقية)، والطبقة الثالثة التي تستقر بشمال المغرب الأقصى، فيما تستوطن صنهاجة الطبقة الثانية (لمتونة مسوفة وكدالة...) بالصحراء، وبموازاة هذا التباين في المواطن، اختلف سكن هذين القسمين إذ كان أهل القسم الشمالي أهل مدر فيما ظل صنهاجة الصحراء أهل وبر⁴، وهي نفس الخصائص التي عدها العروبي لأهل المغرب القديم، إذ على خلاف حياة البداوة والصحراء التي تميز أهل الصحراء تكشف الحفريات والنقوش الصخرية عما يشير إلى وجود حياة مزارعين مستقرين في المغرب المتوسطي، فكانت أواني أكل العصيدة والمقابر الكبيرة الدالة على التجمعات السكنية الضخمة، ناهيك عن بقايا عظام البقر مما لا يشي بحياة أو معيشة رعاة.⁵

وإذا ما تجاوزنا كثيراً من تاريخ صنهاجة ما قبل الطبقة الثالثة، والتي تمثل لفترة الدراسة، الواقعة مواطنها بالقسم الشمالي، الذي يضم طبقة صنهاجة لهذا العهد، ولعدد من التحولات

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص 201.

² - ووفق مسار هذه التطورات التاريخية إذن، سينتقل مسلسل التفتت الذي يحكم تحول المجتمع المغربي -وفق طرح العروبي- من تقسيم ثنائي إلى تقسيم ثلاثي حسب التركيب التاريخي - الاجتماعي، إذ "كان القرطاجيون يسمون ليبيا كل مغربي خاضع لهم، وناميديا كل شخص سواه. وكان الرومان يسمون أفريقيا كل من يعيش على نمطهم، وناميديا كل من يعيش على خلاف ذلك داخل السد الأمني، وماوريا كل فرد مستقل بذاته". عبد الله العروبي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ص98.

³ - نفسه، ص95

⁴ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص ص 201 - 202.

⁵ - عبد الله العروبي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ص95.

السياسية والاجتماعية، التي عرفها المغرب على الأقل بعد الفتح العربي، فإن مواطن صنهاجة الشمال توزعت على عدة مواطن، يمكن حصرها في خمس مجالات حسب تصنيف ابن خلدون، وهي؛

أ- صنهاجة ما وراء تازة جنوبا إلى السوس الأقصى:

ومنهم صناكة¹، وهم؛ المستوطنين بالجانب الشرقي من جبال درن، ما بين تازة وتادالا ومعدن بني فازان، حيث التنية المفضية إلى آكرسلوين²، ومنها مغربا إلى درعه وضواحي السوس الأقصى. "ولصنهاجة هؤلاء بين قبائل المغرب أوفر عدد وشدة بأس ومنعة، وأعزهم جانباً أهل الجبال المطلّة على تادالا"³ ولهم اعتزاز على الدولة، ومنعة عن الهزيمة والانقياد للمغرم.

وربما يكونون ممن عناهم الوزان من أهل جبل سكيم⁴، إذ هم "قرع من شعب زناكة خفيفو الحركات أقوىاء أبطال في الحروب، سلاحهم حراب صغيرة، وسيوف مقوسة وخناجر، ويستخدمون أيضا الحجارة، فيقدفونها بحذق كبير وقوة عظيمة. وهم في حرب دائمة مع أهل تادالا، بحيث أن تجار الناحية لا يستطيعون قطع الجبل بدون إذن مرور وأداء مبالغ باهظة"⁵،

¹ - صناكة أو زناكة يقول ابن خلدون: "ويعرف هؤلاء كلهم باسم صناكة حرفت إليها من اسم صنهاجة، وأسماوا صاده زايا وأبدلوا الجيم بالكاف المتوسطة المخرج عند العرب لهذا العهد بين الكاف والقاف أو بين الكاف والجيم، وهي معربة النطق". (ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص273). وبنفس التحديد، يذهب أحمد التوفيق إلى أن صنهاجة هم إزناكن، ويعنون في لغة التوارك كل صوت مبهم غير مبين صادر عن إنسان أو حيوان قويا كان أو ضعيفا، وعليه رجح أحمد التوفيق أن يكون معنى اسم صنهاجة هو ما ترجم باسم البربر الذي قيل إن معناه، من لا يبينون في أصواتهم ولغتهم، وليست من باربار الذي كان يعني الأجنبي غير المواطن الروماني. أحمد التوفيق، الهامش رقم 49، من كتاب: التشوف إلى رجال التصوف، ص ص 98-99.

² - آكرسلوين بناحية سجماسة حيث تبتدئ مواطن الزناكة أو صنهاجة الجنوب. عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، م. س، ص 322. وقد تكون المدينة (كرسلوين) التي جعلها الوزان مركز تحكم رئيس قبيلة حسين أحد فروع ذوي منصور من المعقل، والذين تساكفوا مع الجلبين في الأطلس، حيث أسهموا بتقديم عدد من رجالهم "كسادة لكثير من الجبال الآهلة بالسكان والمدن والقصور التي أقطعهم إياها مختلف ملوك بني مرين، جزاء لما قدمته لهم هذه القبيلة من عون فائق في بداية دولتهم. وتباشر حسين سلطتها فيما بين مملكة فاس وسجماسة، ويحكم رئيسهم مدينة تدعى كرسلولين [تحمل أنقاضها حاليا اسم دوار، وتقع على ضفة نهر زيز في منطقة كير]. ويتقلون أيضا في صحراء الظهرة [بين دبدو وفجيج]... الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص55.

³ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص274.

⁴ - أحد جبال تادالا.

⁵ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص186.

وعلى الرغم من أن الوزن وصف مساكنهم بالفقر والبعد بعضها عن بعض، إلا أن مجالهم يسمح لهم بالصمود، إذ إنه ليست لهم كبير حاجة للذهاب إلى تادلا، "لأن جبلهم ينتج كمية كبيرة من الشعير، والماشية كثيرة جدا، وعيون الماء أكثر من الدور عددا، فلا ينقصهم سوى مواد التجارة العادية".¹

وتتصل بهذه القبائل المطلية على جبال تادلا، "قبائل خباتة، منهم ظواعن يسكنون الخص"²، وينتجعون مواقع القطر في نواحي بلادهم بتيغانيمين، من قبيلة مكناسة إلى وادي أم ربيع من تامسنا في الجانب الشمالي من جانبي جبل درن"³، غير أن هؤلاء عكس الأولين لهم اعتياد بالمغرب، فهم لذلك راموا الذل على الحرية.

ب-صنهاجة القسم الشمالي لتازة:

تتشكل قبائل الشمال من عدة مجموعات تعيش متفرقة في المنطقة الممتدة؛ من مضيق تازة وحوض ورغة جنوبا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمالا، ومن المرتفعات التي تقع جنوب مليلة شرقا إلى ضفاف المحيط الأطلسي غربا.

ويستوطن قسم من هذه القبائل "بجبال تازي وما والاها... إلى جبل لكائي من جبال المغرب، معروف ببني الكائي إحدى قبائلهم"⁴، وتشكل هذه المجموعة من عدة بطون مثل: بخاصة وبني وارتين وبطوية، والتي منها؛ "بطوية على تازي، وبني ورياغل على واد المزمة، وأولاد علي بتافرسيت"⁵، وهذا القسم -يضيف ابن خلدون- "يعطون المغرب عن عزة".⁶

¹ - الوزن، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص187.

² - في لسان العرب "الخص: البيت الذي يعمل من القصب" لسان العرب، م. س، ج7، ص386. والخصاص "ساكن الخص وهو البيت من القصب والشجر أو العوسج". دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج4، ص107.

³ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص274.

⁴ - نفسه.

⁵ - وبها دفن الأمير عبد الحق بن محيو المريني، وفي هذا كتب ابن مرزوق "ثم دفنوا الأمير عبد الحق وولده أبا العلى في الموضع المعروف بتافراطاست، من سوق الجمعة، وهو الذي جده المولى المرحوم أبو الحسن، وضاعف التحبيس عليه، وأجرى على مكانه والوافدين عليه الأرزاق العظيمة العيمة". (محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، 1981/1401، ص112). ولذلك كان لهم "نمة مع بني عبد الحق ملوك بني مريّن، وكانت أم يعقوب بن عبد الحق

منهم فاستوزرهم". ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص274.

⁶ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص274.

فيما يستقر القسم الآخر من نفس القبائل الصنهاجية في هضاب وأودية وبساتين، في البسيط ما بين جبال درن وجبال الريف، "يسكنون بيوت الحجارة والطين... ومواطن هؤلاء كلهم بورغة، وأمركو يحترفون بالحياسة والحراثة، ويعرفون لذلك صنهاجة البز، وهم في عداد القبائل المغارمة ولغتهم في الأكثر عربية لهذا العهد... ويتصل بجبال غمارة من ناحيتهم جبل سريف موطن بني زروال من صنهاجة وبني مغالة لا يحترفون بمعاش ويسمون صنهاجة العز، لما اقتضته منعة جبالهم. ويقولون لصنهاجة أزموور الذين قدمنا ذكرهم صنهاجة الذل، لما هم عليه من الذل والمغرم".¹

إن، نفس القبيل (صنهاجة)، بعدما توزعت عناصره أرض المغرب، تعاطى كل قسم ومجموع منه لأنشطة مختلفة، وتطبع بطباع لا تماثل بالضرورة باقي أفراد قبيله الأصل، ليصدق عليهم أثر المجال. وتكون حياتهم وتنظيماتهم وفقا لذلك استجابة لقواعدهم الإنتاجية ومتطلبات بيئتهم الجغرافية. بل إن العامل البيئي تحكم في ردود أفعال أهل البادية اتجاه الآخر، إذ في الوقت الذي نعثر فيه على مشاهد تاريخية تؤكد على صعوبة إخضاع أهل الجبال، ورفض هؤلاء المستمر لأي شكل من أشكال الخضوع والتعدي، فإن البدو من مستوطني السهول والمنبسطات غالبا ما تسمح بتنظيماتهم بالاندماج مع الآخر²، ويبدو أن هذا الأمر قد تعزز خلال الفترة قيد الدراسة، إذ تشكلت العديد من المراكز والمدن في مختلف المجالات السهلية التي تشكل مواطن لصنهاجة أزموور، حيث كانت بمثابة مراكز تجارية على سفوح جبال تادالا.³

وفي المقابل، وفي قراءة سريعة لنظم زناتة بالمغرب الأوسط قبيل توغلهم بالمغرب، نجد أنهم اعتادوا على الانتشار بحسب الفروع العائلية، وتنظيم أمور كل فرع قبلي (عائلي) على أساس المشيخات فكان لكل موطن منهم أهله وشيوخهم⁴، الذي يقوم بأمورهم، لكن الملاحظ أنهم

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص275.

² - ومثل هذا الاندماج هو ما قد يفهم من حديث الوزان عن الفرق والرؤساء المتحاربين بدرعة، خاصة وإشارته إلى استعمال الأعراب في هذه الصراعات، الشيء الذي يفيد حتما إلى انتقاء رابطة الدم بين المتخاصمين وإلا فلما التغلب والاستعانة بالآخر؟ الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص120.

³ - نفسه، ج1، ص ص176-185.

⁴ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج7، ص88.

مع ذلك قل أن اتفقوا على شيخ جامع لهم، لذلك كثيراً ما توزعت ولأهم الدول¹، ومن الواضح أن انتشار البطون داخل القبيل الواحد سرعان ما يتحول إلى رغبة "شبه عائلية أو عشائرية" محلية في التوسع والسيطرة على باقي العناصر القبلية، وهو الشرخ الذي كان يتطور فتتدخل من خلاله الدول في انتزاع اعتراف الجميع بها، فيما تبقى الفتن بين أبناء القبيل الواحد، لتباين مواطنها ومصلحتها فيما يتوافق ونمط عيشها.²

وخلال استقرار بني مرين بقبلة المغرب، استمر احتكاكهم ببني يادين، الذين منهم بنو عبد الواد، والذين يلتقون معهم في النسب إلى زرجيك بن واسين³، فكان "بينهم وبين بني مرين فتن متصلة باتصال أيامهم في تلك المواضع... وكان الغلب في حروبهم أكثر ما يكون لبني يادين لما كانت شعوبهم أكثر وعددهم أوفر"⁴، وقد أرجع أحد الباحثين هذا النزاع إلى عامل التنازع حول المراعي المشتركة، والتي تقاسموها، فكان من نصيب بني مرين، منها الناحية الغربية "قبلة المغرب الأقصى مثل دبدو وملوية وسجلماصة وتيكورين".⁵

إن شدة التناقضات التي بدت تظهر على مجتمع البادية بالمغرب، قد أسهمت في انتشار الولاية، التي حاولت أن تلعب دور العنصر "المواكب" للحملة العصبية، إن لم نقل -على حد تعبير محمد القبلي- "دور العنصر "المواكب- المعوض" أحيانا عن هذه الحملة التي لم تتدخل بتاتا لحن دماء "إخوة" الأراضي الواطئة إبان فترة الغزو ولم يحسب لها أي حساب بعدها"⁶، ليتسع انتشار مجال الولاية ومعه الشكل الجديد للحملة الاجتماعية بديلاً عن انفراط عقد العصبية القبلية.

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س ج7، ص ص 87-88.

² - نفسه، ص ص 85-93.

³ - نفسه، ص 97.

⁴ - نفسه، ص 84.

⁵ - مولاي المتقي العلوي، أصول المغاربة، م. س، ص 256.

⁶ - محمد القبلي، "حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر الميلادي"، ضمن؛ الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط (علائق وتفاعلات)، دار توبقال للنشر - الدار البيضاء، ط1، 1997، ص 63.

وتدعم مجموعة من الإشارات الواردة لدى العبدري¹ وكذا الوزان²، أهمية ر أهل الصلاح في فض المنازعات القبلية وضمان الاستقرار بالبادية المغربية، الشيء الذي يؤكد حصول اختراق للنظام العرفي القبلي العرقي، والذي كان يعمد لأحكام عرفية من قبيل ما سماه الوزان "النفاليس"³ لصالح النظام الولاياتي، الذي يسمح بالجماعات المندمجة وييسر عملية استغلال المجال. خاصة وما يتميز به سلوك أهل الولاية من إصغاء وتحمل وانتصار "المستضعف ومحاولة الحد من التجاوزات أيا كان مصدرها".⁴

عموما، فقد انتهت التحولات الاجتماعية بالقبائل المغربية إلى انحصار للقبلية في تنظيم المزارعين المقيمين، أو الرعاة من الرحل، فيما انحصر الطموح السياسي لمجمل القبائل في المحافظة على الاستقلال القبلي المهدد على الدوام⁵، في الوقت الذي نمت ظاهرة الولاية والتصوف، فأضحت بنية طائفية، مالت في أغلبها "مع مرجعية القبيل، فكان هناك طائفة الماجرين... و"منهم الدكاليون" ثم طائفة الصنهاجيين وطائفة الحاحيين، وطائفة الهزميريين..."⁶، فكان تساكُن القبلية مع الولاية فرصة لتقدم "القداصة" وتزعّمها للمشهد.⁷

¹ - أبو عبد الله العبدري، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1426هـ/2005م، ص ص 43-44.

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 112.

³ - نفسه، ص 104/ ص 125.

⁴ - محمد القبلي، "حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى..."، م. س، ص 64.

⁵ - غابرييل كامب، البربر، م. س، ص 180.

⁶ - محمد القبلي، "حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى..."، م. س، ص ص 67-68.

⁷ - نفسه، ص 68.

III. بنية القبيلة المغربية

يبدو أن التشكيلات القبلية بالبادية المغربية، تخضع لمجموعة من القواعد المرتبطة بطبيعة الأرض وقواعد الإنتاج ونمط الاستقرار، وغالبا ما كانت تتأسس العلاقات القبلية وفق هذه الأسس. وعليه، كان اعتماد عدد من الباحثين على استقراء هذه المشاهد منطلقات للتأسيس لفهم النظام أو الأنظمة القبلية بالمغرب.

1-البنيات الاجتماعية

ينتظم التساكن بالبادية المغربية في تجمعات، تتباين من حيث الشكل والأهمية من منطقة إلى أخرى بحسب طبيعة الاستقرار وأنظمة الاجتماع القروي، بل قد يصل إلى التباينات العرقية والمجالية، وهو ما سوف نقف عنده، ومع تأثيره على التنظيمات القبلية بالبادية المغربية خلال الفترة المدروسة.

يقوم البناء الاجتماعي بالبادية المغربية على وحدات عائلية، أساسها الأسرة أو ما سماه كلنير بـ"الوحدات العائلية"¹ وتتسع إلى مستويات القبيلة والأحلاف القبلية، الذي اختزله ابن خلدون في نظام القرابة والنسب، ووفق التحليل الانقسامي، الذي انطلق من نظام الوحدات لإبراز الرباط القبلي، بحيث تكون "العشيرة داخل القرية، والقرية داخل جماعة القرى المكونة للعشيرة المحلية، والعشيرة المحلية داخل العشيرة الأوسع، وهذا داخل القبيلة"²، وفي هذا الإطار نستحضر قراءة كلنير لسلم الوحدات القبلية، ذلك أنه يربط قيام كل جماعة في السلم القبلي بالأدوار والحاجيات التي تقوم على رعايتها، وعلى هذا الأساس، تكون الجماعة الأولى "هي ربما نتاج للإقامة في منزل واحد، ولما يوجد بين أعضائها من علاقات التوارث"، وهي بهذا الشكل، تتناسب ودور الأسرة.³ فيما تتشكل الجماعة الثانية "الدفاع عن حوزة الحقل وقناة الري". يمكننا عند هذا المستوى وضع جماعة الحي أو المدشر، وما على شاكلتها اليوم من

¹ - إرنست كلنير، "السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية"، ضمن مؤلف الأنثروبولوجيا والتاريخ، م. س، ص 46.

² - نفسه.

³ - تحدث الوزان عن اجتماع الأسر في حاحا لتناول طبق العصيدة. (الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 96).

جماعات "تاقبيلت"، وأخيرا تقوم الجماعة الثالثة "على أساس حماية المرعى والأرض الجماعية"¹، وهي التي توافق القبيلة أو ما يعاضدها من حلف أو لف قبلي.²

وفي المقابل، اعتمد ابن خلدون على لحمية النسب لإبراز هذا التركيب الانقسامى، فكتب عن كيفية تكون العصبية؛ "اعلم أن كل حي أو بطن من القبائل، وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، ففيهم أيضا عصبية أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاماً من النسب العام".³ ومن تم فما يتميز به أعضاء الحي أو البطن الواحد من القبائل ليس سوى تفرعها وفق قرابة النسب إلى وحدات أصغر تلتحم كل منها في عصبية خاصة فيما يتحد الجميع في النسب العام. ووفق التبرير الخلدوني فإن كل بطن، أو بمعنى آخر نسب خاص ينزل موطناً أو أرضاً خاصة، فينظم شؤونه وفق قواعده المتفق حولها⁴، ويتخذ لنفسه رئيساً وجماعة⁵، ويبدو أن هذا الأمر كان قائماً خلال الفترة المدروسة وهو ما دفع بالوزان إلى ملاحظة غياب الرؤساء عند عرب كرفة من المعقل، الذين وجدو في "مواطن مختلفة بدون رؤساء، ويختلطون مع المنابهة والعمارنة...".⁶

من جهة أخرى، لا بد من ملاحظة العلاقة ما بين خريطة انتشار الفرق القبلية؛ ونمط العيش وحتمية التوسع. وفي هذا الصدد نسجل قول إرنست كلنير بالقبيلة المنتشرة -إن صح التعبير-، فليست القبائل عنده بالوحدات الصغيرة التي تعتمد على الاكتفاء الذاتي، بل هي وحدات "توجد بينها اختلافات كبيرة تفرض التكامل: تنوع في الوسط الطبيعي، يطبعه تباين كبير على مستوى المناخ بين المناطق المتاخمة للصحراء ومراعي المرتفعات الجبلية في

¹ - إرنست كلنير، "السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية"، ضمن مؤلف الأنثروبولوجيا والتاريخ، م. س، ص 44.

² - شأن بني جابر "من أحياء جشم إلى سفح الجبل بتادلاً وما إليها يجاورون هناك صناكة الساكنين بقشنة وهضابه من البربر، فيسهلون إلى البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا دهمتهم مخافة من السلطان أو ذي غلبة". ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 6، ص 42.

³ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ج 1، ص 164.

⁴ - لقد سجل الوزان أنه أدرك بحاحاً يحكم الناس "أنفسهم كما يحبون، إلا في المسائل الشرعية التي ينظر فيها الفقهاء وأضرابهم". (الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 101). ويتكرر نفس المشهد لدى جزولة. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 144-145.

⁵ - ابن حوقل، صورة الأرض، م. س، ج 1، ص 100-101. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 7، ص 88.

⁶ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 52.

الأطلس التي تبلغ أعلى قممها حوالي 4000 متر¹، غير أن جاك بيرك يرى على خلاف ذلك تطابقاً ما بين البنية الاجتماعية والمستوى الإيكولوجي، حتى إنه "لا يمكن في نظره فهم طبيعة العلاقات الاجتماعية دونما ردها إلى ما يقابلها على مستوى مورفولوجية الأرض"²، كما وجد لدى قبائل سكساوة تقابلاً تاماً بين الإخص من جهة، ثم المحاط الزراعي، ونظام السقي من جهة أخرى. فيما ترتبط أهداف الجماعة ومثلها العليا بالبنية العقارية وأساليب توزيع المياه، والتي يمثل التعلق بها أو ما بقي منها رمزا للتعلق بالهوية.³

بالعودة إلى الفترة قيد البحث نتساءل: ألا يمكننا التمثيل للتحليلين السابقين؟ أوليس توزيع صنهاجة الذي سبق وتوقفنا عنده مشابهاً لخاصية التوزيع المجالي التي قال بها إرنست كلنير؟ لمحاولة الإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها لا بأس من أن نعيد التذكير بملاحظة عبد الله الحمودي حول التراتبية في العمل لدى قبائل أيت عطا الصنهاجية، ذلك أن وجود ثلاثية العمل والتي تمنح الأعمال الفلاحية لـ "إحراضن" في مقابل تخصص "إمازيغن" بأعمال الرعي والانتجاع وتدبير أمور السياسة والقتال التي تحظى بالتقدير⁴، مما يحيل على استحواد هذه الأخيرة على الجماعة الأولى، والتي تحولت بموجبه إلى عناصر خاضعة مشغلة في صالح المتغلب عليها، وهذا ما سبق وأكدته بعض إشارات الوزان⁵، إذن فما الذي يمكننا افتراضه من مثل هذا المشهد؟ ألا يعكس الأمر توزيعاً للأفراد المتغلب عليهم بين القبيل الغالب واستخدامهم في الأعمال التي لا يرغب أو لا يستطيع أعضاؤه القيام بها، أفليس لعرب المعقل على عهد الوزان أراضي بمملكة نوميديا مع أنهم يقطنون الصحراء ويتنقلون إليها للنجعة⁶، بل إن لقبيلة حسين من عرب ذوي منصور المعقلية سلطة على الجبليين الذين تساكنتهم، ف"تساهم بتقديم عدد من رجالها كسادة لكثير من الجبال الأهلة بالسكان والمدن والقصور التي أقطعهم إياها مختلف ملوك بني مرين، جزاء لما قدمته لهم هذه القبيلة من عون فائق في بداية دولتهم".⁷

¹ - إرنست كلنير، "السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية"، م. س، ص 49

² - المختار الهراس، القبيلة والسلطة، م. س، ص 34

³ - Berque Jacques, **Les Structures Sociales Du Haut-Atlas**, PUF, Paris, p255.

⁴ - عبد الله حمودي، "الانقسامية والتراتب الاجتماعي"، م. س، ص 70.

⁵ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص ص 36-37.

⁶ - نفسه، ص ص 49-56.

⁷ - نفسه، ص 55.

طبيعة التوسع الذي عاشت على إيقاعه القبائل المغربية إذن، فرض عليها الانتشار في المجال بحثاً عن الوفرة والخصب، فكان أن تتعين المواطن وتتفصل الأفخاذ في البلاد مشكلة أنوية لمستوطنات قبلية¹ في اندماج تارة مع العناصر الموجودة قبلهم بنفس المجال، أو مستقلة بذاتها في مواطن جديدة، مع احتفاظ نفس القبائل بزخمها وقوتها في القبيل المتحرك، والذي يبدو أنه يتشارك كل شيء مع المتخلفين من أفراد عصبته، ولنا في النموذج المريني خير دليل على هذه الحالة، فقد كتب ابن أبي زرع في شأن دخولهم للمغرب، فيما يمكن اعتباره انتشاراً لمواطن زناتة، عصب بني مرين، فقد كانت طائفة منهم "يدخلون بلاد المغرب في زمان الصيف فيرعون به أنعامهم، ويكتالون منه ميرتهم، فإذا توسط فصل الخريف اجتمعوا ببلدة كرسيف، فإذا استؤفا بها جمعهم شدو رحالهم، قد باد أهله ورجاله، وفني خيله وحماته وأبطاله... فأقاموا بمكانهم، وبعثوا البريد إلى إخوانهم وقصدوا بلادهم... إلى سنة عشر وستمئة، فدخلت طائفة منهم المغرب ليمتاروا على عادتهم، فوجدوا المغرب خالياً يخبرونهم بحال البلاد وخلائها..."²، ذلك أن حديثه عن تتقل بعض أفراد القبيلة وإرسالهم لإخوانهم، حينما تبين لهم فراغ البلاد (المغرب) من رجالها مع خصب أرضيها، يجعلنا أمام قبيل متحرك لتكسب ورعي الماشية، وفي نفس الوقت محتفظ في مواطنه الأصلية بمن يقوم عليها.

إذا ما كان الوضع كما أشرنا سلفاً، أفلا يمكن افتراض وقوع قطيعة بين أجزاء نفس القبيل؟ فيتحول بعضها إلى مستقر خاضع، فيما يحتفظ المتعود على الترحال بشدته ورغبته في التحرر من كل الكلف، وهذا ما يمكن التمثيل له بحديث ابن خلدون عن "صنهاجة العز" و"صنهاجة الذل"³. إذن، فالواضح أن مختلف القبائل المغربية خلال الفترة المدروسة، وربما على امتداد تاريخ استقرارها قد عاشت على حالة من الانتشار والتوسع، فتعادت على البيئة وتطبعت وفقاً لمتطلباتها بعوائد تفقد على أثرها ما نشأت عليه في القفار والبراري⁴، وبذلك

¹ - ينظر مثلاً في هذا الصدد ما سجله حسن الفكيكي، بخصوص فرقة جزولة (الشمال) بعد اندفاع قلول بني مرين وأحلافهم نحو أراضي الشمال الغربي المغربي، حيث تحول مجال جزولة لمستقر عدد من الفروع القبلية من بني هلال وغيرهم. حسن الفكيكي، مادة "جزولة"، معلمة المغرب، م. س، ج9، ص3003.

² - ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، م. س، ص25-26

³ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص275.

⁴ - روبرت مونطاني، الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر، ترجمة محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، 2014، ص56.

نتساءل عن طبيعة الأنظمة العرفية التي تعتمد في توزيع الموارد والتعامل مع محيطها؟ وعن مدى إمكانية استقدامها لحمولات اجتماعية أو ثقافية تستحضرها في هذا الأمر، من تم اتسام كل جماعة أو قبيل بموروث ثقافي خاص به؟

لاشك إذن، أن مثل هذه القراءات بالقدر الذي ما تسمح لنا بوضع تصور للتشكيلات القبلية بالمغرب، فإنها كذلك سوف تعيننا في استقراء أنماط استغلال الموارد المائية وعلاقتها بالنظام الاجتماعي، أو الأنظمة الاجتماعية بالبادية المغربية خلال الفترة قيد الدراسة، ذلك أن عناصر العصبية القبلية التي جعل منها ابن خلدون في الفترة قيد الدراسة، وما قبلها مفتاحا لفهم الحياة السياسية بالغرب الإسلامي عموما وبلاد المغرب الأقصى بوجه خاص، كانت تحمل داخلها بنيات اجتماعية تنظيمية تختزل مظاهر الصراع على الموارد الطبيعية والمجالات الفلاحية¹، والتي يأتي ولاشك على رأسها عنصر الماء إلى جانب الأرض بطبيعة الحال، وهي العناصر التي سوف نتناولها بالبحث في الفصول القادمة من هذا العمل إن شاء الله.

أكثر من ذلك، فما سجله ابن خلدون من تبدل في أحوال الجيل، الذي هو شاهد عليه بالمغرب²، كان كفيلا بتبدل الساكن على حد تعبير ابن خلدون، ف "تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث"³، كل هذا أسهم ولا شك، في نشأة نظام أو أنظمة اجتماعية جديدة، وفق قواعد جديدة يكون أساسها -بعد تلافي النظم القبلية القديمة على الشاكلة التي صورها ابن خلدون -التساكن لغاية استيطان المجال، ومن تم خلق قواعد لاستغلاله⁴، والانتظام في سلوكها وفق طبيعة

¹ يرى مونطاني أن القبائل تتوحد باحتلال الأرض، فيما تتلاشى حسبه فكرة الوحدة مع الزمن عند غياب الحافز وشرط وجودها المتمثل في الصراع مع الآخرين. روبرت مونطاني، **الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر**، م. س، ص ص 56-57.

² ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر**، م. س، ج 1، ص ص 42-43.

³ نفسه، ص 43.

⁴ فقد تحدث مونطاني مثلا عن الاشتراك في الأرض المحصلة بالغارات وما ترتب عن ذلك من اشتراك في تملكها. (انظر؛ روبرت مونطاني، **الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر**، م. س، ص 55). كما بين عبد الله حمودي كيف أن قبائل ايت عطا حينما استولت على الأراضي والأشجار والماء أقامت عدة مستوطنات، كما عمدوا إلى تغيير أسماء القرى التي يسيطرون عليها بأسماء جديدة. انظر؛ عبد الله حمودي، "الانقسامية والتراتب الاجتماعي"، م. س، ص 65.

اندماج المتساكنين¹، وكذا طبيعة الموارد، ومما يثبت هذا الوضع ما يمكن ملاحظته من إشارات الحسن الوزان بخصوص قبائل إقليم الريف وكرط التابعين لمملكة فاس، إذ تكاد لا تخلو حياة القرويين بجمال إقليم الريف من صراعات ومشاحنات، في الوقت الذي نعثر على هدوء وحالة من التكامل بين سكان إقليم كرت، المستفيدين من فساحة المراعي للمشاة واستخراج معدن الحديد، وازدهار حركة التبادل مع أهل صحراء كرت.²

2-الوحدات الاستيطانية:

يبدو أن نمط التعمير بالبادية المغربية كان رهينا بالمجال الطبيعي أولا ثم بالوضع الاجتماعي للقبائل، وباعتبار قبائل بني مرين وحلفائهم، من عرب المعقل إلى جانب عرب بني هلال المستقدمين من قبل المنصور الموحي جميعهم، يتشاركون في حياة الترحال وملزمة الفيافي والقفار، فإن الواضح أن طبيعة استقرارهم طبعت بحياة التنقل والرحلة، وهم بذلك مخالفون لما كانت عليه "غالبية برابر البرنس من مثل المصامدة وهسكورة وكتامة وأورية وصنهاجة الشمال، الذين يعيشون في بيوت ثابتة من المدر مبنية بالطين أو القش أو أغصان الشجر".³

امتازت زناتة وبنو مرين منهم على الخصوص بطابع البداوة والبعد عن الاستقرار، حتى إنهم وبعد حلولهم بالمغرب وبداية غزو أراضيهم، بل والسيطرة على أجزاء منه، سرعان ما كانوا يهرعون إلى قواعدهم بالريف⁴ عند أي تحد حقيقي من الموحيين، إذ عمدوا بعد هزيمتهم أمامهم

¹ - لقد رصد مونطاني في الأطلس الصغير قيام حلفان "متقابلان أو متصارعان هما: اكزولن (تكرولت) والحكوة (تلكوت) أو إسكتان... ونقول أحيانا عندما نريد تفسير وجود اللفين أن اكزولن شرفاء وأعيان جاؤوا من الصحراء يحملون الإسلام، في حين أن الحكوة هم السكان الأصليون أو القدامى للبلاد و"الجاهليين"... (انظر؛ روبرت مونطاني، الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر، م. س، ص 59). وفي الفترة قيد الدراسة نعثر على ضمن مؤلف الوزان على حكاية تشييد قصور تافيلالت بعد هدم مدينة سجدلماسة، إذ كتب أنه "تجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم، بعضها حرّ، والبعض الآخر خاضع للأعراب". الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 2، ص 121.

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص ص 324-347.

³ - مولاي النقي العلوي، أصول المغاربة، م. س، ص 246.

⁴ - فقد كانت مثلا مدينة تزوطة حسب الوزان لأسرة من بني مرين قبل تملكهم المغرب، "يحفظون فيها حبوبهم وأمتعتهم، وبذلك يستطيعون الانتجاع في الصحاري بكل طمأنينة"، وذلك قبل حلول العرب بالمنطقة والذي يبدو أن بني مرين أنفسهم من استقدمهم إلى إليها. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 342.

في وقعة أبي بياش من أحواز فاس سنة 642هـ/ 1244م إلى الفرار ليلاً بأولادهم وغيالهم وخيلهم وأموالهم نحو جبال غياثة "فتمنعوا بها أياماً".¹

أما أهل الصحراء الجنوبية، والذين "لا يقيمون في أي موطن أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة"²، فإنهم ينتقلون في شكل عشائر تؤلف القبيلة، معتمدين على التنقل المستمر للرعي، الشيء الذي يدفع بهم للدخول في مواجهات مع جيرانهم عند ازدياد عدد قطعانهم، ومعها ازدياد حاجتهم إلى المسارح للرعي³، ولاستغلال بعض الأراضي الزراعية بالوحدات التي تتخلل مجالاتهم فإنهم يعملون على استغلال الأسرى من السود في ذلك.⁴

إن، يتباين انتشار الوحدات الاستيطانية من منطقة إلى أخرى، وذلك راجع إلى أصل العناصر المستوطنة به ونمط عيشها⁵، ثم لمدى قربها أو بعدها من المجالات الحضرية، ذلك أنه غالباً ما تأتي مرادفات المساكن والقرى ذات الكثافة السكانية بضواحي المدن حيث تنتشر العمارات متصلة، وفي هذا الصدد كتب صاحب الاستبصار متحدثاً عن مدينة مكناس ومحيطها، وما يحتويه من خصب الأرض ووفور العمران: "وهي [مدينة مكناس] أربعة مدن وقرى كثيرة متصلة بالمدن والحصون"⁶، ومن ضواحيها "النظر الكبير المسمى ببني بسيل ومغيلة وجهاتها"⁷ والتي تعد زيتها ثاني أكثر زيت المغرب بعد زيت مدينة "تاقرارات"⁸ إحدى مدن مكناسة، ويبدو من نص الروض الهتون أن الاستقرار بمحيط مدينة مكناس كان ينتظم في شكل مجموعات ذات قرابة دموية، وهذا ما يستشف من أسماء المجموعات التي جاء على ذكرها، والتي كانت تسكن في تجمعات دائرية "حوائر" سبق لصاحب الاستبصار أن عدّ وجود

¹ - ابن أبي زرع، الانيس المطرب، م. س، ص 290.

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 59.

³ - ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، ترجمة جما الدين الدناصري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1993، ص 90.

⁴ - نفسه، ص 88.

⁵ - ذلك مثلاً أن التكتل السكاني المهم في الريف يقول الوزان يتمثل "في قصور وقرى ذات بيوت حقيرة مكونة من طابق

أرضي ومبنية بشكل الاصطبلات التي نراها في أرياف أوربا". الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 324.

⁶ - مجهول، الاستبصار، م. س، ص 187.

⁷ - نفسه.

⁸ - نفسه، ص 188.

تسع مواضع تقام بها خطبة الجمعة¹، وهي ذات الحوائر التي تحدث عنها صاحب الروض الهتون مع إضافة "بنوشلوش" و"بنو غفجوم"².

ويستشف من نص ابن غازي ما يفيد أن كل هذه الحوائر كانت تملك مورد ماء، إذ في الوقت الذي استقرت فيه أغلبها على ضفة نهر فلفل، فخصت البعيدة من النهر نفسها بسواقي منه، مثل بني زياد، التي وإن ليست على وادي فلفل "لكن لها منه جدول من نوع ساقية طويلة المسافة صعبة المجرى"³، أو تستفيد من مورد آخر، كما هو الشأن لنفس المجموعة التي بها "عيون يسقون بها بعض أملاكهم، ويسقون بعضها بالساقية المخرجة من وادي فلفل"⁴ فيما بعض أرضها بعل، كما أن ورزيجة التي "يذكر أن أصل أهلها روم" تقع شرق واد فلفل، وبالقرب منها حارتا بنو مروان وبني غفجوم، يفصلها على واد فلفل مسافة، "ماؤها من وادي ويسلن من أودية مكناس، وبها عيون"⁵.

ويبدو أن تنوع أصول المجموعات المستوطنة بمحيط مكناس لم يكن يثير كثير حزازات بينهم، وهكذا نسجل استقرار أهل قرية يقال لها "قرية الأندلس" إلى جانب أهل ورزيجة الذين يعتقد في أصولهم الرومية، "سكنها على قديم الزمان قوم أندلسيون"⁶، تناسلوا بها واحتفظوا ب"ألسنتهم وأشكالهم إلا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد فإنه تغير لسانه"⁷، فيما كان اختصاص هذه المجموعة على ما يبدو بما كان لهم من "كرمات بعل في أرض رملة حمراء"⁸، وفي المقابل "كانت ورزيجة مخصوصة بالأمن، يسكن أهلها الخيمات بالجنات، فلا يلحق أحدهم خوف، ولا يتوقعه إلا من جهة الأسد"⁹.

¹ - نفسه، ص 187.

² - محمد ابن غازي العثماني، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية- الرباط، ط2، 1408-1988، ص14.

³ - محمد ابن غازي العثماني، الروض الهتون، م. س، ص14.

⁴ - نفسه.

⁵ - نفسه.

⁶ - نفسه، ص15.

⁷ - نفسه.

⁸ - نفسه.

⁹ - نفسه، ص14.

يظهر أن التساكن الذي عاشت عليه حوائر مكناس كان راجعاً إلى تناسب الموارد مع السكان، فانفتحت معه عوامل التدافع، وصار الناس إلى استغلال المجال عبر القيام بأعمال الفلاحة، غير أن هذا الوضع تعرض لتقلبات الزمن وفعل التنافس، إذ تفاقم تدهورها "عند قيام بني مرين على الموحدين، وأتت الفتنة على الحوائر المذكورة كلها..."¹، ففي حروب السعيد المريني يقول ابن غازي خلا من المجاشر المحيطة بالمدينة اثني عشر ألف مجشر "انجلا عنها أهلها"²، وهذا ما ترجمه الوزن الذي يعود بظهور المدينة إلى عدم استطاعة البعض البقاء في البادية لعدم قدرته القيام بالدفاع عن نفسه³، قال: "وسكانها [مكناس] متكاتفون جداً، وقد عاش هؤلاء السكان مدة آمنين متحدين طوال عهد بداوتهم، لكن بعد ذلك حدثت فتن وتكونت أحزاب، فتغلب بعضهم على بعض وفقد المغلوبون مواشيهم ولم يستطيعوا المقام في البادية فاجتمعوا وبنو هذه المدينة"⁴، فيما كانت المجالات الزراعية تنتشر خارجها، غير أنه في الوقت الذي اختص أهلها في التجارة والصناعات استنكفوا من ممارسة الزراعة، حتى إنه ليس منهم "من لا يستنكف عن أن يحمل البذور بنفسه على دابته لينقلها إلى من يفلح أرضه".⁵

وفي الوقت الذي يظهر فيه أثر العوامل السياسية على الاستقرار بمجال سهلي غني وخصب كمكناس، فإننا نعثر في المقابل على بدو يتقاتلون كالوحوش، ويستمررون في حروب لا تنقطع ببادية حاحا والسوس ودرعة... فيما ينتشر السكن المداشر والقصور والقرى⁶، التي ينتهي بعضها في الصغر والبعض الآخر في الكبر⁷، ويحتفظ الأعراب دوما بخارج الأسوار في المجالات السهلية أو بالسفوح المحاذية لها، فيعتمد السكان إلى استغلال ممتلكاتهم من الأراضي

¹ - محمد ابن غازي العثماني، الروض الهتون، م. س، ص 32

² - نفسه، ص 40

³ - وفي تقرير مثل هذا الفعل كتب ابن خلدون: "أما المتفردون في أنسابهم فقل أن تصيب أحدا منهم نعمة على صاحبه فإذا أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم ببيغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى الفقر لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلبتهم من الأمم سواهم". ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 1، ص 160.

⁴ - الوزن، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 214.

⁵ - نفسه، ص 216.

⁶ - نفسه، ص 98.

⁷ - سجل ابن خلدون مثل هذه الملاحظة فكتب: "ثم إن كل واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه فرب حي أعظم من حي وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر..." ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 1، ص 153.

تحت حماية الأعراب تارة ويدفع الإتاوات تارة أخرى¹، وأحيانا يقتصرون على زراعة المجالات الجبلية² كما هو الحال بالنسبة لأهل تسكدلت بحا³.

يجرنا الحديث عن تحول المغلوبين من أهل البوادي إلى التكتل في مجموعات، والتحصن بالأسوار⁴ إلى استحضار بعض الملاحظات الأنثروبولوجية في تحليل البنى القبلية بالمغرب، والتي خلص بعضها إلى اعتبار القرابة معطى تابعا وخاضعا لروابط المكان⁵، أي المجال المشترك.

خلال استقرار أهل البوادي في المداشر والقرى... كثيرا ما تتجدد بينهم المنازعات، حتى صارت من طباعهم وَجُزءً من حياتهم الاجتماعية، الشيء الذي انتهت له المصادر الجغرافية منها على وجه الخصوص. وفي الوقت الذي لا تحتفظ لنا به ذات المصادر على العوامل التي تقف وراء شدة وتجدد هذه المنازعات، فإن الوضع يفترض قيام افتراضين على الأقل؛ أحدهما أن يكون حديث المصادر إنما يهتم صراع المداشر والقرى بعضها ضد بعض، التي تعبر (المداشر والقرى...) عن وحدات ذات قرابة (عائلية أو قبلية)، فيكون الصراع ذا طابع عصبي دون انتقاء الأسباب التي تضم الخلافات حول موارد الماء أيضا، وفي هذا الإطار يمكن فهم وتفسير حروب أهل ناحية جزولة، والتي يقطن أهلها في "قرى كبيرة تشتمل أحيانا على ألف كانون أو أقل أو أكثر"⁶، ولانعدام قوة المخزن في بلادهم، فإنه لا سلطان عليهم، ويحكمون "أنفسهم بأنفسهم حتى إنهم يكونون منقسمين ومتحاربين في غالب الأحيان. ولا تطول هدنتهم أكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع، وفي خلال أيام الهدنة يمكن للخصوم أن يتجروا فيما بينهم وأن ينتقلوا من جهة إلى أخرى. لكنهم في غير هذه الأيام يتقاتلون كالوحوش"⁷.

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 100.

² - نفسه، ص ص 169-168/105

³ - نفسه، ص 104.

⁴ - نفسه، ج2، ص 126.

⁵ - المختار الهراس، القبيلة والسلطة، م. س، ص 45. كما تحدث الوزان عن بقاء أسماء بعض المواقع رغم اندثارها بسهولة الساييس. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 244.

⁶ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 144.

⁷ - نفسه، ص ص 145-144.

الافتراض الثاني؛ أن تكون المنازعات تهم حقا أعضاء نفس المدشر أو القرية، فَيُسْتَدْعَى التحليل الانقسامي، عبر البحث عن وجود تحالفات تمتد إلى مستويات أصغر من البناء القبلي، والتي لا يبدو أن خلافتها تخرج عن دائرة المرتبط من المعاش بالحياة اليومية من تدبير المرعى ونوبات مياه.¹

وقد تشتد الفتن بين أهل نفس الموضع، فيتم اللجوء إلى أهل الصلاح من المتصوفة، ممن يحضون بمكانة خاصة داخل هذا الفضاء القبلي²، ومن ذلك مثلا قصور منطقة أقا في صحراء نوميديا، والتي "كانت عامرة جدا لكن السكان هجروها على إثر فتن أهلية، ثم عمرت من جديد بفضل تدخل رجل صالح هدا من هذه المنازعات، وربط أواصر القرابة بين الخصوم السابقين..."³، وهذا ما جعلنا نستحضر قراءة عبد الله حمودي في دور الصلحاء بالأطلس الأوسط في التحكيم في النزاعات والحروب القبلية، إلى أن صارت "الأضرحة وقبور الأولياء أماكن حج يحرم فيها القتال".⁴ بل، إنه يراها السبب في تشييد المخازن، وعقد الأسواق، ومرور المسالك بجوارها.

يدفعنا الحديث عن أهل الصلاح إلى استحضار حديث ابن خلدون عن كيفية تكوين الثروة من طريق الجاه، ومن هذا الوجه ما يتحقق من عمل الناس في خدمة أهل الدين والفقهاء حين يحسنون الظن بهم فيخلصون في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتماد في مصالحهم، فتسرع إليهم الثروة⁵، وفي ذلك قال ابن خلدون مما كان واقعا في الأمصار والمدن، أما في البوادي فيسعى لهم "الناس في الفلح والتجر وكل هو قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله،

¹ - نفسه، ج2، ص 119. البوزيدي أحمد، التاريخ الاجتماعي لدرعة، م. س، ص ص 36-38

² - يمثل الصلحاء في البادية حسب إرنست كلنير رموزا لقيم ومواقف خاصة بالمجتمع القبلي، بل ويدافعون عنها، فيما "يتشبث بها جميع أعضاء القبيلة حفاظا على كينونتهم واستمراريتها"، فلا غرابة إذن أن يخرج بحكم مفاده أن التصوف يقوم مقام إسلام الفقهاء بالحواضر. إرنست كلنير، "السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية"، م. س، ص 44-46.

³ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص ص 117-118.

⁴ - عبد الله حمودي، "الانقسامية والتراتب الاجتماعي"، م. س، ص 73.

⁵ - يدعم هذا الرأي ما نقله البادسي عن أتباع أبي محمد صالح من "أن من شأنهم الاسفار البعيدة يتوجهون إلى اخوانهم من العرب والشاوية الساكنين في بلاد المشرق والمغرب فيأخذون منهم ما يجب عليهم من زكاة الغنم والابل فيبيعون ذلك وينض لهم من أثمانها مال كثير يأتون بذلك إلى الشيخ... البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص 117.

ويعظم كسبه، ويتأثّل الغنى من غير سعي"¹، ولاشك أن مثل هذا الوضع أثر كثيرا على تدبير مورد الماء، إذ يتحصل منه هو الآخر للزوايا في البوادي ما يجعلها في بعض المناطق صاحبة حقوق ونوبات مياه.²

من جهة أخرى، قد يحدث كما قال مونطاني: "أن تنقسم قرية مكونة من عائلة أبيسية واحدة وتتوزع أو تنتشر على هضبة أو طول سفح. وتمتد الخمسين منزلا التي تكونها على طول كلمترين إلى ثلاث كلمترات".³ حيث يبنى كل منزل بعيدا على بعد من منزل الجار، مشكلة شكل النجوم وسط السماء، ونجد لدى الوزان مثالا لهذا الشكل من الاستقرار، ففي جبل سكيم أماكن مسكونة فقيرة "بعيدة بعضها عن بعض، حتى أنك قلما تجد ثلاثة بيوت أو أربعة مجتمعة".⁴

مجمال القول، يمكن اختزاله في الخطاطة (الشكل 6) بعده، ذلك أن الاجتماع البشري، الذي يشكل النواة الأولى التي يتأسس عليه النظام القبلي، يأتي من رغبة بشرية في تحقيق غايتي الغذاء والدفاع كأولويتين طبيعيتين، وينتج عنهما تساكُن عناصر من نفس القرابة الدموية بقصد استغلال مجال ما، وهو ما تنشأ عنه القبيلة في شكلها الأول، والذي حملت معناه المعاجم العربية وقدم به ابن خلدون نظريته السياسية لتعاقب الحكم بالمغرب.

سرعان ما تتعرض القبيلة بهذه الصيغة لمجموعة من التحولات، تجبرها على التوسع لعدة إكراهات وتحديات (ديموغرافيا/ طبيعية/ سياسية...)، فينشأ عن ذلك تداخل وتصادم العناصر القبلية التي تتشارك الطموح في توسيع مجال سيطرتها، دون أن يلغي ذلك استمرار السعي البشري نحو خلق فرص للتساكن، والذي ينضاف إلى شروط تحقيقه هذه المرة عامل تنوع أنماط المعاش والتكسب بين العناصر المضطرة لتقاسم نفس المجال الطبيعي، وهنا ينشأ نظام قبلي بغير ذي الأسس التي تأسست عليها القبيلة في المرحلة الأولى، وهذا هو جوهر التحول الذي سنتبني عليه قراءتنا للواقع القبلي بالبادية المغربية "نهاية العصر الوسيط". ويترجم

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 488.

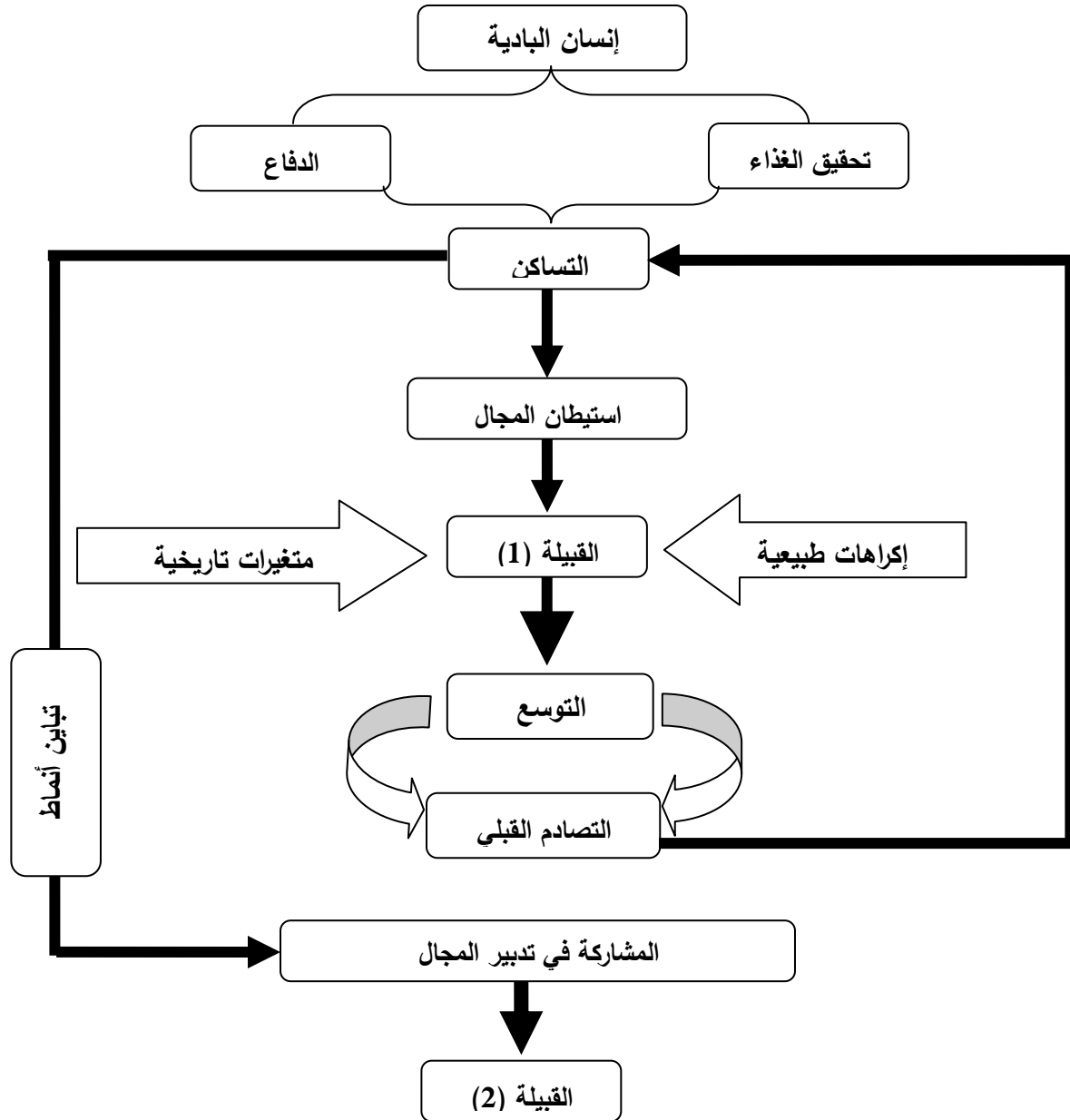
² - أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، م. س، ص 295.

³ - روبرت مونطاني، الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر، م. س، ص 74.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 186.

هذا التحول بالانتقال من البداوة نحو الحضر، بمعنى التحول من الترحال والتنقل إلى الاستقرار على موارد الماء.

الشكل رقم 6: خطاطة توضيحية لشكل التحول في النظام القبلي بالبادية المغربية



من الواضح إذن، أن مختلف التحولات التي عرفتها البادية المغربية وتنظيماتها الاجتماعية، سوف تنعكس على مسألة تدبير المياه أحد أهم عناصر استمرارية الحياة عموماً، وقيام الأنشطة الفلاحية عماد الإنسان البدوي بوجه خاص، فكيف تدبرت القبائل هذه المسألة؟ وكيف أسهم الماء في الحياة بالبادية المغربية خلال الفترة من ق 7هـ إلى ق 10هـ؟

الفصل الثالث

المناخ والبادية بين المعاش والانتعاش

سبق ورأينا في الفصول السابقة كيف أن الوحدات الاجتماعية بالبادية المغربية، كانت تقوم على أساس الاجتماع لضرورات الحياة والحماية، فيما يمكن ترجمته في أوليات الاستيطان ومعاني الموطن، فكان السعي بحثا عن الماء والمرعى مع رجاء الأمن، محددات لمطالب الحياة القبلية. وعليه، اعتد النشاط الفلاحي أساس انتظام الجماعات البدوية -حسب القراءة الخلدونية-، وخلال هذا الانتظام الاجتماعي تفاعلت عدة عناصر لخلق الحدث التاريخي، المجدد في الآتي: حركة العناصر القبلية؛ بدءاً بالفرد وانتهاء بالقبيل (تشكل المجموعات البشرية). ثم في المضمون الثقافي (تشكل العادات والأعراف). وأخيرا بالمنتج الاقتصادي (الأنشطة الإنتاجية). وبين مختلف هذه المستويات خلقت عناصر أخرى، لعل من جملتها تلك الإجابات أو الاستجابات التقنية التي أبدع فيها الإنسان البدوي لمواجهة عناصر البيئة المحيطة به من مناخ وتضاريس.

إن حياة الإنسان بالبادية مرتبطة بالمتطلبات الأولية للاستقرار البشري، وما يقتضيه من وحدات اجتماعية ونظم قبلية وأنشطة اقتصادية أساسها الفلاحة، واستغلال المجال وفق قواعد اجتماعية، تتطور مع الزمن مشكلة أنماطا اجتماعية واقتصادية شديدة التعقيد، نتيجة لتراكمات تاريخية. يصعب في الكثير من الأحيان الوقوف عند كل تفاصيلها (الأحداث) ومفاصلها (الفترات)، غير أن ذلك لا يمنع من محاولة تقديم قراءة في هذا الباب من خلال استحضار عامل المناخ.

يهم هذا الفصل إذن، البحث في العلاقة بين المناخ والبادية المغربية -بما هي جملة علاقات اجتماعية وأنشطة بشرية ومجال جغرافي مركب-، وذلك من خلال التساؤل حول أثر عنصر المناخ في مشاهد الفلاحة والاجتماع بالبادية المغربية خلال الفترة قيد الدراسة.

1. المناخ والمجتمع البدوي

تتنظم الحياة الاجتماعية بالبادية المغربية وفق نشاطي الترحال -الرعي والاستقرار- الزراعة¹، وسنعالج في هذا المحور بعض العناصر التي تجعل أهل النجعة من الرحل متفوقين على ممتنهي الزراعة والفلاح من المستقرين، والتي تترجم في عملية الإخضاع والتغلب التي تتواتر على مراحل مختلفة من تاريخ المغرب.

سجلت المصادر الوسيطية عدة مظاهر للتفاعل بين البدو ومجالهم الطبيعي، ومن خلال ملاحظة عدد من الإشارات في هذا الصدد، يتبدى تأثير عنصر المناخ واضحا في جوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية بالبادية المغربية. لقد سبق لأحد الباحثين أن لاحظ اهتمام المصادر الوسيطية بالمنظر الطبيعي بالمغرب، حيث وصفت "تنوع التضاريس، وأعجبت بالغطاء النباتي ووفرة الفواكه والخضر، وبتعدد مصادر المياه".² المصادر ذاتها سجلت تباينا وعدم انسجام في الوسط الطبيعي للبلاد على المستويين التضاريسي والمناخي³، الشيء الذي انعكس على توزيع الأنشطة السكانية، وكذا الوسائل المستعملة في استغلال هذا الوسط الطبيعي.⁴

1- جماعات النجعة

يظهر من خلال مصادر مغرب العصر الوسيط المشهد الريفي المغربي⁵؛ مجال استيطان قبلي، وعبر نظام انتعاش القبيلة فيه يحدد موقعها من البداوة ما بين الخشونة المفرطة، والبداوة

¹ - شقرون محمد، مادة "البادية المغربية"، معلمة المغرب، م. س، ج3، ص 972.

² - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 279.

³ - وقد تتضمن بعض الإشارات المصدرة معطيات عن ظواهر مناخية من قبيل حديث الوزان عن ربح شمالية تتسبب في تكدر أكوام الثلج على المسافرين بجبل وممر الغربان (خنك الغربان). الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص367.

⁴ - لا يتوقف التساؤل حول المناخ هنا على قضية التنمية الجغرافية، بقدر ما يتساءل مع بعض المشتغلين بدراسة التغير المناخي بالمغرب "حول هامش الحرية التي يتمتع بها الإنسان تجاه ضغوط الطبيعة... هل هناك تزامن تام بين المناخ والمجتمع في تطورهما المطرد؟" محمد الناصري، مادة "الجفاف المناخي"، معلمة المغرب، م. س، ج9، ص 3047.

⁵ - والذي يحيل إلى كل ما يوجد في البادية وخارج مجال الحاضرة. حميد نيتاوا، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، م. س، ص 98.

الأقرب من الحضر حيث الزراعة والاستقرار.¹ وهنا تجدر الإشارة إلى ارتباط التعبير "حضر" بعنصر الماء، ذلك أن أحدهم عرف البادية على أنها "خلاف الحاضرة، والحاضرة القوم الذين يحضرون المياه وينزلون عليها في حمراء القيظ، فإذا برد الزمان ظعنوا عن أعداد المياه وبدوا طلبا للقرب من الكلاً. فالقوم حينئذ بادية بعد ما كانوا حاضرة. ويقال لهذه المواضع التي يبتدي إليها البادون بادية".² وبقدر ما يبرز لنا هذا التعريف جانباً من جوانب الاختلاف بين البادية والحاضرة، ودور الماء وحضور مواضع وجوده في الأمر، فإنها تجعلنا نقف على أحد المشاهد التي تتكرر في متون المصادر الوسيطية عند الحديث عن البادية المغربية، ألا وهي خاصية تنقل القبائل بين مجالات الانتجاع صيفا وشتاء، أي تحت تأثير الظروف المناخية³، التي تؤثر على مصادر تغذية نجعة القبائل من بقر وإبل وغيرهما.

يعتبر الانتعاش من الرعي أحد أبرز الأنماط الاقتصادية المميزة لحياة البدو بالمغرب، ذلك أنه من ضمن الثلاثة أقسام التي حددها ابن خلدون للبدو نجد قسمين يرتبطان بالظعن، بحثاً عن المسارح والمياه لحيواناتهم، والذين منهم الشاوية أو القائمون على الشاة والبقر، فهم ظعن في الأغلب؛ "لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الأرض أصلح بهم، ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة"⁴. والقائمون على الإبل، وهم حسب ابن خلدون الأكثر ظعناً والأبعد في القفر مجالا، "لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر، وورود مياهه الملحة، والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذى البرد إلى دفء هوائه، وطلباً لماخض النتاج في رماله... فاضطروا إلى إبعاد النجعة، وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضا فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة"⁵ منهم.⁶

¹ - حميد تيتاو، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، م. س، ص 114.

² - الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج 37، ص 149.

³ - حتى أنه جاء عند الأزهري: "وسمعت العرب تقول لأول مطر يقع بالأرض أيام الخريف: ربيع، ويقولون: إذا وقع ربيع بالأرض بعثنا الرواد وانتجعنا مساقط الغيث". الأزهري، تهذيب اللغة، م. س، ج 2، ص 225.

⁴ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 1، ص ص 151 - 152.

⁵ - "الضعة: الذل والهوان والدناءة". ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج 8، ص 397.

⁶ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 1، ص ص 151 - 152.

لاعتبار قسوة الظروف المناخية التي يعيش على إيقاعها هؤلاء الضاعين في الصحراء، فإن حياتهم كان بها من الشظف والشقاء ما جعل جل اعتمادهم في المأكل على اللبن واللحم¹، إذ لا يعرف، على قول ابن حوقل البربر، المهملين في براري سجلماسه وودغست ونواحي لمطه وتادمكه إلى الجنوب ونواحي فزان: "الطعام ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئاً من الحبوب والغالب عليهم الشقاء والانتشاح بالكساء وقوام حياتهم باللبن واللحم"²، غير أن قسوة الطبيعة ذاتها جعلت في هؤلاء من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم، مع ما كان لهم من فروسيّة على الإبل، وخفة في الجري، والشدة والمعرفة بأوضاع البرّ وأشكاله والهداية فيه، والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة.³

ارتباط حياة بدو الصحراء ممن ينتعشون من الرعي بمجالهم، جعلهم يكتسبون مهارات تساعدتهم في التأقلم مع قسوة المفاز، فكان أن اكتسبوا مهارات في الاستدلال على المياه، كما ساعدتهم خشونة أحوالهم في التغلب على المستقرين من أهل القرى والمدائن، في حال اشتداد الأحوال المناخية وتعذر مواصلة البقاء في الصحراء، فبني مسوّة من صنهاجة مثلاً في صحراء غير عامرة ما بين سجلماسة ومدينة غانة على مسيرة شهرين، لا يطمئن بهم منزل، وليس لهم مدينة يأوون إليها إلّا وادي درعة⁴، وقد يستغل هؤلاء البدو تزامن وجودهم بمسارح الشمال صيفا مع حالات الضعف التي تلحق بالمستقرين، نتيجة الآفات والكوارث الطبيعية أو الاجتماعية، فيعملون على الإغارة على القبائل المستقرة وسلب الممتلكات. ذلك أن أهل البادية كتب التادلي: "يحفرون حفرا لجمع ماء المطر، فإذا انحس عنهم المطر رحلوا إلى مواضع الماء"⁵، ما كان يشكل ضغطاً من أهل بدو الجنوب على أهل الشمال والشمال الغربي، فلا غرو إذن "بعد هذا أن ارتبطت أعوام المجاعات بأعوام المحل"⁶.

لقد أسهم استئناس قبائل الصحراء بنجعة الإبل في تنشيط الحركة التجارية بالصحراء، ذلك أنه بين المغرب وبلد السودان "مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه متعذرة المراعي لا تسلك

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 58-61.

² - ابن حوقل، صورة الارض، م. س، ج1، ص ص 83-84.

³ - نفسه، ص 102.

⁴ - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص 837.

⁵ - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 218/ ص ص 234-235.

⁶ - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، م. س، ص 65.

إلا في الشتاء وسالكها في حينه متّصل السفر دائم الورد والصدر"¹، وهكذا كان بدو الصحراء يجمعون بين النجعة ومراقبة المسالك التجارية الصحراوية² التي تنشط بفعل الظروف المناخية شتاءً وتتعدّر صيفاً، فيكون توجه ناجعة الصحراء نحو الشمال ومناطق توفر المياه صيفاً واقعا مرتبطاً بطبيعة المناخ، واستجابة لحاجة حيواناتهم للمراعي.

عمد البدو المغاربة في المجالات الداخلية إلى الجمع بين استغلال الأرض والقيام بالسائمة، وذلك بقصد تنويع الإنتاج الفلاحي عبر الجمع بين تربية الماشية والأعمال الزراعية لتعويض ضعف التساقطات، وأثرها على طبيعة الموارد المائية، ومن تم النشاط الزراعي، حيث غلبة الأراضي البورية؛ أي مساح للرعي، ومن الشواهد التي تقوم دليلاً على هذا الترابط ما كتبه الإدريسي أثناء تعرضه لبرابرة دكالة، حيث كتب: "وأرض دكالة كلها منازل وقرى ومناهل ومياها قليلة"³ فإذا كانت المنازل والقرى تقوم شواهد على نوع من الاستقرار، فمجيئ الإدريسي هنا بتعبير "المناهل" يحمل إشارة إلى القيام بنجعة الإبل، ذلك أن اللفظة مناهل في اللغة تأتي من اشتقاق المنهل الذي يعني "المورد، وهو عين ماء ترده الإبل في المراعي. وتسمى المنازل التي في المفاوز على طرق السفار مناهل، لأن فيها ماء".⁴ ونفس الأمر كانت تعيش على إيقاعه بادية تارودانت السوس، التي "يسكنها قوم من المصامد لهم حرث وزرع ومواش كثيرة"⁵، أما بقرية أم ربيع فيعيش أخلاط من برابر رهونة⁶ وبعض زناتة وتامسنا "وكل هذه القبائل أصحاب حرث ومواش وجمال، والغالب عليهم الفروسية"⁷، وبباب زناتة على نحو من عشرة أميال "واد عليه حرث يسقى به وبه أغنام وأبقار وزروع كثيرة تقرب من نهر ايناون".⁸

¹ - ابن حوقل، صورة الأرض، م. س، ج1، ص 104.

² - مصطفى نامعي، مادة "تكنة"، معلمة المغرب، م. س، ج8، ص 2512.

³ - الإدريسي، نزهة المشتاق، م. س، ج1، ص 241.

⁴ - الفاربي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط4، 1407هـ/1987م، ج5، ص 1837.

⁵ - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 241.

⁶ - قبيلة جبلية، يرى ابن خلدون أنها شقيقة غمارة (ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص 299)، تحد شرقاً بقبيلة غزاوة وشمالاً بكل من قبائل بني زكار وبني سيف وأهل سريف، وجنوباً وغرباً بقبيلة مصمودة. محمد أخريف، مادة "رهونة"، معلمة المغرب، م. س، ج13، ص 4454.

⁷ - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 237.

⁸ - نفسه، ص 247.

أما بالهوامش الشرقية والجنوبية للأطلس، فإن البدو عمدوا إلى استغلال مياه الفيض خلال شهري شتبر وأبريل للحراثة وزراعة الحبوب¹، وذلك لدعم مواردهم المعاشية، دونما التخلي عن حياة الترحال، إذ ينتشر رعاة ذوي منيع مثلاً في المسارح إلى أن يأتي فيض الخريف، حيث "ينتشر الخبر بسرعة، ويتجمع معظم القبيلة تقريباً للحراثة. وفي فصل الربيع يرجع كل واحد منهم من أجل حصد الزرع ودرسه، ثم خزنه في المطامير تحت الأرض"²، ومع ذلك فإنه لم يكن للقبيلة الاعتماد الكلي على الفلاحة فقط، لعدم استقرار كمية المحصول التي تبقى مرتبطة بكمية الأمطار والفيضانات، بل إن كثرتها في الربيع قد تؤدي إلى تلف الغلة كلها.

طبيعة التساقطات المطرية إذن، وما ارتبط بها من وفرة المياه أو ندرتها كان له دور في شكل نجعة البدو ونوع الماشية³، والتي تخضع لعنصري الماء والكلأ اللذين لا ينفصلان عن عاملي طبيعة الأرض وشكل التساقطات المطرية.

الجدول رقم 11: من مشاهد الرعي بالمغرب من خلال كتاب المسالك والممالك للبكري

المجال	نص الإشارة	ج/ص
وجدة	"مراعيها أنجع المراعي وأصلحها للظلف والحافر، ينتهي شحم شاة من شياهم مائتي أوقية".	752/2
البصرة	"أوسع تلك النواحي مرعى وأكثرها ضرعا، ولكثرة ألبانها تعرف ببصرة الذبان"	789/2
تاشت	خندق غرب اصيلة و"فيه مراعي مواشي أهلها".	792/2
وادي مغار	"لكتامة أيضا قرار كبير، بلد للزرع والضرع"	793/2
مطماطة أمسكور	"بلد كبير على نهر ملوية... كثير البقر والغنم"	835/2
صحراء لمتونة	"قبيل من صنهاجة يعرفون ببني لمتونة طواعن رحالة في الصحراء، مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام"	857/2
جبل لمتونة	"جبل منيع كثير الماء والكلأ في طوله مسافة ستة أيام وفي عرضه مسافة يوم"	861/2

يبدو أن حياة المختصين بالنجعة لم تكن رهينة للتنظيم القبلي فقط، بل كانت تخضع كذلك للرحلة ما بين مواطن الماء ومنابت الكلأ، وذلك حسب مواسم وفترات زمنية محددة،

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 113-114.

² - روس إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي، م. س، ص 61.

³ - فمثلا بجبل بني سعيد من إقليم كرت الخاضع للملكة فاس - حسب الوزان - "الماشية وفيرة بسبب السهل الكبير الذي يستغله أهل البلاد والذي لا يشكو أبدا من قلة الماء". الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 344.

يمكن التوسع بشأنها بالاستعانة ببعض المحددات التي تأتي بها كتب الأنواء¹، وذلك لتوضيح التحركات التي اختزلتها مصادر الفترة في تبديل المكان، تبعاً للكلاً ما بين الشتاء والصيف، فيما هي تحتزن فهما وإدراكاً للطقس والبيئة²، وما يرتبط منها بشؤون الماشية من ماء³ وكلاً على طول السنة، وفق حركة النجوم والكواكب.⁴

لعل في المشاهد الطبيعية لبلاد المغرب ما يجعل من البيئة المغربية، مقاربة لمثيلاتها بالبلاد العربية بوجه عام مع ما تتميز به الأولى من وفرة نسبية في المجالات الخضراء، والتي تحتضن أكثر الجماعات القبلية، في مقابل احتضان الصحراء وهوامشها لجموع من المنزوين في فيافيها، المتعودين على مسيرها ورحلتها، إلا أن ما سنحاول إثباته خلال هذه النقطة هو تتميط المناخ لعملية الانتجاع، ومن ثم للحركات الدورية للمجموعات الرعوية على مختلف فصول السنة.

¹ - أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى، **المخصص**، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1417هـ/1996م، ج2، ص ص367-370. أبي إسحاق ابن الأجدابي، **الأزمنة والأنواء**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، ص 120.

² - فمن معرفة أهل الصحراء مثلاً بتباين التساقطات المطرية أن خصوصاً بتسميات مختلفة حسب زمن سقوطها، فمنها "النقطة" وتطلق على الأمطار غير الموسمية، أي التي تأتي على غير موسمها، فيما تسمى أمطار شهر مارس ب"المارسية"، وأمطار أبريل ب"النيسان"، ثم "الأكثورية" لتساقطات شهر أكتوبر، و"البوتة" لتساقطات فصل الشتاء. الناني ولد الحسين، **صحراء المثلثين، دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط، من منتصف القرن 8هـ/11م إلى نهاية القرن 11هـ/11م**، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2007، ص15.

³ - فقد جاء مثلاً في إدراك حاجة الرعاة للماء خلا شهر ماي قولهم: "إذا طلع النجم غديّة ابتغى الراعي شكيّة"، والشكيّة تصغير شكوة، وهي قرية صغيرة. يريد أنه لا يستغني عن الماء لشدة الحرّ، وقال الساجع أيضاً. الأجدابي، **الأزمنة والأنواء**، م. س، ص136.

⁴ - فلبعض النجوم أثر في توقع بعض الرياح، من قبيل موجات الوغرة، وهي "هيجة من الحرّ الشديد، والنجوم التي تتسبب إليها الوغرات ستة، وهي الثريا والدبران والجوزاء والشعرى والعذرة وسهيل. وهي ذاتها نجوم البوارح إلا أن بارح الثريا وسهيل دون بوارح الباقية. الأجدابي، **الأزمنة والأنواء**، م. س، ص137. وعموماً، ففي الوقت الذي اعتمد فيه على رصد حركة النجوم والكواكب لتحديد أزمنة السنة وتحول الفصول، ومن ثم التمييز بين فترات الأمطار ومواسم القيط، فإن الاعتقاد في إمكانية اعتمادها في توقع الأمطار شكل مجال خلاف فقهي، ومع تقدم البحث العلمي يظهر أن توزيع الضغوط الجوية هي المتحكم في توزيع التساقطات وتباينها، وفي حالة المغرب يقدم التصور النظري لما عرف ب"الذبذبات الشمال الأطلسي"، كأهم تصور نظري لتفسير التغيرات العامة للتساقطات وحالات الجفاف الذي يعرفه المغرب، وتقوم هذه النظرية على أساس وجود "حالة تناوب جوية عند السطح ما بين مناطق الضغوط المرتفعة الشبه المدارية والمركزة عند جزر الأسور، والضغط المنخفضة الشبه القطبية عند جنوب وشرق كرويلاند". علي البليشي، مادة "الجفاف المناخي"، **معلّمة المغرب**، م. س، ج9، ص3046.

الجدول رقم 12: التوزيع السنوي للأعمال الرعوية

الشهر	ملاحظات مناخية	خدمة الماشية	الفعل الجمعي	المصدر
يناير	الصقيع القادح	لا يبكر بالماشية من شدة البرد.	الحلول وخدمة الماشية	المخصص، ج2، ص370 الأزمنة والأنواء، ص127
فبراير	بداية انفراج موجة البرد مطر		الحد من تقلب الجو ¹ تجنب ترك الأكسية والقعود في الشمس	المخصص، ج2، ص370. الأزمنة والأنواء، ص129
مارس	الربيع	العودة بالماشية إلى محاضر المصيف	بداية الرحلة نحو محاضر المصيف فتتزل الأحيوية (بيوت المدر)، وتتجاوز الأبنية.	المخصص، ج2، ص370. الأزمنة والأنواء، ص ص 130-131.
أبريل	الربيع مطر	استمرار العودة بالماشية للمحاضر تجنب الماشية النشر	نزول المحاضر	المخصص، ج2، ص370. الأزمنة والأنواء، ص ص 133-136
ماي	بداية الحر أول رياح السمائم	تقريب الماشية من موارد الماء	الرحلة لمجاورة الماء	الأزمنة والأمكنة، ج1، ص479. الأزمنة والأنواء، ص ص 136-138
يونيو	شدة الحر تسكن الرياح أول الصيف	تمام الرجوع عن النجعة	تواصل الرحلة نحو المحاضر	الأزمنة والأمكنة، ج1، ص480. الأزمنة والأنواء، ص ص 139-140.
يوليو	تواصل الحر	فصل الماشية لحلبها حتى لا يترك في أي ذات در منها قطرة	التزام الماء ومواضعه	الأزمنة والأمكنة، ج1، ص480. الأزمنة والأنواء، ص142.
غشت	بداية انخفاض الحرارة السيول	عزل الأولاد من الإبل عن أمهاتهم	بداية قصر الإطماء بمعنى توريد الإبل الماء بعد يوم في المرعى (بداية التحول عن مواضع الماء)	الأزمنة والأنواء، ص ص 144-145.
شتنبر	عودة شيء من البرد	نهاية موسم تزواج الإبل	الابتداء في التبدي أي البعد عن الماء في النجعة	الأزمنة والأنواء، ص147.
أكتوبر	بداية برودة الجو	يقل "على الماء اللكأك" أي يقل شرب الماشية.	اكتساء الرعاة من البرد	الأزمنة والأنواء، ص122.
نونبر	برد	قلة المرعى	النزول وتزايد هم الماشية	الأزمنة والأنواء، ص 123.
دجنبر	شدة البرد	هزل السمان من الماشية لشدة البرد وقلة المرعى	الحلول وخدمة الماشية	المخصص، ج2، ص369. الأزمنة والأنواء، ص125.

¹ - حتى أن الوزن أشار إلى أن الجو خلال هذا الشهر قد يتقلب من خمس إلى ست مرات في اليوم الواحد. الوزن، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص78.

ارتبطت حياة أرياب النجعة بموارد قطعان مواشيها، وتحكمت في حركيتها تقلبات الطقس، فكان فهم البدو الرعاة لبيئتهم مهما لتحديد تحركات قطانهم، بتتبع مواضع الخصب والاستجابة لتحولات الأحوال الجوية ومتطلباتها بالنسبة لأرياب الماشية.¹

كانت الرحلة لدى الظواغن من أرياب السائمة المنتجعين لمواضع القرب من الماء قصيرة، وفي حالة المغرب مرتبطة بمراعي الجبال ومحيطها عبر تحركات عمودية نحو أعالي الجبال صيفا ومنحدراتها شتاء، وهو ما كان يتناسب وطبيعة قطعانهم المحدودة الصبر على طلب الماء²، وبالمثل كان أهل الأرياف وحوزات المدن قاري الموطن على الماء، وعلى الرغم من ذلك ظلت حاجتهم إلى تتبع تقلبات الطقس ضرورية في تحديد حاجيات القطيع وحمايتها ورعاية شؤون تكاثرها.

إن جماعات النجعة عند مستوى الرعي القريب والقار، تنتظم في جماعات تنزل القرى والمنازل في حال الاستقرار، فتقوم بتخصيص أماكن لإيواء الماشية، تعرف بالزرائب، والتي ليس بناؤها بأحسن حالا من الأكواخ التي يتخذونها مساكن بمراعي مواشيهم، والتي تشيد من "لحاء الشجر مثبتة على عصي طويلة رقيقة، وسقفها من قضبان مقوسة على شكل نصف دائرة، تشبه مقابض السلال"³، أما الزرائب فلم تكن تتجاوز في الكثير من الأحيان إدارة الأشواك وتسيج مأوى الماشية ليلا لرد هجمات المفترسات من أسود وغيرها، وقد تخصص في أحيان أخرى اصطبلات أو كهوف لحماية القطعان من برد الشتاء، كما في جبل مغران، وكهوف دادس، التي يكثر في بعضها ملح البارود.⁴

تتأسس حياة القائمين على السائمة من الظاعنين قريبا من موارد الماء على تنقلات جماعية بين السهل والجبل، وفي زمن الوزن انتشرت عدد من جموع هؤلاء السائمة واستوطنت الجبال⁵، بل واتخذ بعضها المساكن البسيطة والمتباعدة، مما يحيل إلى بداية التحول في ممارسة الرعي القريب ودرجته، وهو ما قد يفسر الفقر المنتشر في الكثير من جبال الريف

¹ - كما هو الحال لسهل أزغار إيكمارن، الذي ينمو فيه العشب طوال السنة، فيقصده الكثير من الرعاة بأغنامهم في فصل الصيف. الوزن، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 365.

² - الأصفهاني، الازمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1417هـ، ص 368.

³ - الوزن، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 187-188.

⁴ - نفسه.

⁵ - انظر الجدول رقم 5: مشاهد من استيطان جبال المغرب من خلال مؤلف وصف إفريقيا، ص 51 من هذا البحث.

بالانحسار الذي أصبح عليه حال أهله، لعدم قدرتهم على النزول نحو السهول، ومن تم محدودية الأفق أمامهم بضيق المسارح وشدة البرد، فاتسعت بينهم مظاهر الفقر والبؤس، بل وتحول البعض منهم إلى ممارسة اللصوصية وقطع الطريق.

بعيدا عن الحديث عن دور المناخ في نحت شخصية بدو الصحراء من ناجعة الإبل، يبدو أن أثره يتجاوز ذلك إلى التحكم في حركيتهم داخل نفس المجال، بين فرض الاستقرار النسبي في بعض الأحيان والفصول، وبين القيام والسير الطويل في ظروف وفصول أخرى، وهذا ما يبدو جليا من معطيات بعض المصادر (الجدول رقم 12)، ويمكن دعمه باستحضار بعض خصائص توريد الإبل وفق المعطيات المعجمية، والتي تظهر نشاطا دائما يفهم منه أن بدو الصحراء ناجعة الإبل لا تعدو أن ترتبط بعدد قليل من مواطن الماء¹، والانتشار حولها لأيام وليالي قبل الانتقال عنها لموطن آخر، وعلى هذا الأساس، فإنه يحق لنا التساؤل حول مسير الأشهر الذي تحدثت عنه بعض المصادر بخصوص صحراء الملثمين²، ذلك أن سير الشهرين المتواصل يمنحنا مسافة أكبر من مسافة السير المحكوم بحياة الرعي.

توقفت بعض المعاجم العربية شأنها شأن كتب علم الأنواء عند ظاهرة توريد البدو للإبل، وخلالها يبدو تحكم ظروف الطقس السائدة في تحديد فترات الأظماء³، وهي التسمية التي تطلق على ما بين الشريتين في ورد الإبل⁴، أي حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورد، فتقصر في الصيف لشدة الحر، وتطول في غيره لبرد الزمان. وأقصر الأظماء الغب⁵ وقيل الرغرة⁶، وهي أن يدع الراعي الإبل على الماء تشرب متى شاءت، فيما يقال الرفه للإبل تترك على الماء لا

¹ - تجدر الإشارة هنا إلى أن الإبل تفضل المياه المالحة كما النباتات الشوكية لما فيها من ملوحة، ومن المعلوم حسب شهادة المصادر أن أغلب ما ينبط ببلاد الصحراء يكون زعاقا لأن أغلب أراضيها سبخة (البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص ص 848-847/843/836)، وهذا ما شجع على تربية الإبل مقارنة بغيره من الحيوانات الأخرى. حسن حافظي علوي، مادة "الجمال"، معلمة المغرب، م. س، ج9، ص ص 3089-3090.

² - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص 857.

³ - عبد الله الدينوري، الأنواء في مواسم العرب، دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - الهند، 1357هـ/ 1956م، ص 54. الأجدابي، الأزمنة والأنواء، م. س، ص 145. الاصفهاني، الأزمنة والأمكنة، م. س، ص 481.

⁴ - الأصمعي، الإبل، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق - سورية، ط1، 1424هـ/ 2003م، ص 148.

⁵ - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج1، ص 116.

⁶ - الأصمعي، الإبل، م. س، ص 148. ابن سيده المرسى، المخصص، م. س، ج1، ص 179.

تمنع عنه¹، والغب أن ترد الإبل يوما، وتصدر فتكون في المرعى يوما، وترد اليوم الثالث، فإذا شربت يوما، وغبت يومين فذلك الربع، ثم الخمس، ثم السدس، ثم السبع، ثم الثمن، ثم التسع، ثم العشر. وليس فوق العشر ظمء يسمى، إلا أنه يقال: رعت عشرا وغبا، وعشرا وربعا، وكذلك إلى العشرين، وما بعده فالجزء والقوم مجزئون²، وذلك متى استغنت الإبل عن الشرب بأكل الرطب.

الجدول رقم 13: توزيع حصص توريد الإبل من كتاب الإبل الأصمعي، ص 148-150

الأظماء	أيام المنع	تعدد العشرة	أيام المنع	تعدد العشرة	أيام المنع
الغب	1	رعت عشرا وغب	9	أيام المنع	
الربع	2	رعت عشرا وربع	10		
الخمس	3	رعت عشرا وخمس	11		
السدس	4	رعت عشرا وسدس	12		
السبع	5	رعت عشرا وسبع	13		
الثمن	6	رعت عشرا وثمان	14		
التسع	7	رعت عشرا وتسع	15		
العشر	8	رعت عشرا وعشر	16		

إذن، فتحول أرباب الإبل عن محاضر الماء، لا يتأتى دفعة واحدة، كما أن تردهم لمورد الماء بعد المغادرة يتسع مع رطوبة الجو³، ما يسمح لهم بالابتعاد في طلب الكلاً لمسافة مسير يقارب العشرين يوما دونما الحاجة إلى إرواء إبلهم، فيما يحتفظون لأنفسهم بماء الشرب وفق قواعد ممارسة الرعي، والتي قد لا تختلف كثيرا عن الأساليب التي يتبعها المسافرون من عابري الصحراء، لكن في المقابل ألا يشكل هذا مدخلا للبحث والتساؤل عن كيفية تحركهم في هذا المجال من جهة؟ ثم عن شكل استبدادهم به، مع تعدد الشروط التي يتطلبها البقاء فيها لأيام؟

للمناخ إذن، دور في حياة ناجعة الإبل وتحركاتهم، لكن كيف يمكن استغلال المعطيات أعلاه لإثبات ذلك، أولا وجب القول على أن قيام حياة شبه قارة حول مورد ماء واحد حسب

¹ - الأصمعي، الإبل، م. س، ص ص 148-153. ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج2، ص 125.

² - الأصمعي، الإبل، م. س، ص ص 148-150.

³ - كتب الأصفهاني في الأزمنة والأمكنة: "وقال أبو عبد الله أول نجوم القيط والبوارح الثريا، وسهيل، وإذا مضى سهيل آخرها وإذا مضى سهيل طالت الأظماء، وبرد الليل، فإذا طلعت الجبهة انكسر الحر وامتد الظماء، وتباعدت الإبل في مراعيها، ويكثر الكرش ويغلظ فيمسك الماء ويطول لذلك ظمؤها، وإذا قصر الظماء رعت حول الماء، فإذا طلعت الصرفة فهو انقطاع الحر وتحرك ربح الشتاء، ثم نجوم القدر الشديد وأولها سقوط الدراع، فإذا سقطت الجبهة سخفت الأرض ولانت على الماشي وأطلعت الأرض ذخائر وسميها من النباتات، واختلفت الإبل في مراعيها يعني تباعد بعضها من بعض". الاصفهاني، الأزمنة والأمكنة، م. س، ص 481.

عملية الأظماء ممكنة، إذ يسمح تردد الرعاة على نفس المورد من الماء لثمان مراحل -دون احتساب عملية الغرغرة والرفه- بالكلام عن كونهم موطنين على الماء، ذلك أن عملية حسابية بسيطة في هذا الباب تجعلنا أمام 44 يوماً تشمل أيام الورود على الماء، دون الحديث عن أربعة أيام تباينت حولها المصادر، لا اعتبار أن منها من لا يعتبر يوم الصدور عن الماء، أي الانتقال عن موارده ضمن أيام الأظماء، ومنهم من يعتبره داخلاً فيه.¹

وعليه، ويتجاوز الخلاف السالف الذكر، نضع الأربع والأربعين يوماً أدنى مدة ممكنة التردد على مورد الماء الواحد، وهذا الرقم بطبيعة الحال يتضمن السير في اتجاه واحد فيما يمكن الحديث عن 88 يوماً متوسطاً لا اعتبار قيام الرعي، إنما يهم مجاري الماء في الصحراء، حيث تسهم مياه الأمطار في إنبات العشب حولها، فيما سيرتفع هذا الرقم إلى 132 يوماً و176 يوماً على التوالي، إذا كان مسير الرعي يشمل اتجاهات ثلاث أو أربع.

كيفما يكن الأمر، فإن هذا الافتراض يجعلنا أمام إمكانية تردد رعاة الإبل على نفس المورد المائي لمدة تتجاوز الشهر، قبل الانتقال إلى وضع البادي، حيث التحول البعيد عن موضع الماء على خلاف فترات الأظماء التي يسمح للرعاة فيها بالتوطن بالقرب من موارده (الماء).

الجدول رقم 14: احتساب الأيام الممكنة لورود الماء حسب عمليات الأظماء

الأظماء	اتجاه واحد	اتجاهين	ثلاث اتجاهات	أربع اتجاهات
الغب	2	4	6	8
الريع	3	6	9	12
الخمس	4	8	12	16
السدس	5	10	15	20
السبع	6	12	18	24
الثمن	7	14	21	28
التسع	8	16	24	32
العشر	9	18	27	36
المجموع	44	88	132	176

وفي الوقت الذي يأتي فيه تعبير الأظماء فعلاً متحكماً فيه، ولا يتجاوز عدد أيامه الثمانية أيام²، يأتي الحديث عن الرعي لما فوق العشر، فإنه يمكن القول بارتباط عملية

¹ - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج6، ص69. ج8، ص147.

² - باحتساب يوم الورود على الماء، ويوم الصدور عنه، نكون أمام عشرة أيام. ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج6، ص69.

الأظماء بالفصول الرطبة ومجالات الحضر، فيما ينتقل الرعاة للنجعة البعيدة بعد ذلك في رحلات لا تقل عدد أيام البعد فيها عن موارد الماء عن 9 أيام، وتصل إلى 16 يوماً، وقد تتجاوزها إلى أكثر من ذلك فتتسمى معجمياً بالجزء، والقوم مجزئون، وحينها تفقد الإبل بلتها، أي البقية من الندى في كروشها.¹

الجدول رقم 15: احتساب الأيام الممكنة لورود الماء حسب عمليات الأجزاء

الأظماء	اتجاه واحد	اتجاهين	ثلاث اتجاهات	أربع اتجاهات
عشرا وغب	10	20	30	40
عشرا وربع	11	22	33	44
عشرا وخمس	12	24	36	48
عشرا وسدس	13	26	39	52
عشرا وسبع	14	28	42	56
عشرا وثمان	15	30	45	60
عشرا وتسع	16	32	48	64
عشرا وعشر	17	34	51	68
المجموع	108	216	324	432

هكذا إذن، تكون حياة المستبددين في الصحراء لرعي الإبل، خاضعة لنظام تباين الظروف المناخية وموارد الكلاً والماء للناجعة، فتتأسس تحركاتهم على مرجع الماء بالنسبة لقطعانهم، وتكون في حاجة للقرب من موارده صيفا لتغطية حاجيات القطيع منه. الحاجة التي ترتفع تدريجياً إلى درجة الرفه أو الطول على الماء، ثم تبدأ في التباعد إلى فترات تقارب أو تتجاوز بقليل العشرين يوماً في حالات الانقطاع التام في الصحراء.² فكيف أسهم هذا الوضع في تأتيت المشهد الاجتماعي لهذه الجموع البدوية؟

قبل الإجابة عن التساؤل السابق، لا بأس من الوقوف ولو سريعا عند جموع القبائل التي شغلت الصحراء المغربية، وبعض من تفاعلها مع الأقسام المغربية الأخرى. يحتل رحل الصحراء مكانة خاصة في نسيج الأحداث التاريخية للمغرب بوجه عام، إذ طالما شكل هؤلاء عاملاً محركاً لعدد من التقلبات والأحداث الكبرى التي شهدتها البلاد، وذلك منذ أقدم فتراته

¹ - الأصمعي، الإبل، م. س، ص ص 150-151.

² - تجدر الإشارة إلى أن حاجة الإبل للماء تتأثر كذلك بالجهد الذي تبذله، ذلك أن أحد الباحثين تحدث عن إمكانية استغراقها لكميات تتراوح ما بين التسعين إلى مئة لتر من الماء في حالة العطش لثلاثة أيام، فيما يمكنها الصبر على العطش لمدة خمسة أيام مع بذلها للجهد، وقد تزيد عليه لأكثر من أسبوع في حال الراحة. محمد رمضان، مادة "الجمال"، معلمة المغرب، م. س، ج9، ص3088.

التاريخية.¹ وعموما فإن تأثير هذه المجموعات المتنقلة التي لم يكن يستقر بها موطن في غالب أيامها كثيرا ما ينتهي بها المطاف في التوغل نحو الشمال المغربي، الذي لطالما ارتبطت به بعلاقات تبادل تجاري وتفاعل بشري.

تمتد صحراء صنهاجة حسب المصادر العربية لتاريخ المغرب خلال العصر الوسيط، على مجال يمتد من المحيط الأطلسي غربا، ونهري النيجر والسينغال جنوبا، وتادمكة من الجنوب، وتوات شمالا من جهة الشرق، وتنتهي شمالا إلى السوس الأقصى ووادي درعة²، وإذا كان هذا التحديد الذي ارتبط بأقوال ابن خلدون وابن أبي زرع قد اتسع شيئا ما عما وضعه البكري وغيره قبلهم، والذي يجعل مراحل السير فيها، تمتد إلى "مسيرة شهرين في شهرين، ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام"³، وهي ولا شك دون تحديد ابن أبي زرع "مسيرة سبعة أشهر طولاً في أربعة أشهر عرضاً"⁴، ويرجع الخلاف بين المعطيين على ما يبدو إلى مسألتين؛ الأولى ارتباط حديث البكري ببني لمتونة من صنهاجة، ولا ندري أيقصد بتحديد المجالي هذا الفرع دون مجالات باقي الفروع الأخرى، أو أنه اختزل صنهاجة في لمتونة كأقوى بطونها، وشمل تحديده المجال ككل. والمسألة الثانية التي قد تفسر الخلاف هو ما ساد على عهد ابن خلدون وابن أبي زرع من أن صنهاجة كانوا يرتبطون بزناطة كون هؤلاء أخوالا لهم، ثم حدث أن زحموهم إلى الصحراء، فكان تحديد مجالهم فيما يلي مجالات زناطة في الصحراء إلى أودغست، وهذا قد يفسر توسيع رقعة تحرك صنهاجة إلى قبلة إفريقية كما سجل ابن أبي زرع.

استوطنت الصحراء فيما يمتد إلى الجنوب من السوس الأقصى ووادي درعة مجموعات من صنهاجة، لكنها على ما يبدو تأثرت فيما بعد سقوط المرابطين، إذ تضعف وجودهم بالسوس كما بدرعة وباقي مناطق المغرب الأخرى، غير أن التأثير الأكبر على هذه القبائل سوف يأتي خلال الفترة قيد الدراسة، حيث جاورت قبائل ذوي حسان بطون صنهاجة بالصحراء، إذ احتفظت على قدرتها على الظعن والتنقل في الصحراء.⁵ وعليه فما قد يقال على

¹ - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ج1، ص 95.

² - الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، م. س، ص 4

³ - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص 837. مجهول، الاستبصار، م. س، ص 200-216/201.

⁴ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م. س، ص 120.

⁵ - حسن حافظي علوي، مادة "الجمال"، معلمة المغرب، م. س، ج9، ص 3089.

تزرع البنيات القبلية بالشمال المغربي يصدق على الامتدادات الشمالية لصحراء صنهاجة على الأقل.

ليست القبائل الصنهاجية من لمطة وكدالة ولمتونة الوحيدة التي عرفت حياة النجعة والظعن واستئناس الصحراء، إذ طبع الأمر تاريخ القبائل الزناتية وجموع القبائل العربية كذلك.¹ وعليه فحياة الرعي كان ميزة شهدت أطوارها أغلب العناصر القبلية الموجودة بالمغرب فترة الدراسة، وهو الشيء الذي جعل ضرورة الانفتاح على كيفية تعامل هذه العناصر مع شروط العيش في الصحراء وتفاعلها مع أحواله المناخية أمرا ضروريا للكشف عن انتظامها الاجتماعي، والذي نستعيز معه حديث ابن خلدون على أن جموع الرحل كانت الأشد حرصا على ناظمة النسب وما يرتبط بها من أشكال التعصب.² الأمر الذي يفسر عمليات الغزو والاستحواذ التي كانت تعمل على إحيائها كل المجموعات التي استوطنت الصحراء نحو أهل الشمال، والتي غالبا ما كانت تتراقق وموجات الجفاف الحاد التي تعرفها الصحراء.³

ينتظم رحل الصحراء في شكل مجموعات عائلية شديدة الحرص على الوحدة النسبية، ذلك "أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في الفقر من العرب ومن في معناهم"⁴، ومعه تكون القبيلة نظاما اجتماعيا شاملا -حسب تعبير العروبي- يختزل قوة التضامن بين عناصره. فهل يعني هذا تنقلها المستمر وحداتٍ عائليةً كذلك؟ ماذا يعني تعبير مواطنهم بالصحراء على الماء الذي يتردد في متون المصادر؟ كيف يمكن استغلال المعطيات المعجمية السابقة في تقديم قراءة في الوضع الاجتماعي لأهل الصحراء في علاقة مع التقلبات المناخية؟

يبدو أن انتظام الجماعات البدوية بالصحراء كان محكوما بتقاليد تحكم تنقلاتهم بين المواطن تبعاً لحالة الطقس، فينزلون حلولا في الأحياء والأحوية⁵ خلال الفصول الحارة بمجالات الماء، حيث يطرقون في صعودهم للشمال واحات درعة وتافيلالت وسوس، وأثناء هذا

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص181. الناصري، الاستقصا، م. س، ج2، ص178. حسن علوي حافظي، مادة "الجمال"، معلمة المغرب، م. س، ج9، ص3089.

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص181.

³ - محمد الناصري، مادة "الجفاف المناخي"، معلمة المغرب، م. س، ج9، ص ص 3048-3049.

⁴ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص ص 161-163.

⁵ - "الأحوية: بيوت الناس إذا تدانت... والحواء: بيوت مجتمعة من الناس على الماء". ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج14، ص210.

الاستقرار النسبي في مجال محدود لفترة تمتد وتتقلص تبعاً لتقلبات الجو، وتهم أساساً الفترة الممتدة من أواخر الربيع إلى أواسط الخريف، وهي الفترة التي يشغلها الموسم الحار بالصحراء، والذي يمتد من شهر أبريل إلى شهر أكتوبر، وينقسم إلى فترتين أساسيتين¹؛ قسم حار وجاف وبهم شهر أبريل إلى منتهى شهر يونيو، والفترة ما بين شهر يوليو وشهر أكتوبر، وتتميز الأحوال المناخية خلالها بالرطوبة وتهطل الأمطار، وهي التي تكلم عنها المهلب في حديثه عن أعمال أودغست، إذ كتب: "وأماهم في الصيف"². وخلال هذا الموسم يمكن الحديث عن جموع قبلية محدودة الحركة بالقرب من موارد الماء³، وتعتمد نظام الأظماء تقليداً لتوريد قطعانها من الإبل والغنم.

مع تحول الطقس نحو البرودة ودخول موسم الأمطار بالمجالات الشمالية، تأخذ مجموعات الرحل في الانتقال نحو مراعيها الشتوية بالصحراء، حيث ينتقل الرجال مع مواشيهم بين المسارح ومواضع الماء، في رحلات طويلة لقطعان الإبل ومتوسطة للغنم، وتستوطن النساء والصغار مع من بقي بالقبيلة في محاضر الصحراء، وهي التي تقصدها المصادر بالبيوت⁴ والمواطن بالنسبة لبدو الصحراء، حيث يستمر غير المشتغلين بالرعي من القبيلة موطنين لرعاية شؤون الجماعة وحماية الصغار والنساء، وهذه الصورة هي التي تؤكد بعضها بعض الإشارات التاريخية⁵، حيث يقعد النساء بالحى بعد مغادرة الرجال للرعي. وقد يأتي استئناس

¹ - وتقارب هذه الفترة ما عبر عنه ابن خلدون بالمربع والمصيف. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج7، ص224.

² - الحسن بن أحمد المهلب العزيمي، المسالك والممالك، جمعه وعلق عليه ووضع حواشيه: تيسير خلف، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق، 2006، ص ص 45-46.

³ - وفي مثل هذه الحال كتب ابن خلدون حول أحوال بني مرين قبل غزوهم للمغرب والسيطرة عليه، إذ كانوا يكتب ابن خلدون: "يطرقون في صعودهم إلى التلول والأرياف منذ أول دولة الموحدين وما قبلها جهات كرسيف إلى وطاط، وبأنسون بمن هنالك من بقايا زناتة الأولى: مثل مكناسة بجال تازى، وبني برنيان من مغراوة الموطنين قصور وطاط من أعالي ملوية. فينتقلون بتلك الجهات عام المربع والمصيف، وينحدرون إلى مشائهم بما امتاروه من الحبوب لأقواتهم. فلما رأوا من اختلال بلاد المغرب ما رأوا انتهزوا فيها الفرصة، وتخطوا إليها القفر، ودخلوا ثنائاه، وتفرقوا في جهاته". ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج7، ص224.

⁴ - فقد كتب المهلب، في شأن المجال ما بين سجلماسة وأودغست: "بينهما نيف وأربعون مرحلة في رمال ومفاوز على مياه معروفة وفي بعضها بيوت البرير". المهلب، المسالك والممالك، م. س، ص 46.

⁵ - الناصري، الاستقصا، م. س، ج2، ص4.

الظاعنين بالصحراء على شكل تتقل بين المنازل، فيكون نزولهم على مواضع الماء بخيامهم وأهليهم لمدد متباينة حسب وفرة الكأ من عدمه، فلا يطمئن بهم منزل.

الجدول رقم 16: حركية الجماعات الرعوية

تفاعل أرياب الماشية (الرعي القريب)	الشهر	ميزة الفترة	تفاعل ناجعة الإبل (الرعي البعيد)
الاعداد للتحويل نحو المصايف	مارس	انتقالية	التحرك نحو المصايف
	أبريل		
	ماي		
الصعود لمسارح الجبل	يونيو	المصيف	النزول بالمحاضر
	يوليو		
موسم النزول عن الجبل	غشت	انتقالية	الأظماء الاعداد للتحويل نحو المشاتي بالصحراء
	شتنبر		
	أكتوبر		
النزول بالماشية لحمايتها من البرد ورعاية شؤونها	نونبر	المشتى	التبدي في مسارح الصحراء
	دجنبر		
	يناير		
المراقبة	فبراير	غير قارة	المراقبة

ويبدو أن حياة البدو خلال فترة الرعي تخضع للتقل خلف الكأ لفترات تتجاوز العشرة أيام دونما حاجة إلى توريد إبلها، وهذا الوضع وإن كانت تتحمله القطعان ويستطيع الرعاة الاحتفاظ بما يكفيهم من الماء للبقاء خلفها، فإنه بالمقابل لا يمكن معه استتباع الأطفال والنساء لما يعترض هذه العملية من مشاق. وعليه، يكون حديث استيطان بدو الصحراء على المياه، يحتمل أن يكون استئزال الأسر على مواضعه خلال أيام الرعي¹، قبل الانتقال نحو المورد التالي وإنجاز العملية على المنوال ذاته، حيث تنجز خيام لبقاء الأسر وتحرك القطيع مع الرعاة جيئة وذهابا نحو المسارح من مورد الماء ومستقر الأهل، وخلال ذلك قد يتصادف وجودهم على الماء بمرور القوافل التجارية، فيتحصلون منهم على الخبز²، لكن كيف تحدد المواطن تبعا لهذا الأمر؟

يبدو الأمر غاية في التعقيد مع قلة الدلائل التاريخية في هذا الباب، لكن عبارة "المواطن" التي تحدثت عنها المصادر وربطت بها استيطان بدو الصحراء من زناتة وصنهاجة على السواء، تسمح لنا بالحديث عن توزيع عائلي (البطون) على المياه، واختصاص كل فريق بموارد

¹ - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص837. مجهول، الاستبصار، م. س، ص 201.

² - مجهول، الاستبصار، م. س، ص ص 213-214.

ماء يتحرك رعاته حولها شتاء، فيما يتمكن الجميع من التوجه نحو المراعي الصيفية، حيث توجد موارد الماء بشكل أكبر من المشاتي، فيكون الأظماء وسيلة لتنظيم ازدحامهم هناك، وفي نفس الوقت يتناسب مع خصائص الطقس الجديد، وفي هذه الحالة يكونون بعيدين عن مواطنهم، حيث أنزل أهلهم بمضارب خيامهم¹، وهذا ربما يتناسب مع وصف المصادر لحياة رحل زناتة وما كان من مراسلتهم لمن بقي بمواطنهم للقدوم نحوهم بتخوم المغرب الشرقية²، ومع هذا الوضع لا يستبعد تطلع الرحل في الفيافي إلى زراعة الممكن من مجالهم³.

من جهة أخرى، يأتي حديث المصادر عن انتشار تربية الماشية، من قطع أغنام وكباش دمانية، بل وحتى أبقر...⁴، ليعزز من فرص محدودية انتجاع أهل الصحراء أو قيام نشاطين متوازيين من الرعي، مما يتماشى مع حاجيات كل من الإبل والماشية للماء⁵، فتسرح الإبل المسافات البعيدة، وتقيم قطعان الماشية الأخرى إلى جوار الأهالي غير بعيد على مواطن

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 60.

² - الناصري، الاستقصا، م. س، ج3، ص5.

³ - وفي هذا الإطار نستدل مثلاً بإشارة صاحب الاستبصار، حول قيام أهل أودغست بزراعة القمح "بالحفر بالفؤوس ويسقونه بالدلاء، وكذلك يسقون بساتينهم، وإنما يأكل عندهم القمح الملوك وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة" (مجهول، الاستبصار، م. س، ص 215)، فمن غير المستبعد إذن، أن تكون لهم محاولات في الزراعة، ولو أنها قد لا تمثل شيئاً يذكر بالمقارنة مع مستوى حاجياتهم، إلا أنها تستجيب لوضعهم أرباباً للنجعة وليس أهل زراعة واستقرار.

⁴ - مجهول، الاستبصار، م. س، ص ص 213-214. وفي هذا السياق سجل كذلك أحد الباحثين (محمد الصافي) أن الرحل بمنطقة واد نون مارسوا النشاط الزراعي في مساحات محدودة تدعى "الكراير"، وهو مفهوم قريب من مفهوم "المعادر" والذي يستعمل في الجنوب المغربي. (محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19 مساهمة في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي من خلال وثائق محلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومة وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2016، ص 107) ومع أنه استدرك بالتأكيد على أمن الاقتصاد الرعوي على الاقتصاد الزراعي بالنسبة لأمن القبائل (محمد الصافي، واد نون، م. س، ص 109)، إلا أن ذلك لا يلغي التساؤل حول حدود إمكانية التحول الطبيعي لقبائل الصحراء نحو الاستقرار دونما تأثير التحولات الاجتماعية. أو بمعنى آخر مدى إمكانية الانتقال تحت تأثير العنصر المناخي فقط.

⁵ - وهذا ما يختزله قول الساجع في توجيه الرحل لكيفية التصرف عند طلوع نجم الشعري، ولم تنزل الأمطار، حيث أشار على صاحب النجعة بإرسال العارضات من الإبل، وهي ذوات الأثر العريض والبقاء مع المعز والنساء إلى أن يعثر له الركبان على موضع كلاً ينزل عليه، "قال الساجع: إذا طلعت الشعري سفراً، ولم تر مطراً، فلا تغزون إمرة ولا إمراً، وأرسل العارضات أثراً، يبيغنيك في الأرض معمرأ؛ السفر: بياض النهار، والإمر الذكر من ولد الضأن، والإمرة الأنثى، وإنما خص المذكور من الضأن وأراد جميع الغنم لأنها أعجز عن الطلب من المعز، والمعز تدرك ما لا تدرك الضأن. والعارضات: الإبل. والمعمر: المنزل بدار معاش؛ أي أرسل الإبل العريضة الآثار عليها ركبانها ليرتادوا لك منزلاً تنتجعه". ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج7، ص166.

الماء، ذلك أن "أقصى ظمأ الغنم في الشتاء سدس، وفي الصيف ترد كل يوم، والإبل أقصى ظمئها ثلاثة أعشار في غير الجزء، والجزء أن يكتفوا بالرطب عن الماء، وأقصى ظمأ الحمار الأهلي غب في الشتاء".¹

بقي أن نشير وفقا لحركة الرحل، أن تقدمهم في المجال طلبا للكأ لم يكن يسير بشكل مستمر، بقدر ما أنه يتقدم وفقا لما توفره المسارح التي يعبرونها من كأ وماء، حتى يحين أوان عودتهم لمواطنهم في الجبال بالنسبة لرعاة المجالات القريبة²، ومحاضر الماء بالنسبة لرعاة الصحراء، وهذا ما يبرر ارتباط عمليات نزوحهم الكبرى بحدوث أزمات الجفاف الحاد³، فيما يقتصر أثر تنقلاتهم الفصلية في أعمال التعدي والنهب، ولا يتعداها لانتزاع المواطن، فحياة الرحل إذن، تحكمها المناخ وفعل فيها فعله عبر تحولاته الفصلية وتقلباته المفاجأة.

2- جماعات الفلح

يرى ابن خلدون، أن من كان معاشه من البدو "في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال، وهم عامة البربر"⁴، وكتب ابن عبدون أن "الفلاحة⁵ هي العمران... وبطالتها تفسد الأحوال، وينحل كل نظام"⁶، وترتبط الزراعة في اللغة بشق الأرض وطرح البذر⁷، ففي التهذيب: "فلحت الأرض إذا شقققتها للزراعة... والفلاحة

¹ - الإصفيهاني، *الازمنة والأمكنة*، م. س، ج1، ص 368.

² - فقد اعتاد مثلاً أهل جبل سليلكو (سليبو) -حسب شهادة الوزان- السكن في أكواخ من قصب يسهل نقلها، لاضطرارهم مغادرة الجبل نحو السهل شتاء، إلا أنه يضيف "في آخر ماي يغادر الأعراب بدورهم الصحراء"، فيضطر أهل سليلكو إلى الهرب من أمامهم نحو أعالي الجبل، وبذلك تتحقق لهم مزيتين، أولهما، الأمان من الأعراب. والثانية "الذهاب إلى طقس بارد يعيشون فيه ويعود بالنفع عليهم وعلى دوابهم..." الوزان، *وصف إفريقيا*، م. س، ج1، ص360.

³ - إذ يحافظ الناس في أحوال الجفاف يقول محمد الناصري "على ديناميتهم ويحاولون البحث عن مصادر التغذية أو يعوضوها بحركيتهم وهجرتهم عن ندرة المواد، ولا يفقدون الأمل" (محمد الناصري، مادة "الجفاف المناخي"، *معلمة المغرب*، م. س، ج9، ص 3048). وهذا التصرف يدعم تأقلم المغاربة، ليس فقط مع أحوال الطقس اليومية والفصلية، بل أيضا مع تقلباته وتغيراته غير المحددة، فتتسع حركة النزوح البشري، خاصة تلك المرتبطة منها بحركات الانتقال نحو الشمال من الصحراء.

⁴ - ابن خلدون، *ديوان المبتدأ والخبر*، م. س، ج1، ص 151.

⁵ - في القاموس المحيط، "الفلاحة، بالفتح: الحراثة". الفيروز آبادي، *القاموس المحيط*، م. س، ص 234.

⁶ - ابن عبدون، ثلاث رسائل أندلسية في ادب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955، ص 5.

⁷ - الفيروز آبادي، *القاموس المحيط*، م. س، ص ص 724-725.

صناعته"¹، والريف مجالاً بدوياً "أرض فيها زرع وخصب، والسعة في المأكّل والمشرب، وما قارب الماء من أرض العرب، أو حيث الخضر والمياه والزرع".² فالبادية إذن، مجال للزراعة أيضاً، والبدو المستقرون منتعشون بالفلاح لحاجتهم إلى الغذاء، أولى ضروريات البقاء بالنسبة للإنسان.³

إذن، الزراعة وفلاحة الأرض من جملة المكاسب البشرية الضرورية لاستمرار الكائن البشري، و"أريحها، وأقربها إلى النجدة، والسلامة، واكتساب الأجر. وهي تنقسم قسمين: بعلا وسقيا. وأحدهما عاقبة وأضمنهما سلامة؛ السقي بالعيون، ومن الأنهار والسواقي. والقسم الثاني: شاق متعب، وهو السقي بالآلات مثل النواعير، والسواقي، والدلاء التي تدور بها الإبل أو الحمير والبغال، وأقلها الخطارات، وهذا القسم لا ينبغي أن يستعمل فيه ماء النواعير إلا أن يضطر إليها ولا معاش له من سواها، ويتولاها بنفسه؛ فإنه إن لم يتولاها بنفسه عظمت مؤنتها عليه، وقلت معونتها له، وربما اقتضته مؤنة الدابة والآلة على جميع الحاصل، وربما اقتضته زيادة عليه".⁴

يقوم العمل الزراعي في المغرب على الدورة الزراعية الثلاثية، إذ الأرض بين بور وقلب ومعمور⁵، وبين مختلف هذه الأشكال من استغلال الأرض في الزراعة يأتي المجهود المبذول، ووفرة المياه من قلتها إلى جانب عوامل الأمن والجباية⁶ وأساليب الري⁷، كأهم محددات النشاط الزراعي، وهي عناصر ترتبط بشكل أو آخر بعنصر المناخ. فمع توافق المعطيات والشواهد التاريخية، وطرح عز الدين أحمد موسى القائل على أن "الزراع أكثر الناس في المغرب تأثراً بأوضاع الأمن"⁸، فإننا نتفق مع رأي المرحوم عمر بنميرة بمركزية التقلبات المناخية في توجيه

¹ - الأزهرى، تهذيب اللغة، م.س، ج5، ص47.

² - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، م.س، ص815.

³ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م.س، ج1، ص54.

⁴ - ابن العوام الإشبيلي، الفلاحة الأندلسية، ج1، تحقيق أنور أبو سويلم وسمير الدروبي وعلي ارشيد محاسنة، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان - الأردن، ط1، 1433هـ/2012م، ص ص 271-272.

⁵ - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، م.س، ص189.

⁶ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م.س، ص ص 94-112.

⁷ - يرى الاستاذ عمر بنميرة، أن الفلاحة المغربية تقوم على "ثلاث مصادر مائية، وهي التساقطات الموسمية، الأنهار، ثم العيون والآبار". عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م.س، ص291.

⁸ - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، م.س، ص189.

النشاط الزراعي، ذلك أن تقلبات المناخ خلال العصر الوسيط جعلت من الماء هاجسا لدى المغاربة.¹

يذهب أحمد عز الدين موسى إلى أن "طبيعة الأرض تؤثر في تحديد نوع المناخ وتوزيع المياه ومن ثم في مناطق الاستقرار والطرق التي تربطها"²، ويتفق هذا القول مع الوضع المناخي لبلاد المغرب، حيث تلعب سلسلة جبال الأطلس دورا هاما في التقسيم المناخي للبلاد.³ ذلك أنها تشكل حاجزا طبيعيا يحجب السفوح الجنوبية الغربية عن الأمطار، فيتجاوز فيه المناخان: المتوسطي والصحراوي.⁴ ويترتب عن هذا الوضع المناخي تباين في الأنشطة الزراعية بين مناطق السهول الساحلية والسفوح الشمالية للأطلس، حيث الخصوبة ووفرة المياه، وبين المناطق الجنوبية والسفوح الجنوبية للأطلس، حيث الحر وندرة المياه.⁵

ومما تحتفظ به بعض الإشارات المصدرة حول الأنشطة الزراعية بالمغرب الوسيط وعلاقتها بطبيعة المناخ السائد، ما سجله عدد من الجغرافيين العرب حول الزراعة بسجلماصة. فأهلها حسب اليعقوبي، أخلط يغلب عليهم البربر، وأكثريتهم صنهاجة "وزرعهم الدخن والذرة، وزرعهم على الأمطار لقلة المياه عندهم، فإن لم يمطروا لم يكن لهم زرع"⁶، ويضيف ابن حوقل في خصوصية زراعة الحبوب بنفس المجال، فيقول "وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه وتواترت السنون بالمياه فكلمّا أغدقت تلك الأرض سنة في عقب أخرى حصوده إلى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير بحبّ صلب المكسر لذيد المطعم وخلقه ما بين القمح والشعير ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة ولهم رطب أخضر من السلق في غاية

¹ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 281.

² - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، م. س، ص 49.

³ - محمد ستيتو، الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16م، مركز ابن خلدون للدراسات والأبحاث والترجمة والتحقيق، مطابع الرباط نت، ط 1، 2020، ص 39.

⁴ - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، م. س، ص 53.

⁵ - وقد لخص العبدري هذا التباين في الخصوبة بين غرب وفيير والخيرات والإنتاج، وشرق فقير فكتب: "وقد سمعت سيدي الفقيه الجليل الفاضل أبا بكر بن عبد العزيز رحمه الله يحكي عن والده الشيخ الصالح القدوة أبي محمد وكان دخل بلاد القبلة أنه كان يقول: "الغرب دنيا بلا رجال، والقبلة رجال بلا دنيا" أو كلاما هذا معناه وإنما يعني مكارم أخلاقهم مع أن عيشهم غير متسع كائنا ما كان في الغرب". أبو عبد الله العبدري، رحلة العبدري، م. س، ص 44.

⁶ - اليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ، ص 198.

الحلاوة".¹ ويفسر صاحب الاستبصار هذا الوضع بفرط الحر وشدة القيظ، يقول "فإذا يبس الزرع تتأثر عند الحصاد وأرضهم مشققة فيقع ما يتناثر من الحب في تلك الشقاق، فإذا كان العام الثاني أخرجوا النهر على عادتهم لأن ماء المطر قليل فيها وحرثوا بلا بذر؛ وكذلك العام الثالث".²

ومن مظاهر ارتباط الأنشطة الزراعية بالمناخ ما جاء في كتاب الفلاحة حول أوقات غرسة الأشجار في البلاد الحارة، إذ ينبغي "أن يكون غرس الأشجار في الخريف، وخاصة إذا كان البلد قليل الماء؛ ليلحق الغروس رطوبة أمطار الخريف والشتاء والربيع".³ غير أنه "لا بأس به في الربيع".⁴ ويعتل ذلك ابن العوام في موضع آخر -أثناء حديثه عن غرسة الزيتون- بقوله: "ذلك أن الأرض تكون حارة لحر الشمس في وقت الخريف، وتكون رطوبة من الأمطار الخريفية، وتكون في الأرض حرارة ورطوبة من اعتدال مزاج الهواء في ذلك الوقت".⁵ وعلى هذا الأساس يكون البدء بقلب الأرض للزرع شهر نونبر، وربما زرع القمح والشعير.⁶

كما أن نجاح الموسم الزراعي رهين بالأمطار وعملية السقي التي تتم في شهر أبريل⁷، وهذا ما تدعمه سجلات كتب الأنواء حول أمطار هذا الشهر⁸، من مثل قولهم: "مطرة في نيسان خير من ألف سان".⁹ فالساني: المستقي، فكأنهم أرادوا فضل أمطار أبريل على الزرع خير من القائمة على السقي، وقد ربط أهل المعرفة بالأنواء هذه الأمطار بفترة ظهور النجم المسمى السماك، وفيه أنشد أحدهم:

¹ - ابن حوقل، صورة الأرض، م. س، ج1، ص 91.

² - مجهول، الاستبصار، م. س، ص 201.

³ - ابن العوام الإشبيلي، الفلاحة الأندلسية، م. س، ص 589.

⁴ - نفسه، ص 595.

⁵ - ابن العوام الإشبيلي، الفلاحة الأندلسية، م. س، ص 594.

⁶ - ابن البناء، رسالة ابن البناء، ضمن كتاب رسالتان في الأنواء، تحقيق إبراهيم القادري بوتشيش وسعيد بنحمادة، منشورات المجموعة المغربية للدراسات التاريخية والحضارات المقارنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة مولاي إسماعيل - مكناس، 2015، ص 7.

⁷ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص 118. كما أنها آخر أمطار الموسم الزراعي، إذ تغور المياه في ماي ويعم الحصاد الحنطة. الأجدابي، الأزمنة والأنواء، م. س، ص 137.

⁸ - الأصفهاني، الأزمنة والأمكنة، م. س، ج1، ص 479.

⁹ - نفسه، ص 133.

"ولا زال من نوء السَّمَاء¹ عليكما... ونوء الثَّريَّا وابل متبَطِّح²"

ويبدو أن هذه الأمطار هي التي يحتملها نص ابن أبي زرع، ذلك أنه في آخر سنة 687هـ "كانت الريح الشرقية المتوالية والقحط الشديد، وتوالا ذلك إلى آخر عام تسعين، ولم ينزل مطر إلى شهر أبريل من سنة تسعين، فحرث الناس عند ذلك، وحصدوا ما حرثوه من زرع عن أربعين يوما".³

يذمّ البعض أمطار أبريل، لأنها تتسبب في داء التَّشَر، وهو ناتج عن إصابة المطر للجاف من النبات وأصوله ما تزال لينة فيعود أخضر، و"هو مضرّ بالماشية، وإذا رعته الإبل أصابها عنه السَّهَام، وهو داء تموت منه".⁴

من جهة أخرى، تتباين فترة الحصاد من مجال لآخر، وذلك تبعاً لشدة الحر وزمن الزراعة، وعموما فهي تشمل الفترة من ماي إلى يوليو⁵، بل تبدأ قبل ذلك من أبريل حسب أبي إسحاق ابن الأجدابي⁶ ومارس حسب ما سجله حبيدة محمد (الجدول أسفله).

الجدول رقم 17: الملاحظات المناخية وآليات خدمة الأرض من خلال التقويم الفلاحي⁷

الشهر	ملاحظات مناخية	خدمة الأرض	المنتجات
غشت/ آب	نصف صيف ⁸ ونصف خريف يوم 17، يبدأ فصل الخريف	زرع اللفت والسُّلت	اللوز ثمار الخريف تبدأ في العطاء، يبكر الرُّطب من ثمار النخل. ⁹
شتتبر/ أيلول	الخريف أمطار أولى	الحرث زراعات البكري: قمح،	تين، برتقال، حامض، سفرجل،

¹ - السماك أو نجم السماك، ونوؤه يعني سقوطه في الغداة قبل الفجر، وفي المخصص نوء السماك المقصود هنا السماك الأعزل تميزاً له عن السماك الرامح، وهو "أربع وهو مشهور مذكور" (ابن سيده، المخصص، م. س، ج2، ص 368) يعني أن مدة النوء أربع ليال، قال فيها صاحب الأزمنة والأنواء: "قلّ ما يخلف، وبمطره يزكو الزرع". الأصفهاني، الأزمنة والأمكنة، م. س، ج1، ص 133.

² - الأجدابي، الأزمنة والأنواء، م. س، ص 133.

³ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م. س، ص 408.

⁴ - الأجدابي، الأزمنة والأنواء، م. س، ص 133.

⁵ - ابن العوام، الفلاحة الأندلسية، ج2، ص 440. رسالة ابن البناء، م. س، ص 13.

⁶ - الأجدابي، الأزمنة والأنواء، م. س، ص 135-136.

⁷ - محمد حبيدة، المغرب النباتي، م. س، ص 47-48.

⁸ - يعرف الصيف في اللسان الأمازيغي ب؛ عاويلان ءاناندو. عبد الحنين البركاني، "من اللهجة الريفية [أو تاريفيت نموذجاً] نحو البحث عن "قصي" أمازيغية"، مجلة تاريخ المغرب، العددان السابع والثامن، محرم 1419/ ماي 1998، ص 165.

⁹ - محمد حبيدة، المغرب النباتي، م. س، ص 143.

جوز	شعير، فول		
زيتون، تمر	نفس العملية	أمطار	أكتوبر/تشرين الأول
زيتون	نفس العملية	نصف خريف ونصف شتاء يوم 16 نونبر يبدأ فصل الشتاء	نونبر/تشرين الثاني
	غرس القرع والثوم	برد قارس/ أمطار غزيرة يوم 11 تبدأ "الليالي"	دجنبر/كانون الأول
	إزالة الأعشاب الضارة من 1 يناير ولمدة أربعين يوما: غراسة الأشجار يوم 27 يناير: نهاية زراعة البكري.	نفس الشيء	يناير/كانون الثاني
	إزالة الأعشاب الضارة زرع الحمص والعدس والذرة البيضاء	برد أقل ومطر يوم 14 يبدأ فصل الربيع ¹	فبراير/شباط
الأشجار تبرعم والقمح يسنبل شعير، فول	زرع نفس النباتات حصد الشعير في الواحات "يعقد اللوز والتفاح وتجوز الآفات على الزروع" ²	مطر/ طقس متقلب	مارس/آذار
شعير، فول، كرز	حصد الشعير ³ في الحوز وسوس	مطر	أبريل/نيسان
قمح، عدس، أشجار التفاح والمشمش وبخائر البطيخ الأخضر تبدأ في العطاء. ويعقد الزيتون.	حصد القمح	نصف ربيع ونصف صيف يوم 17 يبدأ فصل الصيف/ بداية الحرارة	مايو/أيار
قمح، حمص، تفاح، إجاص، مشمش، برقوق، بطيخ أخضر، يعقد عنب الجوز.	حصد القمح في الشمال حصد الشعير في الجبل	حرارة يوم 24: "العنصرة"	يونيو/حزيران
نفس الثمار/عنب السواحل	حصد الشعير في الجبل	يوم 11: "الصمايم"	يوليوز/تموز

خضعت أعمال الزراعة للتحويلات الفصلية للمناخ، كما استجابت جماعة البدو المزارعين لعامل البيئة التضاريسية، ومما سجلته كتب الأنواء يتبدى لنا مدى الحاجة إلى تحصيل المعرفة بقراءة حركة النجوم والكواكب في تنظيم الأعمال الزراعية، والتي لاشك لم تكن لتخفى عن

¹ - يتشابه الاسم الذي يطلق على فصل الربيع بمنطقة الأطلس "تيفسا" و"تيفاسوين" بالريف (عبد الحنين البركاني، "من اللهجة الريفية.."، م. س، ص 165)، مع المصطلح "تيفسكي"، الذي يعني نفس الفصل بمنطقة واد نون. (محمد الصافي، واد نون خلال القرن 19، م. س، ص 55) وهذا مما قد يحيل على وجود رباط أو احتكاك في الماضي البعيد بين أهل هذين المجالين، ومن تم المزيد من عناصر تأكيد عملية التركيب الاجتماعي المتداخل للقبائل المغربية.

² - الاجدابي، الأزمنة والأنواء، م. س، ص 131

³ - نفسه، ص ص 135-136

المزارع المغربي، خاصة وأن ممارسة الزراعة تمتد لعصور خلت¹، فلا يستبعد معه تمكنهم من فن الرصد أو الأنواء ومعرفتهم به.² وانتقلت أولياته بينهم عبر الممارسة، لتحفظ أجيالهم بقواعد التنبؤ بالموسم الزراعي عبر مراقبة حركة النجوم والكواكب. ومما يزيد من راحة هذا الظن هو ارتباط المناخ المطري -الذي عليه اعتماد الفلاحة المغربية-، بظروف الحركة الهوائية العامة³ شديدة التأثير بالموقع العرضي للمغرب، حيث يتزحزح "نظام الضغط نحو الشمال ونحو الجنوب تبعا لحركة الشمس الظاهرية".⁴

ومن الممارسات التي رصدتها المصادر حول سبر البدو للأحوال المناخية قبل الإقدام على عملية الزراعة⁵، ما أثبتته صاحب كتاب الأزمنة والأمكنة، من أنه "يؤخذ لوح قبل أن تطلع الشعري بتسع ليال، فيزرع عليه من كل صنف حتى إذا كان ليلة تطلع الشعري وضع ذلك فوق بيت على مكان مرتفع لا يحول بينه وبين السماء شيء فما أصبح منه مخضرا فإنه يصلح بإذن الله تعالى"⁶، وهذه إشارة تقود لإدراك درجة الدربة الزراعية، والاهتمام الكبير بتهيئة الظروف للعملية التي عليها عماد استقرارهم بل واستمرارهم.

في مقابل تجاوب أعمال الزراعة لتقلبات أحوال الطقس، فإن البدو المزارعين كانوا في حاجة لضبط النوازل والإعداد لفترات التحول نحو مواضع الأمن من هجمات وتعديات جماعات النجعة، فكانت معرفة أزمنة قدومهم، والإعداد للرحيل القسري قبله، من المشاهد التي ميزت عددا من البوادي المغربية خلال الفترة قيد الدراسة، الشيء الذي دفع ببعضها للجمع بين نشاطي الزراعة والرعي، أو الخضوع لسطوة الرعاة، وقد خلق رد الفعل الأول نظاما عقاريا

¹ - فقد أشار العروي إلى أن اللقاء الذي تم مطلع القرن العاشر ق.م بين المغاربة والبحارة الفنيقيين، "لم يكن ذلك لقاء بين الحضارة والبداءة كما يقال، بل بين تجار مدنيين ومجتمع زراعي". عبد الله العروي، **مجلد تاريخ المغرب**، م. س، ج 1، ص 96.

² - لقد أرخ ابن أبي زرع لظهور "النجم أبي الذوائب" في الثاني عشر من شعبان سنة 659هـ، والذي استمر في الظهور لمدة شهرين. وما كان له أن يقف عند هذه الظاهرة لولا أن للمغاربة معرفة بها. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، م. س، ص 402.

³ - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ج 1، ص ص 80-81.

⁴ - علي البليشي، مادة "الجفاف المناخي"، **معلمة المغرب**، م. س، ج 9، ص 3043.

⁵ - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ج 1، ص 79.

⁶ - الاجدابي، **الأزمنة والأمكنة**، م. س، ج 1، ص 480.

مركبا من ملكيات موزعة ما بين السهل والدير والجبل، الأمر الذي سوف ينعكس ولا شك على تدبير المياه على الأمد البعيد.

أما بخصوص التنظيم البشري للمزارعين، فمن الواضح أنه يتوافق وقواعدهم الإنتاجية، ما يعني حياة مستقرين تجمعوا في قرى وربطوا علاقات تبادل تجاري مع محيطهم، غير أن قدرتهم على حماية استقلالهم كانت تعترضه الكثير من المخاطر، الشيء الذي جعل بنياتهم الاجتماعية تتأثر بتحديات الفوضى التي طبعت تاريخ المغرب خلال الفترة المدروسة، والتي تعزز الكثير منها بالتقلبات المناخية، فكان المناخ بحق، أحد أهم محددات النظام الاجتماعي للمزارعين، كما تحكم في طبيعة إنتاجهم الحيواني والزراعي على حد سواء.

II. المناخ والإنتاج بالبادية

لعل ما يميز الحياة الاقتصادية والاجتماعية للبادية المغربية، هو ما أسماه بعض الباحثين بـ"هيمنة الفقر التكنولوجي"¹، الشيء الذي حسب نفس التصور يسهم في خلق تبعية شبه تامة للبدو بالوسط الطبيعي والظروف المناخية، وارتباط التوازن بين الإنتاج (الخيرات) والحاجيات بعنصر الأمطار²، وغيرها من الظواهر التي تبدو فيها الحياة الاجتماعية والاقتصادية بشكل عام، رهينة لمعطيات البيئة، وهذه القراءة والخلاصات تتناسب والطرح الخلدوني السابق من بداوة الأشياء ككل بالبادية، بما فيها حاجيات الإنسان.

لا شك أن مختلف مظاهر الإنتاج بالبادية شأنها شأن الحياة الاجتماعية، كانت تتأثر بشكل أو بآخر بالتقلبات المناخية، ولا اعتبار ارتباطها بالفلاحة، فإننا في هذا المحور، سوف نقف عند درجة ارتباط الإنتاج الفلاحي بعنصر المناخ؟ ثم التساؤل عن بعض شروط وعلاقات الإنتاج التي يتدخل فيها المناخ؟

عموما يمكن تقسيم الإنتاج الفلاحي ومتعلقاته بالبادية المغربية إلى صنفين طبيعيين؛ وهما المنتج الحيواني، وما يرتبط به من منظومة حيوانية. تتباين مجالاتها كما حجمها، وفقا لمعطيات البيئة ومن ضمنها إن لم يكن أساسها، المناخ. فيما تمثل عملية الفلح وما يرتبط بها

¹ - شقرون محمد، مادة "البادية المغربية"، معلمة المغرب، م. س، ج 3، ص 972.

² - نفسه.

من منتج زراعي ثاني تجليات الجغرافية الفلاحية، وهي الأخرى رهينة، ولا شك بعنصر المناخ وعناصره المختلفة.

1-المشهد الحيواني:

شكلت تربية الماشية أحد أهم الأنشطة الفلاحية بالمغرب الوسيط، ذلك أنها كانت وسيلة الانتعاش الأساس لقبائل الرحل، كما تدخل ضمن أنشطة القبائل المستقرة، إذ لا تخلو التجمعات البدوية المغربية في الغالب من قطاع حيوانات تؤثت المشهد البدوي بشكل عام، لكن الملاحظة التي يمكن للباحث أن يسجلها من تتبع أوصاف المصادر خلال هذه الفترة، هي مدى التباين الواضح في التوزيع المجالي للقطيع، والذي يمكن تقسيم البلاد على أساسه إلى مجموعة مناطق مختلفة، تتفاوت من حيث المعطيات التضاريسية أولاً، والمناخية البشرية ثانياً، بل وحتى التشكل البشري.

ولعل من الشواهد التاريخية على أهمية الثروة الحيوانية ببلاد المغرب الاسلامي بوجه عام، وبلاد المغرب الأقصى منه على وجه الخصوص، ما نجده مثبتاً لدى ابن حوقل فيما يجهّز من المغرب إلى المشرق من "الخيّل النفيسة من البراذين والبغال الفره¹ والإبل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص"²، ناهيك على ما "عندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب"³، فلا غرو إذن، أن نجد من جملة المؤرّدين إلى المشرق، منتجات الحرير والأكسية من الصوف الرفيعة والدنيّة، إلى جانب جلباب الصوف.⁴

شكلت تربية الماشية، مظهراً من مظاهر الحياة البدوية بمغرب العصر الوسيط، وتجاوز تأثيرها المشهد الاقتصادي إلى التعيين القبلي لعناصر المجتمع، كما أحدثت وظيفة في الجهاز الحاكم، تهتم برعاية شؤونها، فكان أن لقب ولد حسان بن أبي سعيد الصبيحي (الهالبيين) بالشاوية، وذلك لما حصل له بفضل مباشرته لأمر السلطان في شأن الماشية، فنشأ بنوه في

¹ - في اللسان: "يقال للبرذون والبغل والحمار: فاره بين الفروهة والفراهيّة والفراهة؛ والجمع فرهة مثل صاحب وصحبة... ولا يقال للفرس فاره إنما يقال في البغل والحمار والكلب وغير ذلك... وفي حديث جريج: دابة فارهة: أي نشيطة حادة قوية" ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج13، ص521.

² - ابن حوقل، صورة الأرض، م. س، ج1، ص97.

³ - نفسه، ص98.

⁴ - نفسه، ص97.

ظل الدولة، وانفردوا بخطة الشاوية، فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم، منقسمة بينهم لعهد ابن خلدون.¹

كان الاختصاص بأمور الشاة والبقر سببا في انتشار نمط من القبائل لا يتأسس على الأصل الواحد، بقدر ما يقوم على الاختصاص برعاية السائمة، وفي هذا كتب ابن خلدون: "كما أن الشاوية أهل القيام على الشاة والبقر، لما كان معاشهم فيها، فلهذا لا يختصون بنسب واحد بعينه إلا بالعرض، ولذلك، كان النسب في بعضهم مجهولا عند الأكثر، وفي بعضهم خفيا على الجمهور"²، والعرض هنا في كلام ابن خلدون يحمل دلالة على ما يرتفع بذكرها الإنسان أو يسقط، إذ "هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه، ويحامي عنه أن ينتقص"³، فيغلب على الظن أن يرمي إلى ما ينشأ بين الناس من مصاهرة واختلاط أنساب، تنتشأ عنه مدافعة حول الشرف، الذي يأخذ مكانة النسب في الدفاع والتعصب.

يبدو أن نوع القطيع وشكله كان محدداً لمكانة القبيلة ونمط عيشها وقوة شكيبتها، وحسب الاتجاه العام للروايات التاريخية المترددة في المصادر حول قيام الدول ودور العصبية القبلية في ذلك، وكذا من تحليل نصوص وصريح عدد من إشارات العلامة ابن خلدون، نقف على حقيقة أن أهل الإبل من القبائل أكثر عزة⁴ من ناجعة السائمة؛ الشاة والبقر، الذين يغلب عليهم الظعن لغيرهم من القبائل أو السلطة الحاكمة، وفي هذا السياق نعثر على نص إشارة عند ابن خلدون يصف من خلالها حال البربر والأمة الثانية من أهل المغرب، حيث كتب: "هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملئوا السبائط والجبال من توله وأريافه وضواحيه وأمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر، ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي، فيما قرب من الرحلة، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس. ومكاسبهم الشاء والبقر والخيول في الغالب للركوب والنتاج. وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلاح

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج7، ص459. الناصري، الاستقصا، م. س، ج4، ص66.

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج2، ص18.

³ - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج7، ص171.

⁴ - فزناتة لظهورهم على عهد ابن خلدون "آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين، وتخطف الناس من العمران والإبائية عن الاتقياد للنصفة". ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج7، ص3.

ودواجن السائمة. ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأطعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة".¹

وفي التحول من رعي الإبل إلى القيام على الشاة والبقر، نقف عند حديث ابن خلدون عن عطية من بني هلال، ذلك أنهم بعدما "عجزوا عن رحلة القفر وتركوا الإبل واتخذوا الشاة والبقر وصاروا في عداد القبائل الغارمة"²، ذلك أن الانتقال من القيام بالإبل إلى رعاية الشاة والبقر، يعني ضرورة التحول من حياة الصحراء إلى انتجاع سفوح الجبال والسهول مما كان تحت عين ويد السلطان، ويخضع قهرا لجنوده وطاعته.

ولعل أثر المناخ يتجاوز التباين الحاصل في مواطن القطيع إلى أشكالها، وصحة أبدانها وصفاء أديمها، وهي في ذلك تتحو مذهب الناس³ في تباين طباعهم ودرجة الذكاء عندهم بحسب المجالات، الأمر الذي يتفق في تفسيره عدد من الجغرافيين العرب مع ما ذهب إليه ابن خلدون من أثر الهواء بداية، ثم ما استدرك به من حديث عن نوعية التغذية والطعام، قال ابن خلدون: "والسبب في ذلك والله أعلم أن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة تنشأ عنها بعد -أفطارها- في غير نسبة ويتبع ذلك انكشاف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم"⁴، ثم يضيف مسقطا هذه الخلاصة والحكم على الحيوانات: "واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجذب من الغزال والنعام والمها والزرافة والحرر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها وحدة مداركها فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينها ما رأيت وما ذاك إلا لأجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الردية والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها".⁵

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص116.

² - نفسه، ص33.

³ - فعلى منوال ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص110)، فسر الوزان في بعض محطات كتابه شدة بياض بعض الجبلين بحوز فاس بعلو موطنهم وبرودته. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص357.

⁴ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص110.

⁵ - نفسه، ص ص 110-111.

يمكن التمثيل لهذا الطرح بخيول وغنم، بل وحتى أسمان فزاز "وهو جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر، ويطردهم الثلج عنه فينزلون إلى ريف البحر الغربي. وهم أهل كسب من الغنم والبقر والخيول؛ وخیل هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها، وهي مدورة القدود حسنة الخلق والأخلاق؛ ولحوم غنمه أطيب اللحوم وكذلك أسمانها. وفي هذا الجبل أنواع النبات من العقاقير التي تنصرف في العلاجات الرفيعة"¹، ذلك أن ما يظهر من مميزات طبيعية ومناخية، تمثلت في رطوبة الجو أسهمت في خلق ظروف إنتاج حيواني يميز جبل فزاز، ودفع بالكاتب إلى تسجيله والإعجاب به.

الجدول رقم 18: جرد للقطيع الحيواني بالمغرب من خلال مؤلف وصف إفريقيا للوزان

ج/ص	الوحش والطيور		القطيع المدجن						المجال
	أخرى	الاسود	أخرى	الخيول	الحمير	البقر	المعز	الغنم	
97-96/1	الوعول الغزلان الأرانب			X	X	X	X	X	حاحا
103/1		X					X		قرية تيبوت
111/1				X					جبل دمنسرة
121/1				X					جبل إيلان
							X		قصور تومكلاست
122/1			الماشية						ناحية مراكش
138/1							X		جبل نفيفة
139/1			التييس الدجاج						جبل سمد
142/1				X					جبل هنتاتة
143/1	حيوانات مختلفة								جبل اديمي
144/1			الماشية	X					ناحية جزولة
-161/1 162	الحمام الإوز الوحشي البط طير الماء الأرانب الأبول								الجبل الأخضر (دكالة)

¹ - مجهول، الاستبصار، م. س، ص 187. وقد أعاد نفس المعطيات الحميري في مؤلفه، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت، ط2، 1980م، ص 435.

	الضربان اليحمور الذئاب الحجل									
-163/1 165	التيس		الدجاج	X		X	X	X		ناحية هسكورة
170/1				X						جبل ايت واوزكيت
174/1									X	جبل تنزيتة
175/1		X	البغال		X		X			جبل غجدامة
186/1	الذئاب	X	البغال							جبل سكيم (تادلا)
-187/1 188	الذئاب	X	البغال							جبل مغران (تادلا)
196/1	الذئاب البوم	X								تامسنا
204/1	الفهود	X								غابة (معدن عوام)
204/1		X					X			تاغية
-210/1 211		X								غابة المعمورة
213/1		X								غابة تفلقلت
-294/1 295		X								جبل زرهون
296/1	الفهود	X								الغابة بمحيط قصر فرعون
296/1		X								قرية الحجر الأحمر
298/1					X					بني وارثين
300/1		X								كريكرة + آدخسان
301/1	غزلان/أرا نب		الماشية	X						أزغار
302/1	حيوانات مفترسة	X								غابات ضاحية العراش
305/1	طيور اليمام									بادية القصر الكبير
309/1		X								أكلا بناحية الهبط
324/1	القردة				X		X			الريف
11/2	الغزلان الوعول النعام	X						X		صحراء أنكاد
13/2			البغال		X					وجدة
-118/2 119			التيس	X			X		X	درعة

الخنك				X					-122/2 123
تبلبت									129/2 نعام / وعول

يبدو أن ملاحظات ابن خلدون حول صحة وسلامة الحيوانات بحسب الموطن، والتي جعلها تماثل ما يطبع صحة الإنسان، تصطدم بحقيقة أخرى، مفادها ارتباط انتشار القطعان خاصة البرية منها، بما توفره الطبيعة السخية من شروط للاستمرار، فكان أن لاحظنا من خلال معطيات الجدول المستقاة من أوصاف الوزان -الذي يعتبر أحد شهود الفترة قيد الدراسة-، تنوعا في القطيع الحيواني وانتشاره. وذلك وفقا لما يبدو خصائص غذائية مرتبطة بما اعتاد كل نوع أن يقتات عليه من جهة، وما عمل الإنسان على تدجينه من جهة ثانية، وكلاهما لم يخرج عن خصائص البيئة وما توفره من موارد.

عرف القسم الشمالي والشمال الغربي لجبال الأطلس تنوعا حيوانيا، وفي مقابل محدودية الأنواع والمشاهد الحيوانية بالقسم الجنوبي، والذي تحضر فيه الأشكال الأكثر قدرة على التكيف مع البيئة المناخية¹، كانت الجمال وبعض الإشارات الخاصة بالغنم والمعز الضروري لتلبية الحاجيات السكانية أهم عناصر الإنتاج الحيواني بالصحراء ومناطق الواحات. وفي المقابل نصادف في القسم الآخر من المغرب إشارات عن غابات تنتشر بها الأسود والقردة، بل وحتى الفهود²، هذا دون الحديث عن القطيع المدجن من الأبقار والغنم والمعز والحمير والخيول...

ودون الدخول في الكثير من التفاصيل التي قد تذهب بنا بعيدا عن هدف هذا المحور، نرى الوقوف عند بعض المشاهد التي يمكن استغلالها في طرح بعض التساؤلات غير المعتادة في هذا الباب، ومن نافلتها، حديث المصادر عن الأسود، وتكرار مشاهد حضور هذا المفترس المنقرض اليوم، فنتساءل عن السبب في ذلك، ومدى ارتباط الأمر بعنصر المناخ؟ فهل يكون الإنسان البدوي المغربي غزى مواطن الأسود واستعمر مناطق وجوده؟ أم أن التغيرات المناخية دفعت بالأسود إلى البحث عن الغذاء في مواطن البدو؟ أم الأمر مرتبط بتطور تدجين المغاربة

¹ - محمد الطويل، النقل والتنقل في المغرب خلال العصر الوسيط، م. س، ص ص 65-66.

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 356-357.

للحيوانات، الشيء الذي أغرى الأسود إلى مجاورة البدو، وانتهاز الفرص لاصطياد السائمة والبشر أيضاً؟

بداية ينبغي القول، أن مخالطة الأسود لحياة المغاربة ليست وليدة العهد المدروس¹، ذلك أن سير صلحاء التادلي تضعنا أمام سلسلة تفاعلات بين أهل الصلاح والأسود، فنجد في قصة أحد العشابة من أهل فاس مع أبي الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم (ت559هـ)، جاء بالأسد وترويضه كرامةً لأحد أهل الرابطة، التي قضى بها العشاب لياليه خارج المدينة بعدما جن عليه الليل بعيداً عنها، فنام بها مع حماره بين أهل الرابطة إلى أن جاءه أحدهم "فأيقضه وقال له: قم! ولا تكن كحمارك تنام الليل كله غافلاً، فتوضاً وصل واذكر الله تعالى! فخرج من الرابطة ليتوضاً في العين فوجد الأسد فرجع مرعوباً وأخبر ذلك الرجل. فخرج معه فتقدم إلى الأسد وقتل أذنيه وضربه بالقضيب وقال له: ألم أقل لك لا تروع أصحابي، ففر الأسد أمامه فتوضاً العشاب وصلى إلى طلوع الفجر ثم ركب حماره حتى وصل منزله وطرح به عشبه وذهب إلى أبي الحسن ليخبره..."²، وقد ترددت مثل هذه الكرامات في سير كل من أبي يعقوب يوسف بن علي المؤذن (ت557هـ)، وأبو عبد الحليم يعقوب بن هارون الصدني (ت559هـ)³ من أهل داي.⁴

تحمل مثل هذه الروايات والأخبار دلالة واضحة على مكانة الأسود خطراً ومهدداً لحياة البشر بالمغرب خلال العصر الوسيط، فكان حضورها ضمن حقل الكرامات الصوفية ترجمة لتصور اجتماعي لتدخل الرعاية الإلهية في توجيه مثل هذه المخلوقات، وذلك نوعاً من إثبات مكانة الولي في مدارج الولاية والصلاح.⁵

¹ - نشاط مصطفى، "الأولياء والأسود في تاريخ المغرب الوسيط: نماذج من العصرين الموحدي والمريني"، ضمن مؤلف: التصوف والمجال والإنسان: أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد اللطيف الشادلي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ط1، 2016، ص ص 17-30.

² - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 172.

³ - نفسه، ص ص 166-168.

⁴ - ذكر البكري حصن داي في الطريق بين اغمات وفاس، وسط غيضة (غابة) كبيرة من أجناس الشجر. البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص844.

⁵ - البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص ص 57/63/86/114/129.

وفي توطين الأسود وفق إشارات الوزن، يتبدى لنا حضور هذا الحيوان في القسم الشمالي والشمال الغربي لسلسلة الأطلس، في مناطق غدامة وسكيم، مغران وتاغيا، إلى جانب سهول تامسنا وأدخسان... إلى جانب غابات؛ معدن عوام والمعمورة وتفللت وزرهون وقصر فرعون والعرائش (الجدول رقم 18)، كما يمكن ملاحظة اختلاف طباعه من منطقة لأخرى، والظاهر أن أسود الغابات الكثيفة والموحشة أشد شراسة من الأسود المتجولة في السهول، وبالمجالات القريبة من مناطق استقرار الإنسان، ومن ثم فالواضح أن انتشار الأسود ارتبط بخريطة التوزيع المناخي من جهة ثم بأثر الإنسان من جهة ثانية.

ترتبط حياة الأسود بالإمكانات الغذائية التي يوفرها المحيط، وفي هذا الإطار نلاحظ ارتباط أماكن وجودها بالمغرب، حسب إشارات الوزن، بمناطق الغابات حيث الوحيش، ثم متتبعا أثر القطيع المدجن أحيانا.¹ وهو ما قد يعني تحولا في السلوك الغذائي لمثل هذا الحيوان من المفترسات، ما انعكس على طباعها المستوعبة لوجود الإنسان البدوي.

من المشاهد التي تستحق كذلك الانتباه لها في مسألة الإنتاج الحيواني وعلاقته بالمناخ، نعثر على تردد الكلام عن تدجين واستغلال الحمير من لدن البدو²، لنتساءل إن كان للأمر علاقة بطبيعة هذا الكائن، الذي يعتبر متكيفا مع الأحوال المناخية المتقلبة للمغرب؟ أم أن تدجين واستغلال الحمير يعتبر اختيارا اقتصاديا واجتماعيا لدى البدو المغاربة، ذلك أن حاجياته الغذائية قليلة بالمقارنة مع غيره من الدواب الأخرى، فيما استعمالاته متعددة وذات كفاءة؟ بل يحق لنا التساؤل عن ما إذا كان للأمر علاقة بقضية نزع الخيل، التي يقدم عليها المخزن في الكثير من الأحيان لمعاقبة القبائل، فكان أن عوضت الخيول بالحمير لتفادي الأضرار التي تترتب عن مثل هذه العمليات؟

يعتبر الحمار حيواناً أهلياً مرافقا تاريخيا لحياة البدو بالمغرب منذ أقدم العصور، ذلك أن قدرته على التحمل جعلته من الحيوانات الأكثر نفعا للإنسان، خاصة البدوي، ولاعتبار بساطة غذائه، المكون أساسا من العشب والتبن والشعير، وضعف حاجياته من الماء ما يساعده على تحمل العيش في مختلف الأماكن الحارة منها والرطوبة، وعلى الرغم من كون إشارات الوزن

¹ - الوزن، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص103. البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص 53.

² - فأهل جبل بني مراسن يذكر الوزن يتوفرون على أعداد وافرة من الخيل والحمير يتوالد عنها كثير من البغال. الوزن، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص368.

حول مواضع هذا الحيوان تعد على رؤوس الأصابع، إلا أنها تشير إلى مواضع انتشار إنتاجه، فيما يمتد استعمالها ليشمل تقريباً كل البوادي المغربية بل ويتعداها إلى الحواضر.

انتشار الحمير بالبادية المغربية، يأتي لتأكيد نزوع أهل البوادي بشكل أساس نحو استغلال المجال في أعمال الزراعة والغراسة، ودليلاً أيضاً على تزايد الحاجة إلى المساعدة في هذه الأعمال، فكان أن انتشر استعمال الحمير وما ينتج من علاقتها بالخيول من بغال في البوادي المغربية، حيث تنوع استغلالها، ما بين نقل البشر للمسافات المتوسطة¹، والمساعدة في نقل الإنتاج الزراعي قصد التبادل، وكذا خدمة الأرض، وجلب الحشيش للماشية²، فهو عامل من عوامل دعم فرص الاستقرار. خاصة إذا ما علمنا أن حاجته إلى الماء تعتبر من بين الأقصر أمداً، ذلك أنها لا تقدر على الظمأ لأكثر من يوم واحد في الشتاء³، فكان لزومها مواضع الماء أمراً ذا دلالة وأثر، ألا وهو الانحصر في المحاضر، أي محاضر الماء.

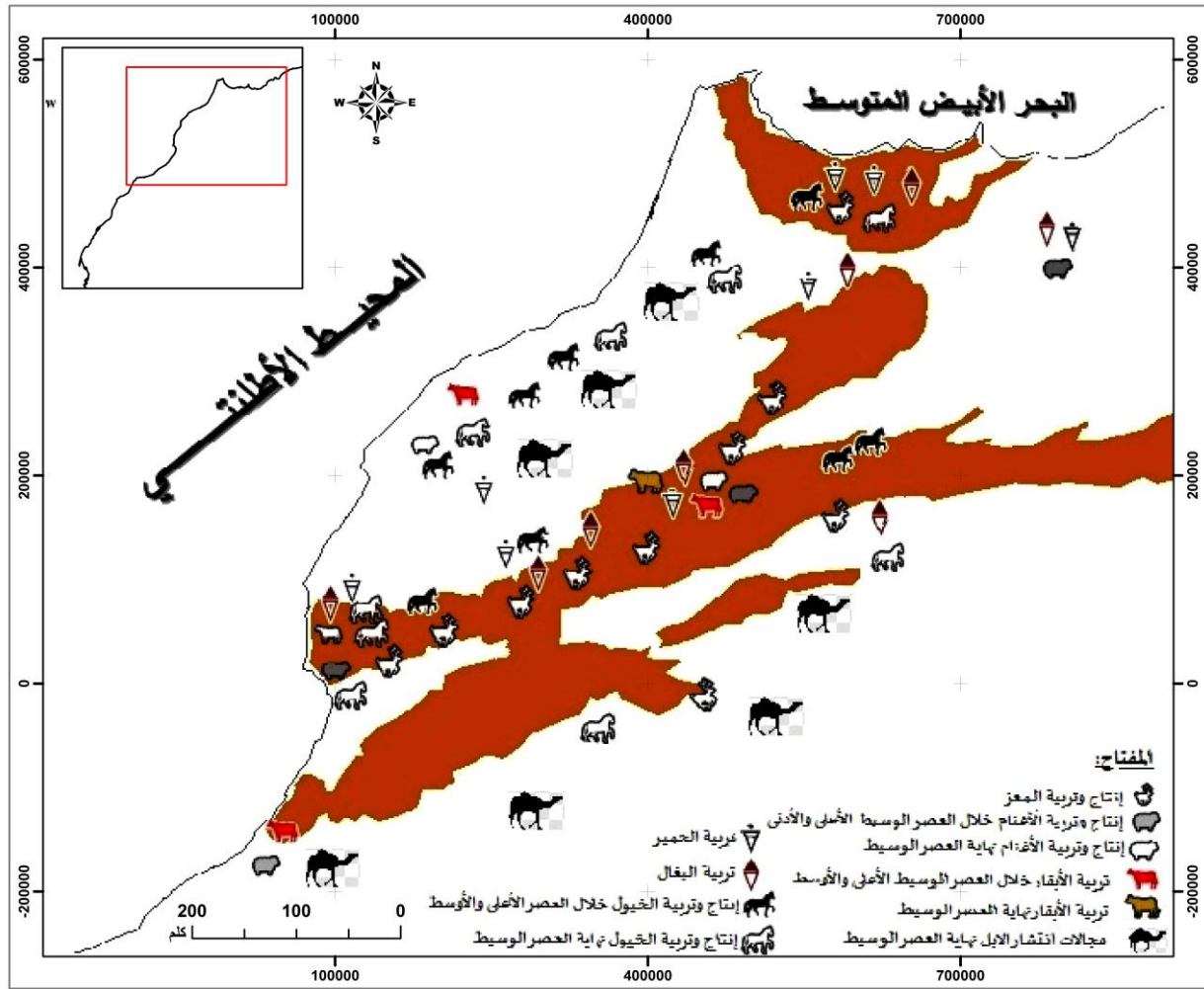
إن دائرة تأثير المناخ بالبادية المغربية تتسع لتشمل خريطة التوزيع الحيواني، ذلك أنه، وإن استطاع الإنسان تدجين العديد من الحيوانات، إلا أن توفير فرص استمرارها، كان محكوماً بعنصر الماء أساساً، وطبيعة الأحوال الجوية، وكذا المشهد النباتي، فيما كان لطبيعة الحيوانات ونظامها الغذائي منتهى الأثر على توزيعها ما بين البيئات الجافة ومقابلاتها الرطبة، ليأتي في الأخير أثر الإنسان فاعلاً في خلخلة هذه المنظومة وتوجيهها لأغراضه، وطموحه في الاستقرار والبقاء، غير أن رغبته هذه لم تكن لتتمر دون أن يتأثر هو الآخر بالطبيعة الحيوانية لقطعانه، فيخضع تبعاً لها لتنظيماته الاجتماعية لمتطلباتها من ماء وكلاء، فكان الإنتاج الحيواني على المحصلة أحد محددات التشكل الاجتماعي.

¹ - بل وقد يأتي التنقل بواسطتها للمسافات البعيدة كرامةً لولي صالح، ومن ذلك ما نقل في سيرة أبي داود مزاحم من أهل وادي النكور قرب المزمة. انظر؛ البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص 53-54.

² - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 172.

³ - الاصمعي، الإبل، م. س، ص 148. الاصفهاني، الأزمنة والأمكنة، م. س، ج 1، ص 368. ابن سيده، المخصص، م. س، ج 2، ص 179.

الخريطة رقم 3: إنتاج وتربية الدواب والإبل بالمغرب الوسيط¹



2-المشهد الزراعي:

شكلت الزراعة أحد المشاهد الرئيسة للمجتمع البدوي المغربي، لكن الإنتاج الزراعي، بوجه عام، ظل غير متناسب مع خصوبة الأرض، الشيء الذي أرجعته بعض الشهادات التاريخية إلى الضعف التقني، من خلال الربط بين عنصري "خصوبة التربة، ونقص التقنية"²، فيما تحدث آخرون، بالإضافة إلى العامل التقني، عن العامل الاجتماعي، لتتشكل محددات المشهد الزراعي في ثلاثية: خصوبة الأرض، والضعف التقني، ثم الإكراه الاجتماعي.³ لاشك

¹ - الخريطة من إنجاز شخصي.

² - محمد حبيدة، المغرب النباتي الزراعة والاعذية قبل الاستعمار، تقديم عبد الأحد السبتي، منشورات ملتقى الطرق،

2018، ص 26

³ - نفسه.

أن هذا الطرح يجد له من الأسس المادية الكثير من القرائن والنصوص المصدرة، لكن ماذا عن المناخ؟ أليس محددا أيضا؟

قبل الحديث عن دور المناخ محدداً للمشهد الزراعي بالبادية المغربية خلال العصر الوسيط، لابد من الإشارة إلى أن معطى خصوبة الأرض لم يكن شاملا بالنسبة لكل مجالات البادية المغربية، والأمر ذاته يصدق على عامل الضعف التقني، والذي يتباين مستواه من منطقة إلى أخرى. ذلك أن المجال البدوي المغربي ينقسم تبعا لتضاريس جغرافية البلاد إلى مجموعة مناطق متباينة الخصائص والمميزات المورفولوجية والمناخية، بل وحتى البشرية إلى درجة يمكننا الحديث معها عن بوادر خصائص ترابية مميزة لكل مجال على حدة.

لأشك أن القراءة التاريخية لنصوص المصادر الخاصة بالفترة قيد البحث وما قبلها، تسمح بالحديث عن مجالات زراعية متباينة، لعل الواضح أنها نتاج الظروف المناخية معززة بالخصائص التضاريسية، الشيء الذي يجعلنا أمام مغربين من الناحية الزراعية، مغرب شمالي، وشمال غربي، وآخر جنوبي صحراوي، وجنوب شرقي، وفي الوقت الذي تتعزز مشاهد الخصوبة والوفرة النباتية والمائية في القسم الأول، فإن القسم الجنوبي، والجنوب شرقي، يبدو فقيرا من حيث الغطاء النباتي، وكذا المجالات الزراعية، وتظهر فيه الواحات والزراعات المنجزة حول منابع المياه بها جناتٍ وسط الصحراء.

الجدول رقم 19: التوزيع المجالي للإنتاج الزراعي والنباتي بالمغرب من خلال كتاب وصف إفريقيا

ج/ص	النباتات	الأشجار		الحبوب			المجال
		غابوية	مزروعة	أخرى	شعير	قمح	
97-96/1		X		الدخن الذرة	X	X	حاحا
102/1		X			X		قرية إداو إزكوغن بحاحا
103/1			X		X		قرية تنيوت
111/1		X		الدخن	X		جبل دمنسرة (حاحا)
113/1			X			X	محيط مدينة ماسة
121/1					X		جبل هنكيسة (سوس)
122/1			X				ناحية مراكش
125/1			X			X	قصور تومكلاست
138/1		X			X		جبل نفيفة
139/1	X						جبل سمد (مراكش)
141/1		X	X		X		جبل تينمل
141/1			X		X		جبل كدميو

143/1			X			جبل اديمي (مراكش)
144/1					X	ناحية جزولة
160/1			X		X	جبل بني ماجر (دكالة)
160/1		X				الجبل الأخضر (دكالة)
164/1			X			غابة حاضرة هسكورة
170/1		X			X	جبل ايت واوذكيت
173/1					X	جبل تنزيتة
175/1			X		X	جبل غجدامة
187/1					X	جبل سكيم (تادلا)
197/1	X		X		X	سهل أنفا
199/1					X	تلال مدينة ادندون (تامسنا)
200/1		X				السهل بجوار عين حلوف
206/1		X				زرقة
208/1		X	X		X	ضاحية سلا
210/1		X				غابة المعمورة
214/1			X			سهل مكناس
293/1	X		X		X	جبل زلاغ
295/1			X			جبل زرهون
296/1		X				الغابة بمحيط قصر فرعون
297/1			X		X	قرية الحجر الأحمر
298/1					X	بني وارثن
299/1					X	السايس
299/1			X		X	جبل تغات
300/1					X	كريكرة + آدخسان
302/1					X	أزغار
302/1			X			ضاحية العرائش
311/1			X			بادية الحمر
312/1			X		X	ناحية اصيلا
314/1			X			طنجة
317/1			X			بنيونس (بليونش)
323-320/1		X	X			جبال الهبط
324/1			X			الريف
325/1					X	ترغة
326/1					X	بادس
328/1	X		X		X	تغسة
328/1			X			ضواحي جبهة
328/1					X	سهل المزمة
329/1			X		X	جبل بني كير
330-329/1			X			جبل بني منصور
330/1			X		X	بني منصور

331/1				الدخن			بني يوسف
331/1			X				جبل بني زرويل
331/1			X			X	جبل بني رزين
332/1			X			X	جبل شفشاون
332/1			X				بني جبارة
332/1			X				تيزرن
333/1			X				بني بوشيب
333/1			X				جبل بني وليد
335-334/1			X				ايشتوم
335/1			X				جبل بني يدر
335/1			X				جبل لوكاي
336/1			X				بني وزروال
337/1			X			X	جبل بني ورياكل
338-337/1			X				بني احمد
338/1			X				جبل بني جنفن
344/1					X		جبل كبدانة
344/1					X		جبل بني سعيد
350/1			X				كرسيف
355/1			X				تازا
356/1			X			X	جبل مطغرة
356/1			X		X		جبل غيابة
357/1			X			X	جبل مكاصة
357/1						X	جبل البرانس
358-357/1			X			X	بني ورطناج (تسول)
359/1			X				بني يستينتن
360/1		X					جبل سليلكو (سليليو)
362-361/1			X				جبل بني يازغة
362/1			X		X		أزكان
362/1			X		X		صفرو
363/1			X		X		بادية مزدغة
364/1		X					سهب المرجة
365/1	X						أزغار إيكمارن
367/1			X		X		تزرعة
12/2				الدخن	X		ايسلي
13/2			X				وجدة
117/2			X				إفران (الأطلس الصغير)
118/2			X				أقا
119-118/2	X		X				درعة
123/122/2			X		X		الخنك
124/2			X				الرتب

126/2			X				سجل ماسة
129/2			X				تبللت
129/2			X				ندغة
130/2			X			X	فركلة
130/2			X				تزرين
131/2			X				قصر مزالق وبوعنان
132/2			X			X	وكدة
132/2			X				فكيك

تتواتر الإشارات التاريخية حول تنوع الغطاء النباتي والإنتاج الزراعي بالمناطق الشمالية والغربية لسلسلة جبال الأطلس، بدءاً بسفوحها التي شكلت مجالات زراعية، وانتهاءً بقممها التي شغلها المساحات الغابوية. وفي المقابل تأتي المشاهدات الخاصة بالقسم الجنوبي، والجنوبي الشرقي على وجه الخصوص، فضاءات قاحلة قليلة الموارد والغطاء النباتي¹، فكانت الجبال وسطاً يفصل بين مجالين نباتيين وزراعيين متباينين، وفي مثل هذا المشهد كتب الوزن واصفاً شكل المجال الزراعي بجبل تغات (ناحية الساييس): "الجانب المطل على فاس كله مغروس بالكروم، وكذلك القمة. والجانب المقابل للسفح كله أراض محروثة بالقمح"²، فهل هذا التوزيع خاضع للمعطى المناخي؟

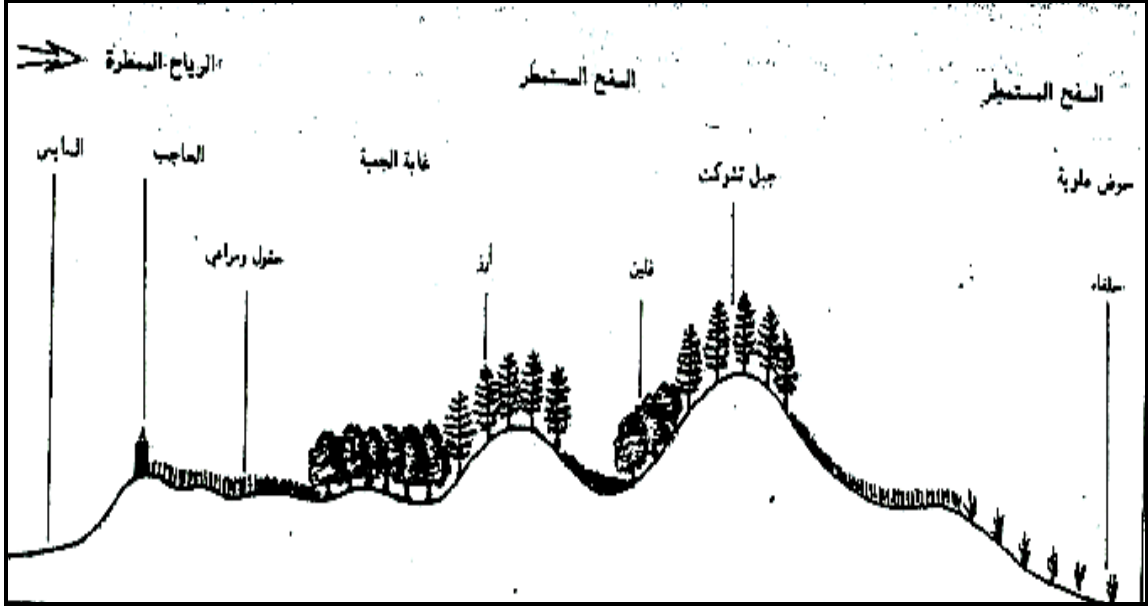
يتبدى الأثر المناخي على الإنتاج الزراعي بالبادية المغربية من خلال الربط بين طبيعة المجال وخصائصه المناخية، وعبر هذين المعطيين يمكن فهم شكل وهندسة التقنيات الفلاحية المستعملة في الميدان الزراعي، والتي من ضمنها التقنيات المائية، وأساليب الري بالبواقي المغربية، فللمناخ إذن، علاقة بالإنتاج الزراعي، لكن هذا الدور كثيراً ما يتعزز بتأثير الوضع السياسي، ذلك أننا نجد فيما كتبه العروي: "البدوي مستعد دائماً لكي يستقر ويزاول الزراعة، بالمعنى التقليدي المعروف، إذا كانت الدولة قوية، قادرة على أن تضمن له الأمن. لا يتمادى في البداوة إلا إذا تفتت السلطة، وضعفت الدولة، وقل السكان، وبالتالي ندرت القوة الإنتاجية"³.

¹ - الوزن، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 72.

² - نفسه، ص 299.

³ - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ج2، ص 224.

الشكل رقم 7: تباين الغطاء النباتي بسفوح الأطلس المتوسط¹



ظل المشهد الزراعي بالمغرب رهين ثنائية الأرض البورية² والأرض المسقية، أو ما يعرف في "لغة الفلاحين ببلاد البور، وبلاد الساقية"³، والواضح أن خضوع المزارع المغربي لهذه الثنائية جاء استجابة للظروف والإكراهات الطبيعية، والتي يتبدى فيها أثر المعطى المناخي بشكل أساس، ذلك أن تباين التساقطات المطرية من منطقة لأخرى مع ما يرتبط به من نظام للجريان المائي للأودية⁴، وكذا تشكل للفرشات المائية الباطنية، كان له الدور الكبير في طرق ري الأراضي الزراعية، ومن خلال الإشارات المصدرة، فالواضح أن الانتشار الواسع كان للزراعات البورية الخاضعة للأمطار على حساب الزراعات المسقية المنتشرة أساسا بضواحي المدن، وبمدرجات الجبال والواحات.⁵

¹ - محمد بلقيش، أوليات في الجغرافيا الزراعية، منشورات الشركة المغربية لتنمية النشر والتوزيع، ط2، 1987، ص 26.

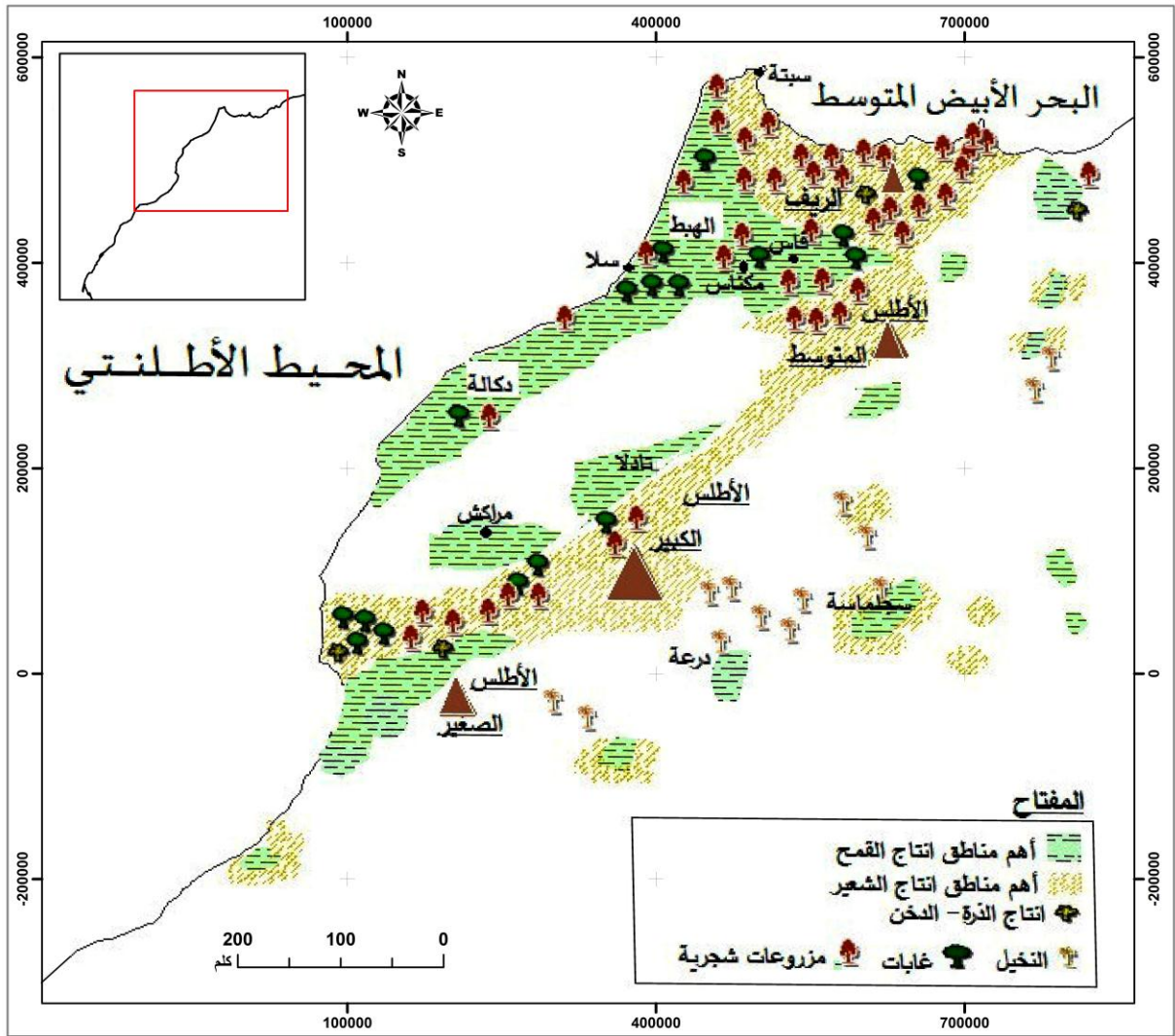
² - الونشريسي، المعيار، م. س، ج5، ص 167.

³ - محمد حبيدة، المغرب النباتي، م. س، ص 39.

⁴ - الوزان، وصف فريقيا، م. س، ج2، ص ص 117-118.

⁵ - محمد حبيدة، المغرب النباتي، م. س، ص 43.

الخريطة رقم 4: التوزيع الجغرافي لبعض المنتجات الفلاحية بالمغرب خلال العصر الوسيط¹



انتظم المشهد الزراعي بالبوادي في ثلاث مستويات رئيسية، وهي: بالمنبسطات توجد "البلدات"، تُجاوُر المجالات البورية، إن لم تكن هي ذاتها بورية بالأساس، حيث تمتد حقول القمح والشعير. وبالجبل تأتي البساتين بخليط مناوبة من الخضروات (اللفت والجزر) والحبوب، بينما في الواحات تختلط امتدادات النخيل² بزراعة الشعير والخضر³، ذلك أنه مثلا على الرغم من كون سجلماصة المركز الواحي الأهم بمغرب العصر الوسيط، تتميز مناخيا بشدة الحرّ

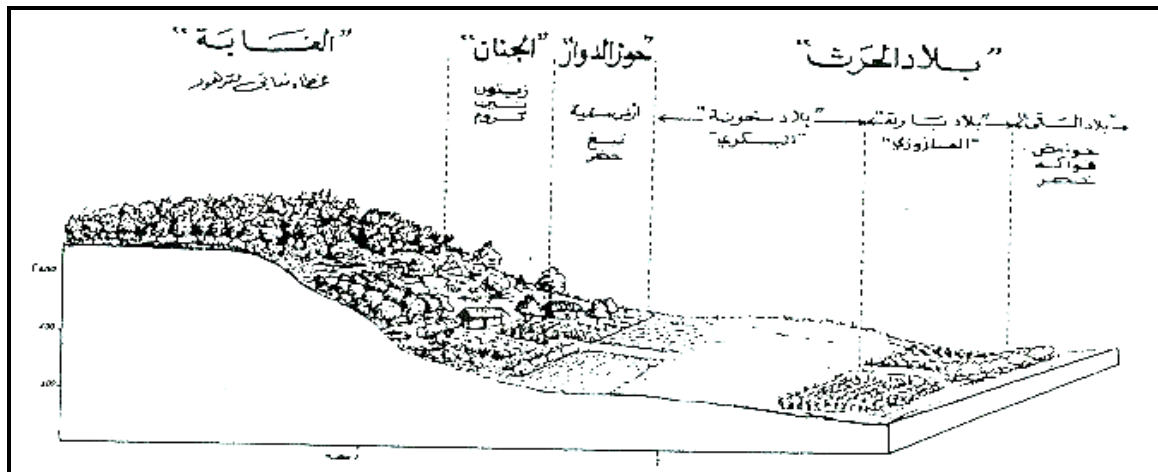
¹ - خريطة من إنجاز شخصي.

² - اعتبرت منطقة نمو نخيل البلح أحد المحددات النباتية للمجال الصحراوي، ذلك أنه "لا ينضج إلا في ظروف خاصة معينة تتوفر داخل نطاق يحده خط الحرارة 28° يولييه و 7° في يناير". ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، م. س، ص 23.

³ - حبيدة، المغرب النباتي، م. س، ص ص 46-47.

والبرد معا، فإنها حسب المقدسي "صحيحة الهواء كثيرة التمرور والأعشاب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات".¹

الشكل رقم 8: أثر الانحدار على التربة²



وفق الترابط المنطقي بين المناخ والتضاريس والمجهود البشري، انتظم الإنتاج الزراعي في مساحات متباينة من مزارع الشعير والقمح وبعض الحبوب الأخرى، حيث اختصت المناطق الرطبة بزراعة القمح فيما يركن سكان المجالات الجافة قليلة الأمطار إلى زراعة الشعير، وفي بعض الأحيان يستعويض الناس بزراعات الأنواع الأقل جودة من دخن وغيره.³ وفي المقابل يظهر التوجه العام نحو غراسة الأشجار المثمرة، والتي تكاد تشمل جل المجالات المغربية حسب إشارات الوزان، وهو الأمر الذي يرجع غالباً، إلى انتشار استغلال الجبال ومنحدراتها في المناطق الشمالية الغربية، حيث المناخ الرطب شيئاً ما، فيما تنتشر واحات النخيل وغابات الزيتون في المجالات ذات الجفاف النسبي أو الجافة.

على الرغم من المستوى التقني للفلاحة المغربية خلال العصر الوسيط، فإن الإنتاج تميز بالتنوع، فأهل المغرب حسب شهادة ابن حوقل، من "جيد الفواكه والتمر والأرطاب وسائر الأغذية"⁴، ويبدو أن الزراعة كثيراً ما ارتبطت بالماء والاستقرار، خاصة في المجالات الواحية، والتي يمكن اعتبارها شاهدة على قدرة الإنسان على خلق فرص الاستغلال والعيش، وفق الممكن مما توفره له البيئة المحيطة به ومناخها، ذلك أن مجالا كمحيط سجلماصة ومدينتها،

¹ - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي القاهرة، ط3، 1411هـ/1991م، ص 231.

² - محمد بلفقيه، أوليات في الجغرافيا الزراعية، م. س، ص 26.

³ - محمد حبيدة، المغرب النباتي، م. س، ص ص 41-42.

⁴ - ابن حوقل، صورة الأرض، م. س، ج1، ص 98.

تقوم به زراعة تعتمد أساسا على فيضان نهرها حسبما يزرع فلاحو مصر وفق شهادة الإدريسي، والذي يضيف: "ولزراعته إصابة كثيرة معلومة وفي أكثر الأعوام الكثيرة المياه المتواترة عن خروج هذا النهر ينبت لهم ما حصده في العام السابق من غير بذر وفي الأكثر من السنين إذا فاض النهر عندهم ثم رجع بذروا على تلك الأرضين زرعهم ثم حصده عند تنافيه وتركوا جذوره إلى العام القادم فينبت ذلك من غير حاجة إلى بذر زراعة..."¹، فحرص المغاربة على استغلال إمكانات بيئتهم أسهم في تراكم خبرتهم في المجال الزراعي، الشيء الذي أهلهم لعمارة المناطق الواحية رغم قسوة الظروف المناخية بها بالمقارنة مع المناطق الداخلية. فكان أن تحصلت لديهم إنتاج زراعي متنوع من أصناف الحبوب الشعير والقمح (يردن تيزواو) وأشجار النخيل، كما لهم من غلات القطن والكمون والحناء وغيره ما يتجهز منه إلى سائر بلاد المغرب وغيرها.²

وفي مقابل المجالات الواحية (سجلماصة ودرعة)، تظهر سوس كأخصب مجالات بلاد المغرب، حسب شهادة العديد من الرحالة الجغرافيين، فهي حسب تعبير صاحب النزهة: "بلاد حنطة وشعير وأرز ممكن بأيسر قيمة وأسعارها رخيصة"³، ويلبها جبل درن، الذي يوجد به "كل طريفة من الثمار وغرائب من الأشجار والماء يطرد منه وبوسطه وحوافيه يوجد النبات أبدا مخضرا في كل الأزمان"⁴، فقد انتشرت على طول جبال درن حسب الإدريسي زراعة شجرية، قوامها العديد من الفواكه الجافة، وأشجار الرمان والسفرجل، وكذا مساحات معتبرة من أشجار الزيتون والأركان، الذي لكثرت "يسرجون به قناديلهم ويقلي به الدخانيون الإسفنج في الأسواق وله إذا مسته النار رائحة كريهة حريفة ولاكنه يعذب طعمه في الإسفنج ونساء المصامدة يدهن رؤوسهن به على المشط فتحسن شعورهن بذلك وتطول وتتكسر ويمسك الشعر على لونه من السواد".⁵

¹ - الإدريسي، نزهة المشتاق، م. س، ج1، ص ص 225-226.

² - نفسه.

³ - نفسه، ص 227.

⁴ - نفسه، ص ص 230-231.

⁵ - نفسه.

ومن العوامل الأخرى التي كان لها الأثر على المشهد الزراعي، نجد حادث الهجرات الأندلسية نحو المغرب، فقد أسهمت بعض هذه الهجرات في تعمير بعض البوادي، وعملت على غراسة بعض المنتوجات التي لم تكن منتشرة بها¹، ومن ذلك مثلا ما حصل في مجال خميس مطغرة، والتي تمتد فيه الأغراس على نحو ميلين من أغراس الكروم والتين الجميلة²، غير أن خرابها بفعل حروب أبي سعيد المريني سمح لبعض الغرناطيين القادمين للمنطقة، بغرس "كثير من أشجار التوت الأبيض، لأن الغرناطيين من كبار تجار الحرير. كما غرس قصب السكر، إلا أنه لم تستخلص منه فوائد كبيرة مثل ما كان يستخلص منه عادة في الأندلس".³

كان لتوزيع الإنتاج الزراعي أثر على الحياة التجارية، والتي تهتم المبادلات التجارية الداخلية⁴ منها على وجه الخصوص، وهذا ما يمكننا تدعيمه بنص إشارة للوزان يصف فيها سوقا أسبوعيا بالريف، فجبيل بني منصور -حيث يطغى الفقر على السكان، لاعتبار ضعف إنتاج جبلهم، الذي لا ينتج غير العنب-، يقوم السوق مرة في الأسبوع، لم يكن به "غير البصل والثوم والزبيب والسردين المملح، وقليل من الشعير والدخن يصنعون منه الخبز"⁵، ويبدو أن أهل هذا الجبل كانوا يستفيدون من قطيع ماشيتهم في الحصول على حاجياتهم من المعروض في السوق، والتي يظهر أنها تستقدم من المناطق القريبة من الجبل. فكيف عمل الإنسان البدوي على خلق فرص التكامل بين إنتاجه وحاجياته، في ظل شروط الإنتاج غير المتكافئ للبوادي المغربية؟ وكيف استجابت البنية القبلية للإكراه المناخي وسعت نحو تحقيق التكامل الضروري للاستمرار؟

¹ - يبدو أن استحداث بعض المزروعات كان واقعا تاريخيا قد لا تعلم جل خلفياته إلا أن انعكاساته الاقتصادية تتجلى في الربط بين بعض المزروعات والإنتاج الصناعي، ومن ذلك ما نقله الوزان من غرس الكثير من أشجار التوت في سهل أركان المواجه لفاس وذلك بهدف تربية دود القز. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 362.

² - نفسه، ص 217.

³ - نفسه.

⁴ - نفسه، ج2، ص 117.

⁵ - نفسه، ج1، ص ص 329-330.

III. المناخ والتحركات البشرية بالبادية المغربية

أفرزت الظروف المناخية التي عرفها المغرب تحولات اجتماعية ومجالية، كان لها ولا شك دور أساس في تنظيم جماعات البادية وتشكيلاتها القبلية ترابيا، فإلى جانب تلك التفاعلات التي سجلتها المصادر حول علاقات الصراع والتنافر القبلي -مما توقفنا عند بعض جوانبه في الفصل السابق-، فإن هناك إطارا تفاعليا أكبر يهتم الحركية الاجتماعية ككل، والذي يبدو أن فاعليته في المشهد البشري قديمة -إن لم نقل أزلية-، وهو ما عكسته التوجهات البحثية في ثنائية المغربين الصحراوي والمتوسطي، وكذا في الرحل والمستقرين، البتر والبرنس...

يعالج هذا المحور مسألة الزحف المتكرر نحو الشمال ومدى ارتباطها بالظروف المناخية. ومن تم، التساؤل عن قضية مجالات الاستيطان بين الاختيار والإكراه؟ ومنها يتم التعرض لمسائل الحدود القبلية؟ وتكامل المجال القبلي؟

1-نظيمة المشتى والمصيف

شكلت "التحركات البشرية البدوية" ما بين موطني المصيف والمشتى، أحد أبرز مظاهر تحكّم الظروف المناخية في المشهد الاجتماعي المغربي، فقد عملت مختلف الوحدات البشرية بالمجال المغربي على التأقلم مع النظام المناخي، فحصرت أغلب تحركاتها في فصل الصيف، وضيقّت من أفق هذه التحركات مع اشتداد البرد¹، حتى أن الحركات السلطانية، لتمهيد أو إخضاع القبائل، كانت غالبا ما تتلافى فصل الشتاء.

مثّل السعي في طلب المرعى للماشية ظاهرة تاريخية، ذلك أن النقاء الرعاة من أرباب الماشية مع المستقرين من أهل الزراعة والمواطنين على المياه، مكن من قيام علاقات اجتماعية واقتصادية مختلفة، حيث اتخذ هذا اللقاء صبغة تبادل للمصالح²، غير أنه لم يكن يخفي خلال الفترة قيد الدراسة تطلعا للرحل نحو استنزاف خيرات المستقرين³، ووفق هذا المستجد نسجت خيوط العمران البدوي في صيغته المتقدمة شيئا ما عن طرح ابن خلدون.

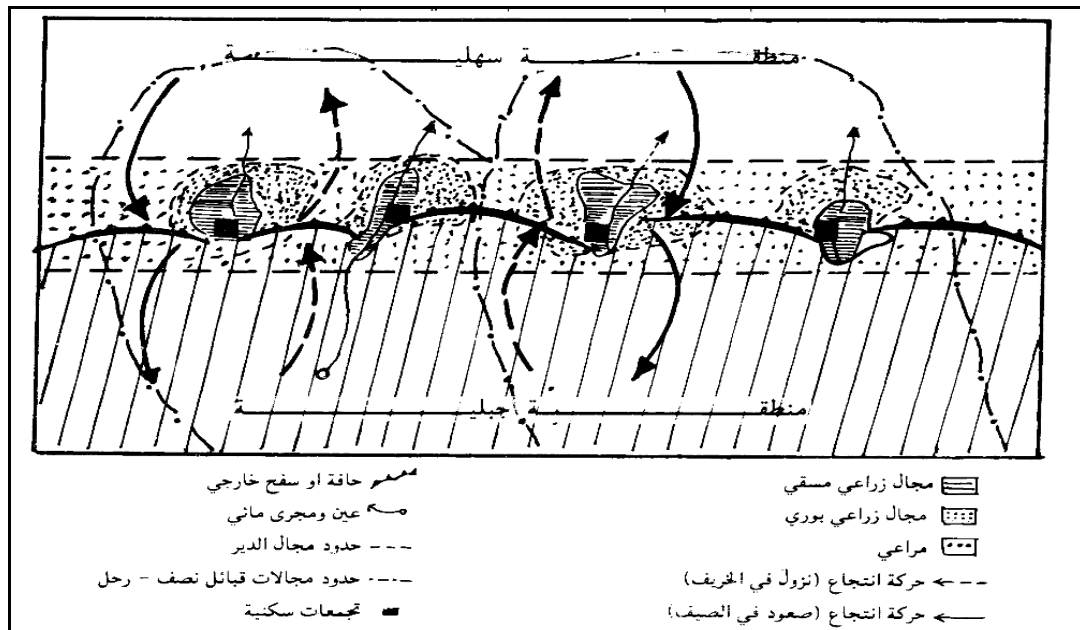
¹ - الناصري، الاستقصا، م. س، ج4، ص 55.

² - فمثلا يتوفر جبل ازكنكن -حسب الوزان- على ميزة ترفع به عن قريته من كبدانة وبنو سعيد وهي "أن صحراء كروط تقع في سفحه، بحيث أن سكان هذه الصحراء يقومون بتجارة كبيرة مع هؤلاء الجبليين". الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 345.

³ - نفسه، ص 125.

تشكل المناطق ذات الخصب ومنابت الكأ مجالات جذب للرعاة¹، ومقصدا لرحلتهم الصيفية في اتجاه أعالي الجبال والسهول داخليا، ورحلتهم الشتوية في امتدادات البلاد الصحراوية أو سفوح الجبال داخليا. ومن خلال المشاهد التي نقلها لنا الوزان يمكننا الحديث عن نظامين يتحكمان في عملية التنقل خلف الكأ، ذلك أن نظام تنقل رعاة الشاة ليست كمثيلاتها من ناجعة الإبل، حيث إن أرباب الشاة من الغنم والمعز كانت حياتهم أكثر ارتباطا بالمجالات الجبلية²، وتستمر تقريبا في محيط الدير، والذي تحول بفعل ذلك إلى مجال تنقل واستيطان بدوي.

الشكل رقم 9: رسم مبسط للتنظيم المجالي القديم بالدير³



يبدو أن حياة الرعاة من أرباب الشاة بالمناطق الجبلية على الخصوص، كانت تحكمها ظروف المناخ وتقلبات الطقس الفصلية (كما في الرسم أعلاه)، لكنها كانت تعاني خلال الفترة قيد الدراسة أيضا من حلول العرب بالسهول⁴، فكان أن اشتد ارتباط أهل الجبل بمعاقلهم لا

¹ - كما هو الحال لسهل أزغار إيكمارن، الذي ينمو فيه العشب طوال السنة، فيقصده الكثير من الرعاة بأغنامهم في فصل الصيف. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 365.

² - نفسه، ص 66.

³ - محمد كربوط، مادة "الدير"، معلمة المغرب، م. س، ج 12، ص 4135.

⁴ - فقد كان من هذه المجالات خاصة في الريف المغربي، ما احتضن جماعات جبلية مدفوعة أحيانا بفقر مجالاتها وتقل الضرائب إلى ممارسة مجموعة من العادات الذميمة من مثل السرقة التي بأهل جبل بني خالد. السكر والزنن جبل بني

يتعدونها إلى غيرها إلا بعد أن يضمنوا سلامتهم، أو يخضعوا لسلطان أو وصاية الأعراب¹، وفيما عدا ذلك فهم منتصرون لاستقلالهم مكتفون بما تحت أيديهم وما توفره لهم جبالهم²، من جهة أخرى نشطت رحلة القبائل العربية بالسهول ما بين المراعي "لعزيب" ومجال زراعة الحبوب خاصة "المراس"³.

تحولت تنقلات أهل الصحراء من عرب المعقل خلال موسم المصيف إلى إندار للمستقرين من غير الخاضعين لهم، فكانت القبائل كثيرا ما تفر من أمامهم إلى معاقلها بالجبال⁴، أو تخضع لهم فيثقلون عليها بالضرائب والتعديات، الأمر الذي واجهه سلاطين بني بحمالات تأديب، تنتهي في بعض الأحيان إلى تمكين المعقل ذاتهم من المجال بعد ضمان ولائهم وكسر شوكتهم، مما كان يعني حلولهم على أهل الموطن⁵، حيث شكلت مجالات الواحات والأطراف الشرقية للمغرب، مجال سيادة وانتشار للعديد من الفرق العربية، والتي احتفظت بطابع التنقل نحو الصحراء شتاء⁶، فيما كانت تعتمد إلى استغلال سكان قصور هذه الواحات عند عودتها إلى المراعي الصيفية.

وبالسهول الأطلسية كان لتنظيم رعي ماشية المخزن المريني دور في توسيع جموع قبائل الشاوية، والتي كانت ترعى تحت نظر ولد حسان بن أبي سعيد الصبيحي (من قبائل زغبة الهلاليين)، والذين أنزلهم بني مرين بجهات مراكش وجعلوا انتجاع إبلهم ورواحلهم في أحيائهم⁷،

منصور، وبني يوسف التي لا يملكون غير كثير من الماعز التي "يعتبر لبنها بالنسبة لهم غذاء ثميناً". الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص330-331.

¹ - نفسه، ج1، ص 100/ ص 141.

² - وقد تتحول خاصية الوفرة أو الاكتفاء الذاتي مع تحقق عنصر منعة الموضع إلى أداة للعصيان على الدولة والتمنع عن دفع الضرائب، وهذا ما نجده مثلاً لدى أهل جبلي مطغرة وغياتة من جبال تازا. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 356.

³ - محمد الطويل حجاج، عودة إلى القبائل الهلالية، مجلة أمل، العدد الثاني - السنة الأولى - 1992، دار قرطبة للطباعة والنشر - الدار البيضاء، ص ص 134-135.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 360.

⁵ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص ص 91-92. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م. س، ص307/ ص 404. الناصري، الاستقصا، م. س، ج3، ص 27.

⁶ - وهي بذلك أخذت دور القبائل الصنهاجية، التي لم يكن "يستقر بهم مكان، [و] ليس لهم مدن ولا عمارة يأوون إليها إلا وادي درعة". مجهول، الاستبصار، م. س، ص 201.

⁷ - الناصري، الاستقصا، م. س، ج4، ص 66.

لما كان في متقدميهم حسان وأخيه موسى الصبيحيين من معرفة برعاية الإبل والقيام عليها، فأقاموا يتقلبون في تلك البلاد ويتعدون في نجعتها إلى أرض سوس¹، وفي الوقت الذي لم تعين فيه المصادر تأثير هذه الجموع على ساكنة هذا المجال، فإن الواضح أنها شكلت عبئاً مضافاً على ما كانت مارسه عليهم القبائل العربية الأخرى.²

انعكست تأثيرات التقلبات الفصلية لأحوال الطقس، على التنقلات البشرية ما بين مواطن الرعاة والرعاة المزارعين والمستقرين، وخلقوا وفقاً لذلك علاقات، كان أساسها التبادل، غير أنها تتحول إلى نزوح نحو التسلط والاستغلال، وانتزاع ما باليد وفرض الإتاوات، وقد تنتهي في بعض الأحوال إلى المنازعة على الموطن ومن تم النزول بغرض البقاء.

2- عنصر الماء بين النزوح والاستيطان

شكلت عملية نزوح القبائل الصحراوية نحو الهوامش الشمالية للمغرب وسهوله الأطلسية، حالة تاريخية كثيرة التردد في تاريخ البلاد منذ القديم³، وإذ ظل الوضع الاجتماعي والسياسي بالمغرب رهين تقلبات الأحوال المناخية في أحواله العادية، فإنه سرعان ما تنقلب الأحوال كلما ضعفت حاميته ودفعت الظروف المناخية بالجموع القبلية نحوه، فكان كثيراً ما تبدلت الأحوال بالبادية المغربية تبعاً لذلك، واضطر المجتمع البدوي إلى إعادة الترتيب وفق مستجدات الأحداث والوقائع.

وإذا كانت حالة النزوح القبلي لجموع المتوغلين في الصحاري وناجعة الإبل واقعا في تاريخ المغرب، فإن الفترة قيد الدراسة عرفت تطوراً في هذا المسار، إذ تكاد تسوده قبائل الرحل من جموع بني مرين الزناتية وحلفائها من عرب المعقل، الشيء الذي انعكس على المشهد الاجتماعي بالبادية المغربية.

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج7، ص 200/ ص 304.

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 123-125.

³ - يذهب فرناند برونديل إلى أن الرحل في شمال إفريقيا كانوا يدفعون بقطعانهم كل صيف حتى الساحل المتوسطي، وعند الشتاء يرجعون إلى الجنوب والصحراء، ما يمنح مهلة للجبلين لولوج الأراضي السفلى المتروكة فارغة، بواسطة قطعانهم عند عتبة فصل الشتاء.

تكاد تجمع النصوص الإخبارية الوسيطية، على ربط الغزو المريني للمغرب بواقعة العقاب (609هـ/1212م) وانعكاسات وباء الطاعون، لكن ذلك لا يلغي الإشارة إلى ارتباط أصل عملية النفاذ نحو البلاد بعادة بعض فرق بني مرين في الدخول للبلاد بقصد الإمتياز¹ والإعداد لرحلة الشتاء بمواطنها بالزاب، ومنه فما كان من تقاليد التنقل طلبا للكلأ تبعاً لرحلتي الصيف والشتاء²، كان سببا في بداية اكتشاف هؤلاء للبلاد والتعرف على مؤهلاتها والنظر إلى عورتها -إن صح التعبير-، فكان أن تصيدوا أولى الفرص للانقضاض عليها والاستفادة من خيراتها في تنمية كسبهم وتوطين قبائلهم.

رافق دخول بني مرين إلى المغرب نزوح جموع عرب المعقل نحوه أيضا، وإذ عمل المرينيون على تقسيم البلاد منذ سنوات غزوهم الأولى، فإن المعطيات المصدرة لم تسمح لنا بالربط بين عمليات النزوح والانتشار الأولى والمناخ، لكن الأكيد أن أثرها على الوضع الاجتماعي تعزز بما عرفته البلاد من موجات جفاف، حتى إن بعض الباحثين ذهب إلى اعتبار ذلك سببا في انتشار نشاط الرعي على حساب الزراعة خلال هذه الفترة³، فيما فسر بعض المؤرخين ذلك بعملية التتميط الاجتماعي الذي واكب سيطرة الرعاة على السهول وانتشارهم على حساب المزارعين⁴، الذين اضطروا لمغادرة أراضيهم أو الاشتغال بها تحت سلطتهم⁵، ويأتي هذا الوضع على خلاف الصورة التي قدمها ابن حوقل عن المغرب، وأجملها العروي في قوله "فهو [المغرب] على العموم بلد زراعي نشيط ومنتج، يعيش سكانه حياة استقرار ورخاء ويصدرون ما فضل من الحبوب والجلود والمعادن"⁶، فهو بذلك بلد نشط فيه

¹ - من الميرة: بمعنى "جلب الطعام، وفي التهذيب: جلب الطعام للبيع... والميار: جالب الميرة... ويقال للرفقة التي تنهض من البادية إلى القرى لتمتار: ميارة". ابن منظور، *لسان العرب*، م. س، ج5، ص 188.

² - يرى العروي أن الحرية التي استفاد منها بني مرين للتدفق نحو شرق المغرب راجع إلى استجابتهم لدعوة المهدي بن تومرت وتحالفهم مع الدولة، وبالتالي فالنقرة التي سيهدد منها المرينيون سلطة الموحدين تمة بموافقة المخزن الموحي ذاته. العروي، *مجلد تاريخ المغرب*، م. س، ج2، ص 178.

³ - فقد ذهب محمد الناصري إلى أن موجات الجفاف التي شهدتها المغرب، خلال فترة القرن الخامس والسادس عشر، كانت تدفع بالمغاربة أحيانا إلى التحول عن الزراعة للرعي، وبالتالي ازدهار ما سماه بالاقتصاد شبه الرعوي بالسهول الخصبة. محمد الناصري، مادة "الجفاف المناخي"، *معلمة المغرب*، م. س، ج9، ص 3049.

⁴ - القبلي محمد، "حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى..."، م. س، ص 53. العروي، *مجلد تاريخ المغرب*، م. س، ج2، ص 223.

⁵ - الوزان، *وصف إفريقيا*، م. س، ج1، ص 118.

⁶ - العروي، *مجلد تاريخ المغرب*، م. س، ج2، ص 47.

الزراعة والتجارة بخلاف ما أضحى عليه الأمر خلال الفترة المدروسة، حيث تزعزعت القاعدة الاقتصادية، وغدت "ضعيفة ومهلهلة".¹

ويبدو أن هذا التحليل، المعتمد على الانطلاق من القواعد الإنتاجية للنظر في الوضع الاجتماعي، هو ما دفع بالعروي إلى التصريح بضرورة مراجعة القول السابق بارتباط انتشار الرعي بقدم القبائل البدوية العربية والمرينية للسهول الأطلسية، والذي رأى فيه مجرد افتراض يمكن مقابله بافتراض آخر، فكتب "لِمَ لا يكون التسلسل على الشكل التالي: تدهور الإنتاج الزراعي بسبب قلة المزارعين، وفرغت البلاد، وعندها استقدم الحكام الأعراب لملا الفراغ، فتعاطى هؤلاء للرعي بسبب قلة اليد العاملة"²، لم يتبنَّ العروي هذا القول بقدر ما أنه رأى تسجيله لمقابلة الافتراض السابق الذي "رواه البعض وتناقله البعض بدون تمحيص".³ فهل يكون الماء ومتعلقاته جزء من الكشف اللازم عن "الوثيقة الفاضلة"⁴ التي يمكنها حسب العروي تبرير التحول الذي عرفه النشاط الزراعي لصالح النشاط الرعي خلال هذه الفترة؟

بعيدا عن الخوض في آثار الغزو المريني المعقلي للمغرب على الفلاحة والأنشطة الاقتصادية مما شغل بال العديد من الدارسين⁵، فإن الواضح أن هذه العملية قد انتهت إلى التنافس حول مادة الماء وموارده، خاصة في المواضع التي عرفت عمليات توطين واستيطان القبائل الحادثة، بما في ذلك المجالات التي سبق وتوقفنا عندها مما كان يمثل مواطن اتصال تاريخي بين المجالات؛ ونعني الواحات الجنوبية والشرقية بالنسبة للصحراء، ومناطق الدير المستحدثة بالنسبة للسهول الأطلسية (الخريطة رقم 5).⁶

وعلى الرغم من أننا نعدم من الإشارات المصدرة الربط بين الأزمات المناخية وعمليات النزوح والتوطين القبلي، إلا أنه من غير المستبعد ارتباط تواتر موجات الجفاف، التي شهدتها المغرب، بعمليات الصدام، التي كانت تعرفها البادية المغربية، والتي تحضر العناصر الطارئة

¹ - العروي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ج2، ص 222.

² - نفسه، ص 223.

³ - نفسه.

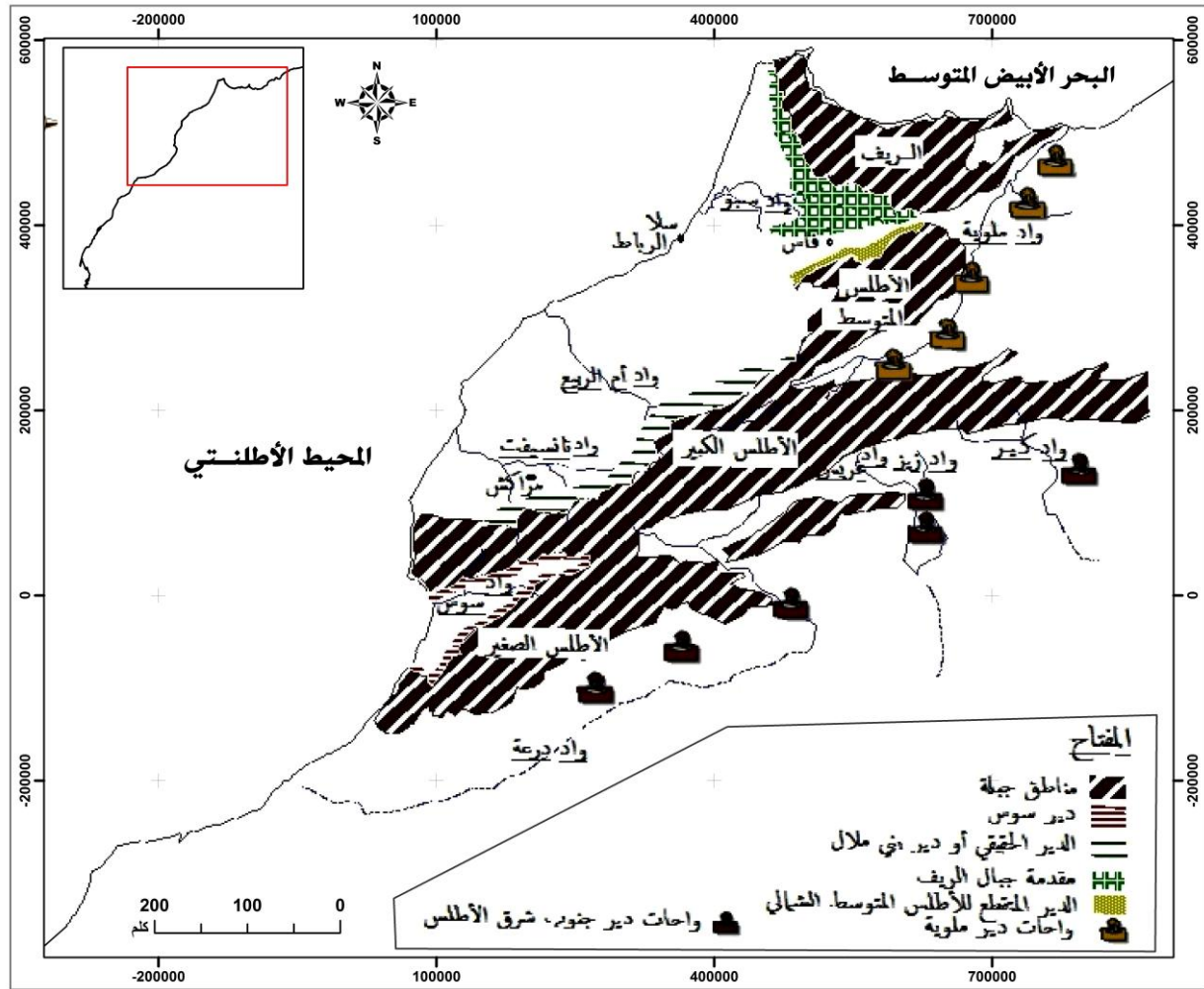
⁴ - نفسه.

⁵ - من بينهم نذكر؛ عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س. محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س. محمد القبلي، "حول التحركات البشرية بمجال المغرب"، م. س، ص ص 41-70.

⁶ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 123-124.

على المجال المغربي عنصراً مساهماً في تأجيجه، ولعل أبرز شواهدنا في هذا الإطار هو النازلة المشهورة في معيار الونشريسي بين أهل أزكان ومزدغة، والخلاف بين المصموديين والفاسيين¹، والتي جعل عمر بنميرة من أحد أهم أسبابها العامل الاجتماعي، ممثلاً في تأثير حلول بعض عناصر بني مرين ومزاحمتهم استغلال مياه مورد مملوك الحقوق.²

الخريطة رقم 5: مناطق مقدمات الجبال بالمغرب³



¹ - أبو العباس أحمد الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج مجموعة من الفقهاء تحت إشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، دار الغرب الإسلامي - بيروت (1401هـ/1981م)، ج8، ص20-40.

² - عمر بنميرة، "قضايا المياه بالمغرب الوسيط من خلال أدب النوازل"، ندوة: التاريخ وأدب النوازل، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 46، مطبعة فضالة - المحمدية، ط1، 1995، ص ص 77-86.

³ - خريطة من إنجاز شخصي، بالاعتماد على خريطة محمد كربوط، مادة "الدير"، معلمة المغرب، م. س، ج12، ص 4131.

يبدو أن المتضرر الأول من غارات البدو الرحل هو الكساب ذاته، ذلك أنه في بلد يعرف بأرض "غرس وغلة وكسب"¹، يأتي تأثير الفتن والقتل على الحيوان والأشجار أشد من أثره على المزارع، الذي يمكنه، أن "يدفن الحبوب في المطامير، ولكنه لا يستطيع أن يخفي الأشجار والماشية، فالكساب هو الذي يتضرر من غارات البدو لا المزارع".² وعموماً، فمن الواضح أنه في الوقت الذي تضعف فيه حال الفلاحة والأنشطة المرتبطة بها بفعل نزوح الرحل من بني مرين والعرب، فإن النشاط التجاري نما لذات السبب، حيث أسهم حلول عرب المعقل بغرب الصحراء في إعادة إحياء المسلك التجاري الغربي.³

أسهم ارتباط استقرار جموع المرينين وحلفائهم من عرب المعقل بالمجالات الخصبة في انتقال الزراعة نحو المرتفعات⁴، حيث عملت القبائل الجبلية على توفير حاجياتها من الغذاء، بعيداً عن تهديد المخزن وتسلط القبائل الرعوية⁵، التي أخذت في التحول نحو ممارسة بعض الأعمال الزراعية⁶، وهو ما شكل تحولاً في تعاملها مع الأرض بعد نزوحها نحو الاستقرار، غير أنها في المقابل لم تكن لتتخلى بسرعة عن نمطها في العيش من تربية الماشية وممارسة الرعي. وقد أدى هذا التحول إلى تزايد الطلب على الماء، والذي يعز مع موجات الجفاف، فيتحول من مادة للحياة إلى أصل للصراع، ومعه يتحول المناخ من باعث للزحف القبلي إلى عامل مزعزع لوحدة المجتمع، الذي أضحي يبحث عن "بديل تتجسد فيه الوحدة المطلوبة، رمزا وواقعاً"⁷، ففي ظل ضعف السلطة المركزية والغزو الأجنبي والفتن القبلية، نشط العمل الصوفي وامتدت آثاره لتشغل جل نواحي الحياة الاجتماعية وتغطية جل المجال المغربي، بل واستطاع هذا المد التحكم في الحياة السياسية وتوجيه الحدث التاريخي، فلم يكن من الصعب عليه التأثير في خريطة التدبير الاجتماعي لموارد الماء.

¹ - العروي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ج2، ص 224.

² - نفسه.

³ - نفسه.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 105-108/ ص138.

⁵ - نفسه، ص ص 123-124.

⁶ - نفسه، ص 123.

⁷ - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ج2، ص 221.

نتائج وخلصات:

انبرى هذا الباب للبحث في الأساس الطبيعي والبشري للبادية المغربية، باعتبارهما فاعلان أساسان في دينامية التفاعل بين عنصر الماء والحياة الاجتماعية لأهل هذه البادية، واستهدف بذلك إنجاز رصد مرجعي وتركيبى لإشارات المصادر حول الموضوع، وانتهى هذا الجهد إلى جملة نتائج وخلصات أولية، تتمثل في الآتي:

على المستوى الجغرافي والبشري (الفصل الأول)، يمكننا القول:

▲ ظلت موارد الماء أساس تحديد الموقع من البداوة لدى أهل المغرب، فالمتقلون عنها بادون والنازلون حولها حاضرون.

▲ لم يعمل أهل البادية المغربية كثيرا على تطوير استفادتهم من موارد الماء، فجاء استقرارهم عليها مقتصرًا على استغلال الحد الأدنى لما تسمح به طبيعة مجالهم التضاريسية والمناخية.

▲ اقترن البحث عن موارد الماء للاستقرار بطلب الأمن، فتباين ترتيب الأولوية بينهما من مجال لآخر ومن جماعة لأخرى.

على المستوى الاجتماعي (الفصل الثاني)، خلصنا إلى الآتي:

▲ أثر اختزال علاقة السلطة بالمجال البدوي وأهله، في تحصيل الضرائب على تصور المصادر للجانحين إلى استغلال الأرض من أهل البادية، فنظر إلى المشتغلين بالفلاحة على أساس العجز والخضوع والقبول بالمدلة.

▲ لم يكن مستوى عمليات الإعداد الهيدروغرافي بالبادية المغربية، سوى انعكاس لأحوال أرباب الزراعة.

▲ أسهم عنصر الماء في التحول الذي عرفه النظام القبلي بالبادية المغربية، فهو محرك أساس في الدفع نحو التقاء المجموعات البشرية، وكذا في تصادمها. ومنه جاءت ضرورة البحث في أثر المناخ على حياة أهل البادية.

على مستوى التفاعل بين المناخ وأهل البادية (الفصل الثالث)، انتهى البحث إلى الخصاصات الآتية:

▲ تباين الخصائص المناخية بمجال البادية المغربية، أسهم في تشكل مشاهد متباينة لاستغلال المجال البدوي بما يجعلنا أمام مناطق غير متجانسة في تقدير أهمية الماء وحاجات أهلها له.

▲ أسهم المناخ في حدوث تنوع مناطقي في الانتاج الحيواني والزراعي، توزعت بموجبه مشاهد الخصب، وتنوع القطيع والفقر النباتي، ومحدودية الأنواع الحيوانية بالمجال المغربي بين شمال وغرب جبال الأطلس وجنوبه وشرقه.

▲ أغنت ثقافة الندرة المائية من رصيد بدو الصحراء وهوامشها الشمالية، بآليات وتدابير للتحكم في المياه وتقسيمها، ومن تم انتقلت نحو مواطن الوفرة النسبية من الماء، بفضل ظروف التحول الاجتماعي.

وبالجملة، فقد شكل توالي مسلسل الفعل الطبيعي والمناخي منه بوجه خاص على المجتمع البدوي المغربي، دافعا له في الانتقال من حال جمود الحياة الإنتاجية، إلى حالة إعادة تنظيم استغلال المجال، والتي انتهت به إلى تجديد بنياته الاجتماعية، ما أسهم في صياغة مشهد التدبير الاجتماعي والتقني لموارد الماء، وهو ما سيتم تناوله في الباب الثاني من هذا العمل، وذلك في سياق بعض الأحوال العامة للعمران البدوي بالمغرب في الفترة ما بين السابع والعاشر الهجريين والثالث عشر والسادس عشر الميلاديين.

الباب الثاني

الماء والعمران بالبادية المغربية ما بين
القرنين 7 و10هـ

تمهيد

العمران هو الاجتماع الانساني، وهو بما يتعرض له من أحوال التوحش والأنس وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما يستتبعه من أحوال التكسب والمعاش وغيرها... يشكل حقيقة التاريخ، هذه متلازمة ابن خلدون لتفسير التاريخ البشري، وهي التي نبتغي الانطلاق من بعض تحليلاتها، لفهم جزء من الكل المعقد في علاقة الماء بالنظام الاجتماعي لأهل البادية المغربية.

وبما أن الباب الأول من هذا العمل، قد لامس جوانب المشهد البدوي وربطها بالتاريخ وتقلبات المناخ، وتمكن عبرهما من ملاحظة وسائل التأثير، ومواطن رد الفعل في تعامل أهل البادية المغربية مع محيطهم البيئي، فإن هذا الباب سوف يعمد إلى معالجة بعض أحوال العمران البدوي، وما نشأ عنه من نظم وتفاعلات بخصوص مادة الماء.

إذن، فغاية هذا الباب من البحث، هو مقارنة بعض قضايا العمران بالبادية المغربية، بما يتناسب ووحدة الموضوع وخلاصات الباب الأول، أي معالجة سبل نفاذ المؤثرات الاجتماعية لقضايا التدبير التقني والتنظيمي للماء بالبادية المغربية، خلال الفترة ما بين (609هـ/1212م-986هـ/1578م)، بما أنها امتداد متجانس الحداث الاجتماعي بمجال البادية المغربية، تضافرت فيه عوامل الحدث التاريخي (هزيمة العقاب، الغزو الأجنبي وانتصار وادي المخازن)، بتقلبات الوضع الاجتماعي (فتن القبائل، واتساع المد الصوفي بالبادية المغربية)، وتعاقب الأزمت الطبيعية (الطاعون الأسود، موجات الجفاف...)، لتصنع مشهدا من الانقلاب والتبدل في الأحوال العامة لأهل البادية، وتوجها عاما نحو بناء تعاقد اجتماعي جديد.

ننطلق لمقاربة هذا الباب من ثلاثة منطلقات، تمثل أحوالا للعمران البدوي، تستتبع ملاحظة أثر عنصر الماء في استئناس أهل البادية المغربية بمجالهم، وهي:

أولها: هو التصوف بما هو انعكاس ونتيجة لتحولات اجتماعية اصطبغت بحمولات دينية، وما يهم البحث منه هو ذاك الإسهام الذي تقدم به في سبيل إعمار البادية المغربية، بما كان له من آليات الفعل، بعدما تقمص بعض أربابه (التصوف) رداء العمل على استئناس الخلاء، ثم بما كان لممارساتهم في الإعمار من أثر على العمارة المائية. ومن تم فهذا الباب

يفترض قيام أهل الصلاح بتعزيز فرص الاستقرار حول موارد الماء والحد من سبل الصراع حوله.

ثاني أوجه النقاش في هذا الباب، يرمي الوقوف عند المشهد التقني لتدبير المياه بالبادية المغربية، وذلك باستحضار تصور ابن خلدون للصنائع ومدى ارتباطها بالعمران، من حيث الوفور والقلّة، فنبحث في شرط الحاجة الطبيعية والاجتماعية، ومقدار تأثيرهما، فيما عمد إليه المغاربة من تقنيات لاستغلال الماء ووسائل لتلافي أثر المناخ على مساكنهم، ثم نسجل ما يبدو من أثر لتفاعل العناصر القبلية في تطوير آليات التعامل مع عنصر الماء. ويتأسس هذا الجزء من البحث على فرضية تداخل الاجتماعي بالطبيعي (المناخي والتضاريسي)، في صياغة المشهد التقني للماء بالبادية المغربية.

ثالث محطات المعالجة في هذا الباب، تستهدف مستوى التدبير الاجتماعي للماء، وذلك من خلال مناقشة بعض مظاهر حلول الماء ضمن عناصر القراءة التاريخية للنظم الاجتماعية لأهل البادية، وتأثر أحوالهم في تدبير مشاكله بتداخل حملاتهم الثقافية، ومختلف المراحل التي مرت منها تجمعاتهم. ويفترض هذا القسم من البحث وجود انعكاس للتحويلات الاجتماعية التي أثبتتها الباب الأول على تدبير التجمعات البدوية بالمغرب للموارد المائية.

الفصل الأول
الماء والتعمير ببادية مغرب ما بين
القرنين 7 و 10 الهجريين

عُدَّ الاجتماع البشري أساسا للتاريخ، وهو أيضا أساس للاستقرار، وإذا سبق ووقفنا عند كيفية قيام جماعة أهل البادية بالمغرب، انطلاقا من قاعدة التساكن وتشكل النظام القبلي. فإن الواقع التاريخي لمغرب "نهاية العصر الوسيط"، جعل من ظاهرة التصوف أحد ركائز الاستقرار في ظل ظروف اجتماعية متدببة، عمل خلالها المتصوفة على دعم فرص التوطين، مشكلين أنوية تجمعات بشرية مستقرة. فما علاقة هذه التجمعات البشرية بموارد الماء؟ وكيف انعكست نشأتها على تدبيرها؟

من جهة أخرى، فإن الحياة بالبادية أشد ارتباطا بالمعاش الفلاحي وبحالة البداءة في كل شيء. وعليه، جاءت مختلف مظاهر العمارة بها انعكاسا للإمكانيات البيئية، وعاكسة لتجارب إنسانية متنوعة، وذات مستوى تقني يتلاءم وأنماط العيش بالبادية، وفي هذا الباب تسعفنا عدد من الإشارات التاريخية في رصد بعض معالم تعامل الإنسان البدوي مع مشكلة الماء في مختلف تجلياتها.

ولمعالجة هذه العناصر تم تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة عناصر:

- الماء - التصوف والاستقرار بالبادية
- الماء وهندسة السكن ببادية مغرب "نهاية العصر الوسيط"
- تقنيات استغلال الموارد المائية بالبادية المغربية

1. الماء - التصوف والاستقرار بالبادية

لا تقع الغاية في هذه الوقفة من البحث على الإعمار الصوفي في حد ذاته، فذلك قد يخرج به نحو تجاذبات ونقاشات، هو في غنى عنها، وعزاء الباحث في هذا الصدد، أن ما حقق من تراكم في هذا الصدد، يجعله من المواضيع المستهلكة بحثا وتنقيبا، حتى أضحت مشكلته تنظيم الركام المرجعي حوله أكثر من تجديد الخلاصات أو تحقيق الاختراقات في زوايا موضوعاته.

يتقدم هذا الجزء من البحث، نحو غاية التصدي لثلاثية؛ التصوف - الماء والبادية المغربية، وذلك من منطلق أثر السياق الاجتماعي والاسهام الصوفي في تعمير البادية المغربية، ومن تم فالطرح الذي يرغب تقديمه، لا يخرج عن تحليل بعض مظاهر إعمار البادية المغربية، وفق تصور اجتماعي يخضع فيها الحدث التاريخي لبنية التفسير الاجتماعي. ومنه،

تقديم التجربة الصوفية في التعمير خاصة الجزولية منها، باستحضار واقع النظام الاجتماعي بالبادية المغربية، وتزايد حاجته لتأمين مترتبات النزوع نحو الاستقرار.

يمكن الانطلاق لملاحظة العلاقة بين عنصر الماء - التصوف والاستقرار بوجه عام، من منطلقان أساسان؛ الأمن بما يعنيه المتصوف من مؤمن للمجال، والماء بما يتمثله من شرط للاستقرار وكرامة صوفية، ومن خلال ملاحظة الأبعاد العمرانية في تراجم أهل الصلاح في المصنفات التي اعتمدها في هذا البحث، أمكن الحديث عن وجود ثلاثة عناصر تطبع العلاقة بين الماء - التصوف وعمران البادية المغربية، وهي؛ طبيعة مجال الاستقرار، وشكل الكرامة المائية ثم نشاط المتصوف. وسيعمل هذا المحور من البحث على ترتيب التفاعل بين هذه العناصر في سياقين مركبين؛ تأمين شروط الاستقرار وسياق الإعمار البدوي.

1- المتصوفة وتأمين الاستقرار

تتأسس فكرة هذه النقطة من البحث على ما يعرف بـ "المقاربة البيئية للقداسة"، والتي تتوزعها الأبعاد الثلاثة؛ منح الحياة، وتأسيس الفضاء المقدس، ثم التحكم في المجال، وخلالها يتحول الولي الصالح إلى جالب للحياة، مؤسس للمحاضر، وواضع لقواعد الاجتماع¹، وعلى هذا الأساس، تأتي علاقة المتصوفة بالأرض قناة أساسية في تاريخ التصوف المغربي، وفي تحوله نحو واجب الجهاد، بل وتأسيس الدول، فإذا كانت العلاقة بين التصوف والمرابطة ظاهرة تاريخية ميزت تاريخ الغرب الإسلامي منذ المراحل الأولى للوجود الإسلامي بالمنطقة، فإن انتشار الطوائف والزوايا بالمجال المغربي كان ميزة طبعت تاريخه الوسيط.²

قبل الانطلاق في معالجة هذه النقطة لابس من استقراء بعض الأفكار من قراءة أجنبية، عن كيفية إسهام المسيحية في تطوير التجمعات القروية بأروبا، ما دفعنا إلى هذا التوجه هو

¹ - جمال بامي، "العمران الصوفي بين الأسطورة والتاريخ"، مجلة أمل، العدد 41، خريف 2013، ص 16.

² - فجملة الطوائف التي هي بالمغرب في الأرض تنبت الصالحين كما تنبت الكأ. ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقيير، م. س، ص 63. وقد أسهم الغزو الأيبيري للثغور والسواحل المغربية، في انتشار الزوايا، حتى أنه من فرط القلق والاضطراب النفسي الذي خلفه هذا الغزو وما تزامن معه من أحداث طبيعية، نمت واشتد ارتباط الإنسان المغربي بالأولياء، الذين "أصبح يرى فيهم ضماناً معنوية (الدعاء، الكرامات...)، ومادية (ضد الحكام وممثلهم وضد طغيان الطبيعة)، ولهذا لم تعرف الزوايا انتشاراً مثلما عرفته خلال هذه الحقبة المضطربة". أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور، (-قبل 28 غشت 1481 - أكتوبر 1541)، الشركة الجديدة دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1404هـ/1984م، ص 474.

وقوفنا على مقالة لـ "ميشيل كابلان" KAPLAN Michel حول: "القرية البيزنطية: ولادة جماعة مسيحية"، طبعاً لا يمكن النسخ على منوال العنوان والقول بالجماعة المسلمة بدل المسيحية في بادية المغرب، لكن يمكن القول بقرى الزوايا أو مجالاتها الاجتماعية...

لعب رجال الدين المسيحيين دور هاماً في تشييد الكنائس بالقرى، الشيء الذي اعتبر علامة على حضور الكنيسة في المجال وسلطتها عليه، الحضور الذي تمكنت بموجبه القرى المسيحية من الحد من سطوة جابي الضرائب¹، كما أنهم (رجال الدين) أسهموا في جلب السلام للمزارعين بالقرى الريفية²، وإليهم يلجأ القرويون أوقات الأزمات خاصة المائية³، كما واشتغال بعضهم في زراعة الأرض والقيام عليها⁴. وبالمحصلة يسجل "كابلان" أهمية دور رجال الدين المسيحيين في تعزيز تماسك القرية⁵. فهل تقبل نفس الصورة بالنسبة للمجال المغربي؟

لنقف بعض الشيء عند بعض الإشارات الدالة من بعض تراجم البادسي حول صلحاء بادية الريف، حيث أمكننا التمييز من خلالها بين خاصيتين لمواضع نزول واستقرار أهل الصلاح، فهي إما مناطق عامرة وتعين بالنسبة لقبيل أو حاضرة ما...، أو مواضع خلاء وتعين بالموضع المخيف أو الرباطات...

جدول رقم 20: توطين متصوفة بادية الريف من خلال المقصد الشريف للبادسي

المتصوف	موضع استقراره	عنصر الماء به	ص
ابو داود مزاحم	رباط أبي داود على بعد خمسة فراسخ من المزمة	البحر	56-50
مركاب ابن عيسى البلندي	عقبة تابلاخاشت	-	57-56
اسماعيل ابن سيد الناس البطوي	تازروت من بلاد بني عيسى	-	58-57
ابراهيم بن عيسى بن أبي داود	رابطة أبي داود	البحر	63-60
الحاج حسون	جبل بقوة منزله على ثلاثة فراسخ من بادس	-	64-63
الحاج سعيد	قبيل مسطاسة بقرب بادس	-	71
محمد الستثي	جبل بني عيسى	-	88-85
أبو طاهر ابن العلام	جبل بقوة	-	91-89

¹ - Michel KAPLAN, «Le Village Byzantin: Naissance D'une Communauté Chrétienne», Actes des Congrès de la Société des Historiens Médiévistes de L'enseignement Supérieur Public, 21^e congrès, Caen, 1990, pp16-19.

² - Ibid, p18.

³ - Ibid, p20.

⁴ - Ibid, p21.

⁵ - Ibid, pp 24-25.

93-91	البحر	بالقرب من رابطة ام اليمن	الشيخ عمران امصول
94-93	-	سكن بمنزل اسكوم من بلاد بقوية	الشيخ أبي محمد المساري
104-102	البحر	رابطة الجن	الشيخ يوسف القصير
107-106	البحر	رابطة البحر ببادس	لحسن ابن الخراز
121-120	-	منزله في خندق متوعر يعرف بتيقيت	الشيخ زكرياء بن يحيى
122-121	-	بوسكور يبعد عن المزمة ب أربعة فراسخ	الشيخ أحمد ابن سوسان
124-122	بلاد قليلة الماء	داره بأسفل جبل	الشيخ الحاج يحيى بن مخلوف
125-124	-	منزله باسكرم على الطريق بين اسكرم وبادس	الشيخ بكار
126-125	-	قبيلة بني يطفيت	الشيخ يحيى بن الحاج الجعوني
130-128	-	بني يغراسن	الشيخ عبدون بن يخلفتن بن علي البقوي
131-130	عين ماء	حوز تارغا	الشيخ أبو عبد الله البرانسي
142-140	وادي ملوية	سكن ببلاد كيدانة	الشيخ ابراهيم البطال

يشكل هذا الجرد صورة مصغرة لما يتردد من صور لاسهام المتصوفة بالبادية المغربية في توفير بعض شروط الاستقرار¹، والتي تتباين ما بين تأمين الخلاء ودعم الاستقرار القبلي² عبر التدخل لتدبير الخلافات وانجاز الوساطات، وهكذا تحولت بعض مراقد أهل الصلاح لمزارات الصوفية تقام حولها المواسم والأسواق³، كما تفرغ بعض أريابها ل "عمارة" الخلاء واستصلاح الأراضي، ليشكل بهذه الأعمال العمل الصوفي نشاطا إعماريا بالبادية المغربية.⁴

¹ - وهذا ما يتأكد من بعض الاشارات المبطنة في سير تراجم بعض ارياب الصلاح المغاربة خلال العصر الوسيط بوجه عام، ومن ذلك ما نعره له على مثال في تشوف التادلي، والذي يذكر أن أهل تماروت رغبوا في دفن أحد الصالحين (رجل مجهول) ببلادهم بقصد التبرك (التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 129)، ومن أوصاف هذه البلدة التي ذكر البكري أنها تقع على مرحلتين من نفيس ومرحلة من مدينة أنيفن (التي يعتقد أنها شيشاوة الحالية)، ووصفها على أنها مدينة لطيفة منها يرقى إلى جبل درن (البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص 852)، فيما يذهب أحمد التوفيق إلى الاعتقاد أنها قد تكون بين أمزميز وإيمي ن تانوت. أحمد التوفيق الهامش رقم 136 من كتاب، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 129. وعليه، بالنظر إلى حيوية موقع هذه البلدة يجوز الاعتقاد بإمكانية ارتباط رغبة أهلها في دفن جثمان الرجل الذي اعتقدوا في الصلاح بطلب الحماية إلى جانب طلب التبرك.

² - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص 863.

³ - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل 4، مطابع سلا، 1989، ص 203.

⁴ - حكيمة زيتوني، حركية المتصوفة الجزوليين خلال القرن 10هـ/16م وبداية القرن 11هـ/17م، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة ابن زهر - أكادير، السنة الجامعية، 2011-2013، ص 135-136. جمال بامي، "العمران الصوفي بين الأسطورة والتاريخ"، م. س، ص 16-17.

وهكذا يتحول المتصوف، إلى عنصر مؤسس للاستقرار، فيما ترتفع فيه الزوايا إلى مؤسسات اجتماعية ذات قدرة كبيرة على تأطير الأشكال المختلفة "من العلائق الاجتماعية التي تمس العائلة والقبيلة والقرية"¹، إننا أمام أدوار تاريخية عززت من أهمية أهل الصلاح المجالية أقطاباً لدعم الاستقرار.² وهي الأدوار التي يبدو أنها كانت محط تقدير من الفقهاء، وفي هذا الصدد نعثر على سؤال نازلة توجه به أبو العباس أحمد بن العجل الوزروالي³، إلى الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي⁴ عن "جماعة بموضع منقطعين إلى العبادة من الصلاة والصيام، وقراءة القرآن وتعليم أولاد المؤمنين، والسعي في قضاء حوائجهم والأرامل والأيتام المساكين، والإصلاح بين المسلمين مثابرين على ذلك، مداومين عليه".⁵

ترتفع حاجة السكان ظل الظروف الأمنية المضطربة، إلى مساندة رجالات التصوف⁶، "الذين يكتنون لهم نوعاً من الولاء التقليدي، وكانوا يحتلون مواقع متميزة داخل مجال تأثيرهم"⁷،

¹ - جمال بامي، "العمران الصوفي بين الأسطورة والتاريخ"، م. س، ص 17.

² - المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، م. س، ص ص 84-85.

Marcel Bodin, «La Zaouia de Tamegrout», in Archives Berbères, Tome III, 1918, pp 280-289

³ - ترجم له الشيخ زروق في الكناشة، وذكر أنه كان فقيها وقاضيا وفي نفس الوقت متصوفا، توفي بالوباء في رمضان من سنة 856هـ. أحمد زروق، **الكناشة**، م. س، ص ص 19-20.

⁴ - ترجم له زروق، وكتب عنه: "إمام في نصح الأمة، أمات كثيرا من البدع الكائنة بالمغرب... توفي سنة تسع وخمسين وثمانمائة". أحمد زروق، **الكناشة**، م. س، ص ص 18-19.

⁵ - الونشريسي، **المعيار**، م. س، ج 11، ص 46.

⁶ - محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، م. س، ص 214.

وقد تمتد هذه الحاجة إلى حماية أملاك أهل القبيلة، وتأمين القطيع من المفترسات. ذلك ما نجده في ترجمة الممتع لأبي عثمان سعيد بن السائح المالكي، من عرب بني مالك. المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، م. س، ص 82). بل ويصل الاعتقاد في تأمين قبر المتصوف للموضع، ومن ذلك ما نعثر عليه في مقصد البادسي حين ترجمته لاسماعيل ابن سيد الناس البطوي، الذي مثل قبره بروضة تازورت من بلاد بني عيسى عنصر أمان وحرز لبني عيس، الذين كان لهم بجوارها حصن ينحصر فيه "عند تغلب القبائل عليهم فتحيط بهم القبائل من جهة روضة الشيخ اسماعيل فإن خرج بنو عيسى عن حيز الروضة نال منهم أعداؤهم ما شاعوا من قتل وسبي فإذا قاموا في حوز الروضة ووصلهم أعداؤهم نال منهم بنو عيسى ما أرادوا من قتل وسبي، فإذا تكاثرت الوفود وراموا افتتاح الحصن والتغلب عليه كان حد مبالغهم الروضة، ثم ينهزمون عند وصولهم إليها وربما كبروا عند ذلك، وقالوا يا بركة سيدي أبي ابراهيم". البادسي، **المقصد الشريف**، م. س، ص 58.

⁷ - أحمد بومزكو، "ملاحم من شخصية الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي"، ضمن ندوة: **واحات بني والعمق التاريخي ومؤهلات التنمية**، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، ط1، 1999، ص 53.

فلم يكن بالغريب مع هذا الوضع أن تستقر أسرة "آل الأقاوي" المنحدرة من تامدولت¹، بقرية القصبة من واحة أقا "في مجال تتخره الحروب"، مستفيدة من اشتهارها بالعلم والصلاح الشيء الذي منحها، "السلطة المعنوية الكافية للقيام بأدوار معينة" توطدت بفعلها العلاقة بينها وبين سكان المنطقة.² شغلت الزوايا أماكن نائية بعيدة عن الحواضر³، لكنه في المقابل يلزم تأسيسها استقرار بشري وتثبيت للجماعة وتحول اجتماعي.⁴

فقد يستوطن بعض الصلحاء بمجال جغرافي مميز، ما يزيد من حظوتهم لدى السلطة، وفي هذا السياق يمكن فهم تلك المكانة التي أخذتها سلالة صنهاجة بني أمغار المقيمين ببلدة تيط غير بعيد من مدينة أزموور، والذين يبدو أنهم "عوملوا كأشراف [على العهد المريني] بحكم نزولهم بمجال ذي أهمية بالغة نظرا لما كان يعرفه من تجاذب مستمر بين الخصوم كلما حدث الفصل سياسيا بين الشمال والجنوب"⁵، فألى جانب المضمون المجالي لمركز الزوايا، يحوز شيوخ التصوف مجالات تعرف بحوزاتهم، وهي المجالات التي تلي حرم الزاوية في اتجاه الخلاء أو الفضاء المتوحش⁶، ويبدو أن الرابطة التي تجمع الولي بهذا المجال هي التي تضمن لزاويته الامتداد الاجتماعي للأتباع والمنظوين تحت حمايته وسلطانه، ونعثر في هذا الباب على قرائن متعددة في وصف إفريقيقا للوزان، تبرز قيمة المتصوفة في ضبط المجالات البدوية وتنظيم العلاقات القبلية، ونضع منها على سبيل المثال لا الحصر:

يعيش السكان بحاحا في حروب "لا تنقطع، لكنها حروب أهلية لا تصيب الأجانب، وإذا أراد أحد الأهالي أن ينتقل من مكان إلى آخر، فعليه أن يصحب معه بعض رجال الدين أو النساء من فريق خصومه..."

¹ - المختار السوسي، المعسول، م. س، ج18، ص ص 166 - 170.

² - أحمد بومزكو، "ملاح من شخصية الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي"، م. س، ص 56

³ - Meunie (J.D); **Le Maroc Saharien des Origines au XVIe siècle**, Librairie Klincksieck, Paris, 1982, p 417

⁴ -Morsy Magali, **Les Ahansala – Examen du Role Historique d'une Famille Maraboutique de l'Atlas Marocain au XVIIIe siècle**, Mouton, Paris, 1972, p45

⁵ - محمد القبلي، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، م. س، ص 359

⁶ - جمال بامي، "العمران الصوفي بين الاسطورة والتاريخ"، م. س، ص 18.

أما أهل جزولة، فلا تدوم هذنتهم لأكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع، إذ هم في حروب غالب الأحيان، غير أنهم - زمن مرور الوزان بمنطقتهم- دخلوا في هدنة بأمر من الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي، الزاهد المشهور عندهم بالصلاح، كما أنهم يركنون إلى هدنة¹ طيلة فترة انعقاد سوق يحضره أهل ناحية جزولة وحتى من أهل بلاد السودان²، ويعقد السوق في سهل يكتنفه جبالان، ويستمر لـ "شهرين يقدم فيهما الطعام لجميع الغرباء الذين يوجدون هناك، ولو بلغ عددهم عشرة آلاف".³

وببادية تامسنا بالسهول المحيطة بمدينة النخيلة، كان "يتترك أعراب تامسنا أدواتهم الفلاحية بالقرب من هذه الصومعة عندما ينتهون من حرثهم، ويقولون أن وليا دفن هناك، فلا يأخذ أحد أدوات غيره خوفا من نقمة هذا الولي".⁴ ومن غير المستبعد أن يكون وجود هذا الولي الصالح هو السبب في قيام سوق بها تشد إليه الرحال من جميع أهل تامسنا.⁵

ونفس الدور الذي تقدم معنا في نصوص الوزان حول الاسهام الاجتماعي لأرباب التصوف، تعززه إشارات أخرى تقدم بها البادسي في كتابه "المقصد الشريف"، ومن ذلك ما أشار إليه عن تقدم الشيخ الصالح محمد الشريف، للوساطة في الفتنة، التي قامت بين بني وانجن وبني عيسى من قبيل ورغة، وذلك بعدما غصب بنو عيسى امرأة من بني وانجن، فتوجه فيها أبو عبد الله الشريف فوعده بردها.⁶

وبموضع آخر ينقل لنا البادسي، صورة عن مدى تضرر القبائل بالريف من تغلب القبائل العربية على المنطقة، على عهد الرشيد الموحي سنة 635هـ، وذلك في معرض ترجمته للشيخ إبراهيم بن عيسى بن أبي داود، ذلك أنه يكتب البادسي: "أتاه [الحاج إبراهيم بن عيسى بن أبي داود] جماعة من العرب المتغلبين على الريف حين ضعف أمر الموحدين فيه وكان أولئك

¹ - ذكر البعلقي في مناقبه، أن محمد بن مبارك الأقاوي "عمل للقبائل ثلاثة أيام من العافية في الأسبوع أو في الشهر والله أعلم بأن لا يتعرض فيها أحد لأحد من الناس، وغيرهم من مخلوقات الله". محمد بن أحمد المرابط البعلقي السوسي، مناقب البعلقي، حققه وهيا للطلع محمد المختار السوسي، مطبعة الساحل - الرباط، ط1، 1408هـ/1987م، ص 26.

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 145-146.

³ - نفسه، ص 145.

⁴ - نفسه، ص 199.

⁵ - نفسه، ص ص 198-199.

⁶ - البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص 145.

العرب يجبرون الناس على مغرم يأخذونه فطلبوا جبل بني ورتد بالمغرم فأبوا عليهم وتمنعوا ببعض معاقلهم بساحل البحر، فقال العرب للحاج إبراهيم حاول الصلح بيننا وبينهم".¹

يمتد التأثير الروحي للمتصوف في نظام الحياة الاجتماعية بالبادية المغربية، ليشغل جل نواحي السلوك البشري، وأصبح أحد العوامل الفاعلة في تحريك عجلة تاريخ البادية، فلا يمكن تجاوزه حين البث في التاريخ الاجتماعي أو الاقتصادي وحتى السياسي مما يبرز ترابط خيوط تأثير وتفاعل المتصوف مع محيطه الاجتماعي، بما هو مساحة نشاطه جغرافيا واجتماعيا في زمن محدد.

شارك المتصوفة المجتمعات التي هم بها هم الماء، ودبروه معهم بنفس الأساليب التي اعتمدها الناس، وفي هذا السياق يفهم توجيه الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله، أحد رجال الصلاح بسجل ماسة لمولاه بالاعداد لإخراج ما يسقي به أرض الشيخ حين يأتي السيل في الوادي²، راميا بذلك إلى ما يعمد إليه أهل سجل ماسة من جر للماء من النهر لسقي استغلالياتهم.

ومع انتشار التيار الجزولي بالبادية المغربية، سوف يعرف العمران الصوفي توسعا بفضل ما كان لهذه الطائفة من جهود إعمارية كبيرة، وفي هذا الإطار يشهد التاريخ لعبد الله الغزواني (ت 943هـ/1537م) بمجهوداته في الدفع بالنشاط الزراعي بناحية مراكش، مع أن ذلك مثل في نظر الكثيرين "عملا سياسيا أكثر منه مجهودا تقنيا مجردا"³، كون تفسير دأبه على الحرث والسقي يتجاوز الدافع الصوفي، ليرتبط أيضا بتلك الأزمة التي عاشت على إيقاعها البادية المغربية، خلال هذه الفترة وما نتج عنها من نتائج سلبية على الوضع البشري. وهذا ما يمكن دعمه نسبيا بنتائج خرائط توطين عبد اللطيف الشاذلي للمقدس الصوفي بالمغرب من القرن الرابع إلى العاشر الهجريين، حيث يبدو التطور اللافت لصلحاء البادية من القرن السادس إلى الثامن الهجريين بمجالات تادلة ودكالة وحوز مراكش والسوس ودرعة، فيما سينتقل

¹ - البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص 61.

² - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 140.

³ - جمال بامي، "العمران الصوفي بين الأسطورة والتاريخ"، م. س، ص 22.

خلال القرون التالية التاسع والعاشر ليعم مناطق الريف الغربي والهبط وحاحا والسوس فيما تراجع بمناطق دكالة وتامسنا.¹

ولعلنا نعصد حديثنا عن العلاقة بين التصوف والاستقرار، بما نثر عليه بخصوص مركز "أنسا" بأعلى بلاد السّوس الأقصى، حيث قبر الشيخ الصّالح أبي حفص عمر بن هارون، حيث يبدو أن هذه البلدة لهذا السبب، تحولت إلى مستقر طائفة من الزهاد، كما شكلت مقصد الحجاج المنطلقين من المنطقة نحو حج بيت الله الحرام، وهذا ما نستشفه من شهادة للعبدري²، والذي ينعم علينا ببعض الوصف حول موضع البلدة وخصائصه الطبيعية والفلاحية، فكتب: "[أنسا] بلد منفسح منشرح، في بسيط مليح طيّب التربة، يغلّ كثيرا، وبه ماء جار كثير، ونخل وبساتين، وهو آخر بلاد السّوس من أعلاه، متّصل بالجبل مشرف على أرض السّوس. وكان فيما مضى مدينة كبيرة، فتوالت عليها الخطوب المجتاحة، ونزول الأقدار المتاحة، حتّى صارت رؤيتها قذى في المقلتين، وعادت بعبادة الزّمان أثرا بعد عين، فليس بها إلّا رسوم حائلة، وطلول ماثلة، خلت من كلّ قارئ ومقروء عليه، وقاصد ومقصود إليه، بيد أن بها صباغة من أهل الدّين، وفرقة بأخلاق أهل الخير تدين، على ما يتناولهم من أيدي المعتدين، ويتداولهم من الولاة المفسدين، كشف الله عنهم تلك البلوى، وحسم الدّاء الذي أذبل نضارتهم...".³

ونحن في معرض الحديث عن العلاقة بين السياسة والقداسة (الشرف/ والصلاح) في الاستقرار بالبادية المغربية خلال الفترة المدروسة⁴، تجدر بنا الإشارة إلى سياسة السلاطين المرينيين في تنويع منابع الشرف في مناطق المغرب تحقيقا لتوازن السلطة والحد من نزوع السيطرة والاستعلاء، وفي هذا الإطار يفهم الاتصال المنتظم لأبي عنان مع أشرف سجلماسة الحسنيين، وكذا تشجيع ظهورهم بالشمال بعيدا عن تافيلالت، ضمن الإطار العام لصراع

¹ - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، م. س، ص 72.

² - العبدري، رحلة العبدري، م. س، ص 40

³ - نفسه، ص ص 42-43

⁴ -Pascal Buresi, Mehdi Ghouirgate, Histoire du Maghreb Médiéval XI^e-XV^e siècle, Coursus Armand Colin, Paris, 2013, p 142.

"المراكز مع المعقل ووقوفه في وجه قبيلة أولاد حصين التي أخذت تتجذب في هذه الفترة نحو السهول الأطلنتية".¹

من جهة أخرى يمكن الوقوف على هذا التعاون، من خلال ملاحظة مدى التطابق بين توزيع الشرفاء مجاليا وخريطة المحاور التجارية، الشيء الذي يبرز تعاوننا فعليا "قام بين الحكم وبين كل من الأشراف المتأصلين بالمغرب وبني عمومتهم من الطارئين الذين عوملوا بإجلال سمح لهم، ولا شك، بتوظيف "كرامتهم" لتأمين الشبكات الطرقية الواصلة بين البوغاز والسهول الأطلنتية وبلاد درعة".² وبالموازاة مع تعاون السلطة المرينية مع الشرفاء، عمد نفس الحكام إلى دعم وتشجيع العمل الصوفي، والذي عومل أربابه باحترام وتقدير، فتمى حضورهم في مجتمع البادية المغربية، حتى أضحى وجودهم الاجتماعي يمتد على شكل بنية تنظيمية في شكل طوائف أو عائلات صوفية³، توزعت أرض الجنوب المغربي انطلاقا من أزمو⁴.

الجدول رقم 21: جملة الطوائف الصوفية بالمغرب حسب ابن قنفذ⁵

الطائفة	أفرادها
الشعبيون	أتباع أبي شعيب الصنهاجي
الأمغاريون	أتباع عبد الله أمغار
الماجريون	أتباع أبي محمد صالح الماجري
الهزميريون/ الاغماتيون	أتباع أبي زيد الهزميري
الحاحيون	أتباع أبي زكرياء يحيى بن عمر الحاحي

من الجدير بالذكر هنا إلى كون الطائفة، بمعناها الصوفي، لا تعدو أن تكون "مجموعة من الأفراد الذين لا تربط بينهم بالضرورة علاقة دموية، وتصطبغ بصبغة دينية"⁶، وإلى جانب دور الحركة الصوفية في الاستقطاب الاجتماعي وبناء النظام الاجتماعي⁷، مما ساعد على

¹ - محمد القبلي، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، م. س، ص 364

² - نفسه، ص 365

³ - ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقي^ر، م. س، ص 65.

⁴ - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، م. س، ص 149.

⁵ - محمد القبلي، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، م. س، ص 372.

⁶ - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، م. س، ص 149.

⁷ - جمال بامي، "العمران الصوفي بين الاسطورة والتاريخ"، م. س، ص 21.

التفاف سكان البوادي حولها¹، فإنها كذلك كانت طريقاً لتشكل نوع من الإنتاج القائم على تكوين ملكيات زراعية كبيرة، ومن ذلك ما حصل لأحد الشيوخ المشهورين عند العامة بالصلاح بتازا، والذي كان واسع الثراء من محصول أملاكه، ومن الهبات المقدمة له، إذ كانت تشد إليه الرحال للزيارة من تازا وفاس²، بل ومن غيرها³. وقد يحدث العكس فتتكث العامة بفضل المتصوف وتتقلب عليه بعدما تحقق لها على يده ما كانت تصبو إليه، فتسلبه حظه من المورد، ونعثر على مثل هذا النموذج في حادثة الشيخ محمد أوبراهيم التمنارتي⁴ الذي اضطر إلى الانتقال عن قبيلة أملن، بعدما عين لهم ماءً لينتفعوا به -كانوا قد سألوه إياه - مقابل أن يكون "له شرطه في سقيها ثم لما ترّ الماء وتدفقت الجداول خاسوا في العهود"⁵، ما دفع به إلى الانتقال عنهم إلى تمنارت.

وفي المقابل يحدث أن يرفض الولي الصالح من متاع الدنيا، فيخرج عن ماله وأملاكه إلى المرابطة، وفي هذا الصدد نقدم لحادثة أبي عبد الله الهزميري مع أبي الحسن المريني، إذ كان له أملاك مع بني أخيه بواد نفيس، اقترح عليه السلطان رفع "ما عليها من المطالب"⁶، والنظر له من خالص الأملاك الحلال ما ينتفع به، إلا أنه أبى عليه ذلك، وقال من ضمن رده: "ليس لنا لمخلوق ولا لما بيد مخلوق حاجة"⁷. وعلى نفس اليرة كان إسحاق بن مطهر من صلحاء الريف، والذي يذكر عنه البادسي أنه ما "لان جانبه قط لسلطان ولا تعلق جاهه منه

¹ - العروي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ج3، ص ص 39-44

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص355

³ - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، م. س، ص 203

⁴ - ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر - الرباط، ط2، 1397هـ/1977م، ص ص 111-112. محمد حجي، الحركة الفكرية، م. س، ج2، ص ص 617-618.

⁵ - خديجة الراجي، "الأرض من خلال المناقب السوسية للقرن 10هـ/16م"، ضمن ندوة: واحات بني والعرق التاريخي ومؤهلات التنمية، م. س، ص 46.

⁶ - على الرغم مما يظهر في النص من تقرب للسلطان المريني تجاه هذا المتصوف المنتمي لطائفة الهزميريين إلا أنه ينطوي على مؤشر العداء القديم بين هذه الطائفة والمرينيين على عهد صدرها الأول (محمد القبلي، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، م. س، ص 374)، وهو ما يستفاد من اقتراح السلطان المريني تقديم علاج لما يبدو أنه فرض على أملاك بيت الهزميري من واجبات بيت المال "مطالب"، والتي لا يستبعد أن تكون هي التي أجبرت هذا الشيخ، ولربما حتى بني أخيه، على ترك أملاكهم، لنقل الوجبات الجبائية عليهم.

⁷ - ابن قنفذ، المسند الصحيح، م. س، ص 158.

بإستيطان ولا عدم منه ضعيف موالاة إشفاق ولا شاهد منه قوي وجه نفاق"¹، وهذه الصور من تراجم المتصوفة بقدر ما أنها تعكس درجة زهدهم في الدنيا ومتاعها، بقدر ما يفهم تسجيلها بوجود عينة أخرى من منتحلي التصوف تعمل على عكس هذه الصورة، ومن تم تقديم هذا الفعل من بعض المتصوفة تزكية لهم.

ولم يكن الجنوب المغربي وحده منطقة نشاط الحركة الصوفية، إذ نثر بالريف أيضا على انتشار لرجال الولاية والصلاح²، حتى كان وجودهم أحد ضروريات قيام الحياة لما عرف بالقسمة أو تآلف الجماعات المتجاوزة لغايات سوسيو سياسية³، فكان حضور الولي الصالح أو قبره ضروريا لتحقيق الأمن، ومن تم تعزيز فرص الاستقرار.

هكذا نخلص في الأخير إلى أن تأمين المتصوفة للاستقرار بالمجال البدوي المغربي، اتخذ مسلكين أساسان؛ إعمار الخلاء بالانتقال نحو المجالات المخوفة وتأسيس الزوايا، ومساكنتهم (المتصوفة) للقبائل في مواطنها، وهنا يتحول المتصوف إلى أحد رموز القبيلة ومرجع أهلها في الازمات والوساطة، حال التنازع أو الخلاف بين أهلها أو بينهم وبين غيرهم من القبائل المجاورة لهم.

2- الماء والعمران الصوفي بالبادية المغربية

ترتبط سير المتصوفة في علاقتها بالماء، بمشاهد تنتقل من؛ أخبار إظهار الماء في مواضعه⁴، إلى تحقق الاستسقاء بالمتصوف، وترتفع إلى تحدي المشي على الماء، وكلها عناصر تأتي في سياق التدليل على الولاية والصلاح. ومن جهة أخرى، يبدو من استقراء جملة من تراجم أهل الصلاح بالبادية المغربية، أن عددا كبيرا منهم قد اشتغلوا بالفلاحة، وهذا ربما يرفع عنهم مأخذ التكاسل عن العمل والارتكان لما في أيدي الناس التي انتقد فيها الفقهاء المتصوفة، وقد تعزز توجه متصوفة البادية للعمل على استغلال الأرض، بما أحدثه التيار الجزولي من نهج صوفي يعلي من قيمة الاعمار وإحياء الأوطان.

¹ - البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص 110.

² - نفسه.

³ - إيميليو بلانكو إيزاكا، القانون العرفي الريفي، ترجمة محمد الوالي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الترجمة، رقم 3، مطبعة المعارف الجديدة، 2004، ص ص 49-62.

⁴ - البعلقي، مناقب البعلقي، م. س، ص 25.

شكل الماء أحد المنافذ الأساس، التي اعتمدها المتصوفة في إقناع أهل البادية بولايتهم الصوفية، ولهذا السبب فلم يكن من المستغرب أن يتكرر سعي العامة من الناس في طلب الاستسقاء من رجال الصلاح¹، ويبدو أن هذا الأمر تطور إلى مطالبتهم بتعيين مواضعه في بعض الحالات. لنتساءل هل كان لما عرف بالسياحة الصوفية² غايات أخرى من بينها التفتيح عن مواضع الماء، واستخدامه لاستمالة الناس عبر تقديم الأمر قدرةً خارقةً في إيجاد الماء بمواضع انعدامه؟ ألا يمكن تقديم قراءة منطقية للحدث المنقبي في إنباط الماء من العدم وفق تبرير علمي؟

قد لا نوفق إلى الإجابة على التساؤلات السابقة، لكن طرحها مع ذلك يبدو لنا مشروعاً، فمن خلال استقراء عدد من المرويات المنقبية حول تأسيس الزوايا، يبدو أن الكرامات المرتبطة بإظهار الماء في المجالات المقفرة تخلو من العنف الرمزي والمادي تجاه الآخر، إذ ترتبط بإعطاء أو منح الحياة لمجال متوحش مطبوع بالجفاف والتوحش³ عبر كرامة بقيمة هيدرولوجية⁴، فيما حالات التشييد المرتبطة بمواضع الماء تكاد تشكل مزيجاً من العنف والتغيير العنيف للبنيات الاجتماعية بالمجال⁵، أو تكون جزءاً من الحل عبر تحول الزاوية إلى أداة لحفظ السلم والأمن الاجتماعيين بما تضطلع به من وظيفة التحكيم⁶، وواسطة في فظ المنازعات، وبريد لدى السلطة أحياناً لرفع المظالم عن الأهالي...

ومن الملاحظ كذلك، أنه في الوقت الذي تتعزز فيه مكانة المتصوفة في القسم الجنوبي من البلاد على الخصوص، بمسائل وكرامات تحتضن المعطى المائي، فإنها في المقابل تركز على مادة الأمن ورفع الأذى بالسهول الأطلننتية⁷، وفي هذا دليل على تناسب الخلفيات الاجتماعية والدهنية مع المجال الطبيعي، في خلق الكرامة الصوفية المرتبطة بالماء والاستقرار.

¹ - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 104.

² - البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص ص 60-63.

³ - ابن عسکر، دوحة الناشر، م. س، ص ص 105-106.

⁴ - جمال بامي، "العمران الصوفي بين الاسطورة والتاريخ"، م. س، ص 18.

⁵ - خديجة الراجي، "الأرض من خلال المناقب السوسية"، م. س، ص ص 47-48.

⁶ - محمد القبلي، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، م. س، ص 375.

⁷ - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص ص 309/400/409.

تمتد علاقة المتصوفة بالماء إلى عمليات استصلاح الأراضي لعمارتها، حيث دأب عدد من المتصوفة، خاصة من أتباع الطريقة الجزولية، على القيام بها نهجاً صوفياً، قوامه العمارة وفلاحة الأرض¹، ومن النماذج البارزة في هذا الباب نجد عبد الله الغزواني، الذي اتسمت سيرته بعمله "في أسباب الحراثة واستخراج المياه"²، فكان يعمد إلى الربط بين التنقل في البلاد والعمل على عمارتها، وفي هذا الإطار يأتي انتقاله من الشاوية إلى بلاد "بني فزكار" ل"عمارتها" بعدما نزل وأصحابه على عين ماء بها³، بل وتميز أسلوبه بتوجيه مريديه نحو القيام "بالحراثة والغرس، والخدمة، وحفر السواقي"⁴، للغزواني أيضاً يعود الفضل في قيام عبد الله بن حسين ب"عمارة" متصلوحت التي كانت "خالية متعطشة لا ماء بها، ولا عمارة"⁵، وفي المقابل عمد شيوخ سوس إلى العناية "بالمجالات الوعرة القليلة الماء الكثيرة العمل إصراراً منهم على امتحان النفس ومجاهدتها للرقى بها"⁶.

شكلت نقط الماء إحدى مجالات الاستيطان المفضلة لتشييد الزوايا بالبادية المغربية⁷، وإذا كانت بعض الروايات المنقوبة تبرز كرامة الولي في إظهار الماء في المواضع التي يختارها للاستقرار، بعدما كانت قبله مواضع جذب، فإن بعضها الآخر نحى نحو الواقعية. فجعلت من عملية الاستطلاع والمشاهدات التي راكمها المتصوف أثناء سياحته الصوفية محددات في تعيين مواضع الاستقرار، وفي هذا الإطار يمكننا الخروج غير بعيد عن الفترة المعينة للبحث، للوقوف على تجربة تحتضن بعض معالم تأكيد القول السابق، والحديث هنا عن تجربة الشيخ أحمد أوموسي (ت 971هـ/1564م)⁸، والذي طالبه أهل قريته بمراوان بتعيين أنسب المواقع لهم

¹ - عبد اللطيف الشاذلي، **التصوف والمجتمع**، م. س، ص 153.

² - ابن عسكر، **دوحة الناشر**، م. س، ص 97.

³ - المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، م. س، ص 59.

⁴ - نفسه، ص 64.

⁵ - نفسه، ص 85، ابن عسكر، **دوحة الناشر**، م. س، ص ص 104-107.

⁶ - خديجة الراجي، "الأرض من خلال المناقب السوسية"، م. س، ص 49.

⁷ - فبخارج مدينة بادن حسب الوزن مثلاً؛ "بئر قريب من ضريح أحد الأولياء [أبو يعقوب البادسي المغربي (ت 734هـ/1333م)]، إلا أن شرب مائه ليلاً خطير لكثرة العلق به". الوزن، **وصف إفريقيا**، م. س، ج 1، ص 325. البادسي، **المقصد الشريف**، م. س، ص 60.

⁸ - اشتهر أبو العباس أحمد بن موسى الجزولي بكثرة سياحته وبكونه من أتباع عبد العزيز التباع. انظر؛ ترجمته في المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، م. س، ص ص 76-78.

لانتقال نحوه، قائلين: "إنك جلت الدنيا وسلكت الجيد والدنيء... لو دللتنا على بعض البلاد الجيدة التي فيها العيون الجارية، فننتقل إليها بأولادنا، ونبني فيها جامعا نعبد الله فيه ونستغلها مدة حياتنا ونترك أولادنا في السعة ورغد العيش"¹، ومما يعضد مثل هذا المذهب ما صرح به ابن خلدون من أن الفعل البشري ضروري في إحياء عيون الماء، وبدونه تغور مياهه، ذلك أنه حتى العيون والأنهار: "ينقطع جريها في القفر لما أن فور العيون إنما يكون بالأنباط والامترء الذي هو بالعمل الإنساني كالحال في ضروع الأنعام فما لم يكن إنباط ولا امترء نصبت وغارت بالجملة، كما يجف الضرع إذا ترك امترؤه"².

وعلى الرغم من أن الشيخ احماد اوموسى، لم يوافق أهل قبيلته إلى مرادهم في بواعث الهجرة من مجالهم لغرض البسط في الأرض، وانتقل بهم إلى بلاد "ولتيتة"³، التي أثرها الشيخ عن غيرها لما تمتاز به، من دين وبركة وتقوى وعلم وعمل⁴، فإن قضية اختيار مواضع النزول لا تنتهي بالنسبة للمتصوفة عند ركونهم إلى المجالات الخصبة للاستقرار، إذا لا بد من قبول أهل الموضع النازلين به قبلهم أو دفعهم إلى ذلك رغبة أو رهبة، وفي المثال الذي نحن بصدد توجب على احماد اوموسى مواجهة بعض العراقيين التي طرحها استيطانه وأهل قبيلته للمجال "الترروالتي"، والذي كان في حاجة إلى عمل واستصلاح لما هو فاسد وتقويم للعقائد، إذ كان لأيت حرييل، إحدى أهم الجماعات المستوطنة للمجال مع أيت مجاط ترك "لبعض أمور الشريعة واستعاضتهم عنها بأعراف"⁵.

¹ - خديجة الراجي، "الأرض من خلال المناقب السوسية"، م. س، ص 45

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 479.

³ - يدعو السوسيون المتأخرون بلاد جزولة أو الأطلس الصغير بـ "اداولتيت"، ويعربونه في الرسوم وغيرها بولتيتة أو هلتيتة، وتسكنه عدة قبائل تملك معه أجزاء صغيرة بالسهل الشمالي على بعد ثلاثين كيلو مترا من البحر، لعل أشهرها رسموكة وبعليلة وسملالة، محمد حجي، الحركة الفكرية، م. س، ج2، ص 580.

⁴ - خديجة الراجي، الأرض من خلال المناقب السوسية، م. س، ص 45. كما سجل محمد حجي انتشار عدد من مراكز التدريس والعلم بهذا المجال (الأطلس الصغير) من مثل؛ ترموت، أيت الطالب، أفلاوكنس، ويجان، تلكات، أزريف، عين الطلبة، اكرسيف... محمد حجي، الحركة الفكرية، م. س، ج2، ص ص 581-622.

⁵ - خديجة الراجي، الأرض من خلال المناقب السوسية، م. س، ص 46

كما كان على الشيخ احماد أوموسى منازعة أيت حربيل حول الأرض المخصصة لبناء زاويته¹، الشيء الذي يبرر انضمامه لأيت مجاط عدوهم التاريخي، ليتوج هذا التحالف بإزاحة أيت حربيل وتطهير أرض تزرواليت منهم²، ليأتي توطيد الزاوية على حساب عناصر أخرى، وهو ما سينعكس، ولا شك، على استغلال المجال وتملك الحقوق المائية به. لكن لما التعرض لأيت حربيل؟ أينحصر السبب فيما جاءت به الرواية المنقوبة فقط، ونعني مسألة ترك بعض الشرائع؟

على الرغم مما قد يبديه التسويغ الوارد في المنقبة من انسجام وغايات الصوفية في نشر التربية الدينية، وتعاليم الشرع بأساليب تفهمها العامة، وتنتقل من الممارسة الميدانية، فإن المعطيات التاريخية تمنحنا إشارات أخرى، يمكن البناء عليها لفهم حيثيات قرار انحياز احماد أوموسى إلى ايت مجاط، فقد تحدث المختار السوسي عن هجرة بعض القبائل الصحراوية إلى منطقة السوس في أعقاب النزيف الديمغرافي الذي أحدثه الوباء الجارف لسنة 749هـ/1348م بالسوس، وفي ذلك كتب: "سمعت بعض المطلعين يقولون أن حربيل دخلت سوس من الصحراء، وهم من بقية لمتونة وكدالة، وأن ذلك كان بعد الطاعون الأسود سنة 749هـ فخلا كثير من جوانب سوس فقصدتها هذه القبائل"³، يجعلنا نص المختار السوسي أمام صورة أخرى للحدث، يتحول فيه تصرف الشيخ احماد اوموسى إلى تعبير اجتماعي عن تدمير ورفض لمشاركة المجال مع عناصر تعتبر دخيلة عليه، ومن ثم فأحقية الاستفادة منه ترجع لما تبقى من أهله قبل الحادث بفعل الوباء.

فلطالما اعتبر أهل سوس الحربيليين دخلاء على المنطقة، الشيء الذي جعل كل محاولات الحربيليين للاستقرار بها تواجه بمشاكل أبرزها تكتل الجزوليين ضدهم، والذي يبدو أن في سياقه تأتي الوقائع التي تحملها رواية تأسيس زاوية سيدي احماد أوموسى السابقة، والتي تظهر في هذا الإطار جزءاً من صراع امتد على الأقل إلى مطلع القرن 11هـ/17م⁴، فيما

¹ - رجع أحمد بن موسى من سياحته حوالي عام 910هـ/1504م، وتثقل في أماكن متعددة بسلامة قبل أن يستقر نهائياً في تزرواليت، وأسس زاويته على واديهما الخصيب مستهل القرن العاشر الهجري. محمد حجي، *الحركة الفكرية*، م. س، ج2، ص 601.

² - خديجة الراجي، "الأرض من خلال المناقب السوسية"، م. س، ص ص 45-46

³ - المختار السوسي، *إليغ قديما وحديثا*، المطبعة الملكية- الرباط، 1386هـ/1966م، ص ص 239-240.

⁴ - شفيق الرفاك، مادة "أيت حربيل"، *معلمة المغرب*، م. س، ج10، ص ص 3356-3357

عرف بصراع حلقي "تاحكات" و"تاكوزولت"¹، حين انعكس تحالف الجزوليين مع إمارة إليغ (وريثة امجاد سيدي احمد اموسى) على ميزان القوى على عكس صالح الحرييليين.

الدلالة الثانية لقصاصة المختار السوسي دائما في علاقة مع حادث تأسيس زاوية إليغ، هي الربط بين حدث الطاعون الأسود وخلاء البلاد ومقدم القبائل الصحراوية²، وإذا ما أضفنا إليها تحول احمد اموسى إلى أرض "ولتيتة"، حيث استقر به مع أهل بومروان، فإننا نقف على ما سجله محمد الأمين البزاز كفرضيات حول هذا الطاعون من أن له دورا في "تأجج الإيقاع الصوفي في الفكر والمشاعر السائدة آنذاك"، يعني ما بعد حدث الطاعون.³

وإذا ما تبين أن مثل هذا التبرير غير مستبعد الواقعية التاريخية، فإننا نكون بالنظر لما يعرف على الأزمات الطبيعية من أنها لا تزور سوى بعض المناطق، حيث يجلي بعضها تماما فيما لا يلحق إلا أضرار طفيفة على بعضها الآخر، ناهيك عن التفاوت على مستوى حجم الخسائر بين القرى المصابة⁴، ولاعتبار كون المناطق الأكثر تضررا من الطاعون "هي التي تخترقها المسالك التجارية، وتمر منها الوحدات العسكرية، وتنتصب فيها المدن الكبرى ذات الكثافات المرتفعة"⁵، فإننا قد نجد من المشروعية التساؤل عن حدود تأثير مثل هذه الحوادث في صياغة الخريطة الصوفية بالمغرب؟ كما قد تسمح لنا الإجابة على مثل هذا التساؤل في الربط بين مسألة الماء وظاهرة التوطين الصوفي -إن صح التعبير-، ذلك أن الحاجة للصوفية في ظل حالة التضعف النفسي التي يكون عليها الناس ما بعد الأزمة، تسمح للصوفية بالتوغل في نفوس العامة واستغلال حاجتهم إلى الطمأنينة الروحية، لتثبّت وجودهم بمجالات في طور التشكل ما بعد الأزمة، أو في طور الاستفاقة من هول الصدمة في حال النجاة من الكارثة. فهل يكون الطاعون الأسود مدخلا للتمدد الصوفي⁶، يوازي أثره الاجتماعي ذاك الذي كان لحدث هزيمة العقاب 609هـ/1212م على النسيج القبلي بالبوادي المغربية؟ وهل يأتي مثل هذا

¹ - صدقي علي ازيكو، مادة "تاحكات"، معلمة المغرب، م. س، ج6، ص 1995.

² - دانييل ريفيه، تاريخ المغرب من مولاي إدريس إلى محمد السادس، م. س، ص 144.

³ - محمد الامين البزاز، "الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ع 16، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ص 118.

⁴ - BRIGNON et Autres, **Histoire du Maroc**, Paris, 1967, p153.

⁵ - محمد الامين البزاز، "الطاعون الاسود بالمغرب في القرن 14م"، م. س، ص 115.

⁶ - محمد حجي، الحركة الفكرية، م. س، ج1، ص 41.

الحدث الطبيعي باعثاً جديداً لإعادة تشكّل الخريطة البشرية المغربية، أفقياً على مستوى الهجرات القبلية، وعمودياً على مستوى البنيات الاجتماعية؟

لا يستبعد أي تحليل للوقائع التاريخية بمغرب ما بعد الطاعون الأسود في ظل الفقر الوثائقي، الذي يعاني منه الباحث في تاريخ هذا الحدث وأثره على المغرب والمغاربة، ومن جملة القراءات الممكنة في هذا الصدد، الربط السببي بين اندماج المكون الصوفي ضمن منظومة الجسم القبلي المغربي¹، فإذا كان من أثر حادث الطاعون الأسود ما رصده ابن خلدون من إيذان بنهاية العالم وتحول الملك...² كما أثر على مشروع وحدة البلاد المغربية، وأسهم في إنكفاء الثورات بعدة جهات من البلاد³، فإنه كذلك أسهم في درجة الإعياء الكبيرة التي بلغها المغرب، والتي أقعدته "عن القيام بأي عمل عسكري على جبهة الأندلس"⁴، وفي المقابل فإن جزء من الحالة التي عرفها النشاط الزراعي، المحرك الأساس للاقتصاد البدوي كان راجعاً كذلك لهذا الوباء، فحق بذلك إضافته إلى عوامل أزمة البادية المغربية⁵، فلم يكن من المستبعد أن ينتصب كذلك عنصراً في تركيبة التحولات الاجتماعية بها، خاصة ما تعلق منها بالتداخل الصوفي القبلي.

وختاماً، وجب القول أنه إلى جانب الصور المنقبيّة لتدخل المتصوفة لإحياء الخلوات، عمد بعضهم إلى التشجيع على العمل في جلب الماء⁶ من حفر السواقي⁷ والآبار، ولعل أبرز مثال في هذا الصدد هو الشيخ عبد الله الغزواني، والذي شاعت عنه وأصحابه عاداتهم في "أن

¹ - نقرأ لدى دانييل ريفيه: "هذه اللحظة المسكوت عنها في التاريخ المغربي عرفت أيضاً هجومات متكررة للمسيحيين على المغرب وخاصة البرتغاليين الذين استولوا على سبتة... فأحس المغاربة وكأن زلزالاً عظيماً ضرب البلاد وانخرطوا في الجهاد لطرد المحتلين المسيحيين بداية من النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وانتشر نوع من الشعور الوطني الجديد الذي كانت تقوم بتأطيره الزوايا الصوفية، وبدأ المغاربة يعون أنهم يتقاسمون الوطن نفسه ويجب عليهم المحافظة على تماسكه واستقلاله". دانييل ريفيه، تاريخ المغرب من مولاي إدريس إلى محمد السادس، م. س، ص 144.

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 1، ص ص 42-43.

³ - الناصري، الاستقصا، م. س، ج 3، ص 164.

⁴ - محمد الامين البزاز، "الطاعون الاسود بالمغرب في القرن 14م"، م. س، ص 120.

⁵ - BIRABEN (J. N) , «La Peste Noire en Terre de L'islam», in L'histoire, Revue Mensuelle, Paris, N°11, avril 1979, p 39.

⁶ - خديجة الراجي، "الأرض من خلال المناقب السوسية"، م. س، ص 48.

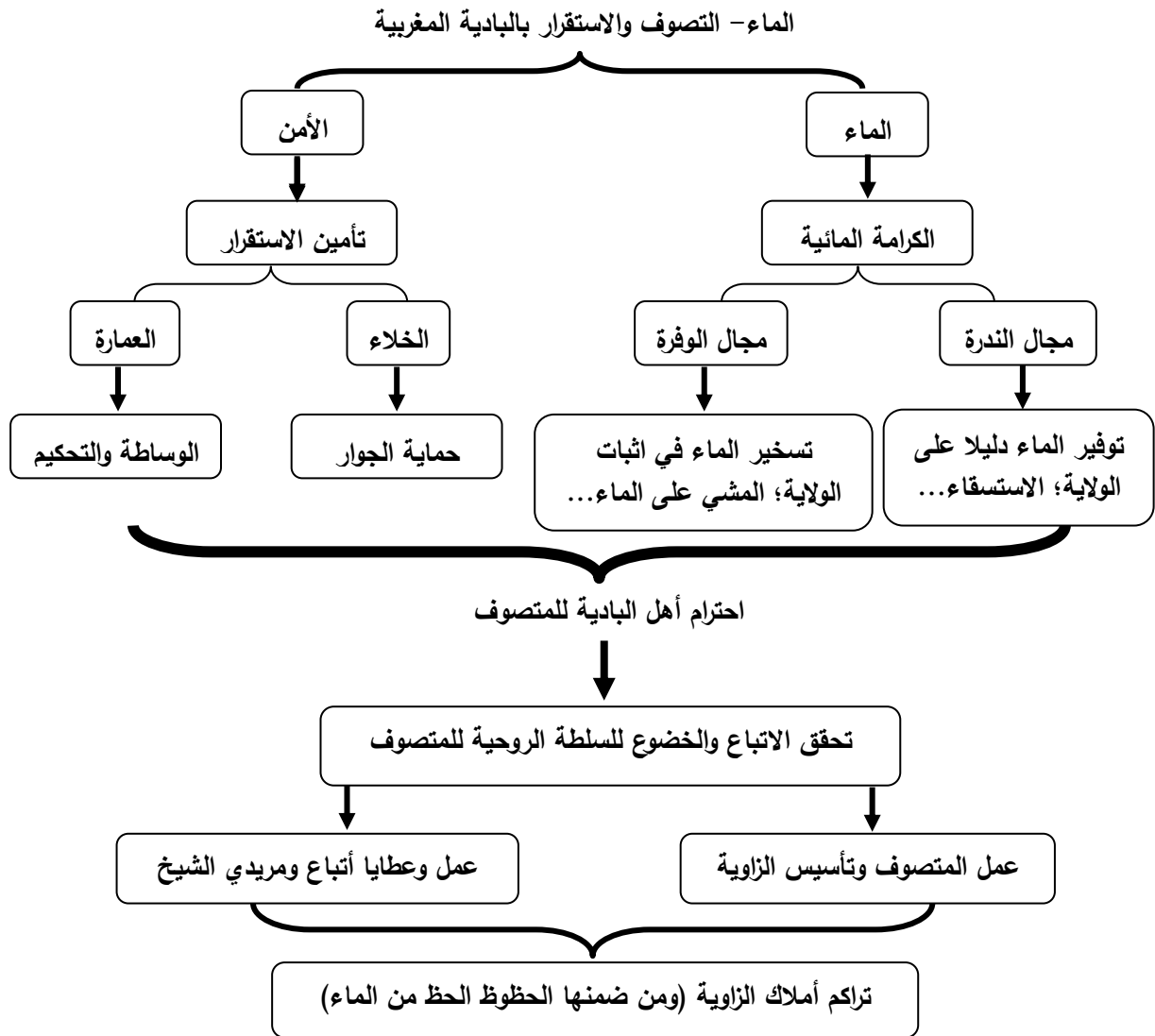
⁷ - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 140.

من حفر ساقية، يصنع طعاما، ويدعو الناس لأكله"¹، ولا يستبعد أن تكون ذاتها العادة التي ما تزال ترافق أعمال التوزيع بالبادية المغربية إلى اليوم في عمليات صيانة السواقي والمنشآت المائية.

وننتهي في هذا المحور إلى وضع خطاطة مبسطة (الشكل رقم 10)، تامل القول في العلاقة بين عنصر الماء والعمران الصوفي بالبادية المغربية، قوامه الانطلاق من عنصري الماء والأمن، كأساسين لضمان الاستقرار بالبادية المغربية، تنشأ عنهما مظاهر الكرامة المائية وكرامة تأمين المجال، واللذين تتباينان مجاليا ما بين مجالات الوفرة ومجالات الندرة المائية، وبين مجال الخلاء والعمارة. وعبر شرطي الماء والأمن، يتقدم الصوفي ليحصل على احترام أهل البادية، فيتحقق من ذلك اتباع يعزز من مكانته الاجتماعية، تسمح له بعد تأسيس زاويته من مراكمة الأملاك بما فيها حظوظ الماء.

¹ - المهدي الفاسي، ممتع الأسماع، م. س، ص 64.

الشكل رقم 10: خطاطة لتفاعل عنصر الماء ضمن نسق العمران الصوفي



II. الماء وهندسة السكن بالبادية المغربية

تمثل المساكن مداخل مادية لفهم الحياة الاجتماعية وأنماط الإنتاج بالبادية المغربية في مختلف العصور والفترات التاريخية، فهي تتجاوز المظاهر العمرانية للتعبير عن ثقافة واقتصاد مجتمعات بدوية¹، ومن خلال جملة الإشارات المصدرة التي احتفظت لنا بها النصوص المصدرة، فإننا أمام تنوع في الأشكال والمواد وحتى التصاميم، فيما يخص المباني السكنية ومختلف مأوي أهل البادية.

سيحاول هذا الجزء من البحث، التعرض لقضايا العمران البدوي بما هو عمارة أهل البادية، ليكون بذلك قسما مكمل لما سبق تناوله بالفصل الثالث من الباب الأول، وأعني الفلاحة وما ارتبط بها من أنشطة بدوية (فلح ورعي)، ونظرا لصعوبة الإحاطة بمختلف مظاهر العمارة بالبادية المغربية، فإن البحث خلال هذه النقطة سيعتمد إلى استغلال جملة الإشارات المصدرة الخاصة بمساكن أهل البوادي، لرصد معالم تعاملهم مع محيطهم الطبيعي وتكيفهم مع شروطه، وفي سبيل ذلك تم تقسيم هذا المحور إلى نقطتين أساسيتين وهما؛ العمارة بما هي مساكن ومأوي للبادية من المغاربة. والمساكن، بما هي استجابات لخصائص البيئة وضمناها عنصر الماء.

1- فسيفاء السكن بالبادية المغربية نهاية العصر الوسيط

يبدو أن نمط عيش أهل بادية المغرب، أسهم في التباين في السكن من مجال إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى²، وفي هذا الصدد يذهب ابن خلدون إلى أن العرب ومن على شاكلتهم من الرحل، غاية الأحوال العادية عندهم الرحلة والتغلب، مما يتنافى مع السكون الذي به العمران، "فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر فينقلونه من المباني ويخربونها

¹ - محمد استيتو، "مأوى المساكن والفقراء والغرباء في المغرب خلال العصر الحديث (نماذج من القرنين 16 و 17م)"، ضمن مؤلف؛ دراسات تاريخية في العمارة والسكن، تنسيق: محمد استيتو وعبد المجيد بهيني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة، ط1، 2008، ص 109. لحسن الفارسي، "تحولات السكن وتنظيم المجال الجبلي بوادي أوريك"، مجلة دراسات مجالية، ع 5، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، المطبعة والوراقة الوطنية الداوديات - مراكش، دجنبر 2010، ص 84.

² - روبرت مونطاني، الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر، م. س، ص ص 23-24. محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 191.

عليه ويعدونه لذلك والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران¹، وعموما، فأهل البادية من المنتحلين للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام يقتصرون على الضروري من كل شيء بما في ذلك السكن، فيتخذون "البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير المنجدة إنما هو قصد الاستئلال والكن² لا ما وراءه وقد يأوون إلى الغيران والكهوف".³

تتعدد إذن أشكال المباني بالبادية المغربية، ونفس الأمر يصدق على مسمياتها⁴، والذي يتبدى واضحا في اصطلاحات المصادر، وكذا تتنوع في الوظائف والخصائص؛ فمن مساكن قارة للمزارعين وأهل الفلح، إلى سكن ظرفي وانتقالي بين الدير والوادي أو بين المصافي والمشاتي بالنسبة للرعاة أهل الإبل والماشية.⁵

الجدول رقم 22: أصناف السكن بالبادية المغربية

المساكن	صفاتها	المصدر / الدراسة
الكهف	ملاجئ طبيعية	ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص 511/104. محمد استينو، مأوى المساكن والفقراء والغرباء، ص ص 111-112.
الخيمة ⁶	تصنع من الصوف أو الوبر على شكل مستدير أو بيضي، تقسم داخليا على؛ بيوت السكن ومخازن العولة،	ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج7، ص 207/149/3 التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 103. زروق، الكناشة، ص 33.

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 187

² - "الكن: ما يرد الحر والبرد من الأبنية والمساكن". ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج 13، ص 360.

³ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 151.

⁴ - يحدد صاحب اللسان في مسميات الأبنية العربية في الصحراء فيقول: "البناء واحد الأبنية، وهي البيوت التي تسكنها العرب في الصحراء، فمنها الطراف والخباء والبناء والقبة المضرب". ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج14، ص 95.

⁵ - محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 191.

⁶ - في بعض مفردات البيت والخيم العربية، نجد في كتاب الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي؛ "أخبرني المنذري عن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: الخيمة لا تكون إلا من أربعة أعواد ثم تسقف بالثمام ولا تكون الخيمة من ثياب... وقال غيره المظلة تكون من ثياب قال: والخباء بيت صغير من صوف أو شعر، فإذا كان أكبر من الخباء فهو بيت ثم مظلة وإذا كان بيتا ضخما من شعر فهو دوح فإذا كان من آدم فهو طراف قال ابن السكيت: الخيام أعواد تنصب تجعل أبرد من الأخبية. قال أبو منصور: الخيام تكون للعبيد والإماء، وربما سويت للروايا تظل بها والنواطير يسوونها ويتظللون بها، وبراعون الثمار من أخصاصها". الأزهرى الهروي، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، تحقيق مسعد عبد الحميد السعدني، دار الطلائع، ص 275.

	والمطبخ وباحة استقبال الضيوف.	عبد الوهاب بنمصور، قبائل المغرب، ص 282 محمد استيتو، مأوى المساكين والفقراء والغرباء، ص 110-111. صالح شكاك، مادة "الخيمة"، معلمة المغرب، ج12، ص ص 3880-3878.
النواله	بيت من قصب	عبد الوهاب بنمصور، قبائل المغرب، ص 283 محمد استيتو، مأوى المساكين والفقراء والغرباء، ص 116.
العش	بيت يبنى من حطام العيدان والنبات، بشكل يشبه بعش الطائر.	عبد الوهاب بنمصور، قبائل المغرب، ص 283
الخص	بيت من شجر أو قصب.	ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 274. عبد الوهاب بنمصور، قبائل المغرب، ص 283
الكوخ	بيت مسنم، البيت من قصب بلا كوة.	محمد استيتو، "مأوى المساكين والفقراء والغرباء"، ص112. لسان العرب، ج3، ص49. إمانويل شلومبيرجر، الرحلة إلى المغرب، ست عشرة رسالة إلى أمي مؤرخة من 13 مارس إلى ابريل 1882م، ترجمة بوشعيب الساوري، افريقيا الشرق، ط 2014. ص63
الدور	مباني من طين وحجر، أو بترتيب الاحجار، أو بتجميع نوايل.	ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص 513. زروق، الكناشة، ص 33. محمد استيتو، مأوى المساكين والفقراء والغرباء، ص 113-117.
افراك	خيام السلطان المتخذة لسكناء في البادية والتي تسيج بكتان يعرف بالمغرب بلسان البربر ب "أفراك".	البيان المغرب، ج3، ص592. تاريخ ابن خلدون، ج1، ص 331. الاستقصا، ج5، ص 104

يبدو أن الاختلاف في طبيعة المسكن انتقل إلى شكل الاستيطان بالبادية، فكانت القرية تجمعاً للمساكن¹، فيما عرف الحي بتجمع الخيام أو سكن أهل الصحراء، كما أفرز التزاوج بين النمطين في بعض المناطق حين جاورت الخيمة البيت.² فكيف صورت النصوص المصدرة تنوع مساكن البادية المغربية؟ وفيما تتأثر بعنصر الماء؟

¹-Mickael PEYRON, «Habitat Rural et vie Montagnarde dans le Haut Atlas de Midelt», Revue de Géographie Alpine, tome 64, N°3, 1976, pp329.

²-Ibid, p330.

لاشك أن تواتر الإشارات حول السكن بالبادية المغربية خلال الفترة قيد الدراسة، تميز بنوع من العمومية في التحديد وتعميم للصور، لكن الوقوف عند جملة من هذه الإشارات يسمح لنا بالقول: بوجود بعض الضوابط التي تتحكم في المشهد العمراني بوجه عام، ومن نافلتها؛ طبيعة المجال وشكل الاستقرار والانتعاش، فيما يتأتى الماء في علاقته بالسكن بالبادية بشكل كبير هاجساً تتطلب معالجته، احترام بعض الضوابط الهندسية البسيطة من ميلان أو ترتيب المكونات، وغيرها من الحلول البدائية التي سنقف عندها في القسم الثاني من هذا المحور إن شاء الله. لكن قبل ذلك لنترك بداية المجال للنصوص لتتحدث عن نفسها وفق تراكب موضوعاتي:

- سكن الأكواخ معطى سوسيو اقتصادي:

يسكن رعا ع جبل بني يستيقن في أكواخ من قصب¹، بينما ليس لسكان جبل سليلكو (سليلو) "أي بيت من حجر، وإنما كل أكواخه من قصب يستطيعون نقلها من مكان إلى آخر، إذ يضطرون إلى مغادرة الجبل في الشتاء ليعيشوا في السهل"²، ونفس الشيء يصدق على أهل جبل أركان، الذين يسكنون "في الشتاء أكواخا في السهل"³، ليتكرر المشهد مع أهل جبل بني مراسن الذي يعيش أهله "في أكواخ من قصب، لأنهم يرحلون باستمرار لرعي خيولهم وبغالهم"⁴، وعلى خلاف هذا النوع من الأكواخ المتنقلة، نعثر بقصر إيسلي "على أكواخ سيئة ذات جدران من الطين وسقوف من القش، ويمر بقره جدول ماء يسقي المزروعات، إذ لا ينبت أي شيء في هذه البلاد دون سقي لشدة الجفاف"⁵، بينما تنتصب بيليش بإقليم الريف أكواخ وسمت بأنها أكواخ الصيادين⁶.

- الأخصاص مساكن للنقل:

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 359.

² - نفسه، ص 360.

³ - نفسه، ص 362.

⁴ - نفسه، ص 368.

⁵ - نفسه، ج2، ص 12.

⁶ - نفسه، ج1، ص 327.

يبدو أن مساكن الأخصاص، وهي البيوت من شجر أو قصب. كانت تستعمل مساكنَ منتقلة، بقصد الإقامة المؤقتة في بعض الأماكن، وذلك دأب بعض القبائل كمكناسة وهم أهل أخصاص¹، فيما موضع جراوة "كثيرا ما ينزله البربر بالأخصاص"².

- بدائية منازل خمر الشعراء:

يستوطن حاحا إلى الغرب من دكالة "في بسيط ينعطف ما بين ساحل البحر وجبل درن في بسيط هناك يقضي إلى السوس، يعمره من حاحة هؤلاء خلق أكثرهم في خمر³ الشعراء⁴ من الشجر المعروف بأرجان، يتحصنون بملتها وأدواحها⁵ ويعتصرون الزيت لأدامهم من ثمارها.⁶ أي أكثر أهل حاحة يختفون في الكثير أو شجر الأركان، حيث يتحصنون بملتها، أي ملتقى أشجار الأركان وأدواحها المقصود اتساعها، أي اتساع وامتداد ظل أغصانها، فهم إذن، يستظلونها ويحتمون بها من الحر والبرد ولربما حتى المطر، وفي هذا إشارة إلى بؤس الحياة البدوية حتما.

وفي الوقت الذي يبدو فيه الأثر الحضري لهذا النوع من المساكن غاية في البداوة، فإننا نتساءل عن مدى إمكانية ارتباطه بعادة المغاربة في الهروب نحو الجبال للاحتماء بها من الخطر منذ العهود الغابرة؟ أي عهود "الفتن التي سبقت عهد السلام الروماني، [حيث] كانت الجبال على ما يحتمل تستخدم ملاجئ للسكان الذين كانوا يسحون أنهم فيها أحسن دفاعا ضد الهجمات المباغتة، وضد النهب في الأراضي المنبسطة، وقد ساعد ذلك على النقصان من

¹ - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص752

² - نفسه، ص841

³ - جاء في لسان العرب: "الخمر، بالتحريك: ما وارك من الشجر والجبال ونحوها. [أو] كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره؛ ومنه حديث أبي قتادة: فابغنا مكانا خمرًا، أي ساترا بتكاف شجره؛ ومنه حديث الدجال: حتى تنتهوا إلى جبل الخمر؛ قال ابن الأثير: هكذا يروى بالفتح، يعني الشجر الملتف...". (ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج4، ص ص 256-257). وفي المحيط في اللغة "الخمرة: شيء منسوج من السعف". (الصاحب الكافي، المحيط في اللغة، م. س، ج4، ص341).

⁴ - في القاموس المحيط الشعراء من "الأرض: ذات الشجر، أو كثيرته". الفيروز آبادي، القاموس المحيط، م. س، ج1، ص416.

⁵ - الدوحة "الشجرة العظيمة المتسعة، والجمع دوح، وأدواح جمع الجمع". علي بن إسماعيل بن سيده المرسى، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هندائي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1421 هـ / 2000 م، ج3، ص 492.

⁶ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص 356

الغابات"¹، فهل استمرار هذا الشكل من المساكن تعبير عن استمرارية حضارية، أم أن الأمر لا يتجاوز البؤس الاجتماعي، ومن ثم فهو تعبير عن مستوى اقتصادي وحالة اجتماعية؟ بل ولم لا يكون عادة اجتماعية تعبر عن زهد في الحياة، وهذا ما نعثر له على نموذج في إحدى تراجم التادلي لأحد صلحاء تادلا، أبي الحسن علي الصنهاجي، الذي "كانت له خيمة من شجر يأوي فيها".²

- تمازج محلات أسواق البادية:

يبدو أن أسواق البادية التي يقام عدد منها بشكل أسبوعي أو لمواسم معينة، كانت تحتضن مشاهد أخرى لمنازل البادية المعدة هذه المرة بقصد التجارة، وفي هذا الصدد تم العثور على إشارة تهم ناحية جزولة، حيث يقام سوق يجمع مشهده -حسب الوزان- بين الخيام والأكواخ، إذ "يضع التجار بضائعهم في خيام أو أكواخ صغيرة من أغصان الأشجار... وبجانب كل خيمة كوخ من أغصان الشجر، وفي هذه الأكواخ يقيم الأعيان ويقدم الطعام للغرباء"³، ومن الواضح أن هذا الشكل من المنازل/المحلات تعين التجار على حماية سلعهم من السرقات، وفي نفس الوقت تمنحهم سكنا مؤقتا في انتظار انفضاض الأسواق/المواسم، والتحول إلى مناطق أخرى في مسلسل من الحركة التجارية المحلية.

- المباني علامة استقرار وزراعة:

يسكن بدكالة قوم من المصامدة لهم حرث وزرع ومواش كثيرة، فيما أرضهم "كلها منازل وقرى ومناهل"⁴ ومياها قليلة"⁵، بينما يعيش الناس بجبال زيز "في دور مبنية بأعمدة طويلة، مطلية بالصلصال ومغطاة بسقف من قش، والذين يملكون منهم دواب أكثر من غيرهم يسكنون

¹ - اسطفان كسيل، حيوانات ونباتات شمال إفريقيا في العهود العتيقة، تعريب محمد التازي سعود، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ع8، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، 1406هـ/1986م، ص ص 128-129.

² - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 255.

³ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 145.

⁴ - "المنهل: المورد، وهو عين ماء ترده الإبل في المراعي. وتسمى المنازل التي في المفاوز على طرق السفار مناهل، لأن فيها ماء". (الفارابي، الصحاح تاج اللغة، م. س، ج5، ص 1837) وفي معجم تهذيب اللغة "المنهل: المورد حتى صارت منازل السفار على المياه مناهل. الأزهري، تهذيب اللغة، م. س، ج6، ص 160.

⁵ - الإدريسي، نزهة المشتاق، م. س، ج1، ص 241.

أكواخا صغيرة مغطاة بالقصب"¹، فيما يتوالى على ضفاف نهر درعة عدد كبير من القرى والقصور المبنية بالحجر غير المنحوت والطين، والسقوف كلها من جذوع النخل وكذلك الخشب، مع أن هذا الخشب ليست له قيمة كبيرة، لأنه ليفي وغير مكنتز كسائر الأخشاب"²، بينما تنتشر بإقليم الريف -حسب شهادة الوزان- المساكن الرديئة.³ فكل قرى الإقليم "ذات بيوت حقيرة، مكونة من طابق أرضي ومبنية بشكل الاصطبلات التي نراها في أرياف أوربا، سقوفها من قش أو لحا الشجر".⁴

ومن هذه الفسيفساء من المساكن (المباني والمأوى)، التي نقلت لنا المصادر مشاهد عن انتشارها بالبادية المغربية، يمكن طرح بعض الأسئلة، من قبيل؛ ما التأويلات أو التفسيرات الممكنة لهذا المركب العمراني؟ أيكفي القبول بالتبرير المعاشي وحيدا أو الطبيعي أم في تكاملهما يكمن الجواب؟

لعل التسويغ بنمط الإنتاج وليد عملية استقرائية لنصوص المصادر ذاتها، والتي ما فتئت تحليل على ارتباط شكل المسكن بطبيعة المعاش⁵، وهي نفسها التي يفهم منها مدى الارتباط بين المساكن وبيئتها، وهو ما يظهر من ملاحظة المكونات المستعملة في إنجازها، لكن ألا يظهر ضمن هذا المعطى أثر المناخ والذي يربطنا اضطراباً بالماء؟

الجدول رقم 23: المباني في علاقة بنمط العيش والاستقرار

نمط العيش	طبيعة الاستيطان	نوع السكن
النجعة	غير ثابت	خيام + كهوف + حضائر + زرايب + أخصاص
الفلح	ثابت	بيوت + أكواخ + قصور + دور

يبدو أنه في الوقت الذي يمكن الوقوف فيه عند تباين في طبيعة المساكن لدى المستقرين، بشكل يمكن رسمه بالتباين المجالي⁶، على خلاف ما عمد إليه محمد استيتو، من

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 369.

² - نفسه، ج2، ص 118.

³ - نفسه، ج1، ص ص 324-328.

⁴ - نفسه، ص 324.

⁵ - محمد استيتو، "مأوى المساكين والفقراء والغرباء في المغرب خلال العصر الحديث"، م. س، ص109.

⁶ - على نفس القراءة التي ذهبت فيها حليلة بنكرعي إلى تقسيم الأراضي بالمغرب، ما بين؛ أراضي الدواوير، حيث يغلب نمط الترحال. وأراضي المداشر والقرى، حيث يسود الاستقرار والزراعة. وأراضي تجمع بين القرى والدواوير (أي بين النمطين)، وقد امتد هذا التباين إلى مستوى المسكن ومواضع توطينها. حليلة بنكرعي، "أصول نظام الأرض في المغرب

استدعاء للتباين الطبقي (مساكن الفقراء في مقابل مساكن الميسورين)، لاستقراء معالم السكن القروي¹، ذلك أن ما يجمع السكن بالبادية عموماً، هو البساطة واستخدام المواد المحلية التي يوفرها المجال الطبيعي، وهذا ما ينسجم حتى مع أقوال ابن خلدون²، فيما الفوارق الطبقة وإن لم يستبعد وجودها إلا أن الإشارات المصدرة لا تسمح لنا بتمثيلها على مستوى مشاهد السكن داخل المجال القبلي للبادية، وهذا ما يظهر جلياً في حديث محمد استيتو ذاته.³

وفي المقابل، يمكن ملاحظة أهمية المجال الطبيعي والنشاط الاقتصادي في التمييز بين مساكن مجال وآخر.⁴ عموماً، يبدو سكان الأكواخ أشد بؤساً من قاطني البيوت والقصور المشتملة على منازل تسكنها مجتمعات تراتبية، لكن هل تتوفر على إشارات لتباينات في المساكن داخل نفس المجال تسمح لنا بالحديث عن تمايز طبقي؟ الإجابة -فيما قدر لنا الوقوف عليه من المصادر- لا. إذ كل ما نصادفه أوصاف للمساكن ومواد بنائها، والتي لا تخرج عن المتوفر محلياً لذلك.

من جهة أخرى، يأتي السكن الخاص بالرحل وأنصاف الرحل⁵، خاضعاً لخصائص التنقل الملازمة للرعاة بشكل عام.⁶ فكان المعطى المعاشي مانعاً لبروز مظاهر التباين الطبقي في مساكن هاتين الفئتين -على الأقل عند مستوى الإشارات المصدرة السالفة الذكر-، لكن هاجس الماء ورد الحر بدى جلياً أكثر إذ توفر الكهوف حماية أقوى من الخيام والزرائب خاصة

وطرق استغلالها (1459-1669)، مجلة البادية المغربية (الماضي - الحاضر - المستقبل)، العدد الثالث، السنة الثالثة، 2009، نشر مكتبة السلام للطباعة والنشر والتوزيع - الرباط، ص ص 67-72.

¹ - محمد استيتو، "مأوي المساكن والفقراء والغرباء في المغرب خلال العصر الحديث"، م. س، ص ص 112-118.
² - كقوله أن البدو يبعدون عن صناعة البناء "قصور أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية، فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج..." ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 1، ص 510. وذلك يتوافق مع ما سبق وعده فيهم من اقتصار على "الضروري من الأقوات والملابس والمساكن [ف] يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة إنما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه". ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 1، ص 151.

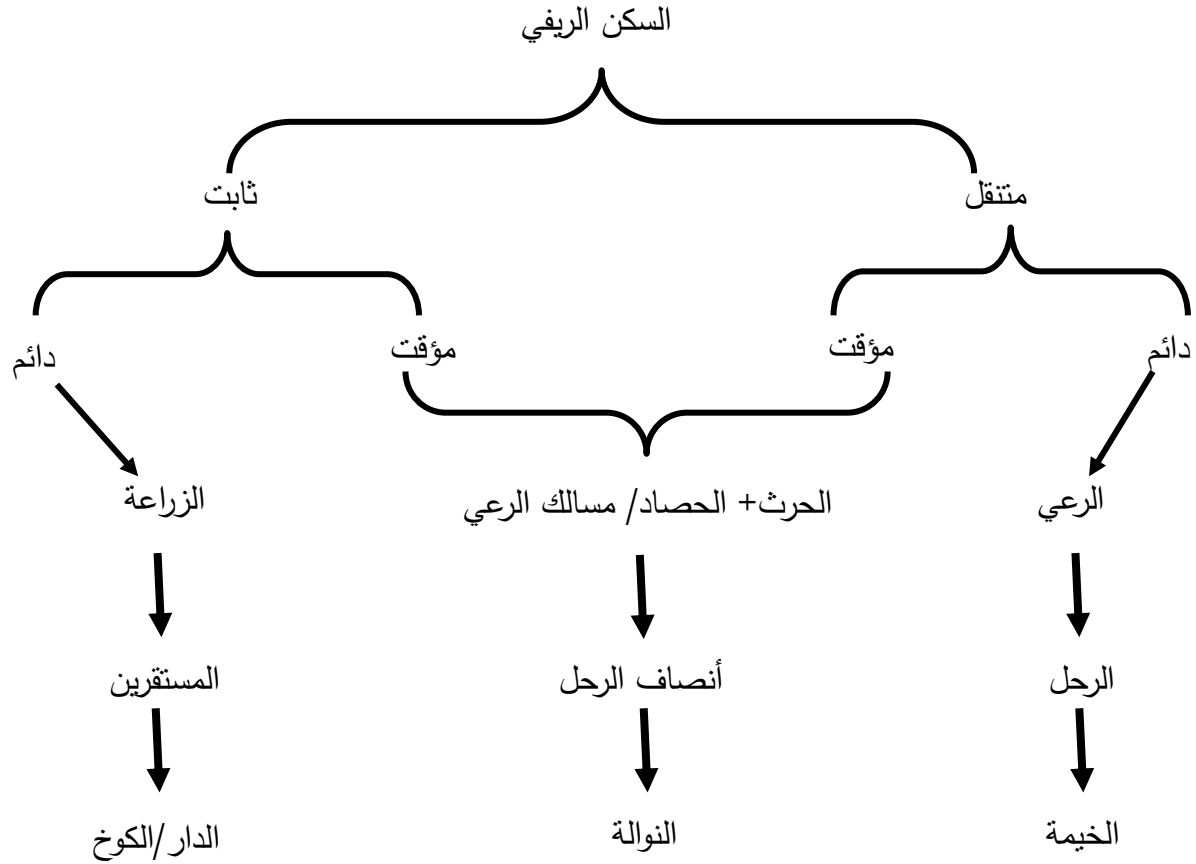
³ - محمد استيتو، "مأوي المساكن والفقراء والغرباء في المغرب خلال العصر الحديث"، م. س، ص 113.
⁴ - يمكننا كذلك استدعاء التحليل الانتروبولوجي للرد على هذا الطرح، إذ "يمكن أن يعتبر البناء خلاصةً شكلية ل"خيارات" متتالية بين إمكانيات متعددة" (...) وبالتالي فليس بالضرورة ما يتحكم في تباين المساكن هو المستوى الاقتصادي بقدر ما هو حصة عوامل متعددة؛ مناخية، اقتصادية، اجتماعية... ينظمها كل مجتمع بحسب شكلية خاصة به. بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتروبولوجيا والانتروبولوجيا، م. س، ص 549.

⁵ - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص 187/ص 368.

⁶ - Mickael PEYRON، «Habitat Rural...»، op. cit، p 334.

في ظروف البرد القارس، فيما العناية بالأسقف وصلابتها لا يمكن أن يفهم في غير الحماية من التساقطات المطرية.

الشكل رقم 11: خطاطة السكن الريفي حسب معطيات تقرير مسح وطني للسكن الريفي التقليدي¹



لا تتباين منازل أهل البادية على مستوى الأسماء والعناصر فقط، بل إن مشاهدتها أيضاً، تفاوتت من مجال إلى آخر حسب طبيعة الاجتماع²، فكان منها المجتمع والمفترق المتباع³، وهذا ما نقف عليه من خلال جملة إشارات الوزن⁴، ولا يستبعد أن يكون خاضعا لوفرة المياه ومساحة الأرض القابلة للاستغلال الفلاحي⁵.

¹ - Jean HENESENS, *Enquête Nationale Sur L'habitat Rural Traditionnel Au Maroc- ETE 1970-*, pp107- 109.

² - حليلة بنكري، "أصول نظام الأرض في المغرب..."، م. س، ص ص 69-70.

³ - بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، *معجم الانتولوجيا والانتريولوجيا*، م. س، ص 549.

⁴ - الوزن، *وصف إفريقيا*، م. س، ج 1، ص ص 98-370.

⁵ - محمد استيتو، محمد استيتو، "مأوي المساكين والفقراء والغرباء في المغرب خلال العصر الحديث"، م. س، ص ص

فبلد غمارة حسب المقدسي "رستاقها ثلاثة أيام في مثلها كلها قرى عامرة"¹، والرستق "مصطلح فارسي يعني البيوت المجتمعة"²، أي أن بلد غمارة بيوت مجتمعة مسير ثلاثة أيام في مثلها في قرى عامرة. والمشهد ذاته نجد يتكرر في درعة التي يمتد رستاقها ومنابرها³ على نهر جرّار نحو ستة أيام.⁴

إنّ، فلطبيعة الاستقرار بالمجالات البدوية، أثر في تباين طبائع السكن؛ فجبيل سكيم بتادلا مثلا يمارس الأهالي الرعي، حيث يملكون العدد العديد من الماعز والبغال القصيرة في حجم الحمير، والتي ترعى في غابات الجبل وتتعرض لهجمات الأسود التي تفترسها وتبتتر أعضائها الكثير منها، تقوم "الأماكن المسكونة فقيرة وبعيدة بعضها عن بعض، حتى إنك قلما تجد ثلاثة بيوت أو أربعة مجتمعة"⁵، الوضع ذاته ينطبق -حسب شهادة الوزان- على سكان جبل مغران، والذين لا يمكنهم الاستقرار في أي مكان لوفرة ماشيتهم، "فيتخذون لذلك [للسكن] أكواخا من لحاء الشجر مثبتة على عصي طويلة رقيقة، وسقوفها من قضبان مقوسة على شكل نصف دائرة، تشبه مقابض السلال التي تعودت النساء في إيطاليا على حملها فوق ظهور البغال عندما يسافرن. وكذلك ينقل هؤلاء الجبليون أكواخهم على البغال، فيذهبون بدوابهم وعائلاتهم تارة هنا وتارة هناك. وحيثما وجدوا العشب أقاموا إلى أن ترعى الدواب كل ذلك النبات. والواقع أنهم يستقرون في جهة ما خلال فصل الشتاء ويبنون شبه اصطبلات منخفضة مغطاة بأغصان الشجر يخبئون فيها حيواناتهم بالليل. ومن عاداتهم أن يوقدوا نارا شديدة لا سيما قرب الزرائب لتدفئة البهائم. وتهب الريح أحيانا فتحمل النار إلى الزرائب فتحرقها، لكن البهائم سرعان ما تخرج منها، لأنهم لا يحيطون الاصطبلات بأي سور توقعوا لمثل هذا الحدث. وليس بناء الزرائب في الواقع بأحسن من بناء الأكواخ التي تحدثنا عنها آنفا. وتحدث الأسود والذئاب أضرارا فاحشة... والفرق الوحيد هو أن هؤلاء القوم يسكنون أخصاصا، وأولئك [جبيل سكيم] يسكنون دورا مسورة".⁶

¹ - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي القاهرة، ط3، 1411/1991، ص230.

² - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج10، ص116

³ - بمعنى "مقاطعاتها". دُوزي، تكملة المعاجم العربية، م. س، ج10، ص160.

⁴ - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، م. س، ص231

⁵ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص186

⁶ - نفسه، ص ص187-188.

لقد أثير الكثير من النقاش حول تجمع وتشتت المساكن بالمجالات الريفية، وخلصته وجود تباين في الآراء ما بين اعتبارين أساسيين تحكما في الاختيار ما بين التجمع أو التشتت، وهما: عنصرا الاقتصاد الفلاحي والعامل الأمني¹، فيما يظهر من خلال النصوص المذكورة سلفا للوزان أن التشتت أيضا، وليس فقط التجمع، يقوم على أساس السعي نحو تأمين المجال القبلي، غير أن الفرق على ما يبدو بينهما أن التجمع يرصد الأمن في الكثرة والتحصن لحماية النفس، فيما التشتت يرصده في تنبيه الجماعة إلى الخطر، ويهدف إلى حماية المجال القبلي من خطر الغزو.

الجدول رقم 24: العوامل المؤثرة على أنماط السكن الريفي وفق قراءة DEMANGEAN²

العوامل	بعض مظاهرها	خاصيتها	السكن
الطبيعية	تكوين التضاريس/ بنية السطح	سهل	متجمع
		جبل	متفرق
	المناخ وموارد الماء	رطب /كثيفة	متفرق
		قاحل/ضعيفة	متجمع
الاجتماعية	الميولات الغريزية/ التقاليد الاجتماعية	الدفاع/ الاستقرار	متجمع
		الانفراد/التنقل	متفرق
الاقتصادية	نمط العيش	الزراعة	متجمع
		الرعي	متفرق

يرجع انتشار المساكن كما تجمعها إلى عدة عوامل³، لعل أبرزها شكل وطبيعة الموارد المتوفرة بالمجال، وعلى رأسها الماء⁴، ومن العوامل الأخرى نجد الباعث الأمني⁵؛ إذ يسهم انتشار المساكن في عملية مراقبة منافذ الجبل، ومن تم ارتباط المساكن ليس فقط بالاستقرار

¹– DESPOIS Jean, «Essai Sur L’habitat Rural Du Sahel Tunisien», Annales Des Géographie, Année 1931, N°225, p260– 266.

²– Demangean (A.), «La Géographie de L’habitat Rural», Annales de Géographie, N°199, 15 janvier 1927, pp 1–23

³– Colas (R.), «Répartition de L’habitat Rural», Bulletin de L’association de Géographes Français, Année 1945, N°169–170, pp 51–56.

⁴– Demangean (A.), «La Géographie de L’habitat Rural», op. cit, pp 12–13

⁵– بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانثروبولوجيا، م. س، ص 549.

Mickael PEYRON, «Habitat Rural...», op. cit, pp 329–330.

ولكن أيضا بعملية المراقبة والتنبيه إلى وجود الخطر، ثم إن الأمر قد يبرر بالانتشار من أجل تعيين المجال القبلي، فتتوزع الأسر المجال لتعيين الحدود القبلية محققة بذلك غايتين؛ تقسيم الموارد بما يضمن التقليل من المصادمات الداخلية، مع الاحتفاظ بإمكانية تقديم النجدة والدفاع في إطار العصبية القبلية وما كان على شاكلتها من لف أو حلف. غير أن هذا الأسلوب لم يكن دائم النجاعة إذ اضطر سكان جبل كبدانة -المشتغلون بالرعي في مسارحه الفسيحة- إلى الفرار من قراهم بعد استيلاء الإسبان على مدينة غساسة لكون قراهم "متباعدة جدا بعضها عن بعض ومنقسمة على نفسها"¹.

لاشك إذن، أن السكن محدد اجتماعي واقتصادي لأهل البادية، وهو نقطة تحول في النظام الاجتماعي أيضا، فإذا كانت طبيعة المجالات الاستيطانية هي ما يمنح العمران معنى، وإذا كان تاريخ الوسيط المغربي قد فسر وفق قواعد النسب والسلالات، فإن الواضح أن نظام السكن شديد الارتباط بالأرض (المجال) والإنسان، وجب الانتباه إليه أيضا عند محاولة تبرير التحول، أو الانتقال الاجتماعي-خاصة مع ما سبق وبدى من إشارات عليه في المصادر التاريخية-، حيث يظهر وكأنه يشكل أساس الفعل والتصنيف الاجتماعي، فكان أهل الخيام قرارهم على سنى رماحهم، فيما ظل أهل الحضر من قاطني الدور والمنازل تحت رحمة تقلبات الدهر والخطر القادم من غيرهم.

2- الماء وهندسة المساكن بالبادية المغربية

لفهم أكثر لتأثير الماء على العمارة البدوية، لا بد من الانتباه إلى التميز الواقع بين السكن "الذي هو نمط توزيع الوحدات السكنية على أرض معينة"، والسكن "الذي هو موضع صغير مبني أو مرتب لأجل إقامة البشر (ولحماية الحيوانات والمحاصيل عند الضرورة)"²، فقد فرضت الشروط المناخية إلى جانب نمط العيش على أهل البادية، اتخاذ منازل متباينة الجودة والعناصر، وكذا الأشكال الهندسية، ولعل أساس تنوعها يتركز إلى المعطى المناخي³، حيث إن

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 344.

² - بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانتريولوجيا، م. س، ص 848.

³ - Mickael PEYRON, «Habitat Rural...», op. cit, p 332.

الاستغلال بالكن على حد تعبير ابن خلدون، كان أهم، إن لم نقل، أقصى غايات البدوي في اتخاذه للمنازل.

تناسب المساكن البدوية والاستغلال الفلاحي، حيث تجمع الإنسان والحيوان وأدوات العمل¹، فهي خلية تجمع عائلي متوافق ومتطلبات نمط الإنتاج الفلاحي.² فجاءت مساكن أهل البوادي في شكل بيوت مبنية داخل دشرات محصنة، أو في خيام مقامة داخل الدواوير، "أما الديار فيرعون في بنائها طبيعة المكان، ففي الجبال حيث تتراكم الثلوج وتكثر الأمطار بينونها بالحجارة ويسقفونها بالطين في شكل بيضي يسهل انصراف المطر والتلج عنها... وفي الجهات الجنوبية حيث الجفاف بينونها بالطين ويسقفونها بالخشب وغيره من أنواع النبات، وفي المناطق الوسطى المعتدلة تبنى بالحجارة أو بالطين فقط وتسقف بالورقة والكائزة أو بالأعمدة والأغصان مع تبليطها من أعلى بالطين³ منعا للمطر من النفوذ إلى داخل البيوت، واختص البربر بنوع من الديار يبنى بجدارين متوازيين يملؤون ما بينهما بالحجارة وذلك لمقاومة الحر والبرد، ومن البربر من ينحت مسكنه في جبل أو جرف كما يرى في جبلي الحاجب وكندر بالمغرب الأقصى".⁴

لسكنى القصور خصائص تميزها عن باقي أشكال استيطان البوادي الأخرى، فمن ذلك طبيعة المنازل التي تضم أكثر من طبقة واحدة⁵، فنجد البيت مكونا من طابقين⁶، وفي هذا استجابة للعوامل المناخية الحارة، والتي تجعل من توفير بعض الرطوبة في المنزل يفرض القيام ببناء طبق ثان يحد من تأثير الحرارة المفرط صيفا، هذا ناهيك عن قلة المساحة الصالحة

¹ - إمانويل شلومبيجر، الرحلة إلى المغرب، ست عشرة رسالة إلى أمي مؤرخة من 13 مارس إلى أبريل 1882م، ترجمة بوشعيب الساوري، إفريقيا الشرق، ط 2014، ص 63.

² - لحسن الفارسي، "تحولات السكن وتنظيم المجال الجبلي بوادي أوريفة"، م. س، ص 85

³ - Mickael PEYRON, «Habitat Rural...», op. cit, p 332.

⁴ - عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، م. س، ص ص 282-283

⁵ - وهذا ما يستفاد أيضا من حديث الوزان في معرض كلامه عن تخزين التمر بدرعة عن إمكانية إنخاره لمدة سبع سنوات دون أن يفسد شريطة "أن يكون المستودع في الطابق الأول" (الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 2، ص 119)، مما يعني قيام الدور على أكثر من طابق واحد، وهو السائد فعلا في القصور الأثرية درعة إلى اليوم.

⁶ - الدرجيني أبي العباس أحمد، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، ج 1، مطبعة البعث - قسنطينة - الجزائر (د. ت)، ص 93.

للسكن في مجالات تنذر فيها نقاط الماء وموارده، فيكون التكاثر على السكن بالقرب من المياه مطلباً جماعياً، وشرطاً لضمان الأمن المائي على الأقل.

ويمتد تأثير المناخ على مباني الواحات عموماً، ليشمل طبيعة مكونات الجدران والسقوف المعتمدة أساساً على مادة التراب (الجدول رقم 25)، والتي تمتاز بقدرات عالية على العزل الحراري، على الرغم من احتوائها على عيب التفتت¹، ومع ذلك، فقد يحدث أن تتعرض المباني، نتيجة الإهمال لتسرب الماء، فتحتاج لأعمال صيانة.²

إذن، تعتبر مكانة المسكن في نظام الإنتاج من محددات شكل السكن، ذلك أن طبيعة وحجم تجهيزات المباني يتفاوت من مبنى لآخر حسب الوظيفة، أو الوظائف التي ينتظر منه القيام بها. ثم إن توزيع هذه المباني ووضعيتها يعكسان التأثير المتفاوت للبنى الجماعية، حيث أن توزيع البيوت ضمن منطقة سكنية هو الترجمة المكانية للعلاقات الاجتماعية السائدة، من مثل؛ علاقات القرابة، والعلاقات بين الفئات والطوائف أو حتى الطبقات...³

الجدول رقم 25: مواد البناء بالبادية المغربية من خلال وصف إفريقيا للحسن الوزان

المنطقة	الموقع	العنصر المعماري	المواد	ج/ص
تدنست (حاحا)	سهل	ال سور	الأجر	98/1
			الطين	
		جامع	حجر	99/1
			جير	
أديكيس (حاحا)	سهل	ال سور	الأجر النيء	101/1
		الجامع ومعظم المنازل		
قرية تيبوت (حاحا)	سهل تكتفه الجبال	ال سور	الأجر	103/1
ماسة (سوس)	شاطئ المحيط عند قدم الجبل	ال سور	الأجر النيئ	113/1
نكاووست (سوس)		ال سور	التراب المدكوك	120/1
المنازل بجبال ناحية مراكش	جبل شيشاوة	الجدران	الأجر النيئ والطين	140/1
		السقف	القش	
ناحية هسكورة	جبل تنزيتة	أسوار القصور	الصلصال	173/1

¹ - بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانتريولوجيا، م. س، ص 848.

² - المختار السوسي، المعسول، م. س، ج4، ص 313.

³ - بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانتريولوجيا، م. س، ص 849.

	الأجر النئى			
187/1	لحاء الشجر عصي طويلة رقيقة	الأكواخ	جبل مغران	ناحية تادلا
187/1	قضببان مقوسة على شكل نصف دائرة	سقوف الأكواخ		
187/1	أغصان الشجر	اصطبلات منخفضة		
-188/1 189	بعضها كثير ملح البارود	الكهوف	جبل دادس	
189/1	حجر دون طين	الدور		
189/1	صفائح رقيقة سوداء	غطاء الدور		
324/1	القش لحاء الشجر	سقف البيوت	الريف	الريف
327/1	-	أكواخ الصيادين	ساحل يليش	
-327/1 328	-	مساكن رديئة	تغسة	
359/1	القصب	أكواخ من قصب	بني يستيتن	الحوز
360/1	القصب	أكواخ من قصب	جبل سليكو	
-364/1 365		أكواخ متباعدة	سهب المرجة	
365/1	سياجات عالية من الأشواك	زريبة	أزغار ايكمارن	
368/1	القصب	أكواخ من قصب	جبل بني مراسن	
369/1	أعمدة طويلة مطلية بالصلصال مغطاة بسقف من قش	دور مبنية	جبال زيز	
	مغطاة بالقصب	أكواخ صغيرة		
12/2	جدران من الطين سقوف من القش	أكواخ سيئة	قصر ايسلي	صحراء انكاد
118/2	الحجر غير المنحوت والطين ¹	قرى وقصور	واحات درعة	نوميديا

¹ - وفيما يدعم هذه الصورة التي نقلها الوزان، عرف أحمد التوفيق معنى "تازاكورت" التي وردت في ترجمة أبو محمد صالح بن ومليل الجراوي، نزيل درعة "تازاجورة" "تازاكورت"، ومعناها الجرف الصغير أو البناء بالحجارة الصغيرة والطين، خلافا لعادة البناء بالطابية، كما هو شائع في هذه المناطق...". أحمد التوفيق الهامش رقم 275، من كتاب، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 158.

	السقوف كلها من جذوع النخل وكذلك الخشب. ¹			
-122/2 123	-	كهوف عالية وواسعة ضيقة المداخل	واحة الخنك	
123/2	-	الخيام	واحة مضغرة	
	-	قصور ومدامر بأئسة		
128/2	الحجارة السوداء	قصر صغير لحفظ المؤن	واحات سجلماصة: -قصر السويهلة -أم الحدج -قصر أم العفن	
128/2	نفسه	نفسه		
129/2	حجر أسود كأنه فحم	أسوار القصر		

عموماً، فمن خلال ما سبق رصده من إشارات الوزن، يبدو أن المنازل بالبادية كانت تتخذ من مواد محلية البيئة، فيتم الاستعانة بمختلف العناصر التي توفرها الطبيعة، أو تصنع منها مواد البناء كالآجر² والطين المدكوك والعصي...

من جهة أخرى، يتضح أن اختيار مواضع اتخاذ السكن، كانت تحكمه عدد من العناصر لعل أبرزها؛ مراعاة الأحوال الجوية³ وتقلبات الفصول، ذلك أن "تقدير مواقع الإقامة صادة كانت أو جاذبة- ووجهة المباني وشكلها، واختيار المواد⁴، كل ذلك يخضع بدرجات متفاوتة لضغوطات المناخ..."⁵، فعلى الرغم من البساطة التي يمكن أن توسم بها خيام القائمين على النجعة من رحل المجالات الصحراوية، فإن الواضح أن تقلبهم في المجالات المختلفة خلال فصول السنة كانت تحكمه معرفة خاصة بتقلبات الطقس⁶، فكانت تتفادى بذلك خطر الأزمات

¹ - خشب ليفي غير مكتنز كسائر الأخشاب (الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص 118)، والغالب على الظن أنه خشب جذوع النخل ذاته حينما يجهز للاستعمال في إنشاء المنازل.

² - البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص 55.

³ - فقد "كانت العرب تجعل بيوتها بإزاء الصّبا ومطلع الشمس والصّبا يتبرّك بها... والصّبا ريح أهل نجد، وبها يمطرون". الاجدي، الأزمنة والأنواع، م. س، ج1، ص 117.

⁴ - Mickael PEYRON, «Habitat Rural...», op, cit, p 329.

⁵ - بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانتريولوجيا، م. س، ص 848.

⁶ - فمما جاء بخصوص عودة البدو من العرب من مراعيهم الشتوية في القفار لقراهم ومواطن الماء في المدر، جاء ولهم في نزلة سعد الأخبية بشهر مارس، "إذا طلع سعد الأخبية دهنت الأسقية، ونزلت الأحوية" (الاجدي، الأزمنة والأنواع، ج1، ص 130) ونزل الأحوية: لأن العرب في هذا الوقت يعودون من مشاتهم في البوادي إلى محاضرهم على مياههم الأصلية يقضون شهور الصيف فيها لئيبس الكلاً ونضوب الغدران في البوادي، وينزلون بيوتهم على محاضرهم وهي من

المائية من جفاف وسيول، والتي نأخذ نصاً بليغاً لابن قنفذ لإبراز شدة الخسائر التي قد تلحقها الأمطار في مثل هذه المجالات المقفرة الخالية من أي عنصر حماية طبيعي بل والمبحرة أوديتها، خاصة إذا ما توالى الأمطار وتعكر معها الجو بالرياح، وتجتمع كل هذه العناصر في النص الذي نود الاستشهاد به هنا لتعكر عودة أبي الحسن المريني إلى المغرب بعد حملته إلى إفريقية والزاب ومروره بتلمسان.

فبعد نزول المحلة السلطانية بإيسلي ومبيتهم بها، اعترضتهم في طريق العودة أمطار هلكت الكثير من دوابهم، وتسببت لركبهم في العديد من الخسائر، فكتب ابن قنفذ: "واستوى السواد الأعظم راكبا جادة الطريق، وأنعشت الجيوش التي أذالت سعة الأرض بالضيق. وأمر الله تعالى الريح فعصفت، وخشنت ملابس جوها واستعصف. وأتت من الغرب تلفح وجوهنا... وأرسل الله معها شأبيب¹ كأفواه الأداوى²، متوالية تتحذر من منقلات المزن³ وتتهاوى... حتى تركت الأرض بحارا زاخرة، وكادت تكون من الأمواج المتلاطمة ساخرة. وأتت من كل أوب، وعمت كل صوب، وبللت كل ثوب... وقل التجلد والاصطبار، وتحيرت العقول والأفكار... حتى سقط كثير من الناس أمواتا... ورميت في الأرض الذخائر، ولم تحفظ الأموال الذخائر. ونفقت الخيل والبغال، وما بقيت في التسلي الأقوال".⁴ وبالجملة يختم ابن قنفذ المشهد القائم فيقول: "وكان يوما أيأس من السلامة، وكأنه أهوال يوم القيامة، وأرى على أيام الهزائم، وأنسى زمان الوقائم والملاحم".⁵

وفي الوقت الذي لا نتوفر فيه على تصور هندسي محدد للبيوت القروية خلال هذه الفترة، فإن المعين من النصوص السابقة يفيد برعاية الخصوصيات المناخية بشكل كبير، فيتم وضع الأسقف وفقا لطبيعة التساقطات المطرية، فإلى جانب تواتر مشاهد عنصر السقف أحد

المدر، أي الطين. والأسقية: جمع سقاء، وهي قرية الماء، وإنما تدهن لأنها في الشتاء قد يبست وشننت لتركهم الاستقاء فيها، فتدهن في هذا الوقت لحاجتهم إليها. هامش المحقق رقم 4، من كتاب، الأزمنة والأنواء، م. س، ج1، ص130.

¹ - "الشأبيب: جمع شؤبوب، وهو الدفعة من المطر وغيره". ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج1، ص480.

² - "الإداوة، بالكسر: إناء صغير من جلد يتخذ للماء كالسطيحة ونحوها". ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج14، ص25.

³ - "المزن: السحاب عامة، وقيل: السحاب ذو الماء، وأحدثه مزن، وقيل: المزنة السحابة البيضاء، والجمع مزن". ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج13، ص406.

⁴ - ابن الحاج النميري، فيض العباب، م. س، ص490.

⁵ - نفسه، ص491.

أبرز تجليات عمل أهل البادية لرد مياه المطر، يبدو أن سكان الجبال بالبوادي كانوا يلجؤون إلى الكهوف لحماية حيواناتهم من ظروف الطقس المتقلب، ففي داس مثلاً يسكن الناس في كهوف رطبة، ويؤوون دوابهم إلى كهوف كثيرة ملح البارود.¹ وإلى جانب السكن في هذه الكهوف ينتظم السكان في هذا الجبل، "قرى مكونة من دور مبنية بحجر دون طين ومغطاة بصفائح رقيقة سوداء شبيهة بالصفائح المستعملة في بعض جهات إيطاليا بكونتي اسيز وفيريانو"²، ومن الواضح أن الوزن يخص بالحديث هنا المنتعشين من الرعي، كيف لا والبناء بالحجر بدون طين ميزة منازل الرحل في مجموعة من المناطق المغربية إلى اليوم، وما يدعم هذا الطرح ما ذكره الوزن ذاته حينما تناول الكلام عن معاناة نساء المنطقة من مشاق الأعمال اليومية ف"يحملن على ظهورهن الماء الذي يستقينه من العيون، والحطب الذي يحتطبونه من الغابة دون أن يسترحن ولو ساعة من نهار".³

وفي دراسته حول السكن الريفي بالأطلس الكبير، انتبه ميكائيل بيرون "Mickael Peyron" إلى أن المباني بقرية "أنيمزي"، تتشكل من الطين والحجر وكذا الخشب، ويعزز الجزء الغربي من كل مبنى منها بالحجارة لحمايته من المطر والرياح.⁴ وعموماً، فأهم العناصر التي تختزل دور الماء في توجيه المباني بالبادية المغربية، تتمحور في الجوانب الهندسية والتقنية⁵، كما هو ممثل في الجدول أسفله.

الجدول رقم 26: مجالات تأثير المناخ في السكن بالبادية

الناحية	شكله	بعض عناصره
هندسية	إجابات هندسية لتجاوز مخاطر المحيط البيئي من حرارة ومطر	السقف/ الجدار/ الارتفاع
تقنية	وسائل تقنية تستعمل في البناء	التقاويس/ الميلان/ الطبقات

¹ - الوزن، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 188-189

² - نفسه، ص 189.

³ - نفسه.

⁴ - Mickael PEYRON, «Habitat Rural...», op. cit, p331.

⁵ - وهي عناصر مستوحاة من الضروريات السبع للدراسة الانتولوجيا للبيت، وهي؛ الإجابات الاصطفائية/ الوسائل التقنية المستخدمة/ مكانة المسكن وتوابعه في نظام الإنتاج/ رمزية التنظيم الاجتماعي عبر هيئة وشكليات إشغال الأبنية/ طرائق تصور وسكن الحيز المنزلي التي تعبر عن قيم مجتمع/ الروابط الرمزية التي تتسجها المجتمعات بين العمارة ومجمل معتقداتها وتصوراتها/ القواعد الجمالية التي تتحكم بالشكل الهندسي العام. انظر؛ بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانثروبولوجيا، م. س، ص ص 848-850.

بالرغم من كل ما سبق، تسجيله حول أهمية المناخ في توجيه السكن بالبادية المغربية عموماً¹، فإنه وبجوار هذا المحدد الطبيعي يأتي العامل البشري حتماً، أحد العناصر الفاعلة في إتمام عملية التصرف في المجال، ذلك أن الحمولة الثقافية في ميدان البناء التي اكتسبتها المجموعات القبلية المختلفة ببادية المغرب الوسيط، قد جعلت منها تُخضع المجال لتصوراتها العمرانية، وهكذا نعثر مثلاً في جبال الأطلس الكبير على سمات العمران الصحراوي ذي المنزل المرتفع والجدران السمكية، المقاومة لكل من درجات الحر والبرد، والذي يجمع في العادة ضمن وحدات دفاعية (القصور)، مستحدثاً من قبل بعض العناصر القبلية الصحراوية، القادمة إلى المنطقة بعدما فرض عليها الركون إلى الاستقرار، إلا أنه مع ذلك، وإن احتفظ ببعض التسميات المنتشرة بالجنوب الشرقي، حيث البيئة المناسبة لمثل هذا الشكل من المعمار، فإنه عانى في هذه المجالات الجبلية من صعوبات تطلبت القيام بالعديد من التحديثات لمواجهاتها.²

¹-HANCHANE Mohamed et EL MOULOUDI M'hamed, «Habitat Rural au Maroc: essai de régionalisation selon des critères socio-économiques; cas des provinces Taza et Guercif», Revue Espace Géographique et Société Marocaine, N°31, janvier 2020, p243.

²-MICKAEL PEYRON, «Habitat Rural...», op. cit, p329.

III. تقنيات استغلال الموارد المائية بالبادية المغربية

شكلت المنشآت والتقنيات المائية إحدى علامات العمران بالبادية المغربية خلال العصر الوسيط، إذ غالباً ما ارتبط وجودها بالأنشطة الفلاحية، وتواترت الإشارات على مواضعها عند تناول الحديث عن التجمعات السكنية ومسالك التجارة والتنقل البرية. وعموماً، فيمكن تناول موضوع العمارة المائية من خلال نقطتين أساسيتين؛ تهتم أولهما تطور التقنيات المائية ببادية المغرب الوسيط، فيما تبحث ثانيهما في أهم تقنيات الماء ومنشآته بالمجال البدوي.

فمما لا شك فيه أن تواتر الإشارات التاريخية حول مظاهر استغلال الموارد المائية، يطرح عدداً من الإشكالات التاريخية، لعل أبرزها كيفية انتقال التقنيات المائية لمجال لطالما وصف بالبداوة وقلة الاهتمام بالصنائع، بما فيها صناعة البناء الضرورية لإنجاز عدد من هذه التقنيات؟ كيف إذن يمكن الربط بين صورة مجال يزخر بمظاهر تقنية لإعداد مائي، وفي نفس الوقت توصيف الجماعات المستوطنة له بالارتهاق إلى الضروري من كل شيء¹، مما لا يتطلب كثير عناء ولا مجهوداً في التفكير؟ ثم بعد أن يتضح هذا الأمر نتساءل عن أهم التقنيات المائية بمجال البادية المغربية نهاية العصر الوسيط؟ وكذا الإشكاليات التي يطرحها توزيعها الجغرافي؟

1- نقل وانتقال تقني

كثيراً ما تم البث في موضوع التقنيات المائية بمجال البادية المغربية، خاصة وأنها شديدة الارتباط بالنشاط الفلاحي، فلم يكن الحديث عن البادية يتم دون الإشارة إلى عنصر الماء وأدوات جلبه وتوزيعه...، لكن كيف نشأت هذه التقنيات؟ وما أسباب انتشارها والآليات المتحكمة في ذلك؟

كتب دونالد هيل حول جذور الحضارة الإسلامية؛ "إن جذور كل حضارة جديدة لا بد أن تكون قد غذيت بإنجازات أسلافها. وفي حالة الحضارة الإسلامية كانت هذه الجذور هي الحضارات الهلينستية والرومانية والبيزنطية، مع تأثير أقل، لكنه مهم، للحضارتين الهندية

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 151.

والصينية".¹ وإذا كان هيل قد عدد من إمكانات استفادة المسلمين من الحضارات السابقة في مجال المعارف العلمية، فإنه يؤكد على أن الجوانب التقنية، لا يوجد بخصوصها سوى عدد قليل من المؤلفات القديمة، وأهمها "كانت معروفة لدى المسلمين وحفرتهم على تصنيف كتب جديدة عن التقنية الدقيقة، التي أدخلت تعديلات مهمة على أعمال أسلافهم الإغريق"² فكان وكأن التردد بدأ يتوغل إلى مزاعم دونالد هيل بخصوص تقدير حجم تأثير الحضارات الغربية على الحضارة الإسلامية، وهو تردد يبدو أنه بلغ مداه فيما يرتبط بالتقنيات المائية، والتي من جملتها الطواحين وآلات الرفع بالطاقة المائية، والقنوات الطبيعية والاصطناعية.

فنظرا لعدم وجود مادة مصدرية تدعم أقوال الكاتب، بانتقال المعرفة حول التقنيات المائية من الغرب للعالم الإسلامي، فإنه عمد إلى إرجاع الأمر لشيوعها إلى الدرجة التي لم تثر انتباه أي من العلماء -يقصد الغربيين- إلى أهمية تسجيل تفاصيل تصاميمها، وهو ما لم ير فيه الكاتب عائقا لنقلها إلى الحضارة الإسلامية، إذ لم يحل الإسلام "دون نقل التقنيات الهادفة إلى المنفعة، فقد واصل أصحاب هذه المهنة عملهم في ظل الحضارة الإسلامية، وخلفهم المسلمون بعد فترة قصيرة"³، فهي إذن، عملية نقل بسيط ناتج عن الممارسة سوف يعتمد المسلمون بعدها إلى إضافة تحسينات عليها مع مرور الوقت، ليتشكل التكامل الحضاري بخصوص التقنيات المائية عبر بوابة النقل المباشر لخبرات الإنشاء، وليس عن طريق انتقال الأفكار الهندسية والتفاصيل العلمية المكتوبة.⁴

إن مثل هذه المقاربات التأصيلية، والساعية وراء إشكالية الأصول الحضارية للمنشآت والتقنيات المائية، انتهت إلى مقاربات ترى "أن دراسة المساهمات والخصوصيات الثقافية لكل حضارة أو مجتمع أولى من الانجرار ومن اللهث المبالغ فيه وراء هذه المقاربات التأصيلية

¹ - دونالد هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، ع305، يوليو 2004، ص 15

² - نفسه، ص 21.

³ - نفسه.

⁴ - يمكن التمثيل هنا بنص الإدريسي حول إنجاز الخطارة بمراكش على العهد المرابطي. الإدريسي، نزهة المشتاق، م. س، ج1، ص ص 233-234.

المنقلة إيديولوجيا، والمتخمة بفكرة الأصل الواحد، والمركز المؤثر في الهوامش¹، بعيدا إذن عن كل هذا النقاش، يبدو الشيء الأكيد هو أن التقنيات المائية، خاضعة لعملية التبادل الحضاري شأنها في ذلك شأن كل المعارف الإنسانية، فلم يكن لحضارة أن تحتكر الوسائل المعينة على الإنتاج، في ظل انتقال وتحرك بشري مستمر، فهل توفر لنا المادة المصدرة منافذ للبث في مثل هذه الحوادث التاريخية بخصوص التقنيات المائية بالبادية المغربية خلال الفترة المدروسة؟

الجواب على التساؤل السابق، بما يقرب القطع هو لا. فلا تسمح لنا الإشارات المصدرة مع الأسف، بالتحقيق في مراحل ظهور وكيفية نشأة التقنيات المائية داخل مجال البادية المغربية، لكنه في المقابل، يمكن تقديم بعض القراءات حول سبل انتشارها، الأمر الذي لا يخلو من مغامرة، لكن الأهمية التي يكتسبها الموضوع بالنسبة لفهم آليات التحول المجتمعي بالبادية المغربية، يجعل البث فيه حتمية لا مفر منها، فكيف يمكن الانطلاق لتأمين بعض التبريرات الممكنة لهذا الوضع؟ وكيف يمكن استثمار بعض الوقائع التاريخية في ذلك؟

يمتد البحث في تطور التقنيات المائية بالبادية المغربية عميقا في أغوار تطورها التاريخي، نحو فترات الاستيطان الأولى، ومحاولات الغزو المبكر، وغيرها من المنافذ التي يمكن معها تقديم قراءات ممكنة لما كان عليه تقدم معرفة المغاربة باستغلال مواردهم المائية عبر جملة تقنيات بدى حضورها واقعا خلال الفترة المدروسة.

وصف العروي اللقاء الأول الذي حدث بين القادمين من البحر من الفينيقيين والمغاربة، باللقاء بين مزارعين مستقرين وتجار²، أي أن عملية استغلال الأرض بالمغرب عرفت النور قبل الوجود الفينيقي به، وربما كانت نتيجة للحياة البدوية التي مهد لها التصحر ما بين الألف الرابع والأول قبل الميلاد³، لكن الوسائل التي تم بها ذلك الاستغلال، خاصة تقنيات الري، لا يتوفر حولها الكثير من المعطيات، وإن نشأت منذ ذلك الحين، فمن المستبعد أن تكون قد نمت لتشكل حضارة ماء متطورة، بقدر ما قد تكون نواة لمحاولات استغلال بدائية للمياه في الأنشطة

¹ - طارق مدني، "أركيولوجيا الماء: مقاربات ومجالات"، مقال ضمن كتاب: المؤتمر الخامس عشر للاتحاد العام للآثاريين العرب (13-15 أكتوبر 2012) - جامعة محمد الأول-وجدة، ج2، 1433هـ/2012م، ص 1400.

² - العروي، مجمل تاريخ المغرب، م. س، ج1، ص96.

³ - بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانتريولوجيا، م. س، ص 132.

الزراعية، فلم يكن لها أن تصنع الفارق بشكل كبير، وفي المقابل تبدو الأعمال والمنجزات الرومانية في هذا الباب، ذات أهمية كبيرة في إحداث تحولات عميقة في مسار تطورها التقني بالمغرب عموماً، والمجال البدوي بوجه خاص.

لقد تحدث راهب قرطاج ترتوليان -في القرن الثالث الميلادي- عن تطور الاستغلاليات الفلاحية، قائلاً: "المزارع الضاحكة محت أكثر الصحاري شهرة والحقول المزروعة قهرت الغابات، والقطعان طردت الوحوش الضارية..."¹، لا شك إذن، أن تطور الأعمال الفلاحية، والزراعية منها على وجه الخصوص، كان يستلزم تقدماً على مستوى التدبير التقني لموارد الماء، فهل استفاد المغاربة من هذه المرحلة؟ يجيب دونالد هيل أن العرب بشمال إفريقيا كما إسبانيا وصقلية كانوا "قادرين على مراقبة نتائج المهارات الرومانية في الهندسة المدنية، وخاصة في مجالات بناء السدود والجسور والقنوات"²، فكيف إذن، تم نقل استفادتهم نحو مجالات أبعد مما امتدت عليه السيطرة الرومانية ببلاد المغرب؟

لا نملك إجابات محددة في هذا الباب، لكن من غير المستبعد أن يكون لحركات التنقل والتهجير التي ميزت تاريخ المغرب، دور في خلق أقاليمهم الذاتية، أي جملة المساحات التي تمكنوا من شغلها، باستخدام العديد من الوسائل من صيد وزراعة، أو عبر عناصر وسيطة كتدجين الحيوانات³، بما ابتدعوه من أنفسهم أو وفقاً لما نقلوه أو تم الأخذ به من تجارب المستوطنات الرومانية حولهم. لماذا يقدم مثل هذا التفسير؟

لقد اعتاد المغاربة على تكرار عملية الفرار أمام الأخطار الخارجية التي تحرق بهم نحو أعالي الجبال⁴، وفي الوقت الذي لا نعرف فيه مدى تأثير هذا الأمر في انتشار بعض التقنيات المائية بالبادية المغربية، فالواضح أن تكراره كان ليحمل بعض العناصر على نقل معارفهم في استغلال الأرض بالسهول نحو أعالي الجبال، وكذا المجالات الداخلية الشرقية، خاصة مع ما

¹ - اسطفان كسيل، "حيوانات ونباتات شمال إفريقيا في العهود العتيقة"، م. س، ص 129.

² - دونالد هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، م. س، ص 24. محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 204.

³ - بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانتريولوجيا، م. س، ص 161.

⁴ - ابن أبي زرع، الانيس المطرب، م. س، ص 283. البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص 61. الناصري، الاستقصا، م. س، ج 2، ص 202. العروي، المجمل، م. س، ج 1، ص ص 97-98.

تحتفظ به هذه المناطق من أساليب وتقنيات غاية في التعقيد والتطور بالنظر لحال المعارف الفلاحية خلال الوسيط. فكيف يمكن أن تتم عملية النقل؟

لا توفر لنا الاستغرافية التاريخية للفترة المدروسة إجابات في هذا الباب، خاصة وأن ما دار حول تقنية شهيرة من قبيل الخطارة بمجال مراكش مثلاً¹، يضعنا أمام واقع انتقال معارف وخبرات التشييد بطرق غير محددة المعالم²، بماذا تسمح لنا المادة المصدرة إذن؟ أوليس بعض إشاراتنا هي ما يزيد من تعقيد الأمر أحياناً!! فربطت التقنيات المائية بالسلطة ثم بالعمران، فكان أن نسبت بعض آبار الصحراء والتي لها الفضل في تيسير عبورها لعبد الرحمان بن حبيب³، وأعيد فضل خطارات مراكش لعبيد الله بن يونس المهندس والأمير المرابطي علي بن يوسف⁴، وعدد من المشاريع الهيدروفلحية للموحدين، وجعلت الناعورة من فضل المرينين⁵، لتتساق القراءات التاريخية نتيجة ذلك وراء توجه نظرية وينفوجل، فجعلت الأعمال الزراعية⁶ من توجهات الدول¹.

¹ - علوي حافضي حسن، **سجل ماسة وإقليمها في القرن 8هـ/14م**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1997، ص 76.

² - فقد سجل بعض الباحثين عملية تنقل ممتلئة إنجاز الخطارات تحت الطلب، انظر؛
-El Faiz (M.), **Les Maîtres de L'eau, Histoire de L'hydraulique Arabe**, Acte sud, 2005, p99.
-Goblot (H.), **Les Qanâts, Une Technique d'Acquisition de l'Eau**, Paris, The Hague, New York: Mouton, 1979, p 151.

³ - البكري، **المسالك والممالك**، م. س، ج2، ص ص 846-847.

⁴ - الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م. س، ج1، ص ص 233-234.

⁵ - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، م. س، ص 407. ابن الحاج، **فيض العباب**، م. س، ص ص 174-181. الوزان، **وصف إفريقيا**، م. س، ج1، ص ص 284-285. ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1423هـ، ج4، ص 179. محمد حجاج الطويل، مادة "السانية"، **معلمة المغرب**، م. س، ج14، ص ص 4830-4831.

⁶ - في نفس الاتجاه على ما يبدو ربط فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، بين تشكل أولى الدول بالعالم نهاية الألف الخامس وبداية الرابع قبل الميلاد، بالفلاحين باعتبار أنهم وحدهم من قاد الشكل الحضري للحياة في ذلك الزمن، فنشأت الدول غالباً بالقرب من الأنهار، لارتباط حاجة الحقول لمياه الري بمجاريها، ويتقدم الحياة الحضرية ازدادت الحاجة للماء إذ تطلبت الزراعة المروية بناء منشآت السقاية، فاستعمل العبيد لشق القنوات من أجل الري أو لتحويل المياه من الأماكن المغمورة بها. فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، **آلاف السنين من الطاقة**، ترجمة محمد غياث الزيات، سلسلة عالم المعرفة، ع 187، يوليو 1994، ص ص 12-13.

ومن الزاوية الاجتماعية، قسم البربر إلى بتر وبرنس، فكان من نصيب البرنس الاستقرار، وكل ما يرتبط به من عمران، فيما بقي البتر ومعهم العرب رهيني الرحلة والابتعاد في القفار²، فمال الاعتقاد نحو اعتبار التقنيات المائية رهينة الحضر من البرنس، لكن الواقع التاريخي يسمح بنقد هذا التفكير، فالمرينيون من زناتة، وهم من البتر، لكن نظرة بسيطة على مجالات وجودهم خلال الفترة قيد الدراسة، تجعلنا أمام مشاهد تقنيات مائية متنوعة، وتوحي بالإبداع والخبرة.³ وقد يرد على هذا القول، بأنهم وافدون عليها⁴ أو انتزعوها من أهلها أو أخضعوهم لسلطتهم؟ مسوغ منطقي، لكن ماذا عن قصورهم بتوات، والتي تحتضن معالم مائية متنوعة⁵؟! ثم ماذا عن صنهاجة الصحراء؟ والتي يفترض أن تكون من المستقرين، فجاءتها أوصاف من قبيل لا يعرفون القمح، ومنهم من لم يره طيلة حياته!! كلا القراءتين السابقتين إذن، تعوزها الأدلة، وهذا ما يدفعنا إلى استحضار بعض الملاحظات التي سجلها إبراهيم حركات حول التصنيف بتر وبرنس، وهي تاليا:

- التصنيف من وضع النسابة العرب والبربر
- البتر عاشوا بعيدين عن مدينة قرطاجة وروما
- تأثر قسم من البرنس بالحضارة الرومانية
- الخلاف بين الكتلتين لا يعدو أن يكون صراعات سياسية بين بعض قبائلهما
- مال زناتة من البتر للعرب فيما مال صنهاجة من البرنس لآل البيت⁶

¹ - محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ط3، 2000/1420، ص ص 148-149. إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، م. س، ج2، ص ص 138-140.

² - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، م. س، ج، ص ص 23-24.

³ - كما أن بعض القبائل الزناتية مثل مكناسة وأوربة، أسهمت إلى جانب قبائل غمارة، التي سيطرت على سهل الهبط في استمرار الإنتاج الزراعي ببعض المستعمرات الرومانية القديمة، وذلك بعدما تمكنت من السيطرة على جل المثلث الروماني وامتداده شرقا عبر ممر تازة. محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 56. ص 197.

⁴ - محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 212.

⁵ - Grandguillaume Gilbert, «Régime économique et Structure du pouvoir: Le Système des Foggara du Touat», In: Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, N°13-14, 1973, pp. 437-457.

⁶ - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، م. س، ج1، ص 24.

الفروق المذكورة سلفاً، والتي استنبطت من قراءة ابن خلدون، يبدو أنها أثرت على تفسير الأحداث التاريخية بمغرب العصر الوسيط، لكن محاولة إسقاطها على عملية انتشار التقنيات المائية بباديته تعترضها الكثير من الصعوبات، حتى أنه ما شيع عن انتقال للمعالم الحضارية، بما فيها المائية من الوافدين على المنطقة، قرطاجيين ورومان، يتصادم هو الآخر مع معطى ديمو-جغرافي - إن صح التعبير-، يعود لمهارة الحراطيين مثلاً من سكان الهوامش الجنوبية والشرقية لجبال الأطلس في فلاحية الأرض واستتباب الماء، وهي مهارات ظلوا محتفظين بها إلى عهود ليست بالبعيدة إن لم يكن إلى اليوم.¹

قد لا تسمح الخريطة البشرية ولا التقنية من تأكيد كلا الزعمين السابقين. أكثر من ذلك تكشف إشارات الوزن عن وجود تقنيات مائية بمناطق مناهضة للسلطة، بل إن تحكمها في موارد الماء كان من عناصر دعم استقلالها عن المركز، كما أن الفترة قيد الدراسة عرفت تداخلاً بشرياً لا يسمح بنسبة الحصائل التقنية في مجال الماء إلى عناصر دون غيرها، فالكل انخرط في حياة آخذة في الاستقرار.

لعل الأقرب إلى الواقع المغربي في هذا المجال إذن، هو ذاك الذي نتلمس بعض مشاهدته في عمل المنازل، والتي تقتضي "الاستعانة بعدة أدوات ومواد وعلوم ومهارات"²، لكن مختلف المواد والعلوم والمهارات التي يركز عليها إنجاز المسكن تنتقل في بعض المجتمعات، اعتماداً على المعرفة المنطقية بالخصائص الحسية من تقدير للمواد بالنظر والسمع واللمس³، ماذا يعني هذا الأمر؟ ببساطة يسمح لنا مثل هذا التحليل بإسقاط الوصف على التقنيات

¹ - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، م. س، ج1، ص ص 22-23.

² - بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانتربولوجيا، م. س، ص 849. ويتوافق هذا القول مع أقوال ابن خلدون في تعيينه لصناعة البناء، والتي على صاحبها معرفة "أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله". ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص ص 513-514.

³ - بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانتربولوجيا، م. س، ص 849. وتعزز مثل هذه القراءة إشارة الإدريسي حول تقنية الخطارة من قوله: "ثم إن الناس نظروا إلى ذلك ولم يزالوا يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات واتصلت بذلك عمارات مراکش وحسن قطرها ومنظرها". الإدريسي، نزهة المشتاق، م. س، ج1، ص 234.

المائية، فلا يكون نقلها إلى المجالات البدوية أمرا مستحيلا، ولا رهينا بمستوى أهلها المعرفي والعلمي، بل عن طريق التلقين المباشر أو الممارسة والملاحظة العينية.¹

من جهة أخرى، يمكن دعم هذا التوجه بخصوص الفترة قيد الدراسة بما شهدته البلاد من تحولات ديمغرافية، بسبب الهجرات العربية من جهة، ثم لما كان من عمليات نزوح عن الأرض بسبب التعسف الضريبي الذي ميز فترات كثيرة من العهد المريني²، لهذا فمن غير المستبعد أن يكون هؤلاء المزارعين قد تحولوا نحو المجالات الآمنة لممارسة أنشطتهم الفلاحية، معززين بذلك حالة اللجوء السائدة نحو المرتفعات الجبلية، واستغلال المنحدرات في الأنشطة الزراعية، إذ إن هذه المجالات بالتحديد عرفت انتشارا للتجمعات البشرية، وهو ما تدعمه إشارات الوزان حول عدد من المراكز والمدن بالسفح الشمالي الغربي لجبال الأطلس، والتي مثلت مراكز هامة للتبادل ما بين رحل ومزارعي السهول وأنصاف الرحل المستقرين للجبال.

عملت الحركة الصوفية بدورها على نشر بعض المهارات الزراعية، ومن ضمنها تلك المرتبطة بجلب واستتباط المياه³، وهو الشيء الذي يصدق كذلك على عمليات النزوح الموريسكية نحو المغرب بعد النكبة⁴، وفي هذا الصدد نعثر على نص بليغ للمقري بما يفيد عمليات النقل الحضاري للأساليب والتقنيات الفلاحية، ومن ضمنها التقنيات المائية، حيث كتب: "ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيرة⁵ تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدو مع بلاد إفريقية، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستتبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت

¹ - الإدريسي، *نزهة المشتاق*، م. س، ج1، ص 234. دونالد هيل، *العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية*، م. س، ص 21. ويمكن دعم هذا الاتجاه بما انتهت إليه أستاذتنا عائشة كنتوري بخصوص الارحاء المائية بفاس، من وجود ما يعرف بـ"المتعلمين" من الأطفال الصغار أحيانا (GANTOURI Aicha, *Le Moulin Hydraulique de Fès*;)، هؤلاء الذين يبدو أنه على الرغم من بساطة الأشغال الموكلة لهم إلا أن وجودهم ضمن تراتب الحرف التقليدية بالمغرب بوجه عام كانت الغاية منه اكتساب التجربة والدربة على الحرف والصنائع عبر الممارسة والملاحظة.

² - محمد الطويل، *الفلاحة المغربية*، م. س، ص 213. عمر بنميرة، *النوازل والمجتمع*، م. س، ص ص 94-119.

³ - الناصري، *الاستقصا*، م. س، ج4، ص 146.

⁴ - محمد الطويل، *الفلاحة المغربية*، م. س، ص 63.

⁵ - من البوار بمعنى الهلاك. ابن منظور، *لسان العرب*، م. س، ج4، ص 86.

بلادهم وصلحت أمورهم وكثرت مستغلاتهم وعمتهم الخيرات، فهم أشبه الناس باليونانيين فيما ذكرت ولأن اليونانيين سكنوا الأندلس فورثوا عنهم ذلك"¹، لا شك أن مثل هذه الشهادات رغم فائدتها العظيمة لا تمنحنا عينات دقيقة بالمستحدث من المنشآت والتقنيات، غير أنها مع ذلك تدعم قضية ارتباط حضارة الماء بالبادية المغربية منذ الأزل بمسألة التحركات البشرية وعمليات النقل والانتقال التقني، ومن هنا لا يمكن إغفال ما قد تكون مختلف القبائل الوافدة على البلاد من ثقافة مائية، مما اكتسبته في مسارها من عملية التأثير بمختلف البيئات التي عبرتها قبل الاستقرار بالمغرب.

معطى الهجرات إذن، قد يشكل جوابا لتتقل المعارف والخبرات التقنية الخاصة بالماء داخل مجال البادية المغربية، وهو المعطى الذي تعزز خلال الفترة قيد الدراسة بتأثير العامل السياسي من جهة، والاقتصادي من جهة أخرى، ذلك أن اتساع عمليات استغلال الأرض لغرض الغراسة والزراعة كان يستوجب القيام بعمليات الإعداد الهيدروفلحي.

ثم إن عملية الانتشار الواسع لنمط الرعي بالسهول الأطلسية، قد يكون وراء انتشار موارد القطعان، والتي كثيرا ما تكون عبارة عن آبار للورود، أما السواقي فيما تفرضه من شروط طبوغرافية معينة فإنها تبقى رهينة مجالات معينة، ووفق كثافة سكانية لا بأس بها²، ذلك أنها تحتاج لمجهودات مضاعفة أثناء الإنشاء³ وفي أعمال الصيانة والتتبع، ناهيك عما يستحضر خلال الإنشاء من هواجس الأمن، والتي تؤثر على شكل وهندسة التقنية.

قضية أخرى لا بد من إثارتها عند هذا المستوى، وهي تلك المتعلقة بدور السلطة الحاكمة في التأسيس للمشاريع الكبرى والعامة⁴، والتي يبدو أنها دفعت العديد من الباحثين إلى الربط بين الأنشطة الفلاحية بوجه عام، والمشاريع التي تشرف على إنجازها السلطة⁵، ومن

¹ - المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت - لبنان، 1997، ج3، ص 152.

² - ويتناسب مثل هذا القول مع ما ذهب إليه محمد الأمين البزاز من أن العمل البشري هو الذي ينتج الثروة مستعيضا بذلك على ضعف المستوى التقني، حتى أضحت الوسيلة الوحيدة أمام المجتمع المغربي لتنمية إنتاجه وتلبية الحاجيات هي العمل على إنتاج الإنسان نفسه وزيادة أفراد نوعه. محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب، م. س، ص 23.

³ - محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 95.

⁴ - دونالد هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، م. س، ص 222.

⁵ - محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 203.

ضمنها في الفترة التي تهما أعمال السلاطين المرينيين في الميدان الفلاحي¹، حتى حكم محمد الطويل على هذه الفترة بالركود والتراجع، فيما يخص الأعمال الزراعية، ومن ضمنها عملية تطوير وسائل الإنتاج²، وهو حكم قد لا ينطبق على غير السياسة العامة، فيما قد يجافي الواقع إذا ما أُسْقِطَ على المشهد التقني الخاص باستغلال الموارد المائية.

الجدول رقم 27: الاحتفاء الإخباري ببعض التقنيات المائية بالمغرب خلال العصر الوسيط

الدولة	التقنيات المائية	المصدر
المرابطية	الخطارات	نزهة المشتاق، ج2، ص ص 233-234 الاستبصار، ص ص 209-210 مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979، ص 145
الموحدية	السواقي/ السدود السواني	نزهة المشتاق، ج 2، ص ص 245-247 الاستبصار، ص ص 180/ 186-187. 293 البيان المغرب، ج3، ص 454 الأنيس المطرب، ص282.
المرينية	الناعورة/ السانية	الأنيس المطرب، ص 407 الحلل الموشية، ص 177. فيض العباب، ص ص 174-181/ ص 211-212

كان قدر المغرب عموماً، وضمنه باديته، أن يرتبط في كل توجه حضاري بعقدة النظرة إليه من بعيد، فصار وكأنه عاجز عن تحقيق أي تقدم دونما دفعة من الشرق أو الغرب، وحتى التقنيات المائية لم تحد عن هذا التوجيه، فكان إرث الغزاة الأوائل (الفيقيين والرومان) تارة هو الموجه، وتارة ينسب الفضل إلى القادمين من الأندلس، والتي تدين بالفضل للعرب الفاتحين³،

Madani Tarik, **L'eau dans le monde musulman médiéval**, Thèse de Doctorat de L'université Lyon II, 2003, Deuxième Partie, Chapitre III, D3- les études archéologiques.

ALLAIN (ch), «**Reconnaissances Archéologiques Dans Le Massif des Rehamna et la Bahira II, une organisation agricole almohade dan la Bahira**», op. cit, pp 436-458.

¹ - محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، م. س، ص ص 148-149.

² - محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 96.

³ - كتب دونالد هيل: "كانت الجيوش الإسلامية الفاتحة تضم فرقاً من سوريا والعراق واليمن. وبينهم بلا شك مهندسون بارعون في الأعمال الهيدروليكية. نقل هؤلاء المهندسون تقنيات الري إلى إسبانيا وأسسوا هناك بنية الازدهار الزراعي، التي تعتبر واحدة من أهم السمات المميزة لإسبانيا في العصر الإسلامي، ولم تعرف أوروبا مثل ذلك من قبل". دونالد هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، م. س، ص 211.

ولعل مستند مختلف هذه التأويلات يقوم على أن هندسة الري بالمغرب تنطلق من الحواضر في اتجاه البوادي¹، لكن ماذا عن العكس؟ كيف يبرر وجود مهرة في حفر الخطارات من أهالي درعة وتودغة بمراكش، وكل الفضل لأبي عبيد الله المهندس؟ بما تفسر الإشارة إلى طواحين الماء بكرسيلون؟ وأين موقع ناعورات سجلماصة من التأريخ لهذه التقنية بالمغرب، والتي ربطت حصرا بناعورة فاس والمهندس الإشبيلي؟ لا جواب، لكن تكثر الاستفهامات وعلامات التعجب حول الموضوع.

لنأخذ مثالا على مدى عمق إشكالية النقل والانتقال في ميدان الهندسة الهيدرولوجية، برزت تقنية الناعورة في المصادر المرينية، فقد احتفى العديد منها بإنشاء الناعورة الكبرى بفاس، وأفردوا لها من الأشعار والمحاسن ما جعل العديد من الباحثين ينظرون إليه مؤشراً يعين تأريخ دخولها إلى المغرب، فهل الأمر كذلك حقاً؟ ثم أياً كان الجواب ما أثر ذلك على انتشارها ببعض بوادي المغرب؟ ثم بين الناعورة بفاس والخطارة بمراكش أهو تبادل لمفاخر الدول؟ ما الإضافة التي قدمتها هذه التقنية في مجال استغلال المياه بالمغرب الوسيط؟ وقبل هذا وذاك، ماذا عن الأصول التاريخية للناعورة؟ وأخيراً كيف يمكن استثمار حدث مثل هذا في تبيان الصعوبات التي تعترى فهم عملية انتشار التقنيات المائية؟

ليس مؤكداً منشأ تقنية الناعورة المائية، فقد كانت معروفة في العالم الروماني - حسب دونالد هيل-، واستخدمت في الصين كذلك لنفس العهد الذي بدت فيه بروما (ق 1 ق.م)، ومن المحتمل حسب نفس الباحث أن تكون قد "اخترعت في مكان ما في المناطق الجبلية جنوبي غرب آسيا، ربما في سوريا الشمالية أو إيران، وانتشرت إلى الشرق والغرب من منطقة الأصل"²، وفيما تنتشر الأدلة على انتشار استخدامها في بلاد الإسلام خلال القرون الوسطى،

¹ - نعثر لدى محمد الطويل على تفسير يتأسس على تمديد الأنشطة الزراعية من المستعمرات الرومانية نحو باقي مناطق المغرب الأخرى، فكان أن اتسعت الرقعة الزراعية على العهد المرابطي نحو الجنوب، على طول الدير الشمالي والغربي لدرن وفازاز، ثم حول الحصون والمدن المرابطية، وكذا نحو الواحات والأودية حيث أصبح الصحراويون يترددون نحوها كثيراً خاصة في موسم الصيف للتزود بالحبوب التي دخلت في تغذيتهم منذئذ. محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 203.

² - دونالد هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، م. س، ص 133.

حيث يظهر أول مؤشر عليها في آثار قناة بالبصرة في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي¹، فإن التأريخ لظهورها بالمغرب يبقى مثار جدل واجتهادات.

وفي سياق النقاش الذي دار حول تقنية الناعورة بالمغرب، وإشكالية تداخلها مع تقنية السانية، وكذا تأصيل ظهورها بأرض المغرب، نسجل جملة من الملاحظات:

• ذهب جزء من النقاش إلى التداخل الحاصل في حديث المعاجم ما بين السانية والناعورة²، وهو غموض انتقل إلى الأبحاث والدراسات التي عنيت بهاتين التقنيتين، وبقي في مجمله تائها بين سانية بمعنى ناعورة في معنى واحد³، ثم يرتفع لوضع تميز فيه الناعورة برفع الماء من مجاري الماء، خاصة الأنهار، وتستوجب قوة جريان مائي، فيما تعمل السانية على رفع الماء من الآبار⁴، فيما كلتاها يعملان بواسطة دولاب.

• هم التأصيل للناعورة بالمغرب التميز بين مادة النصوص الأدبية والمعطيات الأركيولوجية، فإذا كان النص الإخباري يدعم وجودها بالمغرب المريني، ضمن أعمال سلاطين دولة بني مرين، وكذا مشاهد استغلال الماء ببعض بوادي المغرب، فإن نصوصاً أخرى منقوبة بالأساس تأتي بكلمة (ناعورة) صفةً دونما تحديد للمراد منها⁵، أما

¹ - دونالد هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، م. س، ص 134.

² - فالناعورة: الدولاب. "واحد الدواليب. وفي المحكم: على شكل الناعورة، يستقى به الماء، فارسي معرب. (ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج1، ص 377. ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، م. س، ج9، ص 336). و"الناعور: جناح الرحى. والناعور: دلو يستقى بها. والناعور: واحد النواعير التي يستقى بها يديرها الماء ولها صوت." (ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج5، ص 222. ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، م. س، ج2، ص 107) وفي تفرقه بين المنجنون والتي عرفها على أنها "الدولاب التي يستقى عليها". فيما نقل عن ابن سيده وغيره تعريفه على أنها "أداة السانية التي تدور" (ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج13، ص 423. ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، م. س، ج7، ص 601) و"تديرها البقرة والناعورة يديرها الماء" (ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج14، ص 266) العامل على السانية "النضاح: الذي ينضح على البعير أي يسوق السانية ويسقي نخلاً" (ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج2، ص 619) فيما عرف موضع منتهى السانية من مجذب الدلو بالقاعة. ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج8، ص 305.

³ - دوزي، تكملة المعاجم العربية، م. س، ج4، ص 450. ج10، ص 253.

⁴ - تحدث البكري عن بئر السانية بخارج مدينة أصيلة كأحد الآبار ذات المياه العذبة. البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص 790.

⁵ - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 469.

البحث الأركيولوجي، فعلاوة على محدودية نتائجه مجالياً¹، فإن ما يقدمه من نتائج لا تصل إلى درجة الاطمئنان لها لهدم فرضية تأخر الناعورة إلى العهد المريني.

وإجمالاً، فإنه يبدو أن التمييز بين آلة الدولاب، التي تلتقي فيها الناعورة والسانية²، وطريقة رفع الماء التي يتباينان فيها. فباعتماد الطاقة المائية من النهر مباشرة، نكون بصدد الحديث عن الناعورة، وحين يكون الاعتماد على الطاقة الحيوانية، فإننا نعني السانية. إذن فشكل الطاقة المحركة للدولاب يمكنه أن يمثل أساساً للحديث عن تطور في المسار التقني لاستغلال الماء بالمغرب، ذلك أن استغلال طاقة الماء الجاري كما شكلت مرحلة متقدمة في مسار التطور الحضري للإنسانية، فإنها كذلك "منحت الناس ثقة وقوة أكبر بأنفسهم"³.

ويدعم اللخمي في معجمه "المدخل إلى تقويم اللسان" هذا التمييز بين الناعورة والسانية، فكتب: "ويقولون للآلة التي تُرْبَطُ فيها الكِيزَانُ لإخراجِ الماءِ من البئرِ: (سَانِيَّةٌ). وبعضُهم يُسمِّي البئرَ نفسَها: سَانِيَّةً، وذلكَ خَطَأً. وإِنَّمَا السَانِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ الْبَعِيرُ أَوْ الثَّوْرُ أَوْ الْحِمَارُ يُرْبَطُ بِهِ الرَّشَاءُ فَيُخْرَجُ الْعَرَبُ إِذَا عَظُمَ وَلَمْ يُقَدَّرْ عَلَى جَذْبِهِ بِالْيَدِ. وَالنَّاصِحُ كَالسَانِيَّةِ، وَالْجَمْعُ: نَوَاصِحُ... فَأَمَّا الْآلَةُ فَهِيَ (الدُّوْلَابُ والدُّوْلَابُ)، بضم الدال وفتحها... ويُقالُ لتلك الكِيزَانِ: (العمامير). والعامةُ تقولُ لها: القَوَادِسُ، والواحدُ عندهم: قَادُوسٌ. والصوابُ: قَدَسٌ، وفي الجمع: أَقْدَاسٌ وَقُدُوسٌ. وإنْ كانت تلكَ الآلةُ واسعةً مُدَوَّرَةً معَ أَجْنَحَةٍ لَطَافٍ تَصِييها جَرِيَّةَ الماءِ ولا تحتاجُ إلى مَدِيرٍ سِوَى جَرِيَّةِ الماءِ فَهِيَ (ناعورةٌ)، ولا تكونُ إِلَّا على نَهَرٍ، ولها صُورَتٌ في دورها وبه سُمِّيَت ناعورة. وكلُّ ما يُعْرَفُ بالدَّوَرِ فَهِيَ المَنجُونَاتُ، والواحدُ مَنجُونٌ وَمَنجَنِيٌّ"⁴.

وبعيداً عن نقاش الأصول الأولى لنشأة وانتشار تقنية الناعورة بالمغرب، لنعد إلى مادتها في المصادر التاريخية بخصوص الفترة المدروسة، فقد قدمت النصوص التاريخية معطيات عن الناعورة على العهد المريني، وإن كان هذا لا يحسم في تاريخ ظهورها الأول في المغرب، فإنه

¹ - العجلوي الموساوي، "تقنيات استخراج المياه الباطنية في مناجم الفضة بالمغرب (2-7هـ/8-13م)"، ضمن ندوة:

الماء في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - عين الشق، الدار البيضاء، 1999، ص 106.

² - انظر مثلاً الأوصاف التي يأتي بها المقرئ، في عدة مواضع من كتابه نفح الطيب. المقرئ، نفح الطيب، م. س، ج1، ص 670/ج2، ص 287/ج4، ص 125.

³ - فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، آلاف السنين من الطاقة، م. س، ص 41-42.

⁴ - ابن هشام اللخمي، المدخل إلى تقويم اللسان، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 1424هـ/2003م، ص 373.

من جهة أخرى، يحمل بعض التساؤلات حول؛ لِمَ لَمْ يستفد المغاربة من هذه التقنية بشكل واسع؟ ثم هل يحق لنا المجادلة حول أهمية دور المرينين في نشر هذه التقنية؟

للإجابة على هذه التساؤلات، نرى ترتيب النصوص المصدرة حول مادة الناعورة مما توصلنا إليه من نصوص حولها، وفي هذا الاطار نضع الجدول أسفله.

الجدول رقم 28: الناعورة من خلال الاشارات المصدرة

المصدر	النعت	المجال	أهميته
ابن أبي زرع (726هـ)، الأنيس المطرب، ص 407	ناعورة	فاس	التأريخ لناعورة فاس
مجهول (ق 8هـ)، الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص 177.	ناعورة	فاس	التأريخ لناعورة فاس
العمري(749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج4، ص179.	ناعورة	فاس	الإخبار عن ناعورة فاس
ابن الحاج النميري (774هـ)، فيض العباب، ص ص 174-181/ ص 211-212	ناعورة	فاس وخارجها	توسع بناء النواير بفاس وضاحتها
ابن الخطيب (776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ، ج2، ص 81 معيار الاختيار، ص 176	دولاب	فاس	تحديد صاحب العمل
	ناعورة	فاس	التغني والإعجاب
الوزان (ق 10هـ)، وصف إفريقيا، ج1، ص ص 284-285/ ج1، ص 294/ ج2، ص 127	ناعورة	فاس	الوصف/ جنسية الصانع
		جبل زلاغ	انتشار التقنية
		سجلماسة	إشكالية التأصيل

والى جانب هذه النصوص المثبتة في الجدول أعلاه، ينقلنا النويري في نهاية الإرب عبر مجموعة أشعار تبرز بعضا من خصائص معالم اشتغال الناعورة، والتي وضعها جنباً إلى جنب مع الدولاب، إلا أنها ليست مخصصة لنواير جهة محددة، فلم يكن وضعها في الجدول أعلاه ليخدم الغاية منه، إلا أن ما تختزنه من معطيات قد يسهم في تأكيد ارتباط الناعورة

بالأنهار¹، والشيء ذاته يصدق على مسالك الأبصار للعمري في بعض مواضعه²، وكذا نفح الطيب للمقري³.

تتقابل مادة النصوص التاريخية مع معطيات المعاجم العربية فيما يخص تحديد التقنية، لكنها في المقابل تحفل بإشارات ذات دلالات تاريخية، فهي تحيل على ارتباط بين مواضع وجود تقنية الناعورة/ الدولاب وبين الإمكانات المادية لأهله (الأغنياء)⁴، وهذا الأمر قد يقدم جواباً عن سبب غياب الناعورة عن المشهد المائي بالمغرب في المصادر قبل العهد المريني، والحديث هنا عن تكاليف إقامة هذه التقنية⁵، ويدعم هذا التوجه نص للقزويني حول أسلوب استخراج معدن الفضة بمناجم زكندر، باستخدام دواليب تتشابه في وصفها مع السانية، إلا أن القيام بها لا يصح "إلا من صاحب مال كثير"⁶، فكيف لفلاح ينتعش على مهنة المستضعفين أن يوفر من الموارد ما يكفيه لبناء ناعورة مع ما تتطلبه من تكاليف؟

يبدو أن وضعية الفلاحين بالبادية المغربية بوجه عام يمكن أن تشكل مدخلا لفهم الضعف التقني في ميدان إمداد الاستغلاليات الزراعية بالماء، ففي ظل وضع اجتماعي عام ساد فيه تمثل سلبي تجاه ممتهني الزراعة، وما يكاد يتفق عليه الباحثون من ضعف مساهمة

¹ - النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1424هـ/2004م، ص ص 270-286.

² - العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، م. س، ج15، ص 572. ج16، ص ص 218-219.

³ - المقري، نفح الطيب، م. س، ج3، ص ص 330-331.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص ص 284-294/ ج2، ص 127. من جهته انتبه عمر بنميرة إلى دور الإقطاع في انتشار الملكيات الخاصة ذات المساحات الواسعة، والتي يذهب إلى موافقة "لازريف" حول ارتباط نشأتها بالعهد المريني. ينظر؛ عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 268-273.

LAZAREV (G.), «Les concessions foncières au Maroc, Contributions à l'étude de la formation des domaines personnels dans les campagnes», in Annales Marocaines de Sociologie, 1968, p20-22.

⁵ - لقد تنبه بعض الباحثين في المشهد الفلاحي بالمغرب المريني إلى توسع دائرة المنتفعين من الإقطاعات المخزنية، ليشمل دائرة من خواص الدولة ورجالاتها، الأمر الذي أثر على الإنتاج الفلاحي، بعدما سيطر عدد من هؤلاء على وسائل الإنتاج، فتعطلت الكثير من الاستغلاليات وهمش عدد كبير من الفلاحين، الذين تحولوا إلى عمال مزارعين (خماسة ورياعة...)، أو انتقلوا إلى الرعي والترحال أو غيروا الحرفة، وفي المقابل عمل كبار الإقطاعيين على استغلال الأرض، وعليه، فليس من المستبعد أن يكونوا قد صرفوا الأموال في إقامة النواصير لضمان تزويدها بالماء. محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص ص 98-99.

⁶ - القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت - لبنان، ص 200.

الدولة المرينية في الميدان الفلاحي، ناهيك عن عامل الضغط الجبائي الذي كان له -وفق الصورة التي نقلها الوزان- انعكاسات شديدة على الحياة الزراعية، كلها عناصر يمكن الانطلاق منها لتفسير ليس فقط الانكماش الذي عانت منه الفلاحة المغربية خلال هذه الفترة بل أيضا تقديمها عناصر أسهمت في تراجع أعمال الاعداد المائي بالبادية المغربية، خاصة بالمجالات التي تخفت بها سلطة الدولة، فيقع الفلاح تحت رحمة العمال المستقلين باقطاعهم، أو الأعراب المتغلبين على العديد من البوادي المغربية، لينضاف هذا الوضع إلى محدودية وضعف مردودية الانتاج الفلاحي القائم أساسا على استغلاليات معاشية، لكنه في مقابل هذه الفئة العريضة من المشتغلين بالزراعة، يبدو أن المرينيين ونتيجة لطريقة تعاملهم مع الأرض قد أوجدوا نخبة من أصحاب الاقطاعات الكبرى، والذين توفرت لديهم أسباب تطوير بعض المساحات للاستغلال الزراعي، كما توفرت لهم الموارد لإنجاز مشاريع مائية بحجم إقامة النواير المائية.

همت أغلب نصوص الإشارات مجال فاس، إلا أن الوزان ينفرد بالحديث عن نواير أخرى بجبل زلاغ وسجلماصة، وكلها تعرف وجدود طبقة من أرباب الأراضي من أصحاب الحضوة لدى السلطة المرينية. إذن، يمكن الاعتماد على هذا المعطى لمراجعة بعض من النقاش حول تاريخ دخول هذه التقنية إلى المغرب، وربط الأمر بالمعطى الاجتماعي¹، والذي يدعم الطرح القائل بظهور الناعورة بالمغرب على العهد المريني، في مقابل الطرح التقني الذي يجعل من التأريخ لتقنيات تتشابه أو تفوق في التعقيد الناعورة المائية، أساسا لافتراض وجودها قبل هذا التاريخ.²

من جهة أخرى، يبدو أن المجال الذي عينته إشارات الوزان، علاوة على تركيز العصبية المتغلبة به، يعتبر الأنسب لإقامة النواير، إذ يمكنه توفير شروط إدارة عجلتها بواسطة المياه،

¹ - فقد حدد كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، الإطار الذي جاء فيه ابتكار الناعورة بالرغبة في التخلص من أعباء الاعتماد على الطاقة البشرية ممثلة في العبيد لدى الإغريق (فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، آلاف السنين من الطاقة، م. س، ص 32-33)، وهو ما يمكن إسقاطه على رغبة مماثلة لدى أرباب الإقطاعات في العهد المريني لتخفيض تكاليف الإنتاج.

² - إسكان الحسين، "تكنولوجيا التحكم في الماء بالجنوب المغربي خلال العصر الوسيط"، مجلة أمل، ع24، السنة الثامنة، 2001، ص 21.

إذ به مجاري مائية سطحية على خلاف المواضيع التي تناولها البحث الأثري وجر نقاش الناعورة إليها (زكندر / مراكش).

لعل الاهتمام الذي انفردت به المصادر المرينية حول تقنية الناعورة، وخريطة مواضعها التي اتسعت في إشارات الوزان، يسمح بالحديث عن أهمية الدور المريني في نشر هذه التقنية من جهة، ويشكل جوابا لإسهامهم في تطوير مجالهم الجديد (الخريطة رقم 6)، بل ويدفعنا للتساؤل عن عدم لجوء الموحدين لهذا الحل في تطوير عمليات الري بالسهول الأطلسية، وهي التي شكلت مركز استراتيجيتهم للاقتصاد الفلاحي؟ ومعتمدنا في هذا التساؤل يرجع إلى شهادة مجهول الاستبصار، والتي تفيد بوجود إمكانيات في دعم استغلال مياه سبو، إذ لو تنبه السلطان لسهولة إخراجها في بعض المواضع يقول صاحب الاستبصار: "كانت البلاد التي يسقيها أشرف البلاد وأخصبها".¹ ومن ثم، فبقدر ما يدعم هذا النص توجه الموحدين في إخراج السواقي فإنه يدعم بشكل مبطن أيضا قيام إشكالية في رفع المياه من الأودية والأنهار المتعمقة المجري، "ولا شك أن هذه الوضعية كانت تتطبق على جل المناطق التي تخترقها أنهار غزيرة، مثل نهر أم الربيع، وأبي رقرق".²

ثم إن انتشار النواعير على العهد المريني، قد يبرر في سياق القفز على القواعد الشرعية فيما يرتبط بتملك الماء، ومنه لتلافي إقامة سدود التحويل، مما يتعارض مع مصالح أرباب السدود الأخرى، فإن القيام برفع الماء عبر الناعورة قد يبدو حلا مجديا³، إذ يسمح بالاستفادة من المياه دون ما حاجة إلى تمريرها عبر أراض الآخرين⁴، مما كان يتسبب في خلق مشاكل اجتماعية.⁵

¹ - مجهول، الاستبصار، م. س، ص 185.

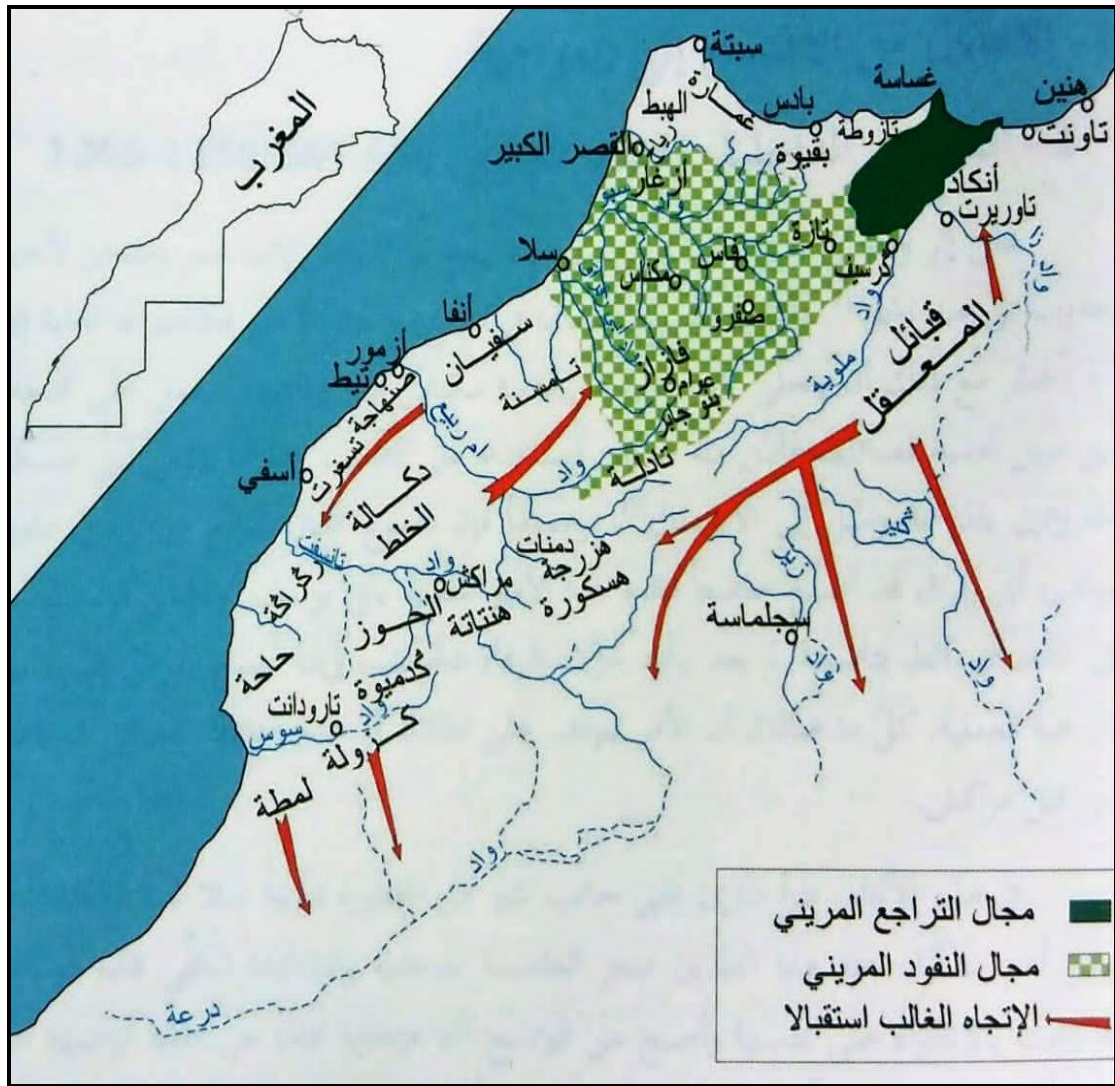
² - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 281.

³ - ابن الحاج النميري، فيض العباب، م. س، ص 211.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص ص 284-285.

⁵ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 303.

الخريطة رقم 6: التوزيع القبلي وبداية التموقع المريني بالمغرب أواسط القرن الثالث عشر للميلاد¹



وقبل الانتهاء من هذه القراءة التاريخية، يبدو أن إشارة نص ابن الخطيب إلى المهندس محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج، بقدر ما أنها إشارة عابرة في سياق الترجمة له، إلا أنها تختزل الكثير من التفاصيل التي يمكن استغلالها في تحديد المهارات الواجبة في المشتغل على إنجاز الناعورة، وهي في عمومها، مهارات نجار ومهندس في البناء²، مع ما عرف به من مهارة "في نقل الأجرام، ورفع الأثقال، بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية"³، ثم

¹ - محمد القبلي، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، م. س، ص 73.

² - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م. س، ج 2، ص 81

³ - الناصري، الاستقصا، م. س، ج 3، ص 22

إنه بربط هذه الترجمة بإشارة للوزان حول كون النواعير التي بفاس من عمل إسباني¹، قد تفيد أن التقنية وافدة على المغرب من الأندلس، لكنها سرعان ما انتقل منها إلى الأهالي حيث يصنع البستانيون بجبل زلاخ، "بما لديهم من وسائل نواعير ترفع ماء النهر لتسقي به الأراضي الفلاحية"²، وهذا المشهد يتوافق مع عملية انتشار الخطارات بمجال مراكش، بعدما نظر الناس في عمل أبي عبيد الله بن يونس المهندس³، إذ في المقابل - حسب ابن الخطيب - تحدى إلى مشاهدة الدولاب (الناعورة) التي وضعها بن الحاج بفاس الركاب⁴.

وهكذا، جعلنا قراءة سريعة لانتشار تقنية الناعورة بالمغرب على العهد المريني، وطبيعة ورودها في النصوص المصدرة أمام تكرار لعملية نقل تقني لأساليب استغلال المياه بالمغرب الوسيط، وخلالها يبدو أثر الحواضر على البادية ظاهراً للعيان، غير أنه لا يلغي الوضع الاجتماعي والشروط المادية من طبيعة واقتصاد. لنختم بالقول: إنه يمكننا التمييز في عملية انتشار التقنيات المائية بين معطي؛ النقل (الاستقدام) والانتقال (الانتشار)، حيث تأتي التقنيات المائية مشاهد ينبر بها الناس في الحواضر، بعدما نقلها الحكام عن تجارب بشرية أخرى، ثم يتم انتقالها إلى البوادي عبر بوابة الرحلة - التجارة والسلطة، فكما الماء رفيق السلطان⁵ (بدوشة وويتفوجل) فإن تقنياته من رواحل المسافرين والتاجر⁶.

2- تقنيات الإعداد المائي بالبادية

إذا كانت عبارات من قبيل "مصر هبة النيل"، و"مراكش هبة الخطارات"....، وغيرها تنطلق من الأهمية التي لعبها كلا الموردين للماء في نهضة وازدهار المجال الذي ارتبطت به،

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 284-285. وقد يكون النعت الذي أطلقه هنا الوزان على بن الحاج راجعاً إلى ما ساد عنه من ميل نحو التصرف كالروم، حتى وسم في إشارات ابن الخطيب بالمتهم على الإسلام" (ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م. س، ج1، ص 206)، كما عرف عنه شدة معرفته وتشبيهه بالروم، الذين كان أعلم الناس بأخبارهم وسيرهم وآثارهم. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م. س، ج3، ص 255.

² - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م. س، ج1، ص 294.

³ - الإدريسي، نزهة المشتاق، م. س، ج...، ص 233-234.

⁴ - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م. س، ج2، ص 81.

⁵ - بيار بونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الانتولوجيا والانتريولوجيا، م. س، ص 58.

⁶ - انظر إلى حديث الوزان عن التاجر الجينوي ودوره في وضع تصاميم القنوات الناقلة للماء بفاس من عين عميرة. الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 284-285.

فإن البادية المغربية بدورها عرفت عددا من التقنيات المائية، التي يعود لها الفضل في استقرار الإنسان وازدهار مجالاتها المتنوعة، فهي "مثال جيد على التكيف الحتمي للإنسان مع ظروفه الصعبة"¹، فكانت الآبار إلى جانب الجمال أداة تمكين التجار من عبور مفاوز الصحراء، وعمت السواقي مختلف نواحي المغرب عاملة على تمكين المزارعين من المياه لسقي حوزاتهم الزراعية، كما عمت الاستفادة من مياه العيون² والأودية بكل الطرق الممكنة في مشهد فسيفسائي لمناظر تدبير المياه بالبادية المغربية.

تطرح مسألة التقنيات الفلاحية بوجه عام إشكالات تاريخية، إذ اعتدت من ضمن العناصر التي أخذ الأجانب فيها على المجتمع المغربي ركوده الحضاري وعجزه عن التقدم بعض الأحيان عما خلفته روما³، حتى وصفت حالة التقنيات المغربية بالعناقة⁴، ونظامه الإنتاجي بنظام الكفاف⁵، بل إن مثل هذه الخلاصات دفعت بأحد الباحثين المغاربة إلى تحديد مشكلة المغرب الوسيط ليس في الماء، ولكن في كيفية الاستفادة منها واستغلالها، فلم "يكن الماء مشكلة المغرب كما تدعي بعض الدراسات، فمشكلة المغرب الحقيقية في هذا المجال تكمن في كيفية الاستفادة من المياه واستغلالها على الوجه الأنفع⁶، ومع أن باحثا آخر يرى على عكس هذا الطرح، "أن أساس المشاكل التاريخية بالمغرب الأقصى، هو مشكل "الماء"⁷، إلا أنهما ينتهيان إلى نفس التفسير، ذلك أنه لم يجد بدا من التصريح بأنه لا يفسر تموقع الماء

¹-Mustapha Nami, «Ces Bâtisses Qui Construisent Les Territoires Et Les Paysages Culturels», Hespéris-Tamoda, LII(3), 2017, p 43.

²- محمد أيت تعرايت، التشكيلات القبلية والبنىات الاقتصادية والاجتماعية بطاطا وأثر التدخل الفرنسي عليها وردود الفعل المحلية 1883-1956، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومة وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط، ط1، 2017، ص ص 350-352.

³-Laoust (E.), «Le Nom De La Charrue et de Ses Accessoires Chez Les Berbères», Archives Berbères, V4, pp 27-29

⁴- حبيدة محمد، "التقنية والتنظيم ملاحظات أولية حول القرنين 17 و 18م"، ندوة: الماء في تاريخ المغرب، كلية الآداب، عين الشق، الدار البيضاء، 1999م، ص 129.

⁵- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، م. س، ص ص 29-32.

⁶- محمد الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 90.

⁷- هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، م. س، ج2، ص 291.

كمشكل بالنسبة للمغرب، "إلا بعدم سيطرة المغاربة على مواردهم المائية"¹، ومن تم يرى أن هذا الوضع هو المفسر أيضا لتمرکز الحياة في المناطق التي يسهل عليهم فيها استغلاله.

فلا مناص من الفصل بين مستوى الإنتاج والتقنيات المستعملة فيه، والتي يعمل من خلالها الإنسان على تدليل الصعوبات الطبيعية التي تقف أمام استغلاله للمجال، وبها يتمكن من تحقيق ما قد يعجز دونها عن بلوغه، وفي هذا كتب ابن خلدون: "وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة... إنما كانت بقدرهم متفرقين أو مجتمعين فيتخيل لهم أجساما تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهدام² والمخال³ وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية"⁴، فالإنتاج إذن، دليل على أهمية التقنية والآلة المستعملة في إنجازهِ.⁵

وتأكيدا على ما سبق فإن الانتشار الجغرافي للتقنيات والمنشآت المائية بالبادية المغربية يرجع لعدة عناصر، لعل أهمها الحالة المناخية وطبيعة وجود موارد الماء بفضاءات البادية المغربية. وتبعاً لذلك، تنوعت الأساليب والتقنيات المستعملة في جلب وتوزيع الماء من منطقة إلى أخرى.

عرف مجال البادية المغربية خلال الوسيط عموماً، انتشار عدد من التقنيات المائية تتناسب في الكثير من الأحيان مع طبيعة المجال⁶ والأنشطة الفلاحية به، خاصة منها الأعمال الزراعية. وعموماً، ففي الوقت الذي يصعب فيه وضع خريطة دقيقة لتوزيع التقنيات والمنشآت المائية بالمغرب نهاية الوسيط، فإن الواضح أنها كانت تستجيب للإكراهات الطبيعية والمستوى التقني للجماعات البدوية، ومنه حق وسمها بالتقنيات المكيفة مع البيئة الإنتاجية والمجتمع أيضاً.

¹ - نفسه.

² - هندمة: "آلة (Machine) والهدام: (الميكانيك)". دوزي، *تكملة المعاجم العربية*، م. س، ج 11، ص 24.

³ - مخل: مخل (يونانية) والجمع امخال: قضيب حديدي، عتلة حديدية، ملقاط، ماشة طويلة... المخل عند المولدين آلة

مستطيلة من حديد ونحوه تعلق بها الحجارة. دوزي، *تكملة المعاجم العربية*، م. س، ج 10، ص 25.

⁴ - ابن خلدون، *ديوان المبتدأ والخبر*، م. س، ج 1، ص 429.

⁵ - فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، *آلاف السنين من الطاقة*، م. س، ص ص 12-19.

⁶ - عمر بنميرة، *النوازل والمجتمع*، م. س، ص 293.

الجدول رقم 29: توزيع "افتراضي" للتقنيات المائية بالمجال المغربي بالنظر إلى طبيعة السطح ومورد الماء

طبيعة السطح	شكل الماء	التقنية	عناصرها	أدوارها
منبسط	باطني	أغرور	بئر/دابة/قناة	الري
		البئر	أدوات لجر المياه	الشرب / الري
		السانية	بئر/ دابة/ دولاب	الري
	العيون	الساقية	سد التجميع/ قناة الجر/ مصارف	الشرب/ الري
	سطحي منقطع	الساقية	سد التحويل/ قناة الجر/ مصارف	الري
	سطحي دائم	الناعورة	دولاب/ الجابية/ قناة	الري
جبلي	سطحي	الساقية	سدود التجميع/ القناة	الري
		الطاحونة	دولاب/ البناء	الغذاء
	العيون	الصهاريج	الخزان/قنوات التصريف	الري/ الشرب

يمكن التمييز إذن، بين ثلاثة أساليب تقنية لاستغلال المياه؛ الجر، والرفع، والتجميع. وإذا كانت كل هذه الأساليب معروفة بالبادية المغربية، غير أنها عرفت تباينا في التوزيع نتيجة الظروف الجغرافية¹، ذلك أنه في الوقت الذي قد تأتي فيه تقنيات الجر كأيسر الأساليب التقنية لاستغلال الماء، إلا أنها تتطلب، مع ذلك، قدرا من التخطيط الهندسي ووفرة في اليد العاملة²، والحديث هنا طبعا عن السواقي والمصارف.

الساقية؛ يحملنا الحديث عن الساقية إلى إنجاز مضمون معجمي حولها، وهو عموماً، يذهب نحو معنى شمولي، يضع الساقية مسمى لكل ما من شأنه نقل الماء لغرض السقي³،

¹ - من خلال قراءة فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، لمسار تطور استغلال الطاقة في مسلسل الحضارة الإنسانية، يبدو أن الإنسان بدأ باستغلال مياه المجاري قبل أن يعتمد إلى جر المياه وتعبئتها لينتهي برفعها بالدواليب. فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، **آلاف السنين من الطاقة**، م. س. ص ص 5-34.

² - فمنذ بداية تفكير الإنسان في "شق القنوات من أجل الري أو تحويل المياه من الأماكن المغمورة بها"، وإنجاز المشاريع المائية الكبرى، كان الاعتماد على طاقة العبيد، والتي شيدت الجيوش الجرارة منها منشآت ضخمة، كأهرام مصر أو حتى خزان ماء احتياطي بلاغاشة، إحدى المدن القديمة لأشور بداية الألف الثالث قبل الميلاد، والذي يسع لأكثر "من مائتين وعشرين ألف لتر، وقد استعمل في سقاية الحقول في أوقات الجفاف". فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، **آلاف السنين من الطاقة**، م. س. ص ص 13-14.

³ - ينظر؛ ابن سيده، **المحكم والمحيط الأعظم**، م. س. ج 7، ص 434/ ج 9، ص 314. لبن سيده، **المخصص**، م. س. ج 3، ص 22. ابن منظور، **لسان العرب**، م. س. ج 2، ص 348/ ج 4، ص 274/ ج 8، ص 107. كما جاء في المعيار سؤال حول "سواقي بئر السقي والطواحن إذا انسدت أولهما وخربت وكنسوا على جميعهم... من حصلت له منفعة الخاصة فلا كنس عليه". **الونشريسي، المعيار المغربي**، م. س. ج 8، ص 31.

وعليه، فإن الضرورة تدفعنا إلى تحديد المراد بالساقية هنا، بوسيلة نقل الماء من المجرى أو مصدره نحو المكان المراد سقيه، وهي مركب تقني من عدة عناصر¹ لعل أهمها قناة النقل/التصريف، ثم سد التحويل²، والذي يفرض لإقامته مراعاة اعتبارات ثلاث، وهي:

أولاً: وجود نقطة عند أعلى المجرى تسمح "لبناء طيع الحجم"،

ثانياً: البعد بدرجة كافية عن مصعد النهر عند مستوى أعلى من المنطقة المطلوب ريهها، بحيث يضمن التدفق التثاقلي (بالجاذبية) إمداد المياه"،

ثالثاً: يرتبط بطول ومسار قنوات الإمداد.³

وغالباً ما تأتي مصارف المياه وقنواتها عناصرَ ضمن منظومة نقل⁴ أو صرف المياه، ومن بين الإشارات التاريخية حولها، نجد حديث لسان الدين بن الخطيب عن سجلماسة، التي قسمت "مياهاها في خلجان بقدر موزون، وصرف إلى كل ناحية قدرها".⁵

وفي مقابل آليات النقل السابقة، والتي تكاد تحضر في كل عمليات جلب وتصريف الماء، فإن عمليات الرفع تختص في نقل المياه الباطنية وإخراجها إلى السطح⁶، أو نقلها من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى منه، كما هي الحال بالنسبة لتقنية الناعورة، ومن تم فهي هندسيا متقدمة، وتحتاج إلى حيل ميكانيكية.

¹ - حيث تمثل الساقية في الواقع نظاماً مجالياً وبشريا وتقنياً، يتركب من ثلاثة عناصر هي: السد التحويلي (أكوك)، ثم المجرى أو الساقية (تاركا)، فشبكة التوزيع (أسارو)، والتي تنفرع إلى سلسلة من العناصر الثلاثية والرباعية. المحداد الحسن، الماء والإنسان بحوض سوس: إسهام في دراسة نظام مائي مغربي، منشورات مركز ابن تومرت للدراسات والنشر والوثيق، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية -أكادير، سلسلة أبحاث وأطروحات، 2003، ص 176.

² - الونشريسي، المعيار المغربي، م. س، ج8، ص ص 6-8.

³ - دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 216.

⁴ - الونشريسي، المعيار المغربي، م. س، ج7، ص 11.

⁵ - لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص.139.

⁶ - كتب دونالد هيل: "آلات رفع المياه كانت -ولا تزال- ذات فائدة للاستخدام في عدة أغراض، وأهمها مجالات الري، كما كانت تستخدم لإمداد المياه لأغراض خاصة وعامة، ولضخ مياه الفيضان من المناجم، والماء الراكد من جوف السفن". دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 127.

البئر¹؛ تعتبر الآبار من مصادر المياه الأوسع انتشارا بين بوادي المغرب الوسيط² خاصة في قسمها الجنوبي والشرقي³، كما أنها استعملت في السهول الأطلسية، حيث لا يستبعد أن يكون ذلك راجعا إلى فترة الحول العربي بها.⁴ وعموما فلقد ارتبطت عملية رفع المياه من الآبار بآلتين، يعود تاريخهما إلى العصور القديمة، وهما مرفاع البئر وآلة الشادوف⁵، والتي تعتبر "واحدة من أنجح الآلات التي اخترعت على الإطلاق، ويعزى نجاحها إلى بساطتها وكفاءتها. حيث يمكن تركيبها بسهولة بوساطة نجار القرية من المواد المحلية"⁶، وفي الوقت الذي ما نزال نعتر فيه على تقنية شبيهة بمرفاع الماء بالبادية المغربية ويستعمل في الكثير من الأحيان لتوفير مياه الشرب (الصورة رقم 1)، فإن آلة الشادوف يمكن أن تكون نسخة سابقة لتقنية أغرور خاصة وأن ما تتصف به من نزح كميات كبيرة من الماء⁷ يؤهلها للاستغلال الفلاحي وكذا توريد الماشية.

¹- تحمل الآبار تسميات عديدة حسب شكلها وعمقها وكذا طبيعة بنائها... الدينوري، الجراثيم، تحقيق محمد جاسم الحميدي، وزارة الثقافة، دمشق، ج2، ص ص 19-23.

²- الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 76. الونشريسي، المعيار، م. س، ج7، ص 33. الناصري، الاستقصا، م. س، ج2، ص 198. حليلة بنكرعي، "تدبير الموارد المائية في مغرب ما قبل الحماية"، مجلة البادية المغربية (الماضي- الحاضر- المستقبل)، العدد الثاني- السنة الثانية- 2008، نشر وتوزيع مكتبة دار السلام- الرباط، ص ص 71-72.

³- فيسجل ماسة يحفر الناس الآبار باليد، إذ يستغيضون بمائها المالح عن جفاف النهر في الصيف ف "يقل معه الماء جدا". كما أن العراك دائم بين أهالي قصورها حيث "يسيء بعضهم إلى بعض ما استطاع، فيتلفون قنوات السقي المجلوبة من النهر..." (الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص126)، ويتكورانين "أراض كثيرة للزراعة، لكن يلزم سقيها بماء البئر وتسميدها بالسماذ..." (الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص133).

⁴- وهذا ما يتبدى من خلال أوصاف فرنسي من القرن التاسع عشر، أثناء وصفه لكيفية ورود النساء بجرارهن لحمل الماء بدكالة، فقد كتب إمانويل شلومبيرجر: "توجد أمام عيني الآن بئر كبيرة منها يتم غرف الماء بواسطة حبل طويل يجره جمل. تجمهرت نسوة القرية المجاورة حول خرزة البئر، وكن تحملن على أكتافهن جرارا". (إمانويل شلومبيرجر، الرحلة إلى المغرب، م. س، ص70). ويبدو أن هذه البئر قد شكلت نقطة استقطاب بشرية حتى جعلت مركزا لسوق تجتمع فيه مئات الجمال، ومن غير المستبعد أن تكون من المناهل التي أشار إليها الإدريسي خلال القرن 6 هـ بدكالة. الإدريسي، نزهة المشتاق، م. س، ج1، ص 241.

⁵- حسب فقد اخترع الشادوف بمصر وهو "منشأة قديمة لرفع الماء، هي في الحقيقة وببساطة دلو معلق في نهاية ذراع" فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، آلاف السنين من الطاقة، م. س، ص 15.

⁶- دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 128.

⁷- نفسه.

الصورة رقم 1: مشاركة أهل بادية الصحراء في استغلال الآبار¹



وفي المعاجم العربية نعثر على اصطلاح يبدو قريبا من آلات استغلال مياه الآبار²، ويتعلق الأمر بتقنية العلق، والتي عرفها ابن منظور، يعرفها بقوله: "البكرة³ وأداتها، يعني الخطاف والرشاء والدلو"، كما نقل عن الأصمعي قوله: "العلق اسم جامع لجميع آلات الاستقاء بالبكرة، ويدخل فيها الخشبستان اللتان تتصبان على رأس البئر، ويلقى بين طرفيهما العاليتين بحبل، ثم يوتدان على الأرض بحبل آخر يمد طرفاه للأرض، ويمدان في وتدين أثبتا في الأرض، وتعلق القامة، وهي البكرة في أعلى الخشبتين، ويستقى عليها بدلوين ينزع بهما ساقيان، ولا يكون العلق إلا السانية، وجملة الأداة من الخطاف والمحور والبكرة والنعامتين وحبالها؛ كذلك حفظته عن العرب".⁴

كما تحدثت الاستاذة بنكرعي عن تقنية القرب والتي سادت بمنطقة تافيلالت، "واعتمدت لاستخراج الماء من البئر على دلو يرفع من البئر بقوة الدولاب ليفرغه في قرية ثم بعد ذلك في الساقية" حليلة بنكرعي، "تدبير الموارد المائية في مغرب ما قبل الحماية"، مجلة البادية المغربية، م. س، ص 73.

¹ - Camps (G.), «Adrar des Iforas», Encyclopédie Berbère, 2/1985, pp 146-153

² - من قبيل الحبل والدلو الواردين في المعيار مثلا. الونشريسي، المعيار، م. س، ج7، ص 56.

³ - حسب فلاديمير كارتسيف وبيوتر خازا نوفسكي، فقد "حقق اختراع البكرة انقلابا في البناء التقني وأولى الوثائق الصحيحة عن استخدامها في آشور تنتمي إلى القرن الثامن قبل الميلاد". فلاديمير كارتسيف وبيوتر خازا نوفسكي، آلاف السنين من الطاقة، م. س، ص 15.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج10، ص 266

الصورة رقم 2: عملية استخراج الأتربة من بئر¹



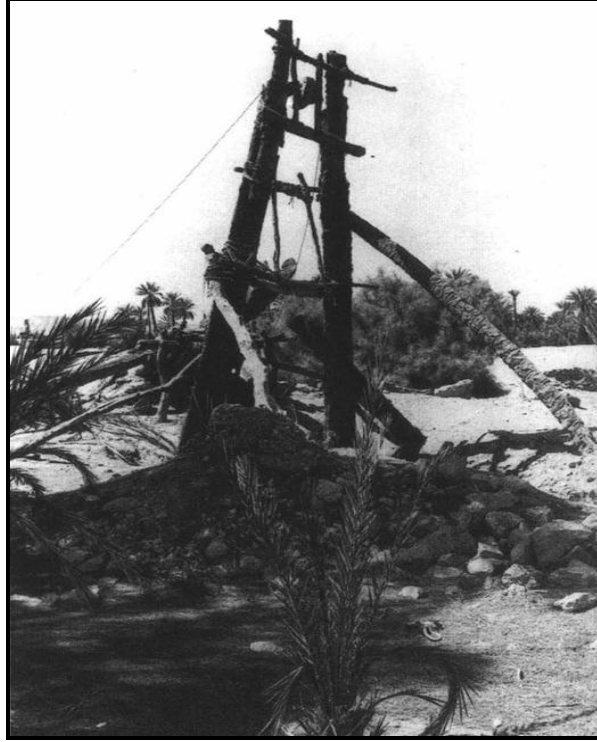
اغرور؛ يبدو أن تقنية اغرور جاءت حلاً تقنياً لتجاوز مشكلة الماء بالمجالات الجافة، حيث حظي بمكانة خاصة في عمليات الري، واعتمد في ذلك على الطاقة البشرية أحياناً أو الطاقة الحيوانية²، وفي الوقت الذي لا نملك فيه الكثير عن ظروف ظهور هذه التقنية بمجال البادية المغربية عموماً، فإن انتشاره يأتي مرتبطاً بمناطق الواحات وهوامش الصحراء، وغالباً ما يذكر مقترناً بعمليات ري المزروعات، الشيء الذي استعمل في سبيله الأطفال بتشييت إحدى مدن نوميديا بعد بلوغ سن الثانية عشر في استخراج الماء من البئر للسقي أو في قلب الأرض³. وفي الوقت الذي لا نملك فيه نصاً صريحاً يصف لنا شكل هذا الأسلوب في الري بالبادية المغربية، فإن ابن بطوطة يحتفظ لنا بوصف جميل حولها من اليمن.

¹ – Gast (M.), «foggara», *Encyclopédie Berbère*, 19/1998, pp 2868–2880.

² – فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، آلاف السنين من الطاقة، م. س، ص 15.

³ – الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص 116.

الصورة رقم 3: تقنية أغرور¹



فبمدينة ظفار اليمنية، والتي شبهه أهلها بصنهاجة المغرب²، يذكر وجود تقنية لاستغلال الماء لم يشر إلى وجود مثيل لها في المغرب، غير أنها تشبه تقنية "أغرور" المنتشرة ببعض الواحات المغربية مع اختلاف في آلية استخدام هذه التقنية، إذ بالمغرب توظف الإبل، فيما يتحدث نص ابن بطوطة، عن استخدام البشر لهذا الغرض باليمن، حيث كتب: "وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلواً كبيرة، ويجعلون لها حبالاً كثيرة، ويتحرّم بكلّ حبل عبد أو خادم، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر وبصبونها في صهريج يسقون منه"³، فلا يستبعد أن تكون ذاتها التي استدعت استغلال الأطفال بتشيت ضمن مملكة نوميديا، أو تعويضهم فيها بالفرس والجمال، التي اعتاد أهلها

¹ - Troussset (P.), «Fezzan», *Encyclopédie Berbère*, 18/1997, pp 2777-2817.

² - ابن بطوطة، *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*، طبعة أكاديمية المملكة المغربية، م. س، ج2، ص

125

³ - نفسه، ص 124

حسب الوزان دائماً على استخدام الزوج منها في عملية حث الأرض¹، فلا يستبعد أن يتم استغلال نفس الدواب وبالأخص الجمال في عملية الجر.

السانية؛ تعرف السانية في المعجم العربي على أنها من مصدر سنا، وهي "ما يسقى عليه الزرع والحيوان من بغير وغيره". والجمع السواني²، وتماثل هذه التقنية آلة "الساقية" التي اخترعت بمصر الهلنستية³، وعرفت انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى⁴، حيث تقام العجلة "عند رأس البئر أو فوق، أي مصدر آخر للمياه، فيما يعرف ما بين البئر إلى منتهى السانية بالمنحاة. وعن "الأزهري: المنحاة منتهى مذهب السانية، وربما وضع عنده حجر ليعلم قائد السانية أنه المنتهى، فيتيسر منعطفاً لأنه إذا جاوزه تقطع الغرب وأداته".⁵ تملأ الأواني عند أدنى مسار لها وتفرغ حمولتها عندما تصعد إلى أعلى في خزان رئيسي أو قناة ري".⁶

وبالمغرب، فإننا نعثر لدى مجهول الاستبصار لوصف مثير لما قال إنه يسمى بالسواني بفاس، إذ كتب أنه بهذه المدينة "تطرد فيها جداول ماء لا تحصى، تخترق كلتي المدينتين تسمى بالسواني لابد لكل دار من ديار المدينتين منها"⁷، فجاء وصف السواني هنا كما لو أنها قنوات لنقل الماء نحو الدور، مما يجعلنا نعتقد أن مجهول الاستبصار يقصد "السواقي" جمع ساقية، وليس السواني التي لا يتوافق وصفه لشكلها، وقد يكون الخطأ مرده إلى الناسخ؟ وعلى أية حال فيصعب مع هذا الوضع البناء على نص صاحب الاستبصار، غير أن ذلك لا يعني عدم قيام تقنية السانية بفاس، إذ نجد إشارات على العهد المريني لدى ابن بطوطة، تحمل بعض أوصاف سانية أقيمت خارج المدينة بإزاء الزاوية المتوكلية، والتي وضعت لها قواديس

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 116

² - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج14، ص 404

³ - دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 130.

⁴ - نفسه، ص 131.

⁵ - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج15، ص 313

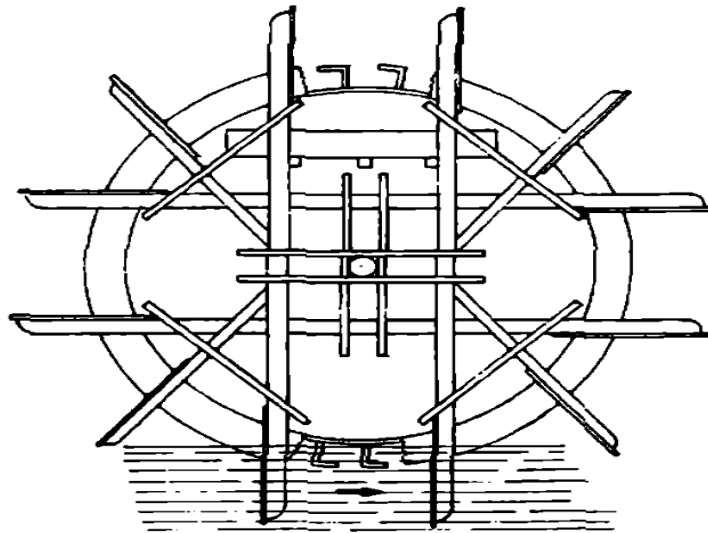
⁶ - دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 130.

⁷ - مجهول، الاستبصار، م. س، ص 180.

من فخار لغرف الماء¹، فيما تحدث الونشريسي عن "البئر والجابية وهو مجتمع الماء، والموضع الذي تدور فيه الدابة"²، وكذا عن عدم قسمة ماء السانية إلا على اتفاق³.

الناعورة؛ تعتبر واحدة من أهم التقنيات التقليدية لرفع المياه، وتتألف "من عجلة (دولاب) خشبية كبيرة مزودة بمجاديف تقذف من وقت لآخر خارج الحافة (الإطار) المقسمة إلى حجيرات"⁴، قد تعوض بأواني شبيهة بالتي تستعمل في السانية (الساقية)⁵، وتقع العجلة على محور "من الحديد مبيت في سندات مجهزة على أعمدة تقع فوق مجرى الماء"⁶، و"أثناء دوران العجلة بتأثير الماء على المجاديف تمتلئ الحجيرات بالماء عندما تغوص إلى أسفل مسارها، ثم تفرغ حمولتها عند قمة المسار في قناة لجر المياه"⁷.

الشكل رقم 12: رسم مبسط لهيكل ناعورة⁸



¹ - ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، م. س، ج 4، ص 319.

² - الونشريسي، المعيار المعرب، م س، ج 8، ص 415.

³ - نفسه، ج 8، ص 121.

⁴ - دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص ص 132-133.

⁵ - ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، م. س، ج 4، ص ص 319-320.

⁶ - دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 133.

⁷ - نفسه. فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، الاف السنين من الطاقة، م. س، ص 32.

⁸ - دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 133.

وأخيراً، تأتي تقنيات التجميع أسلوباً مرتبطاً أساساً بمرحلة ما قبل الاستغلال، ويرتبط بعناصر عمرانية مائية؛ الصهاريج وسدود التجميع، وهي عناصر تشكل حلاً لمشكلة ضعف الصبيب المائي غالباً¹، دون أن يخلوا استعمالها من عوامل أخرى كالهاجس الأمني.

الخزانات؛ تاريخياً يمكن اعتبار فكرة الصهاريج نتيجة لتقدم عملية استغلال مياه الأنهار²، فباستخدام العبيد ثنائي أنواع الطاقة التي اعتمدها الإنسان في مسار تطوره، شيد "أوروغينا الذي استولى على السلطة في لاغاشة، إحدى المدن القديمة لآشور، في بداية الألف الثالث قبل الميلاد"، خزان ماء احتياطي سعته أكثر من 220 ألف لتر، استعمل في سقاية الحقول في أوقات الجفاف³، وبالمغرب يمكن الانتباه إلى حديث المصادر عن الصهاريج بحاضرة مراكش⁴، والتي يبدو أنها جاءت لمعالجة مشكلة تصريف مياه الخطارات الدائم الجريان أو الاعداد لاستغلالها، كما أنها استخدمت في تدريب الجنود على السباحة، وبالمجالات البدوية يبدو أن إقامة الصهاريج جاء تدبير استغلال صبيب المياه المنخفض فيكون اللجوء إليها لجمع المياه في انتظار توزيعها⁵، على منوال حوض توزيع مياه نهر مرو بإقليم خراسان العراق، والذي يغذي القنوات الأربع لتغذية المدينة وضواحيها بالماء بالتساوي⁶.

¹-Carbonero Maria (A.), «Technologie Hydraulique et Système de Distribution Collective de L'eau En Al-Andalus», in: Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, N°45, 1987, p135.

Rebuffat (R.), «Citernes», Encyclopédie Berbère, 13/1994, p2014.

²- ارنولد توينيني، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011، ج1، ص 134.

ALLAIN Charles, «Les Citernes Et Les Margelles De Sidi-Bou-Othman», Hesperis, 1951, T XXXVIII, 3^{ème}-4^{ème} trimestres, pp 423-440.

³- فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، آلاف السنين من الطاقة، م. س، ص 13

⁴- الناصري، الاستقصا، م. س، ج2، ص 246.

⁵- الونشريسي، المعيار، م. س، ج5، ص ص 147-148. وتعرف هذه الصهاريج بواحات توات ب"الكصري" (القصري) وكذا "الماجن" ويجعلان معا لتقسيم مياه الخطارات بواسطة أداة تقسيم تعرف ب"المشط" توضع نهاية كل منهما. محمد أعفيف، توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، م. س، ص 106.

⁶- دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 228.

سدود التجميع؛ ليس هناك إشارات إلى هذا الأسلوب التقني لاستغلال مياه المجاري الضعيفة أو ذات الحمولة المائية المنخفضة¹، غير أن ذلك لا يعني غيابها عن المشهد بقدر ما يمكن تبريره بصعوبة التمييز بينها وبين سدود التحويل² المعمول بها لتحريف مياه الأودية نحو السواقي التقليدية، إذ لا يتعدى الفرق بينهما مسألة درجة الميلان وشدة تماسك السد ونفاذيته، إذ يستوجب هذا النوع من السدود نفاذية أقل، وتعامدا للسد في مواجهة مجرى الماء على خلاف سدود التحويل التي يقتصر بناؤها على ترتيب عناصر غير متناسقة المظهر في اتجاه مائل يساعد على تحويل اتجاه المياه نحو رأس الساقية، فيما قد لا يستوجب إحكاما لشدة النفاذية³، فيما تعمل سدود التجميع على تحويل المياه إلى صهاريج تتخذ إما شكل خنادق أو حفر أو خزانات مكشوفة وكبيرة نسبيا.⁴

ولا يستبعد أن تكون للخبرة التي راكمها المسلمون في مجال تشييد السدود دور في ظهور مثل هذه المنشآت، ذلك أنه على خلاف مجموعة من التقنيات التي سعى دونالد هيل إلى إثبات أصولها غير العربية، فإنه سرعان ما عمد إلى التصريح بإسهام العرب المسلمين في مجال السدود بالتحديد، والتي يرى أنهم لم يكون في حاجة إلى الذهاب بعيدا لاكتساب مهارات إنشائها، إذ شيد سد مأرب باليمن نحو 750 ق. م، كما بنيت سدود أخرى ببلاد العرب قبل الإسلام وخلال القرن الأول الإسلامي، والتي من بينها سد الطائف، "الذي لا يزال باقيا ويحمل نقشا يؤرخ لإنشائه بعامي 677 و678م. وقد شيدت كل هذه السدود من أجل المحافظة على الأرض والمياه. ولم تكن سدودا تحويلية لتوزيع المياه، مثل تلك المستخدمة في أنظمة الري المؤسسة على الأنهار".⁵

¹ - أحمد إد الفقيه، نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي (شرعا، وعرفا، وتشريعا)، منشورات كلية الشريعة - أكادير، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط1، 1423هـ/2002م، ص162.

² - دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 207. وفي حديثه عن الساقية اليعقوبية أشار شارل آلان "Charls ALLAIN" إلى وجود بقايا سد على شكل صهرج ضخم محاط بمخازن الحبوب المحفورة في الأرض.

ALLAIN (ch), «Reconnaissances Archéologiques Dans Le Massif des Rehamna et la Bahira II, une organisation agricole almohade dan la Bahira», op. cit, pp 436.

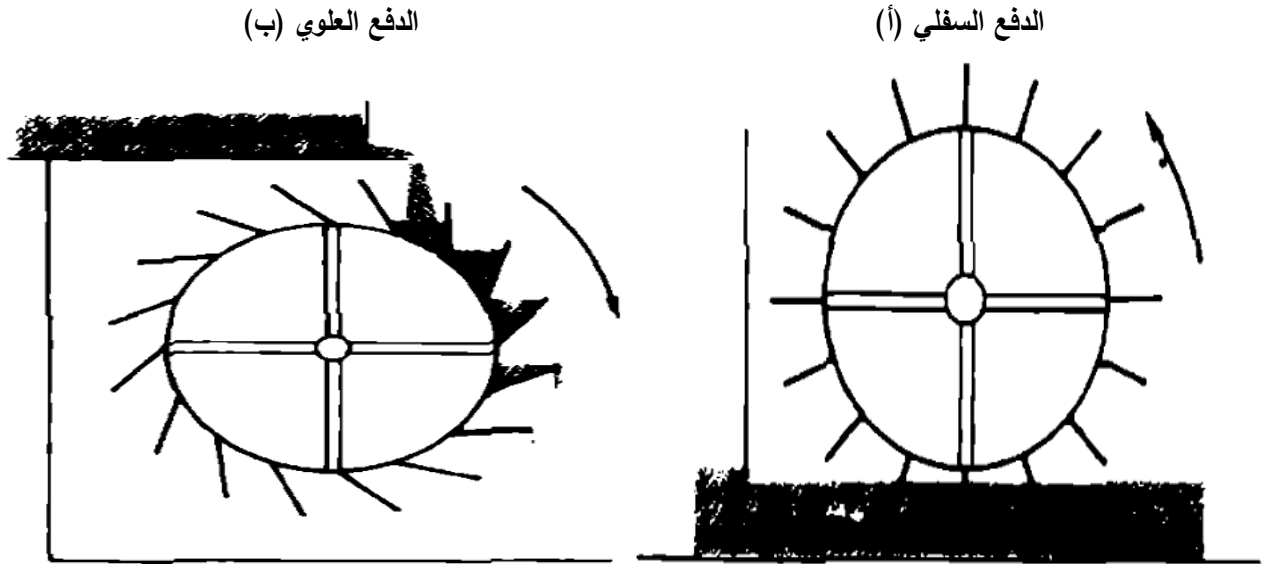
³ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج8، ص ص 6-8

⁴ - أحمد إد الفقيه، نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي، م. س، ص 162.

⁵ - دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 208.

بخلاف هذه الوسائل التقنية التي اعتمدت لاستغلال المياه في عمليات الري وكذا الشرب، نجد تقنيات أخرى وظفت الطاقة المائية لإنجاز بعض الأعمال، كالتاحونة المائية¹ والتي كانت تفرض شروطاً خاصة لإقامتها، وحسب التصاميم التي وضعها دونالد هيل، يبدو أن اعتماد التاحونة المائية على المياه في عملية الدفع كان يتحكم فيها موقع التاحونة من مورد الماء، وهي عموماً، تتوزع بين شكلين رئيسيين، طواحين ذات دفع أفقي، ويبدو أنها تصلح للمجالات المنبسطة، حيث الاعتماد على قوة جريان المياه (الشكل رقم 13 (أ))، فيما التصميم الثاني يقوم في المجالات الشديدة الانحدار، فيعتمد إلى توجيه الماء نحو مراوح التاحونة لإنجاز عملية تحريك دواليب التاحونة (الشكل رقم 13 (ب)).

الشكل رقم 13: رسمين لشكلي عجلتي التاحونة المائية²



وكغيرها من التقنيات المائية طرحت التاحونة المائية ببادية المغرب الوسيط بوجه خاص والغرب الإسلامي بوجه عام إشكالية الأصل، ذلك أنه إذا كانت التاحونة ذات عجلة الدفع السفلي (ق 1 ق.م) تؤرخ لفترة أقدم من مقابلتها ذات عجلة الدفع العلوي (ق 3م)، من تم استخدمتا فترة طويلة قبل مجيء الإسلام³، فإن ذلك لم يمنع من إقدام المسلمين على استغلال

¹ - فلاديمير كارتسيف وبيوتر خاز انوفسكي، آلاف السنين من الطاقة، م. س، ص ص 32-34. الونشريسي،

المعيار، م. س، ج 5، ص ص 283-284/ ج 6، ص 281/ ج 8، ص ص 6-8.

² - دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 143.

³ - نفسه، ص 146.

المياه في عملية طحن الحبوب، والتي شكلت جزءاً من الحياة الاقتصادية، فكان "الجغرافيون المسلمون، عندما ينظرون إلى جداول المياه، يشيرون إلى أنها يمكن أن تدير طواحين عديدة، وكأنهم يقدرون... أهمية طاقة الطحن الكامنة لمجاري المياه"¹، وفي هذا السياق يمكن فهم إشارة الوزان حول قلة الطواحين على واد سوس، والذي يمكن أن يفهم منها مدى شيوع هذه التقنية بالمغرب حتى إنها عمت بواديه أيضاً، ومن ذلك ما سجله الوزان من ظهور "بعض الطاحونات وعدد عظيم من البساتين المزروعة بالكروم وأشجار الخوخ..."²، على ضفاف نهر زيز ضاحية مدينة كرسلوين.

إن الخصائص التي طبعت المجال، في ارتباط مع مورد الماء، حكمت أساليب جره أو رفعه من موارده السطحية في حالة الجريان السطحي أو الحفر للوصول إليه في حالة المياه الباطنية، أما مياه العيون فإن ضعف منسوب صبيبها يجعل من تجميعه في صهاريج الأسلوب الأكثر مثالية لضمان فعالية استغلاله في الأغراض الزراعية، وهو ما خلف لنا تدبيراً تقنياً رهيناً بالمجتمع المحيط به.

إن هذا التنوع في الوسائل التقنية لاستغلال المياه لم يكن يعني بالضرورة تطوراً على مستوى الإنتاج، ذلك أن ظهور مختلف التقنيات السابقة إنما ينم عن مدى الإمكانيات الطاقية المتاحة بالمغرب "نهاية الوسيط"، والتي تعتبر ولاشك نتيجة مسلسل من التحولات الاقتصادية والاجتماعية على مدى العهدين المرابطي والموحدي، لكنها في المقابل تعكس الانتكاسة التي عرفها القطاع الفلاحي أهم قطاع إنتاجي في الاقتصاد المغربي خلال نفس الفترة إلى جانب التجارة، ذلك أن أغلب الإشارات التي تتوفر عليها بخصوص هذه الوسائل التقنية ترتبط بالصراع على الماء أو تشكل أحد تجليات الصراع الاجتماعي على موارده. ومن ثم نتساءل عن إسهام عنصر الماء في تشكيل النظام الاجتماعي بالبادية المغربية نهاية العصر الوسيط؟ وعن تجلياته ومكامن قدرته على تفسير تحولات مجتمع البادية؟

¹ - دونالد هيل، الهندسة والعلوم عند العرب، م. س، ص 147.

² - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 370.

الفصل الثاني

بادية المغرب من خلال الماء

أفرزت السيرورة التاريخية للمغرب الوسيط، جماعات متغلبة وأخرى مغلوبة، ويتعلق الأمر "بمجتمعين اثنين مركبين" لا تنعدم بينهما فرص التحول، إذ يحتفظ هذا المركب بإمكانية "المرور من أحد هذين المجتمعين إلى المجتمع الآخر"¹، وعلى هذه الأسس يسعى هذا الفصل إلى ربط تنظيم الشأن المائي بالبادية المغربية بإطاراته التدييرية، مع الاهتمام بأنظمة توزيع المياه وأشكال استغلاله²، سعياً نحو البث في مختلف الروابط الاجتماعية المنبثقة منه، وفق متغيرات وقواعد التشكل القبلي التي ميزت فترة الدراسة.³

وبقدر ارتباط التدبير البدوي للمياه بجماعة القبيلة أساساً لوحداته الاجتماعية، فإنه كذلك ظل رهين جغرافيا الموارد المائية، وتقنيات جلبه واستغلاله. إذن، فأيّة محاولة لفهم العلاقة بين الماء والنظيمة الاجتماعية لا بد لها من استحضار معطياتها (جغرافيا الموارد المائية) في التحليل. وعليه فإذا كنا قد توقفنا عند جملة العناصر التقنية الحاضرة بمجال البادية في المباحث السابقة، فإن التعرّيج على بعض ملامح جغرافيا مناخ بادية المغرب خلال الفترة المدروسة يبدو ذا فائدة، وعاملاً معيناً على تتبع قصة المجتمع من مرآة الماء.

ولتناول مختلف هذه العناصر تم تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة محاور، وهي:

I. هاجس الماء في فترة اجتماعية حرجة

II. البادية؛ مياه وتساكن

III. الماء يصف القبيلة

I. هاجس الماء في فترة اجتماعية حرجة

لعب المناخ دوراً هاماً في ترتيب عدد من الأحداث التاريخية والاجتماعية بالمغرب، إذ طالما شكلت موجات الجفاف عاملاً في الدفع بالهجرات القبلية نحو مواطن المغرب، ومن ثم تغيير بنياته الاجتماعية وقواعد إنتاجه. ومن خلال هذا المحور، سوف نعمل على معالجة قضيتين أساسيتين؛ حالة مناخ المغرب في الفترة المدروسة. والانعكاس الاجتماعي لهاته الحالة.

¹ - القبلي محمد، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، م. س، ص 213

² - محمد مهديان، الماء والتنظيم الاجتماعي (دراسة سوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي للسقي بواحة تودغى)، منشورات جامعة ابن زهر - أكادير، طباعة ونشر سوس - أكادير، ط1، 2012، ص 15.

³ - مصطفى نامعي، مادة "جزولة"، معلمة المغرب، م. س، ج 9، ص ص 2999-3002.

فهل عمل المناخ على إعادة تشكيل مجتمع بادية مغرب نهاية الوسيط؟ وكيف دبر هذا المجتمع أثر المناخ على استغلاله للمجال؟ هذه الأسئلة من ضمن تساؤلات أخرى نرمي البث فيها من خلال هذا المحور عبر تفرعين؛ يهم أولهما الجانب المناخي (وهم الرطوبة)، حيث تتم معالجة إشكالية الوضع المناخي للمغرب خلال الفترة المدروسة، بين إحياءات الرطوبة النسبية، ومظاهر الجفاف والقحط التي تحملها تفاعلات سكان البادية، والتي يخصص لها ثاني فروع هذا المحور، تحت مسمى جماعة جديد وسياق قديم، لاعتبار الآلية العامة للدينامية الاجتماعية بالبادية المغربية خلال هاته الفترة، ومن تم فهي بلغت مبلغا يمكن وسمه بالقاعدة المنكرة.

1- وهم الرطوبة

المياه في الطبيعة على صنفين جارية وخفية، فيما مصادرها تتوزع ما بين تساقطات وما يحمل منها في الأنهار والمجاري المائية، وما توفره مخزوناتا من عيون¹ وآبار²، والإشارات المصدرة بهذا الخصوص حول مغرب العصر الوسيط كثيرة، غير أن استغلالها في البث في مسألة الماء أخذ جانب الوصف بروابط المصادر ذاتها³، وكل ذلك أسهم، ولا شك في تقدم دراسة المسألة المائية بالمغرب، غير أنه لم يمنع من أن تضيق وسط زخم المعطيات الكثير من القضايا، وعليه جاء هذا المحور في محاولة لترتيب بعض الملاحظات بخصوص العلاقة ما بين جغرافية الموارد المائية ونظام الإنتاج، وذلك في سبيل التمهيد لفهم جوانب من مركبات النظام الاجتماعي ببادية مغرب "نهاية العصر الوسيط" في علاقته بعنصر الماء.

ترتبط أغلب المصادر المائية بالمغرب بالتساقطات المطرية، وهي بذلك شديدة التأثير بالتغيرات المناخية، الشيء الذي كان يجعل منها مصدر الكثير من المشاكل الاجتماعية، ومن ذلك ما نقله الوزان من أن بني صبيح، أحد أهم قرى درعة، يحكمها رئيسان مختلفان "يعيشان في نزاع وقتال دائمين، وبالأخص عندما يجب سقي المزروعات بسبب قلة الماء الجاري"⁴، ذلك أن بلاد درعة تعتمد في السقي على مياه الوادي الذي يفيض فيسقي البلاد كلها، غير أنه

¹ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج5، ص ص 152-153. ج7، ص ص 32-33.

² - الونشريسي، المعيار، م. س، ج5، ص 161/ ج7، ص 33. عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 291-294.

³ - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، م. س، ص 58.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص 119.

في حال تعذر سقوط الأمطار بداية أبريل فإن الغلة تتلف كلها¹، وعليه فإن امتداد الخلافات حول تدبير المياه إلى النظام الاجتماعي ببادية مغرب "نهاية الوسيط" يبدو واقعا تاريخيا عاشت على إيقاعه مختلف الجماعات المستندة في انتعاشها على الماء حلا وترحالا.

ويدفعنا الحديث عن الموارد المائية، إلى نقل بعض النقاش الذي هم مناخ المغرب خلال فترة العصر الوسيط، والذي نعته ابن خلدون بالآخذ بـ"مزاج المتوسط"² وتتشارك فيه أمزجة التلول والصحراء، فما بين بلاد الملثمين وجبال الأطلس كتب ابن خلدون: "بسائط متلون مزاجها تارة بمزاج التلول، وتارة بمزاج الصحراء"³، وعموما فإن جملة من النصوص الوسيطية تحيل الباحث إلى الاعتقاد بسيادة مناخ رطب نسبيا، ومن ذلك ما أشار إليه الوزان من أنه في الأطلس "لم تعد السنة تشمل إلا على فصلين، ستة أشهر للشتاء من أكتوبر إلى أبريل، وستة أشهر للصيف من أبريل إلى شتتبر، غير أنك تجد الثلج دائما طوال السنة في أعلى قمم الجبال"⁴.

عرف مناخ المغرب خلال أواخر العصر الوسيط موجات من الجفاف والقحط، والتي يبدو أنها كانت تتردد بشكل دوري حتى صبغته بطابع الاستقرار، لكن ذلك لم يمنع من ملاحظة درجة الرطوبة التي عرفتها باديته، والتي يبدو أنها تراجعت بشكل كبير اليوم عما كانت عليه آنذاك، على الرغم من صعوبة تأكيد مثل هذه الأحكام، إلا أن ما تردده إشارات الوزان حول موارد الماء وصيبب العديد من مجاري الماء السطحية والعيون، تكشف عن رطوبة ووفرة نسبية في المياه يسمح بتحقيق قدر ما من الإمدادات المائية في الحالات العادية، فيما لا تتجاوز فترات الأزمة أو ندرة الماء بالمغرب، خلال هذه الفترة من حسب جملة الإشارات المصدريّة الأربع سنوات.

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص 118

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 105

³ - نفسه، ج6، ص 132.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 81.

الجدول رقم 30: جرد بالسنوات الجافة والمطيرة بمجال المغرب في الفترة ما بين 609-986هـ/ 1212-1578م¹

السنة	الحدث	مدته	مجاله	المصدر/المرجع
616 - 619هـ/1219-1222م	جفاف	4	المغرب	التشوف، ص 14 روض القرطاس، ص 273 الذخيرة السنية، ص 54
624هـ/1227م	جفاف	-	المغرب	روض القرطاس، ص 250
626هـ/1229م	مطر	-	فاس	روض القرطاس، ص 274
634هـ/1237م	جفاف	-	المغرب	البيان، ج3، ص 467
637هـ/1240م	جفاف	-	سبتة	البيان، ج3، ص 483
677هـ/1279م	مطر	-	تامسنا	روض القرطاس، ص 329
679هـ/1280م	جفاف	-	المغرب	روض القرطاس، ص 405
683هـ/1284م	جفاف	-	المغرب	روض القرطاس، ص 340 الاستقصا، ج3، ص 83
687-690هـ/1288-1291م	جفاف	3	المغرب	روض القرطاس، ص 408
690هـ/1291م	مطر	-	المغرب	روض القرطاس، ص 408
692-693هـ/1293-1294م	جفاف	2	المغرب	روض القرطاس، ص 384
708-711هـ/1308-1311م	جفاف	4	المغرب	روض القرطاس، ص 398 الاستقصا، ج3، ص 178
722هـ/1322م	ثلج	-	-	الانيس المطرب، ص 412
723هـ/1323م	جفاف	-	المغرب	روض القرطاس، ص 401
723-725هـ/1323-1325م	مطر	3	المغرب	روض القرطاس، ص 412-414 الاستقصا، ج3، ص 179.
744-745هـ/1344م	جفاف	-	درعة	عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص 285
758هـ/1357م	مطر	-	نواحي واد ايسلي	فيض العباب، ص 491
763هـ/1362م	جفاف	-	مكناس، فاس، تازا	نفاضة الجراب، ص 61
874هـ/1470م	جفاف	-	فاس	عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص 287
916هـ/1511م	جفاف	-	دكالة	دكالة والاستعمار البرتغالي، ص 56
920هـ/1514م	جفاف	-	مدينة	دكالة والاستعمار البرتغالي، ص 366

¹ - تجدر الإشارة إلى أنه تم الاختصار في الجدول على السنوات التي سجلت بها المصادر أحداثا تهم التساقطات المطرية أو الثلجية أو حالات الجفاف والقحط، فيما أن عملية البحث والاستقصاء في انجاز هذا الجرد شملت البحث في الفترة المعنية للبحث (609هـ/1212م إلى 989هـ/1581م).

	الشرقية			
922-923هـ/1516-1517م	جفاف	2	السهول الأطلسية	المجاعات والأوبئة، ص 25
926هـ/1520م	جفاف	-	المغرب	ممتع الأسماع، ص 43 الاستقصا، ج4، ص 165 ابن القاضي، لقط الفرائد، ص 288 المجاعات والابوة، ص 31
928-930هـ/1522-1524م	جفاف	3	المغرب	المجاعات والابوة . ص 224
933هـ/1527م	مطر	-	مراكش	نزهة الحادي، ص90. الاستقصا، ج5، ص 87
946-950هـ/1539-1543م	جفاف	5	عدة مناطق	المجاعات والابوة في تاريخ المغرب، ص 225-226
959-960هـ/1552-1553م	جفاف	2	فاس	كتاب التواريخ، ص 13.
973-974هـ/1565م	جفاف	-	فاس	كتاب التواريخ، ص 18.

يبدو أن قراءة الواقع المناخي بمغرب "نهاية الوسيط" يطرح العديد من الإشكالات، فعلاوة على سكوت المصادر عن واقع مناخ فترات زمنية طويلة منه، فإنها كذلك تكتفي بتعنين حال مدينة أو مجال دون غيره، فتذكر نزول المطر به أو انحباسه فيه بما يخدم الخبر التاريخي المؤطر للحدث المناخي المراد الإشارة إليه، وإذا ما تجاوزنا جملة هذه المشاكل البيولوجرافيا واكتفينا بما تحقق لنا جرده من المصادر بخصوص الجفاف والمطر، ثم سمحنا لأنفسنا باعتبار مختلف هذه الإشارات تعني التراب المغربي، مع ما يمكن لذلك أن يخلقه من التباسات، وإذا ما نظرنا إلى الجدول أعلاه واعتبرنا السنوات التي سكنت عنها المصادر تمثل "أحوالا مناخية عادية"، فيما أنها (المصادر) تركن لذكر السنوات المتطرفة قحطا وجفافا أو مطرا ورطوبة، فإننا نكون أمام 377 سنة أي قرابة الأربعة قرون، تستثنى منها نحو الخمسة عقود ما بين سنوات المطر والجفاف، موزعة ما بين؛ ما يزيد عن ثلاثة عقود من سنوات الجفاف والقحط (38 سنة)، وقرابة العقد الواحد من السنوات المطيرة (9 سنوات). وفيما نتراجع أهمية هذه السنوات المستثناة بالمقارنة مع الامتداد الزمني الشاسع، فإنها تتحول حين نعد إلى تجزئة هذه الفترة

إلى فترات مناخية جزئية، أي الأحوال الجوية عن كل 30 سنة¹، لنتحصل على فترات من التذبذب المناخي، تشتد فيه الأزمات المناخية الخاصة بالجفاف إلى الثماني سنوات، مقارنة لثلث الفترة المناخية الواحدة فيما تضمحل في فترات مناخية أخرى إلى الصفر، فاسحة المجال لسنوات "الحالة العادية"، أي غير المثيرة لانتباه المؤرخين، ومن تم غير المتدخلة في الأحداث الكبرى لتاريخ المغرب.

وإذا ما أضفنا إلى القراءة السابقة لمعطيات المصادر، حال السنوات المطرة، التي لا تتجاوز في أقصى امتداداتها الثلاث سنوات، ولا تكاد تشغل في مجموعها امتداد العقد الواحد من الزمن (9 سنوات فقط من مجموع 377 سنة)، ومنه ضعف تأثيرها بالمقارنة مع سنوات الجفاف، اللهم إذا ما كان لها من دعم لسنوات "الحالات العادية"، لنتساءل إذن عن ماذا يعني كل هذا في ظل تواتر الأخبار حول منازعات اجتماعية بسبب الماء خلال الفترة المدروسة؟

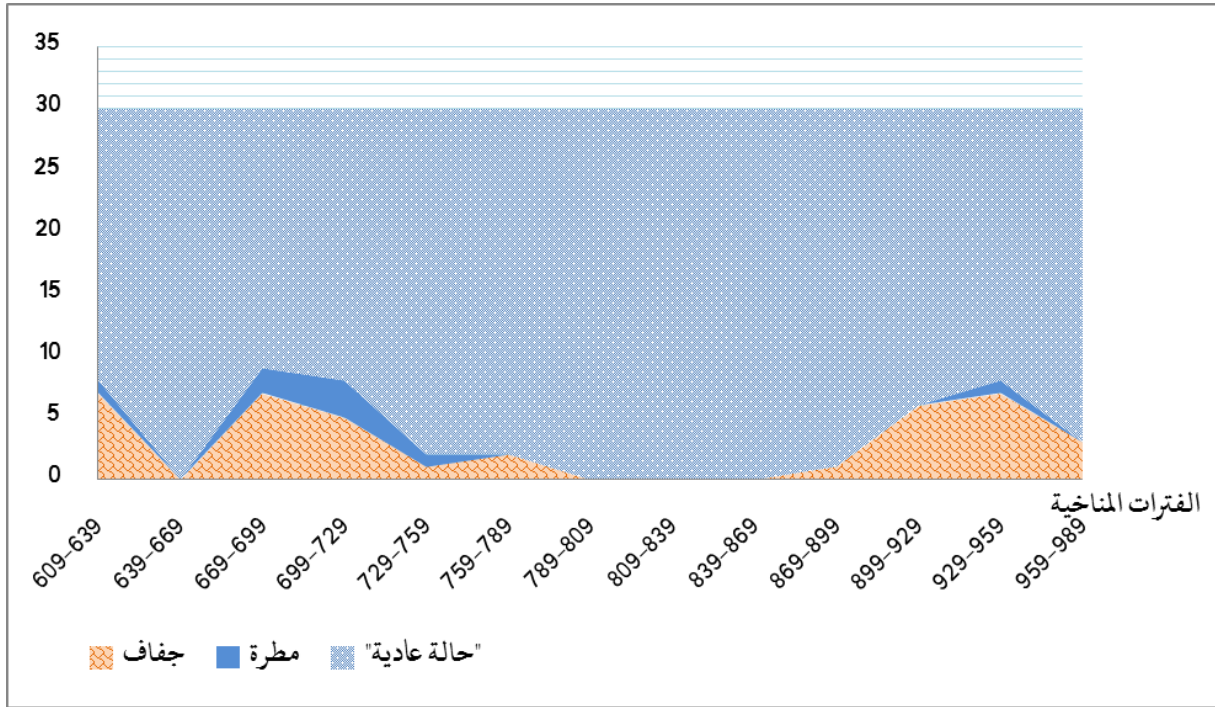
الجدول رقم 31: توزيع السنوات المطيرة والجافة بالمغرب خلال الفترة من 609هـ/1212م إلى 989هـ/1581م²

الفترة	سنوات الجفاف	السنوات المطيرة	سنوات "الأحوال العادية"
609-639هـ	7	1	22
639-669هـ	0	0	30
669-699هـ	7	2	21
699-729هـ	5	3	22
729-759هـ	1	1	28
759-789هـ	2	0	28
789-809هـ	0	0	30
809-839هـ	0	0	30
839-869هـ	0	0	30
869-899هـ	1	0	29
899-929هـ	6	0	24
929-959هـ	7	1	22
959-989هـ	3	0	27

¹ - لور شيميري، المناخ، ترجمة زينب منعم، إصدارات المجلة العربية، كتاب العربية رقم 150، ط1، 1435هـ/2014م، ص 11.

² - تم انجاز هذا الجدول بالاعتماد على معطيات الجدول السابق رقم 30، وتنظيم معطياته وفق متواليات 30 سنة التي تعتمد غالبا كمحدد لتحديد مناخ منطقة ما.

الشكل رقم 14: رسم بياني لحالة التذبذب المناخي بالمغرب خلال الفترة ما بين 609-989هـ/ 1212-1581م¹



هكذا يظهر من خلال الجدول والرسم البياني أعلاه، أن موجات الجفاف الدورية التي عرفها المغرب وبواديها خلال الفترة المدروسة تظل قليلة بالمقارنة مع سنوات "الأحوال العادية"، وتتعرز هذه القلة إذا ما أضفنا السنوات المطيرة إلى سنوات "الأحوال العادية"، غير أن ذلك لا يمنع ملاحظة مدى التركيز الواضح لسنوات الجفاف والقحط بداية من العقد الثاني من القرن السابع إلى حدود العقد الثالث من القرن الثامن، ثم تراجعها إلى حين مطلع القرن العاشر مع غياب الإشارات حولها خلال العقد التاسع، باستثناء إشارة واحدة تهم سنة 874هـ/1470م، ويبدو أن هذا التباين الحاصل في التغير المناخي بمغرب الفترة المدروسة قد انعكس على جملة الأحداث والوقائع الاجتماعية والتاريخية، ويمكن من خلاله تفسير عدد من هذه الأحداث، وعليه يكون تفسير سقوط الموحدين مثلا، رهينا ليس فقط بآثار هزيمة العقاب، ولكن أيضا بتعاقب موجات الجفاف والقحط، الأمر ذاته يمكن قبوله ضمن خانة العوامل المؤثرة على مشهد الأحداث نهاية العهد المريني، لكن هل تسمح لنا هذه المعطيات بتفسير تواتر المنازعات حول مورد الماء ببادية المغرب طوال الفترة المدروسة؟

¹ - تم انجاز هذا الرسم البياني بالاعتماد على معطيات الجدول رقم 31.

لا يبدو الأمر كذلك، إذ إن ما تتسبب فيه موجات الجفاف الكبرى هاته من حالات توتر اجتماعي وما تحدثه من أزمات اقتصادية، بل وحتى سياسية¹، يجعل من بحث الأهالي على الأمن أولوية تسبق تنافسهم على استغلال الماء لغايات فلاحية²، ومن ثم فإنه، وإن كانت تؤثر ولاشك في نظام تدبير الموارد المائية فإنها قد لا تكون بالضرورة ذاتها المفسر الوحيد للتنافس حول المياه ببادية مغرب "نهاية العصر الوسيط"³، حيث إنه إذا وضعت الحالة العامة للمناخ المغربي وما يتميز به عموما من شتاء ممطر ورطب في مقابل صيف حار وجاف⁴، مع ضعف الأساليب المستعملة في تدبير مياه السقي، فيمكنها أن تجعلنا أمام حتمية التنافس على الماء في الصيف⁵، خاصة حين دخول الأربعين يوما شديدة الحر⁶ المعروفة بـ"السمائم" أو ما عبرت عنه بعض المصادر بـ"زمن القليظ"⁷، الأمر الذي قد يتعزز خلال فترات الجفاف الحاد بموجات الهجرة والنزوح القبلي، فيتحول الصراع على الماء من حدث فصلي "شبه عادي" في البيئة البدوية المغربية، إلى عنصر مزعزع للبنيات القبلية.

هكذا يبدو أن هناك غموضا بين حقيقة الوضع المناخي بالمغرب "نهاية العصر الوسيط"، وتقديم الباحثين له على أساس أنه عامل رئيس في تفسير النزاع على الماء، الشيء الذي قد لا يتناسب والمشهد الاجتماعي المتأزم أصلا خلال نفس الفترة، والذي يمكن من خلاله

¹ - ارنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، م. س.

² - الناصري، الاستقصا، م. س، ج2، ص 202.

³ - يبدو أن المنازعات بشأن الماء قد طبعت المشهد البدوي بالغرب الإسلامي خلال الوسيط، حتى اشتهر على لسان أهل قفصة بقول مجهول الاستبصار قولهم: "إذا رأيت قوما يتخاصمون وقد علا بينهم الكلام فتعلم أنهم في أمر الماء". مجهول، الاستبصار، م. س، ص ص 152-153.

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 79-81. الونشريسي، المعيار، م. س، ج8، ص 402.

⁵ - ومما يعضد القول أعلاه ما نثر عليه في معيار الونشريسي عن أهل ساقية "ترفع من الوادي كما هي سائر القرى، ولكن جرت عاداتهم في وقت السقي ينظرون ما في القرية من أرض مزروعة في وقت الصيف وفي وقت الخريف، ويقسم ماء الساقية على جميع المزروعة، وكل ما لا زرع فيه لا يخرج له شيء من الماء على خلاف العادة في سائر الأرض، إذ العادة في غيرها أن قسمة الماء على جميع الأرض بالقرية، وكل واحدة بحظه زرع أو ترك...". الونشريسي، المعيار، م. س، ج5، ص 12. وينظر أيضا كل من: الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص ص 119-126. والتازي عبد الهادي، "الماء والغذاء في التراث الإسلامي والتاريخ العربي"، ضمن ندوة: الماء والتغذية وتزايد السكان، منشورات أكاديمية المملكة المغربية- الرباط، 1982، ص24.

⁶ - فقد كتب الوزان: "يعتقد الإفريقيون أن السنة أربعين يوما شديدة الحر تبتدئ يوم 12 يونه، وأربعين شديدة البرد تبتدئ يوم 12 دجنبر". الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص 79.

⁷ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م. س، ص 252. الناصري، الاستقصا، م. س، ج2، ص 239. ج6، ص 110.

أيضا تبرير مظاهر التناقض بين الرطوبة النسبية وواقع النزاع حول المياه بمغرب "نهاية العصر الوسيط".

2- جماعة جديدة وسياق قديم

تتوافق بداية الفترة المحددة للدراسة مع هزيمة العقاب، وهو الحدث الذي لطالما سال حول تأثيراته على الأحداث التاريخية بالمغرب المداد الكثير. لكنه، وإن كان لا يجادل اثنان في عمق التحولات التي شهدتها المجتمع المغربي غداة هذه الهزيمة، فإنه كذلك لا يمكن للباحث التغافل عن تأثيرات الأوضاع المناخية للعقود الستة (609-668هـ) التي تلتها على مسار التنافس الموحيدي المريني على السلطة، إذ شهد المغرب خلالها أربع موجات جفاف، شغلت امتداد السبع سنوات متفرقة، لعل أبرزها وأشدّها وطأة موجة جفاف الأعوام من 616هـ/1219م إلى 619هـ/1222م¹، فيما يبدو أن الجفاف المؤرخ بسنة 624هـ/1227م لم يقطعه سوى أمطار عام 626هـ/1229م، ليعود بعدها القحط والجفاف ثمان سنين بعد ذلك سنة 634هـ/1237م دون أن تمنحنا المصادر إشارة لمدته، والتي لا يستبعد أن تكون لها علاقة بجفاف 637هـ/1240م وحتى إن لم يكن الجفاف قد شغل كل هذه الفترة أي من 634هـ إلى 637هـ، فإن انعكاسات الموجة الأولى لا يمكن أن تزول خلال هذه المدة الوجيزة، ومنه فالغالب أن تكون وطأة جفاف 637هـ/1240م على المغاربة مضاعفة لهذا السبب.

وبعيدا عن تأثيرات موجات الجفاف التي عرفها المغرب خلال هذه الفترة القلقة من تاريخه، فإن الواضح أن مختلف هذه الأزمات المناخية قد عملت على تأزيم الأوضاع الاجتماعية للمغاربة² وتشديد الخناق على السلطة الموحدية المنشغلة بالصراع على الزعامة³، خاصة مع تزامن كل ذلك مع أعمال تشغيب بني مرين⁴، وتراجع قدرة القبائل المغربية على الرد، الشيء الذي يسر -إن صح التعبير- من جهود بني مرين وحلفائهم في السيطرة على المغرب، والتغلب على أوطان قبائله.⁵

¹ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م. س، ص 273. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، م. س، ص 54.

² - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م. س، ص 288.

³ - نفسه، ص ص 241-254/ ص 284.

⁴ - الناصري، الاستقصا، م. س، ج2، ص ص 202 / 209 / 215.

⁵ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج7، ص 224.

تمكنت قبائل بني مرين بفضل تضافر العوامل السابقة من التغلب على وطن المغرب، فاقسّمته مع حلفائها، وتوالت التغلب على قبائله، فاتحة الباب على مصراعيه أمام ثورة اجتماعية، على مستوى البنيات السكانية للمغرب، احتل بموجبها بنو مرين وحلفاؤهم مركز الزعامة على باقي قبائل المغرب، فتأثرت بذلك مختلف جوانب الحياة ببادية مغرب "نهاية الوسيط"، لكن الأثر الأكبر في ذلك نال الأنشطة الفلاحية، باعتبارها مجال الانتعاش الأساس لأهل البادية.¹

دار نقاش طويل بين الباحثين على تأثير المرينيين في الفلاحة المغربية، وخلصوا منه إلى ضعف الإسهام المريني في الخريطة المائية، وإذا كان هذا الأمر قد أضحى من شبه الأحكام المسلم بها²، فإن الواقع يفرض المزيد من التساؤل حول بعض حيثياته؟ فهل كان المرينيون في حاجة إلى إنتاج المزيد من المنشآت المائية؟ ثم هل كانت تعوزهم الإمكانيات لذلك؟

إن حصيلة المرينيين في باب الهيدرولوجيا، ليست وليدة تقاعسهم عن استغلال المجال جماعاتٍ غازية، بقدر ما أنه تكيف طبيعي مع مستوى حاجتهم لذلك ومتطلباتهم الزراعية، فقد جاء وفود المرينيين على المغرب نتيجةً طبيعيةً لما خلفته هزيمة العقاب ووباء 610هـ على الوضع الديمغرافي للبلاد، وما ترتب عنه من نقص في العمران، ليأتي حلولهم بالعديد من قراه وبواديه وكأنه عملية وراثية لأهلها الفارين منها أو الفانين عنها، نتيجة للعوامل السابقة، مضافا إليها تأثير حروبهم مع الموحدين، ومن ثم فلم تكن هناك حاجة، على ما يبدو، تدعوهم إلى إنجاز المزيد من الأعمال في هذا الباب، اللهم ما كان من تشكيل فئة من المنقعين من أرباب السلطة والمال ممن تحقق لهم تملك الأراضي من الهبات والإقطاعات السلطانية، فدفعتهم الرغبة في الرفع من الإنتاج مع تقليص الأعباء المادية إلى استغلال الناعورة في عملية السقي، ومن ثم انتشرت بعدة مناطق من مغرب "نهاية العصر الوسيط".

¹ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 113-119.

² - الطويل، الفلاحة المغربية، م. س، ص 96/ ص 212.

لقد جعل بنو مريـن من الأرض وسيلة لتدبير الخلافات القبلية على السلطة والحكم، ومن تم بدت كانعكاس لنقل ثقافتهم في تنظيم المجال الرعوي¹، نحو تدبير شؤون المستحوذ عليه من الأرض، فلم يكن لمركزة السلطة عند هذا الوضع، غير أن تعني مكانة اعتبارية وموقعا للتحكيم، فيما أنها، من حيث السيطرة على المجال، لا تعني سوى مساحات غير محددة، تقل أحيانا وتعظم أخرى، غير أنها لا تشمل كل التراب المغربي، الذي تنقسمه مع مجموعة من الفاعلين في الحكم، من قبيل بني مريـن أو حلفائهم المعقل، ووفق هذا الشكل من التعامل مع الأرض، لم يكن يعني السلطة المرينية منها سوى ما تدره عليها من مداخيل الجباية، فيما يترك استغلالها للعناصر النازلة بها والسيطرة عليها، وبالمحصلة غياب أو ضعف تأثير للسلطة المركزية في إنجاز الأعمال الهيدروفلحية. ومنه فإكراه عدم مباشرة السلطة لاستغلال الأرض، كان أحد العناصر التي حدثت من تأثير المرينيين في المجال الهيدروفلحي.

وبقدر ما انعكس هذا الأمر على التدبير التقني للمرينيين لموارد الماء، فقد كانت له انعكاسات على تدبيرها الاجتماعي كذلك، ذلك أن اندماج المتغلبين من فرق بني مريـن وحلفائهم في العناصر المغلوبة والمستوطنة قبلهم²، جعل تدبير هذا المورد الطبيعي (الماء) يتأثر بتقلبات الجماعات المحيطة به، الشيء الذي سينعكس حتما على جملة القواعد المتحكمة في الأمر.

وفي الوقت الذي بدت فيه جموع بني مريـن تمارس الغلبة في مجالات السهول الأطلنتية، كانت جموع المعقل حلفاؤهم تمارس ذات النمط من التسلط على المجالات الممتدة على هوامش المغرب الشرقية والجنوبية من ملوية إلى المحيط الأطلنتي وراء جبال الأطلس، وفيما يلي جدول انتشار المعقل في أرض المغرب.

¹ - رشيد اليملولي، الضرائب في الغرب الإسلامي وأثرها في التاريخ السياسي (441-868هـ / 1049م-1464م)، أطروحة دكتوراة في التاريخ، وحدة التكوين والبحث: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي الوسيط، جامعة المولى إسماعيل - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مكناس، السنة الجامعية: 2010-2011، ص ص 74-78. عبد الرحمان أمل، "الجباية المرينية بين الإصلاح والشطط"، ضمن مؤلف: السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب: الانتلاف والاختلاف، مطابع الرباط نت، ط1، 2013، ص ص 217-227.

² - الجدول رقم: 9 (الفصل الثاني)، والجدول رقم: 32 (الفصل الخامس) من هذا البحث.

الجدول رقم 32: توطين جموع المقل بالمغرب على عهد ابن خلدون

الفرع	القبائل	فروعها	لقبها	مجالاتها	المصدر
المغرب	عبد الله	-	ذوي عبيد الله	ما بين تلمسان وتاوريرت وما جاورهما جنوبا	تاريخ ابن خلدون، ج6، ص ص 77-79
	ثعلب	-	الثعلبية	متيجة بالجزائر	الاستقصا، ج2، ص 177.
	مختار	حسان	ذوي حسان	السوس الأقصى	
		شبانة	بنو ثابت	أسفل جبل السكسيوي	
			آل علي	أسفل جبل كزولة (برية هنكيسة)	
	منصور	حسن	أولاد حسين	أقطع لهم بلاد تادلا والمعر [المعدن] للمربع والمصيف ولميراث الأقوات.	تاريخ ابن خلدون، ج6، ص ص 77-79 / 89
		أبو الحسين	أولاد الحسين	نزلوا قصورا ما بين تافيلالت وتيكورارين	
		عمران	العمارنة	مجاورون لأولاد حسين من ناحية الشرق وفي مجالاتهم بالفقر تافيلالت وصحرائها، وبالنل ملوية وقصور وطاق وتازي وبطوية وغساسنة.	
	جلال	-	الرقيطات	سوس بادية لذوي حسان وحلفاء كذلك للشبانات.	تاريخ ابن خلدون، ج6، ص ص 77-79
		-			الاستقصا، ج2، ص 177
		-			

وفي ظل الحالة العامة للاستقرار بالبادية المغربية على شكل مستوطنات قبلية، فإن وفود جماعات بدوية جديدة -رعوية المعاش- عليها وتغلبها على مختلف ربوعها (البادية المغربية)، تسبب في دعم تراتبية اجتماعية ميزت العلاقة ما بين العناصر والجماعات القبلية المستوطنة لها من جهة، ومن جهة أخرى، تحولت عمارة الأرض من إحيائها بالزراعة والسكنى¹، إلى تملك الأحقية في ممارسة النشاطين الرعوي والزراعي معا فوق مجال جغرافي محدد بالقوة العسكرية، وهذا ما تختصره مختلف العلاقات المثبتة في الجدول أعلاه.

من جهتها تدعم بعض نصوص النوازل الفقهية هذا التوجه في التحليل، وإن كانت لا تأتي بصدد حديثها عنه بنوازل مائية صريحة، إلا أنها تمنحنا صورة على الوضع القبلي، يؤكد

¹ - الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار لبن قتيبة - الكويت، ط1، 1409هـ/1989م، ص 231.

على محورية عامل الغضب والغلبة في تأثيث المشهد الاجتماعي، بما يفيد ولا شك في وصول أثر هذا الواقع إلى الشأن المائي، وهذا ما يمكننا دعمه من خلال نص نازلة لإبراهيم السجلماسي، ذلك أن فريقين تنازعا في شأن "جنان بعضهم يدعيه برمته لهم، وبعضهم يدعي النصف، ثم إن المدعين النصف استظهروا بذلك بوثيقة تضمن صدق دعواه إذ فيها صلح الفريقين على ذلك بأعوام والمدعين لكل أتوا بعقد تضمن استدعاءهم حين الصلح، وأن القبائل اجتمعت عليهم وحملوهم على أن يقسموا ذلك مع من ذكر وشهود الوثيقة نصوا على القهر والغلبة نصا لا يحتمل التأويل والاستحفاظ للشهادة وأنهم على حقهم متى أمكنهم".¹

تحمل النازلة الكثير من المنافذ التعبيرية الدالة، ففيها تأكيد على لجوء أهل البادية المغربية إلى توثيق بعض معاملاتهم المرتبطة بالأرض وعمليات الصلح، (إذ استظهر كل فريق بوثيقة تدعم دعواه)، وإن لم يكن هذا الأمر مؤكدا أو شائعا بالنسبة لمختلف بوادي المغرب خلال هذه الفترة، فإن مضمون هذه النازلة يجعله معروفا على الأقل بمجال الواحات، وبالضبط واحات سجلماسة ودرعة، والباعث على هذا القول هو ما صرح به السائل من أن "كل واحد من الفريقين طلب الكتاب إليكم [إبراهيم السجلماسي]"²، ما يدعو إلى الاعتقاد بارتباط النازلة بمجال يحظى فيه الفقيه السجلماسي بقبول ورضى الجميع.

من الأشياء المثيرة في نص النازلة كذلك هو ما أشارت إليه من قيام صلح بين الفريقين تحت إشراف جماعة من القبائل، التي تجاوز عملها مرافقة الطرفين إلى التوافق على حل إلى حمل فريق على القبول بقضائها (قسمة الجنان موضع النزاع)، وفي هذا تدليل على شيئين هامين: أولهما: غياب السلطة، وقيام الجماعات القبلية وأحكامها مقام إشراف وأحكام السلطة المركزية. ثانيهما أهمية هذا الإشراف القبلي على فض المنازعات بين أطراف ما يبدو أنه حلف أو لف قبلي، حسب ما ورد في سؤال نازلة أخرى حول نفس الفريقين الذين "يجتمعون تارة في لف على عادة القبائل وتارة يفترقون".³

¹ - إبراهيم ابن هلال السجلماسي، نوازل ابن هلال السجلماسي، مخطوط بمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، رقم: MS229-M7، [و52 ب]

² - نفسه.

³ - نفسه.

يبدو أنه لا يمكن فهم الواقع المحيط بهذا النزاع إلا من خلال النظر إلى طبيعة العلاقة بين أطرافه، ثم إلى موقعها من الحلف، الذي صرح كاتب السؤال أن الطرفين يجتمعان فيه تارة ويفترقان تارة أخرى.

قبل الانطلاق للبحث في محاولة تفسير الواقع المحيط بالنازلة، نقف عند معطى آخر يمكن أن يفيدنا في فهم واقع العلاقة بين الطرفين وتحديد طبيعة استقرارهما معا، الحديث هنا ليس سوى سؤال نازلة أخرى تهم نفس الفريقين، يفيد بوجود خلاف آخر بينهما على تملك حصن مهدوم لأحد الفريقين. عمد أهل أحد الفريقين "وأصلحو منه [الحصن] ما وهى وسكنوه يتصرفون فيه بأنواع التصرف"، غير أن أهل الفريق الآخر قاموا عليهم مدعين "ملكيتهم ومطالبين به"، ودعموا دعواهم بشهادة شهود صرحوا بكون المدعين للحصن "سكنوا فيه قبل أن يسقط وقبل أن يبنوه الساكنون فيه الآن"، ليحتج عليهم مصلحو الحصن وساكنوه حين السؤال بسكوتهم من حين أخذهم في بنائه.¹

يبدو، أن فريقى النازلة قبيلتان استوطنتا مجالا واحدا، غلبت إحداها على الأخرى فيه فانتزعت منها بعض ممتلكاتها، فكان ذلك باعث استمرار الخلاف بين الطرفين، اللذان لا يبدو، رغم تصريح النازلة باجتماعها تارة في لف قبلي، أنهما ينتميان لنفس القبيل، وإلا لِمَ افترقا فيه. وعليه فمن الواضح أن الحديث هنا عن مجموعتين بشريتين نزلت إحداها، وهي التي تتبع لقيادة اللف القبلي، الذي تتصويان تحته المجموعتين معا، فيما الأخرى تتأرجح بفعل مصالحها بين لف قبيلة غريمتهما، وتارة أخرى تضطر إلى الانضمام لحلف آخر، ودليلنا على ذلك هو ما حمله سؤال النازلة الأولى من حمل القبائل لإحدى الفرق على قبول تقاسم "الجنان" موضع النزاع، الشيء الذي إن ربطناه بأسلوب انتشار القبائل الغالبة على مجموع أراضي القبائل المتغلب عليها، يدفعنا إلى الاعتقاد بارتباط إحدى الفرق بالقبيلة التي ترأس اللف القبلي. فيما الأخرى، المتغلب عليها تصلح طرفا حليفا يتراوح ولاؤه للـف حسب مصالحه ومتغيرات الساحة من حوله، وليس انتماء بحكم رابطة القرابة الدموية. ومع كل هذا، فمحتوى النازلة يفيد على تحقق واقع تجاور القبائل ونزول بعضها مجالات البعض الآخر، مع ما يترتب عن ذلك من مشاكل، لعل من جملتها ما حملت النازلة بعض معالمه.

¹ - ابن هلال، نوازل ابن هلال السجلماسي، م. س، [و 52 ب].

يبدو أن هذا التوجه في الاستيطان القبلي بالبادية المغربية، قد أخذ في الانتشار مشهداً تاريخياً طبع واقع البادية المغربية، وهكذا نعثر في وثيقة تعود لفترة متأخرة قليلاً عن الزمن المدروس على ما يفيد بحياسة السملاليين لأرض قبيلة المعدر بسوس، لما سبق لهم من تعمير "جميع ذلك بأنواع العمارة بالحرث والحصاد وغرس الأشجار وقلع الأحجار وحفر البير فيما يحرث، وعمره أحواله بالحريم وسرح البهائم ولقط الهرجان وحرث البحائر والخضر والدلاح وغير ذلك"¹، فإذا كانت الأراضي السقوية يتم إحيائها بالزراعة، فإن مجالات الندرة في الماء تحيى بالرعي وتربية الماشية التي تعد آلية من آليات التكيف مع هذه الندرة، وبواسطة الرعي يتم استغلال الحقوق المترتبة عن الانتماء القبلي على الأراضي الجماعية، ذلك أن الإنسان البربري "يجد في تربية الماشية أهم رمز للتبادل بين أفراد القبيلة، وأهم رمز للوحدة والتضامن بين السكان، فهو يدافع عن ترابها وبالمقابل يستغله استغلالاً أمثل بواسطة الماشية التي ترعى حرة مهما كانت أعدادها"².

وهكذا يكون قد ترتب على مختلف تحولات التنظيم القبلي ببادية مغرب "نهاية العصر الوسيط"، ظهور نظيمة اجتماعية، تقوم على قيام المتغلبين بأعمال الرعي والحرب مجموعاتٍ مسيطرة³، فيما ينشط المغلوبون مزارعين لخدمة الأرض، أو رعاة تحت ظل سلطة غالبيتهم، ومنه لا يستبعد أن يؤثر هذا الترتيب على توزيع الحقوق المائية بين مكونات الجموع البدوية، خاصة ونحن نعلم أن الماء لم يفارق الحياة القبلية بالبادية المغربية طوال فترات التاريخ، حيث ظل على الدوام رفيق أهلها في جل مناحي انتعاشهم، بل أحياناً محور انتظامهم وتفاعل بنياتهم الاجتماعية.

¹ - نقلاً عن أحمد بومزكو، مادة "المعدر"، معلمة المغرب، م. س، ج 21، ص 7187.

² - محمد آيت حمزة، "التدجين وتدبير المراعي عند امكونة الأطلس الكبير الأوسط"، ضمن كتاب: تدبير الموارد المحلية بالمغرب، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية - سلسلة دراسات وأبحاث رقم 71، دار أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط، ط 1، 2018، ص ص 100-104.

³ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج 1، ص ص 49-56.

II. البادية؛ مياه وتساكن

سبق وتناولنا الحديث عن الاجتماع الإنساني، الذي أسس عليه التفسير الخلدوني لأحداث ووقائع تاريخ مغرب العصر الوسيط، ودوره في تطور القبلية به، وهنا سوف نقف عند التركيب القبلي أحد المنافذ التي سوف تيسر علينا رصد عملية إدراج الماء ضمن هذا المركب الاجتماعي، هذا المركب وذلك الدمج الذي تتمثل القبيلة بمقتضاها شكلاً من أشكال المجتمع، "يتكون عندما يتحد ويتضامن رجال ونساء يعتبرون أنفسهم أقرباء - على أساس حقيقي أو افتراضي- عبر التناسل أو المصاهرة، من أجل السيطرة على مجال ترابي محدد، وتملك موارده التي يستغلونها بصفة مشتركة أو خاصة، مع الاستعداد للدفاع عنها بالسلاح"¹، فكيف انعكست التحولات التي عرفت البنية القبلية بالمغرب "نهاية الوسيط" على خريطة تدبير المياه؟

1- مجال البادية؛ القبلية نحو القرية

تتأسس القبيلة من مركب الجماعة البشرية والتراب/ المجال، وتتنظم في إطار العلاقة بين هذين العنصرين عدد من العناصر التي يمكن نعشها بالقبيلة²، وقد طفى إلى السطح، على العهد المريني، إغراء الاستحواذ على الأرض، عن طريق الغزو واستغلال الموقع من السلطة، حتى طبعته بعض الفئات المحتضنة شعبياً من قبل العامة كالأولياء وهيئة الأشراف، فتحول المجال وفق الثقافة المرينية - إن صح التعبير - في الحكم إلى "مصدر للإثراء لا غير"³.
لعل ما درج عليه المرينيون من تقليد في توزيع المراعي، شكل الأساس الذي تقاسموا عليه تدبير المجال المغربي وتنظيم العلاقات السلطوية، فبتعديل فحوى المرعى ليصبح مجالا ترابيا وأرضا صالحة لتكون "طعمة" للقبائل⁴، توزع المرينيون -يقول القبلي- الأرض التي أضحت "خاضعة مبدئياً لنمط استغلال جماعي لفائدة قبيلة ما أو مخصص لعشيرة معينة،

¹-Maurice Codelier, *Les Tribus L'histoire et face aux Etats*, Paris, CNRS éd, 2010, p 17.

²- عبد الله حمودي، "الدخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية"، م. س، ص 20.

³- محمد القبلي، *المجتمع والحكم والدين*، م. س، ص 219.

⁴- ابن أبي زرع، *الأنيس المطرب*، م. س، ص 291.

وذلك بغية تلطيف درجة الاندفاع وتجنب الانفجار، والحيلولة دون قيام الفتنة بين الإخوة المتنافسين".¹

طبع تعامل المرينين مع الأرض مختلف مناحي سياسة الدولة الجديدة²، حتى أصبح ورقة سياسية تستعمل في تدبير قضايا العمل الدبلوماسي والاستراتيجية العسكرية، كما أنه عنصر أساس في تحديد طبيعة الحكم الذي ترجم في السيطرة على الأرض، فأضحى لا وحدويًا قابلاً للتقسيم³، حيث يتبدى السلطان "رئيساً للأطراف وليس حاكماً مطلقاً".⁴

كانت المشاركة في المياه والمسارح من جملة علامات الجوارح في الوسيط⁵، كما بدأ توزع المجال القبلي، باعتباره أرضاً خاضعة للاستغلال الجماعي، أي الدفاع الجماعي، حينما أخذت القبائل والبطون في الاستقلال أو محاولات الاستقلال وتعاطي النشاط الزراعي وتربية الماشية مع الرعي، أي مع بداية "التخلي التدريجي عن النجعة التقليدية أو الرحلة بين "ألمو" أو "تيشكا" و"أزغار"⁶، وهو ما مثل أوج مراحل التغير الاجتماعي، الذي تناولنا الحديث عنه في الفصول الأولى من البحث.

وقد لا نخالف الصواب إن ربطنا بين عمليات الدمج التي ظل حضورها بالمجالات الهامشية لسلسلة جبال الأطلس المغربي، وبين عملية الانتقال نحو التنظيمات الجماعية لتدبير الموارد، من ماء وكلاء، فنسائر بذلك قراءة أحمد التوفيق، ومن سار عليها من الباحثين⁷، ليكون نزوع القبائل القادمة من الصحراء بوجه عام نحو مجالات الهامش الجنوبي والشرقي لجبال الأطلس نحو الاستقرار -في سياق شبه انفصال عن بنياتها القبلية الممتدة في الصحراء- منطلقاً لتشكيل الأحلاف القبلية في شكل اتحاديات قبلية تهدف إلى حماية موارد الماء والكلاء⁸،

¹ - محمد القبلي، المجتمع والحكم والدين، م. س، ص 218.

² - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 257.

³ - محمد القبلي، المجتمع والحكم والدين، م. س، ص ص 218-220.

⁴ - Pascal Buresi, Mehdi Ghouirgate, *Histoire du Maghreb Médiéval*, op. cit, p 144.

⁵ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م. س، ص 279.

⁶ - محمد حجاج الطويل، "دكالة بين الشدة والرخاء"، ضمن ندوة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، م. س، ص 43.

⁷ - أرفاك شفيق، "المجتمع التمنارتي ملاحظات أولية حول البنى الاجتماعية"، ضمن ندوة: واحات باني العمق التاريخي ومؤهلات التنمية، م. س، ص 69.

⁸ - المختار الهراس، القبيلة والسلطة تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، م. س، ص 44.

مما لا يمكن الاحتفاظ به في مجالات جغرافية ممتدة ووعرة التضاريس بغير تكاثف أكثر من حليف وقبيل واحد، خاصة في مناطق تتميز بتعدد العناصر المستقرة كالأطلس الصغير وجبال باني والأطلسين الكبير والمتوسط.¹

نحن إذن، أمام بنية قبلية متحركة -حسب تعبير أحمد التوفيق- وزحف للقبائل بحثا عن موارد الماء ومجالات أوسع للرعي، "وهذا الدفع غير بعيد عن نمط عيش يغلب عليه الانتجاع والرعي، وكفيل بتفسير تكون مثل تلك الاتحاديات القبلية الكبرى، القدرة وحدها على دفع تحالفات مماثلة، قد يضطر لها حتى الزراع المستقرون للدفاع عن أنفسهم وأراضيهم".²

لإبراز دور نظيمة التفتت والاجتماع المتوالية، بخصوص المجال القبلي المغربي خلال الفترة قيد الدراسة، نستحضر قراءة (A.Demangean) للاستيطان الريفي مع استبدال البنية القبلية بالمغرب وحدةً توازي أو تعني القرية عند مستوى معين يرتبط بالاستيطان. حيث يذهب (A.Demangean) إلى الاعتقاد بأن نظام الاستيطان الريفي يرتبط بالاقتصاد الزراعي، ويتدرج بين ثنائية التشتت والتجمع، والتي تبدأ بالمنزل "المعزول والقرية الأولية وعشرة منازل هي الأشكال الأصلية للاستيطان في الريف"³، ثم تأتي العلاقة ما بين القرويين ومجالي سكنهم واستغلاياتهم الزراعية لتحدد نمط الاستيطان ما بين نحو سبعة مراتب (ثلاثة تمثل مظاهر التجمع وأربعة تعبر عن حالات التشتت)، وذلك بفعل عدة عوامل، لعل أبرزها: النمو الديمغرافي وشكل وطبيعة الموارد الطبيعية وحالة الأمن.

الجدول رقم 33: أنواع التجمع والتشتت القروي حسب ترتيب Demangean⁴

التجمع	خواصه	التشتت	خواصه
حقول مشتركة	الاستغلال الجماعي للأرض	الأول (الأصل)	استغلال الأرض الزراعية المنقطعة والمنتشرة جغرافيا.
حقول متجاورة	تجاور المساكن وانفراد كل مالك باستغلال أرضه	الوسيط	ينشأ ما بين التجمعات الكبرى عبر تسلل المستوطنين.
انفصال	لا يوجد اتصال بين القرية (المساكن) والأرض الزراعية، وترتبط بالقرى المؤسسة	ثانوي	ينشأ من عزز المجال عن مواكبة النمو الديمغرافي.

¹ - روبرت مونطاني، الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر، م. س، ص ص 56-60.

² - أحمد التوفيق، اينولتان، م. س، ص 59. هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، م. س، ج2، ص 194.

³ - Demangean (A.), «La Géographie de L'habitat Rural (Deuxième article)», op. cit, p 103.

⁴ - Ibid, pp97-114.

الحقول عن السكن	لدافع التحصن.	حديث	ينشأ عن انتقاء الحاجة إلى الحماية والدفاع

يختزل هذا الترتيب العديد من العلاقات والأنظمة الاجتماعية، وكذا من الدوافع الغريزية والطبيعية والتاريخية التي تحكمت في سيرورة التحول من وضعية لأخرى، فحالة تجمع القرية الأوروبية لها خصائص لا تتناسب القرية الهندية، التي ترتبط فيه حاجة الفلاحين للتحكم في الماء¹، كما أنه يمكننا أن نضيف الحالة المغربية، حينما يتحول عنصر الماء إلى أداة توطين وتضامن بين الأفراد والجماعات، فلقد أسهمت عمليات التحول التي عاشت عليها الجماعات القبلية بالمغرب نهاية الوسيط، في التمهيد لظهور بنيات استيطانية متحركة هي الأخرى على منوال البنية القبلية، لكن بارتباط أكثر هذه المرة بالمجال ومن تم بموارده الطبيعية. من جهة أخرى تفيد ملاحظة التوزيع القبلي بالمغرب أواخر العصر الوسيط باستمرار تقليد انقسام القبيل الواحد ما بين أهل السهل والجبل²، وهو ما تردده النوازل، وإن بشكل عام، يهتم الاستقرار على موارد الماء في مشكلة الأعالي والأسافل³، مما يدعم أفكار "دموجون" بشأن التشتت الثانوي، حيث يؤدي تركيز السكن إلى عجز المجال عن تلبية الحاجيات، فيأتي التشتت نوعاً من إعادة الإعمار، والذي يتخذ هيتتين؛ غريزية أو حينما تنشأ الرغبة غريزية للانفصال عن الجماعة والانعزال للعمل على تنمية ملكية زراعية خاصة، وإعادة الإعمار المنهجي، أو حينما يتم تفكيك التجمعات لصالح إعادة توزيع الاستغلاليات الزراعية، بشكل يدعم توحيد الفلاحين لأرضهم، وخلال هذه العملية يتحول المسكن المؤقت من قبيل النوايل المعدة لوظائف الحصاد والحرق إلى مساكن دائمة.⁴

إن القبيلة في خضم التحولات التي عرفها النسيج الاجتماعي للبادية المغربية أواخر العصر الوسيط، وإن كانت لا تعرف نفسها نسبة للمجال إلا أنها تعنيه فيما تعرف به نفسها، وهو ما بدأ يظهر في متون المصادر حتى قبل هذه الفترة إلا أن سياسة بني مرين وتغير

¹ - A. Demangean, «La Géographie de L'habitat Rural (Deuxième article)», op. cit, pp 99-100.

² - البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، م. س، ص ص 47-49/51. محمد حجاج الطويل، "مصامدة الجبل ومصامدة السهل"، ندوة الجبل في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية سايس-جامعة سيدي محمد بن عبد الله- فاس، سلسلة ندوات ومناظرات العلوم الانسانية-3، 1994، ص ص 34-47.

³ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 315-325.

⁴ - A. Demangean, «La Géographie de L'habitat Rural (Deuxième article)», op. cit, p 100.

الوضع الديمغرافي بالمغرب أواخر هذا العصر، عزز من فرص حدوث توافقات قبلية لاستغلال مجال يجمع في الغالب ما بين أراض للزراعة ومجال للرعي، وفق قواعد خضوع المزارعين للرحل وتوافق الغالبين مع المغلوبين على تهيئة الأجواء لاستغلال المجال، وهذا ما يتناسب تقريبا مع مضمون الحمى القبلي لروبرت مونطاني، والذي يتشكل بتجمع عدة مداشر¹، ويأتي "تدرجيا بعد فخذة الرحل، التي توحدت باحتلال الأرض"² ثم تجمعت وفق آلية التسلط والغلبة.

عرف المغرب موجة مواجهات قبلية، بدت تظهر عليها في الأفق معالم الثنائيات العصبية المصلحية (اللفوف)³، فكان أن انتفضت القبائل المستقرة ضد الوافدين لتعارض المصالح⁴، ومن جملة النماذج القابلة للتمثيل هنا نجد الصراع بين الجزوليين وعدد من القبائل الوافدة من الصحراء، المعروفة تاريخيا بحلف "تحكات"، وفي الوقت الذي يذهب فيه المختار السوسي إلى أن تفسير الخلاف بين اتحاديتي "تازولت" (الجزوليين) و"تحكات"، يرجع إلى فترة الطاعون الجارف لسنة 749هـ/1348م، والذي تسبب في فناء عدد من سكان الجبال الوليتية من الجزوليين، فاستغلته بعض القبائل الصحراوية للقدوم إلى المنطقة⁵، لتبدأ الفتن بين الطرفين، أي بين الوليتيين من الجزوليين الأصليين، وقبائل "تحكات" من أهل الصحراء الطارئ⁶ من قبيل "أيت أمريبض" و"حربيل" و"سكتانة"... وفي الوقت الذي لا يمكن فيه نفي تطور الصراع، بفعل وقع الحدث الوبائي لسنة 749هـ على منطقة سوس، فإن نشأة الخلاف القبلي للسيطرة على الأرض يبدو ممتدا إلى ما قبل هذا التاريخ، وهو ما تؤكدته العديد من

¹ - روبرت مونطاني، الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر، م. س، ص 48.

² - نفسه، ص 56.

³ - إبراهيم السجلماسي، نوازل ابن هلال السجلماسي، م. س، [و 52 ب]

⁴ - نفسه، ص ص 57 - 58.

⁵ - ومن المجموعات التي يعتقد في رجوع أصولها إلى موجة حركة الطاعون الجارف، نجد "إيلالين، أو هيلالة" والذين يستوطنون جبل إيلالين بالأطلس الصغير الغربي من تخوم أنكيسة غربا إلى جهات جزولة شرقا ويمتد شمالا إلى سوس، وهم يدعون "أن أصلهم من تامدولت نواقا التي بناها المولى إدريس الأصغر... استقروا بعد خروجهم من تامدولت في وادي اسافن قريبا من تيزي ن ادوايلال. واضطروا بسبب وباء جارف إلى متابعة الهجرة نحو الشمال فبلغت قبائلهم موطنها الحالي أواخر القرن الرابع عشر الميلادي" أحمد التوفيق، مادة "إيلالين"، معلمة المغرب، م. س، ج 3، ص 931.

⁶ - وهذا على نقيض قراءة روبرت مونطاني، لهذين التحالفين، إذ كتب: "ونقول أحيانا عندما نريد تفسير وجود اللفين أن اكزولن شرفاء وأعيان جاؤوا من الصحراء يحملون الإسلام، في حين أن الحكوة هم السكان الأصليون أو القدامى للبلاد و"الجاهلين" الذين قد يكونون يهودا". روبرت مونطاني، الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر، م. س، ص 59.

الإشارات التاريخية لدى ابن خلدون وغيره من مؤلفي العصر الوسيط. وعموما فيمكن التمييز فيه بين ثلاث مراحل تغير خلالها مجرى هذا الصراع، نضع في سبيل إبرازها الجدول أسفله.

الجدول رقم 34: تطور الصراع القبلي بالسوس الأقصى

الفترة	الأطراف المتصارعة	المصدر
إلى حدود العهد الموحيدي	جزولة في مواجهة لمطة ¹	تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 271
ما بعد الفترة الموحدية	عرب المعقل في مواجهة جزولة ²	تاريخ ابن خلدون، ج6، ص ص 91-92.
نهاية العصر الوسيط	الجزوليين في مواجهة حلف "تحكانت"	المختار السوسي، إلغ، ص 239

يبدو أن المرحلة الأخيرة من التنافس بمجال الأطلس الصغير قد امتد إلى ما وراءه، كما اتخذ شكل توازن القوى القبلي بما لا يفضي بحسم أي طرف للأمر لصالحه، كما أنه حمل تسميات مختلفة حسب تنوع المجالات التي يشملها، وهذا ما انتبه له المختار السوسي فكتب: "قتمكنت العداوة المتأصلة التي انقسمت بينهما بسببها جهات سوس إلى درعة شق الأبلمة³، وإن كانوا في كل جهة يطلقون على كل من القسمين اسما خاصا آخر، ففي سوس الجنوبية يقولون تازولت وتاحوكات، وفي سوس الوسطى يقولون تاكوزولت وتاسكتيت⁴، وفي درعة يقولون محبوب وملول والمقصود واحد".⁵

¹ - يبدو أن لمطة تأثرت كثيرا بالحروب الموحدية ضد فلول أتباع المرابطين الشيء الذي أفقدها التوازن في مواجهة جزولة. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص 310.

² - لا يعني غياب لمطة، في حديث المصادر حول هذه المواجهة أنه لم يكن يعني عدم حضورها بقدر ما أنه يعكس حالة انكسارها ما بعد حملات الموحدين ضدها، ولعل أبرز دلائل على وجود محتشم للمطة ما كان من خضوع فرعها بسوس "زكن ولخس" لسلطة عرب الشبانات. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص 270.

³ - "الأبلمة بضم الهمزة واللام وفتحها وكسرهما خوصة المقل بضم الميم أي ورقة الدوم، يقولون المال أو الأمر بيننا شق الأبلمة لأنها تشق طولا على السواء، وكثيرا ما يستعمل العلامة صاحب الاستقصا رحمه الله هذا التعبير، وهو من العبارات المتناسية شيئا فشيئا" المختار السوسي، إلغ، م. س، الهامش رقم 40، ص 239

⁴ - سكتانة إحدى القبائل المشهورة شرق مدينة تارودانت (أحمد عمالك، مادة "السكتاني أبو بكر"، معلمة المغرب، م. س، ج15، ص 5018)، تضم عدة قبائل، جعلها منافسا قويا لحلف "إيكيزولن"، وقد عبر عن جموع قبائل سكتانة أيضا بحلف "تحكات"، وقد أهلها موقعها "المتحكم في الممرات التي توصل بين سهل سوس وواحات باني الشرقية من جهة، ومن جهة أخرى بين أحلاف جبل جزولة وأحلاف أيت واوزكيط وراء جبل سيروا" من لعب دور تاريخي مهم في منطقة الأطلس الصغير، حيث بدت مواقفها على تقييض منافسها حلف الجزوليين على مدار الفترات التاريخية منذ عهد الموحدين. محمد حنداين، مادة "سكتانة"، معلمة المغرب، م. س، ج15، ص 5018.

⁵ - المختار السوسي، إلغ، م. س، ص 239

لقد لاحظ بول باسكون في رصده لاستقرار القبائل بمجال الحوز، وجود انتظام يحتل بموجبه الوافدون السهل فيما يستوطن السكان الأصليون الجبل¹، لكن هذا الشكل من مشاركة الأوطان القبلية، وإن كان واقعا في مجالات عرفت استقرارا غير متوازن القوى بين العناصر المستوطنة لها، بحيث فرض على المنهزمين الصعود للجبل، نتيجة لرفضهم التنازل عن استقلالهم، فإنه في مجالات أخرى، يستقر المغلوبون في المجالات الزراعية، أي في المنبسط فيما يتحرك الغالبون ما بين السهل والجبل، فارضين سلطتهم الواسعة على المجالين معا، ومفضلين حياة الترحال لما تعنيه في وجدانهم من معاني الحرية وعلو المكانة الاجتماعية.²

الجدول رقم 35: تطور الوضع القبلي بحوز مراكش³

البكري (1068)	كتاب الأنساب (1214)	ابن خلدون (1384)	الحسن الوزان (1545)	القرن العشرين
مصمودة (....)	سكساوة	كنسيفة	سكسنة	سكساوة
	كدميوة	كدميوة	كدميوة	كدميوة
	تينمل	تينمل	تينمل	كندافة
هنتاتة	غيغاية	هرغة	هنتاتة	غيغاية
	واوزكيت	هنتاتة		وزكيتة
اريكا	سكتانة	اوريقة	؟	سكتانة
هزراكة	وريكا	هزراكة	هسكورة	اوريقة
هسكورة	مسفيوة؟	هسكورة		مسفيوة
	هسكورة			سكورة

وبعد قرون من التوافق على تقاسم المجال الجغرافي بين مختلف العناصر الطارئة والأصلية، سوف ينتظم المشهد القبلي وفق الصور التي رسمها له بعض السوسولوجيين، والتي تأتي بقبائل تحمل أسماء متباينة، خاضعة لتحالفات أفقية وعمودية، يفهم بعضها فيما لا يمكن تبرير بعضها الآخر بغير حصول التوافق السابق بين عناصرها لتجاوز الصراع وضمان استغلال المجال.

¹ - Paul Pascon, **le Haouz de Marrakech**, Rabat, 1983, pp153-156.

² - وهذا يبرر نعت صنهاجة ازموور بصنهاجة الذل وصنهاجة جبل سريف بصنهاجة العز. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج6، ص275.

³ - Paul Pascon, **le Haouz de Marrakech**, op. cit, p154.

وفي مقابل هذا المشهد، يبدو أن القبائل بالصحراء، كانت تحدد مجالاتها تبعاً لمواطن الماء التي تعتاد الانتقال بينها، وفي المجمع تجعل المصادر أبرز فروعها خلال الوسيط جدالة لمتونة ومسوفة على المنوال الخطي، حيث تجاور جدالة الساحل الأطلسي، فيما تليها لمتونة في الوسط لجهة الشرق فمسوفة وسط الصحراء الكبرى مما يلي لمتونة إلى الشرق¹، لكن هذه الجموع تعرضت للاستنزاف خلال العهد المرابطي، قبل أن تلحقها مزاحمة القبائل المعقلية²، والتي حاولت الحيلولة دونها ومناطق الشمال، غير أن أغلب البطون الصنهاجية تمكنت من اجتياز مجالات الفقر، ولم يبق منها سوى جماعات قليلة، استمرت تحت نفوذ الطارئين الجدد³، فخضعت جزولة لذوي حسان من عرب المعقل فيما وقع ما بقي من لمطة من "زكرز" و"لخس" تحت نفوذ الشبانات⁴.

هكذا يكون المجال الجغرافي بتحديدته القبلي، فضاء من الموارد خاضعة لتدبير جماعة أو جماعات بشرية، وفق قواعد فرضها مسار التحول الاجتماعي والمناخي، ويمتد هذا الفضاء من الأرض على مساحات تضم المرعى والأراضي الزراعية، وكان تنظيم استغلاله يتم عبر الانتقال في رحلتين حسب فصول السنة، ما كان يسمح للمستقرين بالزراعة واستغلال المجال قبل عودة أهل الرحلة (أهل الغلبة غالباً)، وقد ساد هذا التنظيم البادية المغربية طيلة فترة الوسيط⁵، إلا أنه على أواخرها تأثر ولا شك بالمتغيرات الديمغرافية، حيث عجزت الكثير من القبائل عن النجعة، فكيف تعين الماء ضمن هذا التدبير القبلي لبادية مغرب نهاية الوسيط؟ وما موقعه (الماء) من معادلة الغلبة؟

2- ماء وتراب وجماعة

لعل من جملة الشروط التي تعين على استغلال مورد مائي وقوع حدود الاستغلاليات الزراعية ضمن مجاله الجغرافي، أو قيام وسائل تقنية تعين على إيصال الماء إليها، فإذا كانت

¹ - محمد حجاج الطويل، "دكالة بين الشدة والرخاء"، م. س، ص 43.

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 6، ص 77.

³ - حسن الحافظي، مادة "بني معقل"، معلمة المغرب، م. س، ج 5، ص 1570.

⁴ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 6، ص 91-92. الاستقصا، م. س، ج 2، ص 253-254.

⁵ - محمد حجاج الطويل، "دكالة بين الشدة والرخاء"، م. س، ص 42-43.

المياه تحدد مسارها وفق ضوابط الطبوغرافيا الطبيعية¹، فإن تقدم المعرفة الإنسانية مكنت المزارعين من إنجاز أعمال هيدرولوجية لتحويل ونقل المياه نحو المجالات المراد سقيها²، مما يزيد من المساحات المروية، ومن ثم حدود التبعية الاقتصادية والاجتماعية لمورد مائي ما.³

من جهة أخرى، فإنه وكما لاحظ بعض الباحثين، يلعب نظام الري دورا في تحديد طبيعة الملكيات الزراعية⁴، ذلك أن تنظيم السقي يعكس نظاما من تشكل الملكيات الزراعية حول مورد الماء، "فعلى امتداد ساقية مرفوعة من نهر أو عين أو بئر... تنتظم مجموعة من الحقول والأجنة، يتعدد امتدادها وشكلها انطلاقا من علاقتها بالنظام السقوي، أي حسب بعدها أو قربها من قنوات الري وحسب موقعها في أعلى أو سافلة المجرى المائي"⁵، كما أنه لنفس النظام (الري) دور "في تحديد بعض السمات المادية والقانونية للملكيات الفردية، أي باعتبارها سقوية أو بورية"⁶، ويبدو أن هذا المشهد تضرر خلال الفترة المدروسة، بالأعمال التي باشرها بعض ملاكي الأراضي من الإقطاعيين وأرباب الدولة في جر المياه، وغصب الناس في حقوقهم، وتميرير المياه بقوة الموقع من السلطة، وغيرها من التصرفات التي لم يكن ليستسيغها المجتمع الزراعي، فكان يلجأ إلى الفقهاء عارضا لها وطالبا التدخل.

واجه الفلاح المغربي صعوبات في إمداد استغالياته الزراعية بالماء، مشاكل حدثت من إمكانياته لمواجهة عدة عوامل، ليس بأقلها ارتفاع تكاليف جر المياه، واستحداث السواقي، وغيرها من التقنيات المائية، ناهيك عن ما ميز التملك الفردي للأرض -والتي يستحيل أن تعني شيئا بدون ماء- من عدم اطمئنان للوسائل القانونية التي تضمن للمالكين حقوقهم، في ظل ما ساد الفترة من عمليات غصب وتعديات، شاركت فيه حتى دوائر قريبة من المخزن الميريني، فلم يكن لأحد أن يطمئن حتى لجانب الدولة في هذا الباب، ذلك أنه كتب ابن خلدون: "إذا حصل

¹ - حتى أن حدود الزراعات البعلية كانت رهينة بما اصطلح عليه أحمد التوفيق "نزوات المطر"، والتي "تجعل فترة الحرث تتحصر في عدد محدود من الأسابيع". أحمد التوفيق، *إينولتان*، م. س، ص 202.

² - حسن حافظي علوي، *سجل ماسة وإقليمها في القرن 14م*، م. س، ص 298.

³ - وقد أمكن لبعض الباحثين تقدير المساحة التي يمكن ربيها بالنظر إلى حجم صبيب المياه.

Paul Pascon, *Le Houz de Marrakech*, op. cit, p 108.

⁴ - أحمد التوفيق، *إينولتان*، م. س، ص 198. عمر بنميرة، *النوازل والمجتمع*، م. س، ص 151.

⁵ - عمر بنميرة، *النوازل والمجتمع*، م. س، ص 189 / 154.

⁶ - عمر بنميرة، *النوازل والمجتمع*، م. س، ص 154. أو أراضي المسقي وأراضي البعلي. أحمد التوفيق، *إينولتان*، م. س، ص 199.

[أي توسيع للملك الخاص من العقار] ربما امتدت إليه أعين الأمراء والولاة واغتصبوه في الغالب، أو أردوه على بيعه منهم، ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب¹، وليس ببعيد عن هذا مثالا ما حصل للشيخ أبي محمد الغزواني مع أخ السلطان الوطاسي أبي عبد الله البرتغالي من نفور، بسبب ساقية أحدثها الشيخ، فانتزعها منه. ذلك أنه كتب الناصري: " أقام [الشيخ الغزواني] هنالك [يعني بفاس القديم خارج باب القليعة داخل باب الفتوح] ما شاء الله قيل سبع سنين إلى أن كانت سنة تعذر فيها المطر وأخذ الناس في استخراج السواقي للحرق² فأخرج الشيخ من وادي اللبن ساقية لم يكن في سواقي السلطان وغيره مثلها فبعث إليه أخوه السلطان وهو الناصر الملقب بالكديد بالكاف المعقودة والبدال المشددة على لغة العامة وقال له نحن أحق بتلك الساقية فقال له الشيخ خذها وأخذ في الرحيل إلى مراكش³، فإذا كان هذا حال أهل الدولة مع من لهم حظوة وعهد عند السلطان فكيف يكون الحال مع من هم دون هذه المرتبة؟

ولتلافي بعض من الصعوبات السالفة، جاء اعتماد أهل البادية المغربية بوجه عام على إقامة مشاريع مائية، "قلما كانت خارج الجماعة، أو خارج مجهود تقوم به الدولة"⁴، وهذا ما تدعمه جملة نصوص النوازل⁵، ومن ذلك ما سئل عنه "أبو عبد الله الحفار عن ساقية ترفع من الوادي كما هي سائر القرى"، فجرت عادتهم "في وقت السقي ينظرون ما في القرية من أرض مزروعة في وقت الصيف، وفي وقت الخريف، ويقسم ماء الساقية على جميع الأرض المزروعة، وكل ما لا زرع فيه لا يخرج له شيء من الماء، على خلاف العادة في سائر الأرض، إذ العادة في غيرها أن قسمة الماء على جميع الأرض بالقرية، وكل واحدة بحظه زرع أو ترك"⁶.

انتظمت جماعات البادية لاستغلال المياه في أشكال تتباين من مجال لآخر، وهي عموما تسير وفق نمطين من ملكية الحق في مياه الري تحت نظام عقاري، "يتأرجح بين التملك

¹ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج1، ص 460.

² - وفي الاستبصار أن من عادة أهل سجماسة إخراج النهر لري زرعهم "لأن ماء المطر قليل". مجهول، الاستبصار، م. س، ص 201.

³ - الناصري، الاستقصا، م. س، ج4، ص ص 146-147.

⁴ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 295.

⁵ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج8، ص ص 400-402.

⁶ - نفسه، ج5، ص 12

الفردى، والتملك الجماعى"¹، وفى الوقت الذى تعتمد فىه الأنظمة التى تتبنى الوضع الطبوغرافى أساساً لتوزيع الماء على القاعدة الشرعية؛ الأعلى فالأسفل، فإن نظام التملك الفردى للماء كان يطرح الكثير من المشاكل حول تملك الحق فى الماء وعلاقته بالأرض والعقارات²، فجاءت قيمتها مرتبطة بعنصر الماء، الذى شملته مسائل البيع والشراء والكرأ³، واشترط تعيين وضعه فى البيوع⁴ مما يبرز ولا شك أهميته بالنسبة للأرض والمجتمع الزراعى.

فقد طرحت على إبراهيم السجلماسى جملة أسئلة، يظهر من خلال بعض مقاطعها وجود ارتباط للماء بالأرض، فالشفعة واجبة فى الماء المشترك متى كان لبائع الماء "شريك فى الأرض والماء على الشىاع والأرض المذكورة تسمى بهذا الماء"⁵، ومع أن الماء يتأكد فى هاته النازلة عنصراً أساساً فى شراكة استغلال الأرض، فإنه يتحول فى نازلة أخرى إلى أساس فى الشراكة دون أن تقع هذه الأخيرة على الأرض، فبنشأ الخلاف بسبب ذلك عن مدى حرية أحد الشريكين فى التصرف فى حقه وحدودها، وهذا ما نقف عليه فى سؤال "عمن له شرب ماء بموضع بعينه، وبإزاء موضع آخر لغيره يشركه فى ذلك الشرب بالنصف فأراد رب الموضع الواحد أن يأخذ شربه فى مكان آخر أعلا منه فمنعه صاحبه فقال لأن ماءك يسوق مائى"⁶، أما فى نازلة ثالثة، فإن تملك الحق فى الماء يتأكد حقاً أو حقوقاً لا يأتى المفتى على ربطها بالأرض، بل تظهر مستقلة ومن ذلك ما نقله ابن هلال من مسألة لابن لب يذكر فيها "أن السواقى القديمة يتعلق بها حق المنتفعين بمائها، وتصير تلك الحقوق مملكة لهم بطول الحياة، ولا يسمح لقوم أن يرفعوا ساقية فوق هذه الساقية"⁷، أيا يكن من أمر الماء والأرض، فإن الشراكة فيه تبدو واقعا عرفته البادية المغربية خلال العصر الوسيط.

¹ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 306.

² - الونشريسى، المعيار، م. س، ج 5، ص 202 / ج 6، ص 39 / ص 191.

³ - الونشريسى، المعيار، م. س، ج 7، ص 88 / 123 / 275. إبراهيم السجلماسى، نوازل ابن هلال السجلماسى، م. س، [و 58 أ]

⁴ - نفسه، ج 6، ص 39 / ج 6، ص 68 / ج 8، ص 382.

⁵ - إبراهيم السجلماسى، نوازل ابن هلال السجلماسى، م. س، [و 58 أ].

⁶ - نفسه.

⁷ - نفسه، [و 81 أ]

ولعل من بين المنافذ التي ربطت الأرض بالماء بالبادية المغربية، ما كان من مظاهر إحيائها كأحد وسائل التملك، والذي يبدو أنه واقع تاريخي طبع الفترة المدروسة¹، بالنظر لجملة أسباب تاريخية وديمغرافية لم تكن تسمح بانتشار العمران البشري، لـ"تغطية كل أراضي المغرب"²، وإذا كانت عملية الإحياء قد أثارت العديد من الإشكاليات الفقهية فيما جاور العمران من الأرض، أو وقع تحت نظر الإمام، أو تم بدون موافقته³، فإن معلوماتنا عن البعيد عن العمران، وما لم يعلم له صاحب، تبقى في حكم المعدوم، غير أن ذلك لا يلغي وجود حالات إحياء للأرض من هذا القبيل، فقد تحدث المجاجي عن اعتياد قوم القيام بإحياء الأرض لعادة فيهم "أنهم يحبون ذلك لعمارة"⁴، والذي يبدو أنه نفس مذهب الشيخ الغزواني وأتباعه.⁵

وبما أن من جملة شروط إحياء الأرض تمهيدها للاستغلال الزراعي، ومن ثم ضرورة إمدادها بالماء، فإن ارتباط العديد من حالات الإحياء، التي تناولتها إشارات النوازل الفقهية بأراض مستغلة، تخلق عنها أهلها⁶ لظروف سياسية، أو اجتماعية، أو طبيعية، يجعل من تدبير استغلالها، ومعه ما تتوفر عليه من موارد مائية، يبقى مثار خلافات بين المشاركين في "بعث" تلك الأراضي من جديد⁷، وهذا ما يفهم من نص نازلة قوم كان لهم "ماء غير متملك يسقي به أعلون وأسفلون على قديم الأيام، فأحدث أصحاب العلو خضرا ومباقل وسقوها بالماء مما أضر بالأسفلين"⁸

إذن، فمسألة إحياء الأرض، ومن جملتها إحياء الأصول المائية خاصة العيون أو ما ارتبط بسقي الأرض من سواقي، لا تخلو من أحد الوجهين؛ أن يكون ابتدائيا، أو بعثا جديدا

¹ - يمكن الاستئناس هنا بقراءة عمر بنميرة لأهمية الإحياء في تملك الأرض بمغرب القرنين 8 و9هـ/ 14 و15م، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 172-179.

² - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 174.

³ - الماوردي، الأحكام السلطانية، م. س، ص ص 231-235. عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 173-175.

⁴ - المجاجي، عبد الرحمن بن عبد القادر الراشدي، التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، قسم المخطوطات، رقم: 2/033، ص 35.

⁵ - المهدي الفاسي، ممتع الأسماع، م. س، ص ص 59-85. ابن عسكر، دوحة الناشر، م. س، ص ص 97-107.

⁶ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 176.

⁷ - نفسه.

⁸ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج8، ص 391.

لأمالك الغير. ويبدو أن هذين الطريقين في الإحياء كانت تحكم كلا منهما قواعد في استغلال الاملاك المرتبطة به، وهي عموماً، قواعد تبرز أهمية العمل، وبذل الجهد في تملك ليس فقط الأرض، بل الحظوظ المائية كذلك.¹

ولهذه الاعتبارات -كما سيتضح في القادم من هذا البحث- دور في رسم معالم التدبير التقليدي للماء بالبادية المغربية، إذ تكشف إجابات الفقهاء عن عوامل تبني نظام توزيع الحقوق المائية، بحسب وضعية المورد المائي وشكل الاستقرار عليه. وهذا ما يستشف من نص جواب للشيخ إبراهيم اليزناسي، جاء فيه إن "غرس أحد على هذا الماء [غير الممتلك]، وهو على هذه الصفة، فليس لأحد ممن فوقه أن يحدث فوقه ما يضر به في سقيه"، إذ يعتبر ذلك من جملة إحياء أصل الماء، ذلك أن "هذا [الأصل] الذي ليس بمملوك إنما جلبهم له إحياء".²

من جهة أخرى، يسهم تحديد شكل استغلال الأرض في تقدير حاجتها للماء، ومن ثم أهمية اللجوء إلى وضع آليات لتدبيره، ذلك أن الملكيات الفردية السقوية، والتي غالباً ما تطبع محيط المورد المائي ومراكز العمران، تكون بسبب ما تجعل له من زراعات خفيفة شديدة التجزؤ³ والارتباط بالماء، ومنه ارتفاع الحاجة إلى تدبير استغلاله.

III. الماء يصف القبيلة

يحفظ توزيع الماء بالبادية المغربية جزءاً من تاريخ التحولات الاجتماعية، فلطالما اختزلت نوبات وحصص الماء خيوط التطور التاريخي للجماعات البشرية، ومن ثم يقترح **طوماس ف.كليك** (F.Glick Thomas) استحضار البنى الاجتماعية في تفسير الأنظمة المائية المعقدة⁴ بالمجتمعات التي وسمها **كارل ويتفوكسل** (K.Wittfogel) بالمائية⁵، والتي يرى أن

¹ - الماوردي، الأحكام السلطانية، م. س، ص ص 213-241.

Alfred PLETSCH, «Eléments Traditionnels Et Evolution Récente Dans L'oasis Du Dra (Maroc)», Méditerranée, N°2. 1977, p 38

² - الونشريسي، المعيار، م. س، ج 8، ص ص 32-35

³ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 189-190.

⁴ - GLICK (T.F), *Irrigation and Society in Medieval Valencia*, Harvard, University Press, Cambridge, Mass, 1970.

⁵ - Carbonero Maria (A.), «Technologie Hydraulique Et Système De Distribution Collective De L'eau en Al-Andalus», op. cit, p135.

السلطة المركزية هي أساس الأنظمة المائية الكبرى بها، ومن ثم فإن دورها في الاعداد المائي هو الأساس الذي ينطلق منه لتفسير هذه المجتمعات القائمة على التحكم في المياه¹، الشيء الذي يتعارض شيئاً ما مع البنى الاجتماعية الصغرى لتدبير الماء بالبادية المغربية خلال العصر الوسيط، حيث أمكن التمييز في الاعداد المائي بها بين: الأعمال التي تقع على عاتق الدولة، والتي تهم المياه غير المملوكة والمشاريع المائية العامة. والأعمال التي يقوم بها الخواص، والتي تنقسم بدورها إلى: أعمال تباشرها النخبة القريبة من السلطة خاصة من أصحاب الاقطاعات الكبرى، وأعمال يباشرها أرباب الملكيات الصغرى والمتوسطة.²

سوف نعمل خلال هذا المحور على ملاحظة بعض العناصر الثقافية والعوامل الاجتماعية، التي أسهم من خلالها الماء بشكل جدلي في ترتيب الهيكل الاجتماعي للبادية المغربية، وكذا في تعيد القواعد العرفية لتنظيم وتدبير توزيع المياه، وفي سبيل ذلك تم التميز بين الانتباه للحمولات الثقافية في أنظمة تدبير تنظيم الماء نقطة أولى، وبين الترتيب الاجتماعي حول نفس الأنظمة نقطة ثانية.

1- الحمولة الثقافية لتوزيع الماء وآلياته

بعد المحاولات التأصيلية الأولى التي انطلق أصحابها من محاولة البث في التقنيات المائية وكيفية انتشارها وانتقالها من حضارة ومجتمع إلى حضارة أخرى، ظهرت مقاربات جديدة تسعى إلى تفسير العلاقة بين الماء والمجتمع، لعل أبرزها مقارنة بعض المؤرخين الماركسيين والتي ربطت أساساً بين شكل استغلال الأرض والموارد والتقنيات المائية، لابرار كيفية تحكم السلطة ببعض المجتمعات التي وسمتها بـ"المجتمعات المائية"³، لكن هذه الرؤية الانتروبولوجية لتفسير المجتمعات الزراعية وكيفية تدبيرها للمنشآت المائية، واجهت انتقادات واسعة لعدم جدوى تقديمها كمقاربة شاملة يمكن من خلالها فهم كل المجتمعات المرتبطة بالماء، ثم كذلك لما انتبهت إليه بعض الأبحاث الانتروبولوجية اللاحقة عن طرح ويتفوجل، من أهمية البعد

¹-WITTFOGEL (K.A.), *Oriental Despotism a Comparative Study Of Total Powr*, New Haven and London: YALE University Press, 1957.

²-Pierre Guichard, «L'eau dans le Monde Musulman Médiéval», MOM Editons, Année 1982, p119.

³- طارق مدني، "أركيولوجيا الماء: مقاربات ومجالات"، م. س، ص ص 1402-1405.

الاجتماعي والثقافي في إنتاج وتدبير الشبكات المائية الواسعة، ومن تم اقترح أصحاب هذه الرؤية الانطلاق من البنيات الاجتماعية والثقافية لفهم تدبير الموارد والمنشآت المائية.¹

انطلاقاً من هذه المقاربات الأخيرة، أمكن الانطلاق في محاولة لإبراز الحمولة الثقافية والاجتماعية للأنظمة التقليدية في تدبير توزيع الماء بالبادية المغربية، إذ هي دليل آخر على تلمس بعض مظاهر التساكن البدوي "نهاية العصر الوسيط"، ومنفذ كذلك للبحث في تأثير انتقال الأفكار والتجارب في ميدان تدبير استغلال الماء، ذلك أنه قد تسعف القراءة التاريخية للأنظمة الري في تفكيك بعض عناصر التعقيد المرافق لوجه المرونة فيها، والتي تختزل حضور الماضي في نظام الري.²

لاحظ أحد الانتروبولوجيين في دراسة اثنوغرافية لقريتين وسط نيبال، أنه على الرغم من تبني القريتين لنفس نظام الري، الذي يبدو أن إحداها نقلته عن الأخرى، غير أنهما عملتا عليه بشكل مختلف وذلك لأسباب ثقافية، إذ أحدثت القرية الثانية على وحدة قياس الساعات المائية، تعديلات بالاعتماد على مبادئ مستعارة من مجال علم التجسيم، الذي يشارك على نطاق واسع في الحياة الخاصة والجماعية لمجتمع هذه القرية³، وهذا ما يعزز من أهمية مقارنة الأنظمة والتقنيات المائية في إطار الوضع الاجتماعي والثقافي الذي انتجت فيه، إذ تحمل هذه الأدوات حمولات اجتماعية ودينية وأخلاقية نابعة من بيئتها الاجتماعية.

يبدو أن جل الأنظمة التقليدية لتدبير المياه بالبادية المغربية اليوم، كانت معروفة خلال نهاية الوسيط، وذلك ما يستشف من جملة نصوص النوازل الفقهية⁴، لكن التساؤل حول كيفية ظهورها؟ يبقى مشروعا طالما لم يتضح بعد كيفية تبنيها؟ ومما يعزز من أهمية هذا التساؤل ما نعثر عليه في العديد من المونوغرافيات من تحويل تبني هذه الأنظمة العرفية إلى نوع من

¹ - نفسه، ص ص 1405-1411.

² - مندي مارثا، "الغيل المبارك نظام الري والتنظيم الاجتماعي في وادي ضهر باليمن "خلال القرون الثلاثة الماضية"، مجلة دراسات تاريخية، السنة الحادية عشرة، ع 35-36، آذار - حزيران، 1990، ص 189.

³ - AUBRIOT (O.), «La clepsydre de l'astrologie a l'hydraulique, exemples d'emprunt d'un système de distribution de l'eau d'irrigation au Népal», Annales de la Fondation Fyssen, 10, 1995, p42.

⁴ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 311-313.

الإبداع المحلي¹، الشيء الذي يغني أصحابها عن البث في كيفية اعتمادها، والتي تتواتر متناثرة في مجالات مختلفة، دونما التفكير في وضع خرائط لها أو تحديد خطوط عريضة لكيفية نشأتها وانتقالها بين مختلف هذه المواطن القبلية.²

إن البحث في تاريخ تنظيم المياه يظهر أن وضع قواعد توزيعه، يرجع لعهود قديمة "قدم دستور حمورابي (ت 3000 ق.م)"³، وقد اتخذ ثلاثة أشكال وهي؛ "بتحديد النسبة أو الوقت أو القياس، وأحيانا بهذه الطرق مجتمعة"، ويبدو، من نوازل المعيار، أن بعضا من هذه الأقسام كانت معروفة ببادية الغرب الإسلامي نهاية العصر الوسيط، فلأهل قرية "عين مأمونة يقتسمون الماء على دول معلومة بينهم"⁴، كما أن حظ جنان "من عين قريبة ليلتين ويومين بعد كل تسعة أيام، وأن الماء المذكور حق من حقوق الجنان المذكور ومرفق من مرافقه"⁵، فيما يستقي أناس من عين مشتركة "جناتهم، فمنهم من حظه نهارا، ومنهم من حظه ليلا، ومنهم من حظه في غدوة إلى الزوال، ومنهم من حظه من الزوال إلى العصر، واستمرت العادة فيما ينيف على الخمسين عاما أن صاحب النهار يأخذ إلى العصر"⁶، واقتسم أهل سواقي "ماء كل ساقية، وأعطوا لكل واحد بقدر مراجعه من الأرض، فإذا تم عدد تلك الساعات بالسقي أرسل الماء إلى جاره الأسفل، فيمسكه الآخر أيضا على قدر ما صار له من الساعات، فإذا تمت أرسله، هكذا واحدا بعد واحد والأعلى قبل الأسفل إلى أن تتم أرض الساقية، ثم يعود الدور من الأعلى على

¹ - امحمد مهدان، الماء والتنظيم الاجتماعي، م. س، ص 75.

² - تناولت الأستاذة فاطمة مسدالي بشيء من الاختصار، مسألة الاختلاف بين علماء الانتروبولوجية حول جمود وحركة المجتمعات التقليدية، والتي تحمل بذورها المجتمعات القبلية المغربية، فخلصت إلى معارضة رأي راليك (RALEIGH) حول اقتصار المجتمع البدائي على النقل والتقليد من الآخرين دون التفكير (RALEIGH, **Elementary politics**), (Ed. H. Fraude, London, 1905, p10)، فهو (المجتمع البدائي) "متحرك، وكذلك أعرافه. وما يقال عن المجتمع البدائي يمكن أن ينطبق على كافة أنواع المجتمعات التقليدية، ومن بينها البدوية. فجميعها ليست جامدة تماما، أو متحركة بوثيرة سريعة" مسدالي فاطمة، الثابت والمتغير في أعراف الأسرة البدوية بمنطقة دكالة، ضمن؛ الأعراف بالبادية المغربية، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة ابن طفيل - القنيطرة، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - الرباط، ط1، 2004، ص 96.

³ - دونالد هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، م. س، ص 232.

⁴ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج8، ص294-295.

⁵ - نفسه، ج10، ص 168

⁶ - نفسه، ج5، ص ص111-112.

ذلك الترتيب دائما في جميع تلك السواقي الخمس".¹ وغالبا ما تأتي طريقة قياس الماء وتوزيعه دامجة بين مستويين للتوزيع²؛ مستوى التوزيع العام بين جماعات المورد الواحد؛ ويهم في الغالب حصة الوقت (الدول) بالأيام. ومستوى التوزيع داخل الحقول والمشارت؛ ويقاس بوحدات أقل تحدد بالزمن (ساعات الماء) أو الكم.³

لعل جملة الإشارات التاريخية وغيرها من نتائج الدراسات المونوغرافية، تمنحنا إحياءات حول ارتباط نظام توزيع المياه بعاملين: اقتصادي، ويرتبط بأهمية الماء في الإنتاج الزراعي. وطبيعي، ويتعلق غالب الأمر بندرة المياه⁴ أو عدم كفايتها لتغطية المجال السقوي أو في حدود دنيا مشتركة ضرورة التنظيم في تدبير المياه لتلافي المشاكل المتولدة عن الرغبة في احتكار استغلال المياه، ومن تم بروز الطابع الاجتماعي لمتغيرات تاريخية.⁵

وفي الوقت الذي لا نملك فيه معطيات دقيقة حول أصول الأنظمة العرفية لتوزيع الماء بالبادية المغربية، فإن الشواهد التاريخية تحيانا على أدوات مشابهة في مناطق مختلفة من المعمور⁶، واعتبارا لصعوبة تحديد بداية ظهور هذه الأعراف ببادية المغرب، وكذا حركة

¹ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج8، ص 40

² - محمد أعغيف، توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، م. س، ص 106. مندي مارثا، الغيل المبارك، م. س، ص 185. وقد يمتد الأمر إلى ثلاث مستويات، وذلك حين تتعدد أنظمة التوزيع في مورد ماء ما بين مستويين، قناة الجر وقنوات الربط، قبل الوصول إلى الأجنة المسقية، حيث نصبح في هذه الحالة أمام ثلاثة مستويات من التوزيع وإعادة التقسيم. انظر؛ أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي، م. س، ص ص 294-295.

³ - ومن التعبيرات التي نعر عليها في هذا الصدد على المستوى المعجم العرب السرفة، وهي: "جزء من ستين جزءا من شرب يوم وليلة ويكون أقل وأكثر على ما يقع عليه الاصطلاح بين الشاربة". مفاتيح العلوم، م. س، ص 95

⁴ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج2، ص 139. محمد أعغيف، توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، م. س، ص 106.

⁵ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 320-323.

⁶ - السير جون شاردان، رحلات في فارس، تعريب صلاح صلاح، دار السديدي للنشر والتوزيع - أبو ظبي، ط1، 2005م، ج2، ص ص 177-179. وبالهند ذكر البيروني أن من تقسيمهم لليوم أن "يقسم قسمة عامية لثمانية "برهر" أي نوب في الحراسة وفي بعض بلادهم بنكانات على الكهري مسواة يرصد بها مياه النوب الثمان، فإذا مضت نوبة وكهرياتها سبعة ونصف ضربوا بالطبل أو نفخوا في الحلزون الملتوي الذي يسمونه "شنك" وبالفارسية "سبيد مهره"؛ ورأيت ذلك ببلد "برشور"، وعليها وعلى القوام بها أوقات وجرايات" البيروني الخوارزمي، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1403هـ، ص ص 255-256. بنحمادة سعيد، الملكية العقارية وقانون الماء ببلاد المغرب والأندلس بين التشريع النظري والتنزيل التاريخي دراسة لأثر الجغرافيا التاريخية في تبيئة القانون، ضمن أعمال ندوة: التاريخ والقانون التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة، أعمال مهداة للأستاذ: محمود

انتقالها ما بين مجالاتها، فإنه يبقى ربط الأمر بتطور الحاجة إليها، وما سبق وتحدثنا عنه من طريق نقل وتناقل التقنيات المائية، يسمحان باحتمال كون بعض أجزاء هذه القواعد وليد عمليات انتقال للأفكار مع التقنيات.¹

من جهة أخرى، فإنه إذا كانت النصوص التي تأتينا من المصادر، تصف أنظمة التوزيع، وفي بعض الأحيان آلياتها التقنية كذلك، فإن ما سجلته عدد من الدراسات والأبحاث حول الموضوع يمنحنا عدة آليات تقنية استخدمت في البادية المغربية، وحملت تسميات مختلفة²، مما يزيد من تعقيد البحث في أصولها وأساليب انتشارها، وقد اعتمد عموم هذه التقنيات القياسين الزمني أو الكمي لتوزيع المياه.³

إسماعيل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مكناس، سلسلة الندوات، رقم 22، مطبعة مكناس برانت شوب، 2009، ص ص 151-184.

¹ - وفي هذا السياق يأتي ربط أحمد عبد اللوي علوي، بين غموض وتعقيد طرق تنظيم السقي وتوزيع الماء، والذي يتجاوز تعقيدات أشكال ملكية الماء والأرض، وذلك لاعتبار أن طرق تنظيم السقي ما هي في الواقع إلا نتاج تجارب المجموعات البشرية المتعاقبة على سكنى مجال مدغرة وادي زيز. أحمد عبد اللوي علوي، مدغرة وادي زيز إسهام في دراسة المجتمع الوادي المغربي خلال العصر الحديث، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1416هـ/1996م، ج2، ص 44.

² - أحمد مزيان، فجيج (فكيك)، مساهمة في دراسة المجتمع الوادي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845-1903م)، مطبعة فجر السعادة، 1988م،

أحمد عبد اللوي علوي، مدغرة وادي زيز إسهام في دراسة المجتمع الوادي المغربي خلال العصر الحديث، م. س، ج2، ص ص 43-50.

عمر أفا، تاريخ المغرب المعاصر (دراسات في المصادر والمجتمع والاقتصاد)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 34، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط1، 2001-2002، ص ص 207-238.

محمد أعيف، توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحة وتاريخها، م. س، ص ص 103-109.

³ - أحمد اد الفقيه، نظام المياه، م. س، ص ص 171-174.

الجدول رقم 36: طبيعة وآليات قياس الحصص المائية

طبيعة القياس	آلياته التقنية		إضافة
	بالأمازيغية	بالعربية	
زمني	تناست	الطاسة	تعرف هذه الآلية في المعاجم العربية بالطرجهارة ¹ ، أو الساعة المائية.
	—	القلد	أداة لتحديد زمن الحصص ²
	—	القدس	آلية لضبط زمن الحصص ³
	لعلام	المزولة	تعرف أيضاً بميزان الماء، وتعرفها المعاجم العربية على أنها الساعة الشمسية ⁴ .
كمي	اسقول/ افر	مقياس الماء ⁵	تحدث القزويني عن عمود لقياس الماء بمصر ⁶
	ايزوكلا/المشط تفكيكت	مقاسم الماء ⁷ الشاندروان ⁸	وتعرف هذه المقاسم في بلاد ما وراء النهر بالدركات والمزقات ¹ .

- ¹ - الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، م. س، ص 431. صاحب الكافي، **المحكم في اللغة**، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط1، 1414هـ/1994م، ج4، ص 116. محمد البلخي الخوارزمي، **البلخي، مفاتيح العلوم**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط2، ص 254.
- ² - الشعبي أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد الغرناطي، **تحفة الحكام**، دار الفكر - بيروت، ط3، 1401هـ/1981م، ص ص 122-123. مجموعة مؤلفين، **تاريخ المغرب تحيين وتركييب**، م. س، ص 228.
- ³ - البكري، **المسالك والممالك**، م. س، ج2، ص ص 708-709.
- ⁴ - مجهول، **الاستبصار**، م. س، ص 153. الرازي بنيامين، **رحلة بنيامين التيطلي**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 2002م، ص 281. محمد البيروني الخوارزمي، **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1403هـ، ص 8. كما يتحدث هذا الأخير عن معرفة أهل الهند لاحتساب الزمن بقياس ظل الشخص. البيروني، نفسه، ص 256.
- ⁵ - المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، م. س، ص 275. ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت، ط1، ص ص 29-30. **رحلة بنيامين التيطلي**، م. س، ص 351. **الادريسي، نزهة المشتاق**، م. س، ج1، ص 325.
- ⁶ - ففي "وسط الصهرج عمود من الرخام الأبيض طوله أربعة وعشرون ذراعاً، وكتب على كل ذراع علامة، وقسم كل ذراع أربعاً وعشرين إصبغاً، وكل إصبغ ستة أقسام. وللصهرج منفذ إلى النيل يدخل إليه الماء، فأى مقدار زاد في النيل عرف من العمود، وعلى العمود قوم أمناء يشاهدون ذلك ويخبرون عن الزيادة" القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر - بيروت، ص 264.
- ⁷ - **تاج العروس**، م. س، ج9، ص 351. **تكملة المعاجم العربية**، م. س، ج8، ص 273. ونعثر على إشارة لجملة من المقاسم على أحد خلجان النيل. المقرئزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ، ج1، ص ص 459-461.
- ⁸ - "آلة لفصل مياه الأنهار عند التحويل، وهي ألواح خشبية متينة يوضع خلفها أعمدة لتثبيتها، فيرتفع المياه في النهر لتسقي الأماكن المرتفعة". محمد أحمد دهمان، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان ودار الفكر، دمشق - سوريا، ط1، 1410هـ/1990م، ص 95. المقرئزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، م. س، ج1، ص 461.

يبدو أن تنوع الآليات التقنية المعتمدة في توزيع المياه بالبادية المغربية وكذا تسمياتها، ينم عن واقع تنوع المجموعات البشرية المستوطنة لها، وكذا تباين تجاربها في ميدان تدبير المياه، كما قد يشكل تتبع جغرافية انتشار هذه التقنيات وتسمياتها مسلكا لدراسة إمكانية نقلها من مناطق أخرى من المعمور²، وفي هذا الإطار تسمح لنا المعاجم العربية، وبعض النصوص المصدرة بالوقوف على مثيلات لهذه الآليات، والتي انتشر استعمالها، خصوصا في بلاد الشرق الأدنى القديم، والذي يبدو أن آثار حضارته المائية، بلغت إلى بلاد المغرب عبر حركة الناس والتجار، بل وحتى المذاهب الدينية والحركات السياسية.

الجدول رقم 37: عناصر وأجزاء قياس الحظ من الماء من خلال نوازل المعيار للونشريسي

طبيعة القياس	عناصره	أجزائه	الجزء والصفحة
٣٦	اليوم	الليل: من المغرب إلى الفجر	ج5، ص ص 111-112
		النهار: من الغدوة إلى الزوال	
		من الزوال إلى العصر	
	ساعات الليل ساعات النهار	مدة في اليوم (؟؟؟)	ج5، ص 154
اليوم وأجزائه		ج5، ص 202	
		ج8، ص 394	
٣٧	دول معلومة		ج8، ص 37 / ج8، ص 273
	القادوس		ج8، ص ص 40-41
	السواقي	الساعات	ج8، ص 121
	شرب البئر	حظ معلوم	

سبق وطرحت مسألة نسبة بعض الأدوات لتأثيرات حضارية مختلفة، لعل أبرزها ما أشار إليه المختار السوسي من كون "تناست"، إحدى أهم أدوات ضبط زمن الحظوظ المائية بسوس إلى بقايا الرومان³، غير أنه يبقى مجرد افتراض يحتاج إلى الكثير من الحجج للنفي أو

¹ - البلخي، مفاتيح العلوم، ص94.

² - أبو عبيد عبد الله البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1403هـ، ج4، ص 1171. ابن حوقل، صورة الأرض، م. س، ج2، ص 417. الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، ج5، ص 418.

³ - المختار السوسي، المعسول، م. س، ج 20، ص 152.

التأكيد¹، لكن لما لا نسلّك مسارا آخر للبحث في أمر هذه الوسيلة مثلاً لما قد يكون عليه غيرها من النظم والأساليب والآليات.

تحمّل أداة احتساب زمن الماء عن طريق غطس إناء في الماء² تسميات مختلفة، فهي "تأناست" و"تطست" و"الطاسة" و"الزلافة"³، فما الجديد الذي قد تكشفه هذه التسميات؟ لعل الواضح أن لفظ "تأناست" أمازيغي واضح، غير أنها، وكما قال المختار السوسي، "عربية شلحت"⁴، وهذا مما يزيد من استبعاد قوله السابق بأصولها الرومانية. فيما "الزلافة" تحمل دلالة عامية على صحن تناول الطعام⁵، لكن "تطست" المستعملة في مجال تافيلالت تمنحنا مساحة أخرى للذهاب بعيدا خارج المجال المغربي، فاللفظة من الكلمات المأخوذة عن الفارسية للعربية⁶، وهي تحيل إلى المعنيين: الغطس وإناء الشرب، وهذا الأمر يمنحنا مستوى آخر من النظر سوف ينتج عنه احتمال للتفسير، "فتأنست" الأمازيغية تحيل على الماء، و"الزلافة" تحيل على الحصة من الطعام، ومن ثم فالدلالة المعجمية تمنح لفظه "الطاسة" الأولوية في الدلالة على العملية التي تشتغل بها هذه التقنية في احتساب زمن الماء، ألا وهي "غطس الأداة في الماء"، هذه مجرد قراءة، لكن ماذا قد تعني؟

¹ خاصة وأن هذا المجال لم يكن ضمن مجال المثلث الروماني الذي عرف عناية الرومان بزراعته وتتميته الفلاحية، بل إنه يندرج ضمن المجالات التي توسعت بها الزراعة على العهد المرابطي والموحدي. محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، م. س، ص ص 91-92.

² محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، م. س، ص 97.

³ أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي**، م. س، ص 298.

⁴ المختار السوسي، **المعسول**، م. س، ج 20، ص 152.

⁵ كما تعني أيضا "صفحة، طاس، صحن... [و] مكيال كبير سعته ثمانية أمداد". **تكملة المعاجم العربية**، م. س، ج 5، ص ص 348-349. كما وردت لدى البكري على أساس أنها مكيال بسجلماصة. البكري، **المسالك والممالك**، م. س، ج 2، ص 840. وفي المقابل تأخذنا المعاجم العربية، والتي لا تورد اللفظة إلا في مصدرها "زلف"، والذي يحمل عدة معانٍ أقربها إلى موضوعنا هو تحديد إياه ب"الحياض الممتلئة، أو الحوض المملآن... [و] المصنعة الممتلئة". الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، م. س، ص 816. ابن منظور، **لسان العرب**، م. س، ج 9، ص 139. كما جاء في المخصص "قولهم للغدير: المملآن زلف" المرسى، **المخصص**، م. س، ج 2، ص 435.

⁶ أحمد بن محمد بن علي الفيومي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، المكتبة العلمية - بيروت، ج 2، ص 372. تاج العروس من جواهر القاموس، م. س، ج 16، ص 198.

طست أعجمية فارسية، وهي "من آنية الصفر"¹، أي آنية نحاسية. لا تضيف المعاجم العربية في التدايل على تعبير "الطاسة" في موضوع قياس الماء شيئاً ذا بال، اللهم تأكيد الأصل الفارسي للفظ، والاشتقاق العربي منها، لكن لما لا نعيد مساءلة المعاجم ذاتها عن مضمون عمل الآلية "تطاست"، فيما نخرج؟ إننا نجد تسمية أخرى لأداة شبهت بالطاسة، ونعني "الطرجهارة"، وهي "شبه طاس"² يشرب فيه"³، عدها محمد البلخي الخوارزمي (ت 387هـ) من آلات الساعات⁴، فيما أشار دونالد هيل إلى شيوع استخدامها في تحديد وقت السقي في المنطقة ما بين شمال شرق إيران وشمال إفريقيا، "وكانت تأخذ في الغالب شكل قدر بها فتحة عيارية في جانبها السفلي... توضع فوق بركة أو خزن مجاور للأرض المطلوب ريها. وعندما تغوص هذه القدر تكون المدة المقررة قد انقضت، وتعلق القناة الموصلة لتلك القطعة من الأرض إلى أن يحين موعد الري التالي الذي يستحقه المزارع".⁵

وتجدر الإشارة هنا إلى أن للهنود معرفة دقيقة باحتساب الزمن بهذه الطريقة، وهذا ما نقف عليه في مؤلف البيروني (ت 440هـ)، الموسوم بـ "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، حيث كتب: "إذا حفرت خشبة حفراً أسطوانياً يكون قطر حفرها المستدير اثني عشر أصبعاً وسمكه ستة أصابع، وسع ثلاثة أمعاء من الماء، فإن ثقب في أسفلها ثقباً تسع ست شعرات مفتولة من شعر شابة من النساء، لا عجوز ولا صبيّة خرج الثلاثة الأمعاء ماء منها في مدة "كهري" [أي دقيقة] واحد؛ ثم إن كل دقيقة من اليوم تنقسم لستين ثانية، تسمى كل واحدة منها "جشك" أو "جكك" وتسمى أيضاً "بكهتك"، وكل واحدة من هذه الثواني تنقسم لستة

¹ - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج2، ص 58

² - كأس في القاموس المحيط للفيروزآبادي. القاموس المحيط، م. س، ص 431. ونعثر في تشوف التادلي على "جامع وطاس"، والذي عرفه أحمد التوفيق فكتب "واطاس هو الإناء النحاسي الكبير الذي يحمى فيه الضوء أو غيره، أما وطاس المنسوب إليه الجامع فاسم رجل بمعنى صاحب الإناء أو لتشبيهه ما" أحمد التوفيق، الهامش رقم 97 من كتاب، التشوف إلى رجال التصوف، م. س، ص 114.

³ - صاحب الكافي، المحكم في اللغة، م. س، ج4، ص 116.

⁴ - البلخي، مفاتيح العلوم، م. س، ص 254

⁵ - دونالد هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، م. س، ص 233.

أقسام، يسمى كل واحد منها "بران" أي نفس...¹، وهذا مما قد يدعم أخذ العرب عنهم هذا الفن في احتساب الوقت.²

وفي المقابل فإن الاجتماع الذي يصفه المختار السوسي، والذي يعقد لضبط اشتغال هذه آلية تانست، نجد له قرينا من حيث الحس الجماعي لتقسيم الماء، في حديث للمقديسي وآخرين³ بخصوص مقاسم الماء بنهر المروين بخرسان، حيث "أقيم لوح فيه شقّ على طوله في عرضه شعيرة، ربّما علا الماء فبلغ طوله في اللوح ستّين شعيرة فتكون سنة خصبة ويستبشر الناس بذلك ورفعت المقادير وإذا كانت ستّ شعيرات كانت سنة قحط، وموضع مقياسهم على فرسخ من المدينة شبه حوض مستدير، فإذا قدر المتولّي لذلك أنفذ البريد ساعية إلى ديوان النهر خاصّة، ثم ينفذون الرسل إلى جميع المتولّين شعب الأنهار فيقسموا الماء على ذلك المقدار"⁴، وإذا كان هذا التوزيع يختلف من حيث مركزية صاحب ولاية الماء في تعيين الإجراء المناسب وإعلام القائمين تحت نظره على مباشرة الإشراف على تقسيم الماء، لكنه يبرز وعلى نفس درجة أهمية اجتماع "تانست"، الروح الجماعية في تقسيم الماء وفق المعطيات المناخية المستجدة.

وببلاد فارس يقف بنا الرحالة الإنجليزي جون شاردان، على أسلوب لتوزيع الماء، يحاكي تقنية "تانست" غير أنه وللأسف لم يعطنا تسميتها هناك، وعموما فقد كتب: "أما توزيع ماء النهر والنبع، فيتم أسبوعيا أو شهريا حسب الحاجة على الشكل التالي: يوضع على القناة التي تنقل الماء إلى الحقل وعاء نحاسيا رقيقا مستديرا في وسطه ثقب يدلف منه الماء تدريجيا، حين يغمر الوعاء يصبح المقاس ممتلئا، ويبدأ من جديد حتى يحصلوا على كمية الماء المطلوبة التي يحتاجها الحقل... [و] يستخدم هذا الاختراع في قياس الوقت أيضا في الشرق،

¹ - البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، م. س، ص 253.

² - محمد صالحية، "الفيزياء والحيل عند العرب"، مجلة قضايا عربية، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، العدد

1- السنة 9- 1986، بغداد- العراق، ص 51.

³ - الكرخي، المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 2004م، ص 243. ابن حوقل، صورة الارض، م. س، ج 2، ص

417.

⁴ - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، م. س، ج 1، ص ص 330-332

لأنه الساعة الوحيدة الموجودة في الهند الشرقية"¹، وتمتد محاكاة واقع التوزيع بإيران تلك التي بالمغرب إلى مستوى المراقبة والتتبع الاجتماعي لنظام التوزيع.²

ويبدو أن "تناسست" ليست الساعة المائية الوحيدة المستعملة في ميدان السقي، إذ نعثر لدى البكري على إشارة إلى آلية "القدس"، والتي كان يعمل بها في بلاد قسطنطينية من صحراء افريقية (تونس) في احتساب سقي زروعهم، ذلك أنه -كتب البكري- "يعمد الذي يكون له دولة السقي إلى قدس في أسفله ثقبه بمقدار ما يسدّها وتر قوس الندّاف، فيملؤها بالماء ويعلقه ويسقي حائطه أو بستانه من تلك الجداول حتّى ينفد ماء القدس، ثمّ يملأوه ثانية، وهم قد علموا أنّ سقي اليوم الكامل هو مائة واثنان وتسعون قدسا".³

لكن البحث في المعاجم العربية حول اللفظة المعينة للحديث عن هذه التقنية، تتقلنا نحو مضمون القداسة والتطهر، على الرغم من أن بعض اصطلاحاتها تفيد القدس بما هو "قدح نحو الغمر"⁴، وقد أبرز الصفدي العلاقة بين هذا الإناء أو القدح والقداسة، في التسمية القدس، فكتب: "يقولون لبعض الآنية: قادوس، ويجمعونه على قواديس. والصواب: قدس والجمع أقداس، قال أبو إسحاق الزجاج: إنما سُمّي السّطل قدساً لأنه يُتطهّر به ويتوضأ منه، والقدس الطُّهْرَة".⁵ ونفس التبرير قال به محمد الأزدي (ت 488هـ) في كتابه "تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم"⁶، وفي تكملة المعاجم العربية لينهات بيتير أن دوزي نعثر على توسيع لمعان القدس، فهو "قادوس الناعورة، وهو وعاء خزفي كالجرة، تنظّم منه ومن أمثاله سلسلة تديرها الناعورة فتغرف الماء من البئر إلى المزرعة... [ومنه أيضاً] قدس. والجمع أقداس: ساعة مائية، ساعة الماء... [ومنه أخيراً] قدس: أنبوب ماء، قسطل، قناة. مجرى

¹ - السير جون شاردان، رحلات في فارس، م. س، ج2، ص ص 177-178

² - نفسه، ج2، ص 179.

³ - البكري، المسالك والممالك، م. س، ج2، ص 709.

⁴ - صاحب الكافي، المحيط في اللغة، م. س، ج5، ص 284

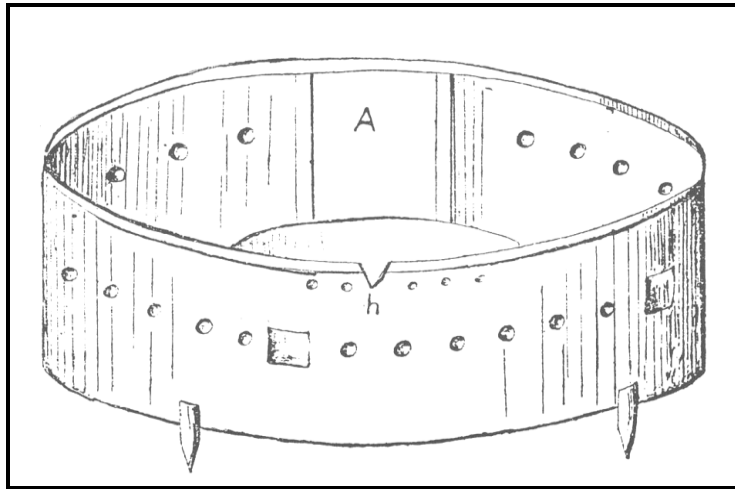
⁵ - الصفدي، تصحيح التصحيح وتحرير التحريف، تحقيق السيد الشرقاوي، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط1، 1407هـ / 1987م، ص 413

⁶ - محمد الأزدي، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة - القاهرة - مصر، ط1، 1415هـ / 1995م، ص 284.

ماء¹، ويأتي صاحب "غلط الضعفاء من الفقهاء" بنفس المعنى الأخير، غير أنه يذهب إلى أن قادوس وقواديس ليست بعربية².

وليس معنى الإناء الاصطلاح الوحيد الذي التصق بمصدر اللفظة قدس، إذ جاء من بينها أيضا في علاقة بالماء "القَدَّاس والقُدَّاس، بالضم والتخفيف... حجر يطرح في حوض الإبل يقدر عليه الماء فيقتسمونه بينهم، يصنعون به كما يصنعون بالمقلة في أسفارهم، وهي الحصاة التي تطرح في القعب يتصافنون الماء عليه، يفعلون ذلك عند ضيق الماء ليشرب كل إنسان بمقدار... يقال: تصافن القوم ماءهم، إذا اقتسموه على المقلة...³، وفي اللسان "المقلة، بالفتح: حصاة القسم توضع في الإناء ليعرف قدر ما يسقى كل واحد منهم، وذلك عند قلة الماء في المفاوز... توضع في الإناء إذا عدموا الماء في السفر، ثم يصب فيه من الماء قدر ما يغمر الحصاة فيعطاهما كل رجل منهم"⁴، يبدو أن اقتسام الماء كان جزءا من ثقافة العرب، ووضعوا لها مجموعة من الاصطلاحات كما نقلوا عن غيرهم اصطلاحات أخرى⁵.

الشكل رقم 15: رسم لأداة لقياس تدفق الخطرة عند مخرجها⁶



¹ - دوزي، تكملة المعاجم العربية، م. س، ج8، ص 197

² - عبد الله بن برّي، غلط الضعفاء من الفقهاء، تحقيق حاتم صالح الضامن، عالم الكتب - بيروت، ط1، 1407هـ/1987م، ص 26.

³ - أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط1، 1987م، ج2، ص 646. ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج6، ص 169. تهذيب اللغة، م. س، ج8، ص 321-322.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب، م. س، ج11، ص 627

⁵ - المرسي، المخصص، م. س، ج2، ص 462.

⁶ - M. Gast, «foggara», Encyclopédie Berbère, 19/1998, pp 2868-2880.

إن بعضاً من الخصوصية الثقافية التي تحملها تسمية بعض أدوات قياس زمن الماء، يحيل على جماعة بدو الصحراء وهوامشها، حيث مخاطر ندرة الماء، كما أن ما تسمح به التعاريف المعجمية من وقوف عند أهمية العملية بالنسبة لهذه الجماعات، ثم ما يمكن الانتباه له في أثناء تتبع المجالات الأكثر إدراكاً لتدبير الماء، يضعنا أمام فرضية إمكانية ارتباط هذه التقنيات والآليات بحركة المجموعات المتنقلة، وواحدة من نتائج توجيهها نحو الاستقرار¹، من جهة أخرى، فإن ما يتردد من أصول غير عربية لبعض الاصطلاحات واستحداثها من الفارسية مع ما كان للفرس من قدرة على تدبير المياه يفتح الباب للاعتقاد في ارتفاع احتمالية نقلها عنهم عبر الوساطة المذهبية على وجه الخصوص.²

نختتم هذه النقطة بإشارة إلى اعتماد حساب الزمن بظل الإنسان، وتهم معرفة الهنود به إذ كتب البيروني: "ويؤكد ذلك عمل لهم في معرفة مهورت³ من أصابع ظل الشخص في الوقت"⁴، ونفس المعرفة تحدث عنها صاحب الاستبصار وجعلها من الممكنات التي يقدر على تحصيلها العامي من أهل إفريقية، حتى إنه "إذا سألت رجلاً منهم لا يفقه شيئاً عما مضى من ساعات النهار، وقف ونظر إلى الشمس واكتال بقدميه في موضع ظله، ويقول لك مضى كذا وكذا ساعة وكذا وكذا سدس من الساعة"⁵، وبالحديث عن العامية فإن البيروني يذهب إلى أن اعتماد العرب على تحديد الأنواء بالكواكب المرئية يرجع لكونهم "قوم أميون لا يكتبون ولا يحسبون... [و] لا يعرفون غير الرؤية"⁶، وهنا نتساءل عن غياب الإشارة إلى تقنية لعلام بمختلف مصادر فترة الدراسة؟ إذ من المستبعد عدم استعمالها بالمغرب على هذا العهد، خاصة

¹ - كما يمكن ملاحظة ارتباط مواطن تقسيم الماء قسطنطية على وجه الخصوص بحركة الزحف الهلالي نحو الشمال الإفريقي. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 6، ص ص: 29 / 45 / 98.

² - وهنا يمكن إثارة الإشكال حول دور الحركات الشيعية الخارجية في الأمر، فمن رجال منطقة توزر، التي ينسب لها تقسيم المياه بالساعات السالف الذكر، نجد أبي يزيد الخارجي، والذي ترجم له ابن خلدون في الآتي: "أبو يزيد مخلص بن كيراد، وكان أبوه كيراد من أهل قسطنطية من مدائن بلد توزر، وكان يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة وبها ولد ولده أبو يزيد ونشأ بتوزر، وتعلم القرآن وخالط النكارية من الخوارج وهم الصفرية، فمال إلى مذهبهم وأخذ به..." ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 4، ص 52.

³ - وحدة لقياس الزمن بالهند، تساوي 48 دقيقة وهي مقدار "أربعة أخماس ساعة" التي صرح بها البيروني في مؤلفه؛ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، م. س، ص 213.

⁴ - نفسه، ص 256.

⁵ - مجهول، الاستبصار، م. س، ص 153.

⁶ - البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، م. س، ص 374.

مع ما عرف عن أهله من تضلع في احتساب الزمن بالأقدام، والتي ظلت تستعمل إلى أمد غير بعيد في تحديد أوقات الصلاة.¹

وباعتماد هذا القياس، فإنه يتحدد كذلك زمن انتقال نوبات الماء، والتي تقدم فيها وقت العصر فترةً أساسية تتمايز فيها حصص الليل عن النهار، ذلك أنه، وكما عبر أحدهم، "بشكل عام، كان الشروق والظهيرة والغروب يحكمان ري العصور الوسطى، كانت الآليات الأخرى لتحديد جدول الري هي الظلال التي تلقيها الشمس في أوقات مختلفة من اليوم، أو شروق الشمس..."²

2- ترتيب اجتماعي حول الماء

ينطلق الباحث الاسباني **كيشارد بيير** (GUICHARD Pierre) من البناء الاجتماعي لتفسير التنظيم المائي³، وهكذا عمد إلى قراءة التنظيم المائي من خلال البدء بإعادة تشكيل المحيط الهيدروليكي التاريخي، للوصول بفضل خصائصه إلى النظام الاجتماعي الذي خطط له.⁴ سننطلق في هذا النقطة من النقاش الذي سبق الوقوف عليه في الفصل الثاني من هذا العمل، لنلاحظ أن مختلف الدراسات التي همت بنى القبيلة، قد رصدت تموقع الماء وما يرتبط به من قضايا التوزيع وتقنياته، ضمن سلسلة عناصر كان للعلاقات داخل القبيلة تأثير عليها. إذن، لنقف بداية عند الصورة التي رسمها لنا الوزان، شهادة حية عن شدة الترابط ما بين الاقتصادي والبيئي في تحديد ماهية الاجتماع البشري، وسنتخذ بوابة لذلك استغلال الأرض وتفاعل الجماعات البدوية المغربية معه، أساساً لوضع إطار للعلاقة ما بين عنصر الماء والتنظيمات الاجتماعية بالبادية المغربية نهاية العصر الوسيط.

¹ - El Mountassir (A.), «Mesures (sud du Maroc)», Encyclopédie Berbère, 31/2010, pp 4903-4905

² - Carbonero Maria (A.), «Technologie Hydraulique», op. cit, p137.

³ - GUICHARD (P.), Structures sociales «orientales» et «occidentales» dans l'Espagne musulmane, Paris- La Haye, Mouton-EHESS, 1977.

⁴ - MADANI Tarik, L'eau dans le monde musulman médiéval, op. cit, Deuxième Partie- Chapitre III, B- Approches Theoriques, (Thèse non pulquée).

الجدول رقم 38: أشكال استغلال الأرض بالمغرب من خلال مؤلف وصف إفريقيا للوزان

الصفحة	نص الإشارة	شكل استغلال الأرض	المجال
100/1	"يجري بالقرب منها نهر صغير على ضفتيه بساتين وحدائق عامرة بالفواكه"	بساتين/ حدائق	تكوينات (حاحا)
103/1	"سكانها" كلهم فلاحون، أرضهم صالحة للشعير لا يزرع فيها غيره، وحدائقهم كثيرة مليئة بأشجار العنب والتين والخوخ"	أرض/ حدائق	تبيوت
104/1	"يجري تحت المدينة نهر تنتشر حوله حدائق فيها جميع أنواع الأشجار لا سيما الجوز"	حدائق	تسكدلت
105/1	"حقولهم وما شيتهم في الجبل..."	حقول	تاكستة
108/1	"والأرض المجاورة للمدينة صالحة جدا لزراعة الشعير"	أرض	إيغليينغيل
111/1	"والأراضي الزراعية صالحة للشعير والدخن"	أرض	جبل دمنسرة
113/1 114-	"وسكان ماسة كلهم فلاحون، يحرثون أرضهم عندما يفيض النهر خلال شتبر وآخر أبريل، ويحصدون الحبوب في ماي"	أرض	ماسة (سوس)
115/1	"تنتج هذه الأرض كمية عظيمة من القمح والشعير"	أرض	تبيوت
118/1	أراضي زراعية	أرض	تروذانت
118/1	أراضي زراعية جيدة	أرض	أكدير كسيمة
119/1	"وهذه البلاد منتجة خصبة"	بلاد	تيدسي
120/1	"الأراضي الزراعية بهذه المنطقة كثيرة الإنتاج"	أرض	تكاووست
123/1	"لا يزرع الأعراب من أرضها إلا الجزء الذي ينتج كفاية قوتهم ويتركون سائرها بورا"	أرض	الجمعة (مراكش)
125/1	"ولو أنهم [أهل أمزميز] يملكون كثيرا من الأراضي والحبوب"	أرض	أمزميز
125/1	"تحرث بعض القطع من الأرض"	أرض	تومكلاست
126/1	"وتحيط بها بساتين كثيرة مغروسة بالنخيل، وأرضها صالحة للقمح"	بساتين/ أرض	تشرافت
136/1	"وهي محاطة بالبساتين البديعة وحقول الكروم، بعضها في الجبل وبعضها في السهل"	بساتين/ الحقول	اغمات
147/1	"والأرض المحيطة بالمدينة خصبة جدا إلا أن الأهالي غير أذكياء لا يعرفون كيف يحرثونها ولا حتى كيف يغرسون فيها الكروم، ومع ذلك فإن لهم بعض الحقول الصغيرة للخضر"	أرض/ حقول	اسفي (دكالة)
157/1	"وتنتج ... باديتها كثيرا من القمح، ولا يرى فيها في الحقيقة بستان ولا حديقة إلا قليلا من شجر التين"	بادية	ازمور
164/1	"ويؤدي أهل المدينة للأعراب عن أملاكهم في السهل ما لا أدري قدره من الخراج"	أملاك	المدينة (هسكورة)
166/1	"وتجاورها حدائق عجيبة مغروسة بجميع أنواع الأشجار المثمرة"	حدائق/ حقول	تكوداست

167-	"طول السهل بضاحية تكوداست نحو ستة أميال، وحقله المزروعة بالقمح جميلة"		
170/1	"ومنحدر الجبل المؤدي إلى الوادي محروث تماما، بينما تمتد الحدائق الغناء إلى ضفة النهر"	حدائق	بزو
184/1	"وجميع الشعاب المجاورة مليئة بالكروم والبساتين الجميلة"	بساتين	أيت عتاب (تادلا)
185/1	"وتتبع في المدينة عدة عيون تجتمع مياهها لتكون جدولا يسيل تحتها، وتقوم على ضفتيه بساتين عديدة للخضر والفواكه... بينما تمثل حدور الجبل أرضا مغروسة بأجمل أشجار الزيتون... أرض السهل خصبة كذلك تنتج كل أصناف الحبوب، وأرض الجبل جيدة لانتبات الشعير ورعي الماعز"	بساتين/ أرض	أيت عياض
197/1 198-	"أرضها خصبة تصلح لجميع أنواع الحبوب... بساتين خالية استحالت إلى غابات"	أرض/ بساتين	أنفا (تامسنا)
198/1	"ويمر بالقرب منها نهر صغير يدعى كير. تقوم على ضفاف هذا النهر بساتين عديدة وكروم كثيرة"	بساتين	المنصورة
208/1	"البساتين كثيرة، وكذلك الحقول التي تنتج كمية عظيمة من القطن"	بساتين/ حقول	ضواحي سلا
214/1	"وتحيط بها [مكناس] على مسافة ثلاثة أميال حدائق عديدة تنتج ثمارا ممتازة..."	حدائق	سهل مكناس
217/1	"تقوم حول المدينة على مسافة نحو ميلين أغراس جميلة من الكروم واللتين..."	أغراس	زواغة (خميس مطغرة)
217/1	ضواحي بني بازيل "حدائق كثيرة"	حدائق	بني بازيل
292/1	"تكثر البساتين والكروم على طول النهر"	بساتين	سهل فاس (المقرمدة)
293/1	"يحرث أرضها أعراب تكاد زراعتهم تصل إلى أراضي فاس"	أراضي	بلدة الزاوية (فاس)
293/1	"بساتين للخضر والفواكه"	بساتين	جبل زلاغ
294/1	"يصنع البستانيون بما لديهم من وسائل نواير ترفع ماء النهر لتسقي به الأراضي الفلاحية"		
295/1	"الأرض حول المدينة مزروعة بكيفية جيدة، فيها بساتين جميلة وممتلكات مزدهرة..."	بساتين	حول مدينة وليلي
297/1	"تكثر في الأرض المحروثة أشجار الزيتون، وكذلك الحبوب، لأنها بجوار سهل أزغار."	أرض	الحجر الأحمر

297/1	"ولهذه المدينة أرض طيبة في الجبل مغروسة كلها بأشجار الزيتون، وأرض أخرى جميلة في السهل، بها عيون جارية عديدة، تغل كمية كبيرة من القنب والكتان"	أرض	مغيلة
297/1	"ويحرث أراضي هذا المكان أعراب فقراء"	أرض	قصر بلاحيا
298/1	"كلها تلال مع أرض جيدة للفلاحة تنتج كميات عظيمة من القمح، والبادية فيها جميلة جدا، والمراعي صالحة تماما للمشاة"	أرض	بني وارثين
299/1 300-	"[السايس] أراضيها ممتازة، لكنها تنتج قمحا أسود صغيرا... [جبل تغات] الجانب المطل على فاس كله مغروس بالكروم، وكذلك القمة. والجانب المقابل للشيخ كله أرض محروثة بالقمح... [آدخسان] هناك أرض صالحة جدا للقمح والرعي..."	أرض	ناحية السايس
304/1 305 -	"وتوجد خارج القصر حدائق كثيرة وأرض بها ثمار جيدة"	حدائق/ أرض	خارج القصر الكبير
307/1	"وهذه الأميال العشرة في سهل توجد به الحقول المحروثة وبساتين هذه البلدة، إلا أن معظم الأراضي الفلاحية في الجبل"	حقول/ بساتين	ناحية الهبط ضاحية أزجن
311/1	"[البصرة] وكان بها قديما حدائق كثيرة وحقول ممتازة لزراعة القمح قريبة من المدينة" "والبادية حولها [الحر] بهيجة، كلها أرض جيدة واقعة في السهل. وكانت المدينة محاطة بحدائق عديدة وكروم ذات أعناب شهية، ومعظم سكانها ينسجون الأقمشة لأنهم كانوا يجنون كثيرا من الكتان"	حدائق/ حقول	البادية بجوار كل من البصرة + الحر
326/1	"لبادس قصبة جميلة، لكنها ليست متينة جدا، يسكنها الأمير الذي يملك أيضا خارج القصبة قصرا وحديقة بديعة"	حديقة	خارج بادس
328/1	"يمر نهر نكور في وسطه فاصلا بين الريف وكروم، يسكن هذا السهل أعراب يحرثون أرضه يحصدون منه كميات عظيمة من القمح"	أرض	سهل المزمة
329/1	"فيه غابات وكروم وبساتين الزيتون"	بساتين	جبل بني كرير
330/1	"يملكون بعض الخيول لأن جبلهم يضم حوله أراضي جيدة"	أرض	جبل بقوة
331/1	"لهذا الجبل الذي غرس فيه الكثير من الكروم أرض طيبة للزيتون وغيره من الأشجار المثمرة"	أرض	جبل بني زرويل
331/1	"أرضهم جيدة لا سيما منحدرات الجبل"	أرض	جبل بني رزين
333/1	"أراضي مغروسة بكميات ضخمة من اللوز والزيتون"	أرض	جبل بني

			وليد
339/1	"الأراضي الزراعية في كل منحدرات الجبل جيدة"	أرض	جبل بني ومود
350/1	"الأراضي الزراعية، ليس فيها غير بعض البساتين الصغيرة المغروسة بالكروم وأشجار الخوخ والتين"	بساتين	كرسيف
351/1	"وجميع الممتلكات المزروعة واقعة على المرتفعات، لأن السهل المحيط بها قاحل تماما. وهناك بعض الحدائق الصغيرة على ضفاف جدول يجري في سفح الجبل"	ممتلكات/ حدائق	دبدو
355/1	"وحول المدينة شعب تسقيه جداول ماء في غاية الجمال، وتكثر فيه بساتين تنتج كميات وافرة من ألد الثمار، وكروم تعطي محصولا طيبا من العنب الأبيض والأحمر والأسود..."	بساتين	تازا
356/1	"وفي أعلاه [جبل مطغرة] أراض زراعية جيدة وبعض العيون، ولا يدفع سكانه خراجا"	أراض	جبل مطغرة
356/1	"مشتملا على أراض زراعية جيدة في القمة والمنحدرات، تنبت كمية عظيمة من الشعير والكتان..."	أراض	جبل غيابة
357/1	"صعب موحش مغطى بالغابات... يملكون العديد من الحدائق والكروم..."	حدائق	جبل مكاصة
357/1	"تنتشر فيه حدائق وكروم العنب الأسود"	حدائق	جبل البرانس
359/1	"وفي سفح الجبل بساتين تنتج كثيرا من العنب والتمر والخبز"	بساتين	بني يستيتن
362/1	"بين نهريين صغيرين حولهما أراض كثيرة مغروسة بالكروم وغيرها من الأشجار المثمرة"	أراض	صفرو
12/2	"تحيط به بعض الأراضي التي يزرع فيها الشعير والدخن... [كما] يمر بقرية جدول ماء يسقي المزروعات، إذ لا ينبت أي شيء في هذه البلاد دون سقي لشدة الجفاف"	أراضي	قصر ايسلي
13/2	"تحيط بها عدة حدائق غرست فيها على الخصوص الكروم وأشجار التين، ويخترقها جدول يشرب السكان من مائه، ويستعملونه لأغراض أخرى"	حدائق	وجدة
117/2	"يوجد بين هذه القصور عدد من بساتين النخل"	بساتين	إفران (الأطلس الصغير)
119/2	"ويوجد على مسافة خمسة إلى ستة أميال عدد لا يحصى من بساتين النخل التي تنتج تمرا غليظا من النوع الممتاز"	بساتين	درعة
122/2	"يشتمل على عدة قصور ومدائر وبساتين نخل صغيرة، الأراضي الزراعية فيه هزيلة ضيقة، إنما هي عبارة عن شرائط صغيرة على حافة"	بساتين	الخنك

	النهر عند قدم الجبل، لا يبلغ عرضها أحيانا مرمى حجر، ويزرع فيها قليل من الشعير"		
الرتب	بساتين	"بها عدد لا يحصى من القصور وبساتين النخيل"	124/2
تبللت	أراضي	"أراضيها الصالحة للفلاحة مغروسة بالنخيل، الماء قليل وكذلك اللحم"	129/2

يمكننا من خلال الجدول أعلاه ملاحظة تنوع خريطة الاستغلال الزراعي بالمغرب، ما بين أشكال مختلفة من أساليب التعامل مع المجالات الصالحة للزراعة، وهو أمر تأثر، حسب الإشارات الواردة لدى الوزن، بالمعطى الأمني، ومسألة الضرائب بدرجة كبيرة، في المجالات التي تخضع للسلطة المركزية أو لسيطرة الأعراب، فيما أنه لم يغفل، ولا يمكن بأي حال إنكار أثر عنصر المناخ وشكل وجود الماء، في تحديد طبيعة استغلال الأرض ما بين مجالات مسقية وأخرى بورية¹، وقد حملت عموما المجالات المسقية، والتي يبدو أنها تمتد على ضفاف المجاري المائية والمناطق القابلة للحرق والزراعة، تسميات تباينت بين:

▲ استغلاليات تستوجب العناية والمعرفة بشؤون الزراعة والغراسة، بل وحتى مستلزمات ريها من جلب للماء، وانتظام على ضفاف الأنهار ومجاري المياه، والحديث هنا عن البساتين والحقول والحدائق.

▲ استغلاليات ممتدة على مساحات كبيرة تخضع لعملية الحرث، ويعتمد ريها على التساقطات المطرية، ونعني بها الأرض البور.

إن، يمكننا رسم خريطة للاستقرار بالبادية المغربية بالاعتماد على شكل استغلال الأرض، ونميز فيه بين قسمين كبيرين؛ قسم يعمل على الاستغلال الطبيعي للأرض عن طريق حرث مساحات شاسعة من الأرض المعروفة اليوم باسم "البور"، والتي تخصص لزراعة الحبوب، وتخضع بشكل مباشر لمعطى التساقطات المطرية. فيما القسم الثاني، والذي يمكن ربطه بالأراضي التي خضعت للتدخل البشري -عملية الاستصلاح-، وتتوزع بين تلك المغروسة بالأشجار، والأخرى التي يتم تخصيصها لزراعة الخضار. وهذا القسم بشقيه، يرتبط بالسقي ويمثل علامة على الاستقرار، وتضطر الجماعات التي تعيش عليها للخضوع لسلطة

¹ - لعل هذه الملاحظة هي ذاتها التي سطرها الأستاذ هاشم قاسمي علوي، والذي يذهب إلى أن تطور الأراضي الفلاحية بالمغرب يرتبط بشكل وثيق بثلاثة عناصر متداخلة، وهي؛ (1) مسألة الأمن (2) مسألة الضرائب (3) نظام الري. هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة- المحمدية، 1415هـ/1995م، ج2، ص ص 34-35.

المخزن المريني أو الأعراب خلال فترة نهاية العصر الوسيط. غير أنها في بعض الحالات تكون تحت حماية الوسط البيئي، والذي يوفر لمستوطناتها حماية طبيعية تجعلهم في غنى عن الخضوع لأي طرف.

إذن، وحسب التصور السابق، يمكننا بالاعتماد على المعطيات المناخية، تحديد الأنماط الاجتماعية لأهل البادية المغربية، ما بين:

﴿ المهتمين بالزراعة والغراسة، المقيمون - حسب تعبير ابن حوقل -

﴿ المتعشين من الترحال

﴿ أهل الأراضي الفلاحية الشاسعة المخصصة للحبوب

ويبدو أن بمناطق هذا الصنف الأخير، تشكلت مجالات الاتصال بين الرعاة والمستقرين، باعتبار أنها تشكل مناطق للقيام بالنشاطين الراعي والرعوي.

تسمح لنا هذه الخريطة، بالحديث عن صور مختلفة لتأثير عنصر الماء في التنظيم الاجتماعي لأهل البادية، بين جماعات يرتهن معاشها واستقرارها عليه (الماء)، وجماعات أخرى تتراجع فيها هذه الأهمية إلى مستوى حاجيات ماشيتها منه. ويتعزز تدخل الماء في تباين الأنماط الاجتماعية لأهل البادية المغربية بالتنوع المناخي بين مناطق المغرب.

ونقف من خلال إشارة لدى التادلي على بعض معالم تنظيم استغلال الأرض بالبادية المغربية، ففي ترجمته لأبي محمد مع الله ابن يحيى بن يجاتن الزناتي، يذكر التادلي أن الشيخ مع الله كان يخدم حائطا له بنفسه، ويقصد إليه ببقرته للرعي ومنه يحصد لها حزمة من الحشيش يضعها لها لتأكل منه بعد العودة بها إلى داره، ويبدو أن هذا الحائط غير بعيد حسب أوصاف الإشارة عن وادي وانسيفن (أم ربيع)، وأن مجال حائط الشيخ مع الله يقع في مجال لا يسمح فيه بالرعي، وهذا ما يحمله على وضع كمامة على فيه ببقرته إلى حين ولوجها لحائطه، فيما يظهر أن حائط الشيخ مع الله كانت تجاوزه حقول أخرى لغيره، وأن مختلف هذه الحقول كانت مخصصة للزراعات المسقية، ودليلا على هذا القول هو ما يثبته التادلي على لسان مولى الشيخ مع الله "مزيغور"، والذي نقل عنه قوله: "فجاء يوما إلى حائطه في أول إبان العنب

وكنيت أنا أعمل في حائط آخر قريه، فسمعتة ينادي فلبيتة فوجدته واقفا على عصير خبأها
فتيان القرية تحت عريش العنب لعلمهم أنه يهاب الناس دخول ذلك الحائط...¹.

يتواجد حائط الشيخ مع الله إذن حسب الاشارة السالفة الذكر، وسط مجال حقول مسقية
يحوط مالك كل واحد منها ما يقع ملكا له منها، والظاهر أن هذا الأمر يبرز قيمة الأرض
والتي يبدو أنها مستمدة من مجاورتها لمورد الماء (وادي أم الربيع)، ويتعزز هذا القول بالوصف
الذي خص به التادلي ملكية أخرى للشيخ مع الله، حينما ذكر نقلا عن "مزيغور" مولى الشيخ
أن لهذا الأخير "فدان بأرض [لاعوش] فاستحق الحصاد، فجاء إليه قومه اربعون شابا فشرعوا
في حصاده متبرعين، فسمع بهم فأمر أهله أن يصنع لهم غداء...²، ويسمح لنا هذا النص
بالحديث عن وجود تمييز بين مجالي ملكيتي الشيخ مع الله، ومعه تأكيد ارتباط ذلك بالمشهد
العام لتنظيم الاستغلاليات الزراعية بالبادية المغربية، بين الفضاءات المسقية والبورية، وما يدفع
إلى الاعتقاد بتعمد التمييز السالف الذكر، أربعة أشياء وهي:

1- أوصاف الحائط الأول ومجاله الذي يحيل على أرض شديدة التجزؤ، تحضى
الاستغلاليات الزراعية داخلها بفائق العناية.

2- عدد الأفراد الذين ذكر أنهم تعاونوا على حصاد الفدان (ثاني أملاك الشيخ مع الله)، والتي
قدر عددهم ب40 فردا، مما يدل على شساعة مساحته.

3- ما جاء به محقق التوشف أحمد التوفيق في شرحه للفظ "لاعوش"، من أنه ربما يكون
الأصح فيها "لا غرس"؛ "دلالة على الأرض التي اتفقت الجماعة على أن تخصص
للحبوب أو الرعي مفتوحا لا غرس فيها"³، ومن تم فهي من الأرض البوار.

4- تردد استعمال التادلي للفظ "الفدان" عند حديثه عن الأرض المخصصة لزراعة الحبوب،
ومن ذلك حديثه عن فدان الشيخ أبي محمد خميس بن أبي زرج الرجراجي الأسود، الذي
"لم استحق فدانه الحصاد تولى فتیان القرية على حصاده غدوة دون أن يعلموه..."⁴.

¹ - التادلي، التوشف إلى رجال التصوف، م. س، ص 134.

² - نفسه، ص 134.

³ - نفسه، ص 134، الهامش رقم 167.

⁴ - نفسه، ص 113.

وفي ختام هذه الوقفة، نشير إلى أن ما تحمله ترجمة الشيخين أبي محمد خميس والشيخ مع الله، من إشارة إلى تطوع بعض شباب القرى في حصد محصول أرضهما بدون مقابل، للربط بين هذا العمل وما ألفه أهل البوادي المغربية من انجاز عمليتي الحرث والحصاد بشكل جماعي في إطار ما يعرف بالتوزيع.

عموماً، فمن خلال الصورة التي تتركها لنا المصادر التاريخية، يبدو التناغم بين نمط استغلال المجال بشكل عام والتنظيمات الاجتماعية القبلية. ومن جهة أخرى عرفت الدراسات السوسيولوجية للظاهرة القبلية بالمغرب، تطوراً في تحديد طبيعة هذا النظام (القبلية) والآليات المتحركة فيه، ذلك أنه بعد موجة الأبحاث التي أولت الجانب السياسي الأهمية في ترتيب القبيلة، فيما لم تقدم سوى إشارات قليلة "لعناصر التاريخ الاجتماعي المطلوبة... أي البيئة، الاقتصاد، السكان، والتقنية"¹، تنبه بعض الباحثين للأمر، فحاولوا البث في الموضوع من زاوية النظر البيئية، كما هو الشأن بالنسبة لجاك بيرك ومارثا مندي، الذي رأى في ممارسة عملية الري مثلاً عنصراً من العناصر الأساس للتاريخ الاجتماعي²، فيما ذهب عبد الله حمودي، إلى أن حجج القرابة التي يقدمها الواقع القبلي، تتجاوز الاعتراف الشفوي والمكتوب "لتشمل عناصر أخرى مشتركة: أطلال سكن قديم، آثار متجاورة، بقايا شبكة توزيع للمياه..."³، وتأكيداً لهذا الطرح يمكننا الاستشهاد بما سجله ابن حوقل (ق4) من أن البرير بالسوس ونواحي درعة "جميعهم يبيعون البلاد للمراعي والزرع والمياه لورود الإبل والماشية"⁴، وهذا على ما يبدو راجع لتوافقهم في النسب الصنهاجي، أو يقوم دليلاً على وفرة المياه، ومن ثم عدم الحاجة إلى احتكارها والاختصاص بالقيام عليها.⁵

¹ - مارثا مندي، "الغيل المبارك"، م. س، ص 177. الغيل هو الماء الجاري. الدينوري، الجرائيم، تحقيق محمد جاسم الحميدي، وزارة الثقافة، دمشق، ج2، ص12.

² - مارثا مندي، "الغيل المبارك"، م. س، ص 178.

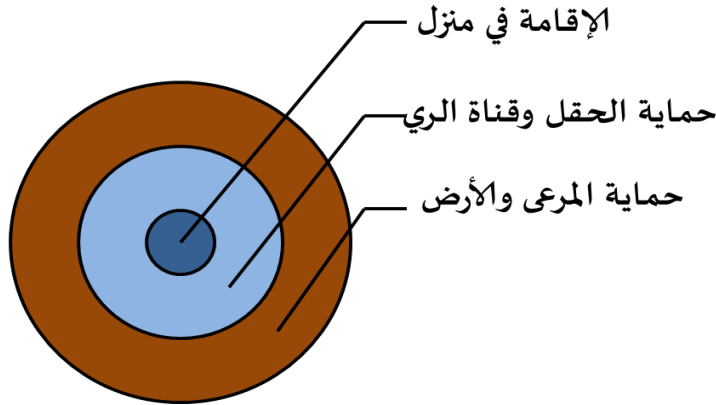
³ - عبد الله حمودي، "الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية"، م. س، ص 18.

⁴ - ابن حوقل، صورة الارض، م. س، ج1، ص103.

⁵ - يبدو أن هذا التسامح المائي -إن صح التعبير-، قد تعرض للاختلال، إذ سجل أحد الباحثين بمجال طاطا نموذجاً يمكن ملاحظته في العديد من المجالات الواحية بنفس المنطقة التي حددها ابن حوقل "سيطرة فئة قليلة على الحقول المسقية ويشكلها العنصر الأمازيغي/أمازيغن وهؤلاء هم الذين استحوذوا أيضاً على حصص الأسد من مياه العيون، في حين نجد باقي الفئات محرومة أو شبه محرومة..." محمد أيت تعرايت، التشكيلات القبلية والبنى الاقتصادية والاجتماعية بطاطا، م. س، ص 349.

يبدو أن الجماعات القبلية بالبادية المغربية في موضوع تدبير المياه، تقبل الترتيب وفق سلم الجماعات القبلية لجلنر، والذي قسمه إلى ثلاثة مستويات أو جماعات¹، يمكن اختزالها في الشكل أسفله، حيث كل دائرة تمثل لجماعة تجمعها حاجة مشتركة أو مصلحة موحدة، ومرتبة من الأصغر نحو الأكبر.

الشكل رقم 16: سلم الجماعات القبلية حسب جلنر



وإذا ما تجاوزنا، ما تقدمه هذه القراءة السوسيولوجية للبناء القبلي، من تقديم للمصالح المادية على رابطة النسب في تكوين الجماعات القبلية، فإننا نحصل على تنظيمات اجتماعية تقوم على حماية مختلف عناصر المشترك بين المستوطنين لمجال ترابي معين، وذلك وفق تناسق يجمع ما بين طبيعة الموارد (الماء، الكلاً، الأرض) وشكل الأنظمة الاجتماعية، ويبدو أن الأرض بالنسبة لهذه القراءة تقدم على مستويين؛ مستوى المجال، وتهتم كل المساحة الموطن للقبيلة، والذي يشمل مجال الرعي والزراعة والسكن معاً، ثم مستوى ثاني تأتي فيه الأرض بشكل جماعي في الاستغلال الرعوي، فيما تنحو نحو الفردانية عند قيام الأنشطة الزراعية.² وعليه، فإذا ما اعتمدنا نفس المقاربة لربط ماء السقي بالنظام القبلي أساساً للاجتماع بالبادية المغربية³، فإننا نتحصل على تدبير مائي يتناسق وتراتب التنظيم الاجتماعي والترابي لهاته القبائل، ومنسجم كذلك مع ملكية الأرض الزراعية.

¹ - المختار الهراس، القبيلة والسلطة، م. س، ص 44.

² - المختار الأكل، مادة "القبيلة"، معلمة المغرب، م. س، ج 19، ص 6606.

³ - Carbonero Maria (A.), «Technologie Hydraulique et Système de Distribution Collective de L'eau En Al-Andalus», op. cit, p134.

الجدول رقم 39: التدبير الاجتماعي للماء وفق سلم جنس الانقسام

الوحدة الاجتماعية	وظيفتها	الحظ من الماء
الأولى	الإقامة	متوارث
الثانية	حماية الأرض الزراعية	مقسم
الثالثة	حماية المرعى والأرض	جماعية

فنظرياً الأسرة هي قاعدة التدبير القبلي للماء¹، ومن خلال روابط النسب بين أفرادها تنتقل الحقوق المائية عبر الأجيال، لكن هرمية البناء القبلي مع انتشار تراب القبلية وما يأتي منه من موارد مائية، جعلت تدبير الشأن المائي يتعدى الأسرة التي تمثل تجمع الأفراد إلى جماعة الدوار، من حيث هي تجمع لعدة أسر، يدفعها الارتباط بمياه معلومة إلى المحاصصة عليها بالقسمة أو المهايأة (التوافق) عليها²، ومن هنا تبدأ الأعراف المائية في ضبط استغلال موارد الماء المشتركة، أما الجماعة الأخيرة، والتي تجسد القبيلة بمفهوم الدفاع والحماية، فإنها تتشارك تدبير الماء عبر التوافقات الكبرى بين فروع المجموع القبلي الواحد بخصوص موارد الماء المشتركة، كما تتولى الدفاع عنها في وجه التهديدات الخارجية، وهذا ما تؤكد ملاحظة مندي مارثا من أن نظام توزيع المياه يعكس نظام التحالفات السياسية الريفية الكبرى، كما أنه يخزن تقاطع الجغرافيا والتاريخ، لتبدو في الأخير "الجغرافيا وكأنها مترجمة مباشرة إلى ممارسة اجتماعية بطريقة الاندماج البطيء في التقاليد".³

ومن خلال ما تحتفظ لنا به المصادر خلال الفترة المدروسة، نقف على جملة أنظمة ري غير محددة التوزيع الجغرافي، لكنها تسمح لنا بتكوين صورة عن أشكال التنظيم الاجتماعي

¹- يبدو أن الدراسات السوسولوجية أولت أهمية كبيرة لنظام الاسرة آلية أساساً في نظام توزيع المياه، فهو جزء من الأعباء التي تحملها على عاتقها، والتي تتضمن "عددا كبيرا من المهمات: الري وصيانة القنوات، زراعة البساتين..." مندي مارثا، "الغيل المبارك"، م. س، ص 187. كما أن من النوازل ما يحيل على بداية تشكل نظام التوزيع من البيت أساساً لعملية يمكن أن تمتد بعد توالي الأجيال إلى قسومات متناهية في الصغر بسبب الإرث، وهذا ما يمكن أن نستبينه من خلال نص نازلة "عين ماء لأهل منزل يسقون منها ويسقون بقرهم ودوابهم جيلا بعد جيل وليس فيهم من يدعي الاختصاص بها أو بشيء منها، ولبعض أهل المنزل المذكور أرض وجنات تحت العين المذكورة، وليس لآخرين منهم تحتها أرض ولا غيرها"، إذ وقع التنازع بينهم على فضل ماء هذه العين، هل يكون الاختصاص به لمن لهم الاستغلايات الزراعية أسفله أم أنه بين جميع أهل نفس البيت يتصرفون فيه بالبيع والشراء؟ الونشريسي، المعيار، م. س، ج 5، ص 152-153.

²- الماوردي، الأحكام السلطانية، م. س، ص 241.

³- مندي مارثا، "الغيل المبارك"، م. س، ص 182-183.

بالبادية المغربية، وهي إجمالاً، تجعلنا أمام مستويين من تنظيم استغلال الموارد المائية المشتركة، نعتمد إجرائياً الترتيب الذي اعتمده أحمد اد الفقيه للتمييز بينها¹، فنضع التقسيم مستوى أعلى، وبهم تنظيم الاستغلال بين أكثر من مجموعة أو قبيلة، فيما يأتي بعده التوزيع آلية لتنظيم استفادة العناصر المنضوية ضمن المورد الواحد أفراداً كانوا أو أسراً.

نظراً لارتباط تدبير المياه بالبادية المغربية بجماعات البدو، فإنه من غير المستبعد أن تتطور أعراف الماء مع تطور العلاقات بين أهل البادية نهاية الوسيط، وهذا ما تسعفنا بعض النوازل الفقهية في تأكيده²، حيث نقف من خلالها على مشاهد لمختلف مظاهر التفاعل الاجتماعي بالبادية المغربية، وما ارتبط منها بمظاهر؛ الغصب³ والإحياء، والتهجير، والاستبداد...⁴، وهي مظاهر واجهها الفقهاء بالتصدي والنفي، إلا أن ذلك لم يكن ليعني إزالة مختلف آثارها، إذ من المحتمل أن يكون استمر وجودها في عدة مناطق من البادية المغربية، خاصة البعيدة منها عن مراكز التأثير الفقهي -إن صح التعبير-، أو تم الركون فيها إلى وسائل شرعية للالتفاف على الأحكام الفقهية، وذلك من قبيل لجوء بعض أرباب الحظوظ المائية إلى الوقف والتحبس.

وعموماً، فمن خلال ملاحظة جملة القواعد الشرعية، والأعراف المنظمة لتدبير المياه ببادية المغرب الوسيط، فإنه يمكننا الوقوف عند جملة عناصر تمثل الآليات المتحركة في تنظيم استغلال الماء:

الجدول رقم 40: عناصر الترتيب لتنظيم استغلال المياه بالبادية المغربية خلال العصر الوسيط

المياه	شكلها	وضعيتها	استغلالها	ترتيبه	أساسه	آليات تنظيمه
١. مياه السواقي	الأنهار	غير مملوكة	مشترك	الأعلى فالأعلى / أقدمية الاستقرار	الأرض	الترتيب
	السواقي	تتملك بالاستخراج	خاص / جماعي	المجهود / الاتفاق	المجهود / ملكية الأرض	المحاصصة
٢. مياه الآبار والعيون	الآبار	تتملك بالحفر	خاص / جماعي	الأحقية	المجهود	الترتيب
	العيون	تتملك بالاستنباط أو تملك الأصل	خاص / مشترك	الأقرب فالأقرب / الملكية	ملكية الأصل / الأرض	المحاصصة

¹ - أحمد إد الفقيه، نظام المياه والحقوق المرتبطة بها، م. س، ص 155.

² - الونشريسي، المعيار، م. س، ج 10، ص 304.

³ - البادسي، المقصد الشريف، م. س، ص 96 / 132. الونشريسي، المعيار، م. س، ج 8، ص 413.

⁴ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج 9، ص 71.

لعل تدبير استغلال المياه فرض آليات وقواعد عرفية وشرعية تتناسب وطبيعة مواردها وكيفية استغلالها¹، وهي عموماً، تجمع بين العمومية في استحقاق الاستغلال وخصوصية تملك الحق في الماء، وفق أهمية المجهود المبذول لاستخراج أو جلب الماء² أو باعتبار الربط ما بين موارد الماء ومجالها الطبيعي³، وهنا يأتي تملك الأرض عنصراً في تملك الحق في الماء⁴، لكن الفقه والعرف لم يغفلا على دور التحولات الاجتماعية في تركيبة الأحقية في الماء، فجاء تشريع الأسبقية للإحياء والاستقرار على المياه عاملاً لاكتساب الأولوية في استحقاق المياه العامة.⁵ فمن خلال جملة النصوص الفقهية، خاصة منها ما جاء في نوازل المياه بمعيار الونشريسي، فإنه يمكننا الحديث عن نسقين، بمعنى توليفتين أو تنظيمين لترتيب استغلال المياه بالمغرب خلال الوسيط، ونضع على سبيل إبراز بعض خصائصهما الجدول أسفله.

الجدول رقم 41: الأنساق المائية بالبادية المغربية

النسق المائي	أساس تملك الماء	تنظيمه	مميزاته
الطبوغرافي	ملكية الأرض	الموقع ضمن مجال الري	مشاعية الماء الاقتصاد في الماء
العرفي	الجهد/ الإرث / الشراء	القسمه/ المهاية	الملكية الخاصة للماء إمكانية الفصل بين الماء والأرض

يبدو أن التدبير التقليدي للماء بالبادية المغربية، لم يخرج عن إطار أحد النسقين؛ الطبوغرافي والعرفي، وتضمن عناصر وآليات تطويرية سمحت له بالاستمرارية بل وحتى الدمج بين النظامين السابقين، إذ إن كلا النسقين يتضمن منافذ للانفتاح والإغلاق في وجه العناصر الطارئة في شكل آليات قانونية وممارسات اجتماعية، من قبيل أعمال الوقف أو التحبيس⁶، وعادة حرمان الإناث من الإرث، كل ذلك بغية حماية بيضة الجماعة وتحصين امتيازاتها المائية.

¹ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 309.

² - الونشريسي، المعيار، م. س، ج 8، ص 401.

³ - نفسه، ص 382.

⁴ - جرت بعض الأعراف بالبادية المغربية باشتراط الزراعة لاستحقاق الأرض للمياه المشتركة، الأمر الذي جر نقاشاً فقهيًا ذهب فيه بعض الفقه منحنى تأكيد هذا الاشتراط. الونشريسي، المعيار، م. س، ج 5، ص 12.

⁵ - نفسه، ج 5، ص 13 / ج 5، ص 171-172 / ج 8، ص 41 / ج 8، ص 383.

⁶ - نفسه، ج 8، ص 411.

من جهة أخرى، فإنه إذا ما اعتبرنا القبيلة هي الوحدة الأساس في تدبير أمور المياه بالبادية المغربية، فإن محاولة إسقاط أشكال هذا التدبير على هذه الوحدات الاجتماعية تبدو لنا متوافقة مع واقع نشأة جماعة القبيلة، وفق نظيمة التساكن والتوافق على استغلال المجال.¹ وعليه، تكون بنية القبيلة ذات النسب الأبوي الأقرب إلى تبني نظام التملك الجماعي للماء، في ظل نظام من التماسك الاجتماعي يوجه خلافاته في اتجاه الخارج والأجنبي، كما يتوافق هذا الأمر مع عرفته الفترة، من مظاهر الاحتياط في حماية وحدة الجماعة وتماسكها.

يظهر نظام التوزيع على أساس طبوغرافي شديد البداوة نوعا ما، إذا ما قورن بدقة وخصوصيات نظام التملك الفردي، إذ وبخلاف ذلك، يبدو أن نظام التوزيع الأول أكثر عدالة²، ويسمح بالاقتصاد في الماء عبر توجيه عمومته نحو مجال جغرافي محدد، ثم نقله نحو مجال آخر، يحتفظ داخل كل واحد منه المالكون للاستغلاليات الزراعية بحقهم في السقي وفق الترتيب المتفق عليه، وينتشر هذا النظام على موارد المياه العامة الأصل المتملكة حقوق الاستغلال.

إن، فنظام توزيع حظوظ المياه، قد يمنحنا صورة عن طبيعة النظام القبلي وشكل الاستقرار بالمجال، وهذا ما يختزله تعبير بدوثة عن كون المجتمع أول ما يحكي يتحدث عن الماء، فيما هذا الأخير من جهته هو أحسن يتحدث عن المجتمع، الذي يحكي عن نفسه عن طريق الماء.³

ونظرا لما تختزله بعض النصوص المصدرة حول توزيع المياه، فإن دورات المياه تدعم توجه الفصول الأولى من هذا البحث بخصوص تنوع أشكال، كما تشكيلات النظام القبلي المغربي "نهاية العصر الوسيط"، حيث تتواتر صور تداخل الأنظمة العرفية لتدبير المياه، بل وانتظام أكثر من نظام واحد منها على نفس المجرى المائي، كما أن اتحاد الجماعات في الدفاع عن حقوقها من الماء، عند تباين مصالح أهل العالية مع أهالي السافلة، لا يستبعد أن يعني كذلك بنيات سكانية متباينة الأصول، فيما يفيد تصوير، من قبيل وجود أحقية أهل السافلة

¹ - نفسه، ج 8، ص 413.

² - كتب مندي حول عدالة توزيع المياه حسب الأرض: "التوزيع العادل موجود على مستويين واضحين أولهما التوزيع النظري المجرد لحقوق المياه، وهو مرآة لتوزيع حيازة الأرض، وثانيهما التوزيع الفعلي المادي للمياه، والأول يحدد الثاني". مندي مارتا، "الغيل المبارك"، م. س، ص 187.

³ - BEDOUCHA, «L'eau L'amie Du Puissant», Une Communauté Oasienne Du Sud Tunisien, Publication de CNRS et CNL, 1987, p16

بالماء لقدم استقرارها على مورده، بتباين فترات الاستقرار، واضطرار شركاء المجال إلى البحث عن توليفة لتدبير الخلاف حول مورده.

وفي سبيل التمثيل للسابق من الحديث، نورد نص نازلة مثبتة لدى الونشريسي بخصوص سؤال حول؛ "ماء تنازع فيه أهل قرى"¹ وتوجه به إلى الشيخ أبي منصور، والذي لم يسعفنا نص النازلة للوقوف عند تحديد اسمه الكامل، ومن تم يتعذر البحث عنه في كتب السير والتراجم، إلا أنه، وبالنظر لطريقة إيراد الونشريسي للاسم "ابن منصور"² هكذا، يحيل على أن المعني شخص مشهور على زمن المؤلف أو ببلده، وهو ما يجعلنا نعتقد أن المعني بالأمر هنا هو محمد بن منصور الغماري، والذي ترجم له ابن مخلوف في شجرة النور الزكية، فكتب عنه "الإمام الجليل العمدة الفاضل أخذ عن أعلام وعنه ابن مرزوق الحفيد، وأبو بكر بن عاصم وابن جعفر البقني. توفي بفاس سنة 791هـ [1388م]³. فأحداث النازلة إذن، تعود لما قبل هذه السنة، لكن يصعب ضبط زمنها ولو بالتقريب، بسبب غياب تاريخ ولادة المترجم له، ومنه فالتحديد العام يقتضي وضع زمن النازلة ضمن القرن الثامن.

وإذا كان نص النازلة قد اختزل في جملة تحدد الموضوع فقط؛ "وسئل عن ماء تنازع فيه أهل قرى"، فإن نص جواب الفقيه حمل الكثير من المعطيات المهمة، ذلك أنه إلى جانب تعيينه لمجال الماء المتنازع حوله "أحواز قرية بني ملحق" ومع أنه لم يتمكن من تحديد مجال القرية اليوم، فإنها غالبا لا تخرج عن مجال تأثير الفقيه، والذي وإن كان لا يعني ضرورة المغرب بالمفهوم الذي حدد للبحث، إلا أنه لا يستبعد أن يكون يعنيه، كيف لا والعلاقة بين المجالين ظلت طوال هذا العهد مثار مشاركة وتبادل الفقهاء، ولم يكن هذا التحديد المجالي هو المعطى الوحيد الذي يأتي به نص جواب المجيب، إذ تحدث أيضا عن وصول السؤال صحبة عقد لم يشاركنا مادته، غير أنه اختزل مضمونه في قوله: "فوجدته [العقد] يقتضي أن الماء يجري في أرض غير مملوكة لأحد من تلكم القرى"، قبل أن يضيف في نفس السياق في موضع آخر من جوابه تفصيلا غاية في الأهمية بالنسبة لموضوعنا، وهو قوله: "والذي يظهر لي في القضية

¹ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج10، ص 304.

² - نفسه، ج10، ص 302.

³ - محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه؛ عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1424هـ / 2003م، ج1، ص 343.

إثبات هذا الماء بالسماع الفاشي المستفيض هنا لكم¹، حيث يبدو من متن الجواب أن العقد يتضمن كلاماً عن شيوخ قصة مشاركة أهل قرية بني ملحق لغيرهم في الماء موضع النزاع، ذلك "أنهم لم يزالوا يسمعون أن أهل قرية بني ملحق، كانوا يسقون بالماء زرعهم وغيرهم أيام كونهم بها قبل هذا"، يعني قبل زمن النازلة.

لم تنته مادة النازلة في تأكيد الطرح الاجتماعي عنصراً أساساً في تطور تدبير الماء بالبادية المغربية، ففي أثناء ما يراه الفقيه المجيب (أبو منصور) إثباتاً لأحقية أهل بني ملحق في الماء، يضيف إلى الشائع من قصتهم ما معناه أنهم استمروا في الاستفادة منه (الماء موضوع النزاع) إلى أن "فارقوا القرية المذكورة [بني ملحق] وإلى أن عاد الآن [زمن النازلة] منهم طائفة من أهلها وأرادوا السقي على العادة الجارية في القديم فمنعهم أهل القرى التي كانوا يسقون بعدهم أو كلاماً هذا معناه"²، فهو تحول إذن، لأهل قرية بأكملها من مجالهم، لأسباب لا يستبعد أن تكون ذاتها السياق العام للنشاط البشري في بادية المغرب "نهاية العصر الوسيط"، ولعل مما يدعم هذا القول، ما تجيب به النازلة ذاتها، من أن أهل القرية لم يعودوا جميعاً، بل رجعت طائفة منهم، ومن تم فأهل القرية، ربما، اضطروا إلى الانقسام.

من جهة أخرى، يتبين من خلال نص جواب النازلة، أن الرافضين لمشاركة أهل قرية بني ملحق العائدين لقريتهم الماء المباح، ليسوا سوى أهل قرى "كانوا يسقون بعدهم"، وهو ما يفيد بتراتب القرى على مجال الماء موضوع النزاع، والذي لم يكن بمقسوم بينهم بحصص معلومة، بل مشاعاً بحسب القاعدة الشرعية الأعلى فالأسفل.

وهكذا إذن، يتحول جواب المفتي الذي حاول من خلال معالجة اشكالية الخلاف الفقهي في صحة قبول السماع دليلاً على قيام الأحقية في الماء أم لا، إلى مادة لعرض واقع قبلي حول موارد الماء، كما يقوم (الجواب) شاهداً على قيام أهل البادية على حفظ الذاكرة الاجتماعية لنظم توزيع الماء جزءاً من عناصر هويتها وأسباب استمرارها، أما الخلاف حوله (الماء) ضمن هذه النازلة، والذي اتخذ شكل خلاف قرى يسعى كل منها لحماية مصالحه، فهو

¹ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج 10، ص 304.

² - نفسه.

أيضا علامة تدعم دور التشكيل الاجتماعي بالبوادي في مستواه الثاني -حسب أقسام جلنر السابقة -الهادف إلى حماية الحقل وقناة الري.

ليست الرواية الشفوية وحدها المنفذ الذي يمكننا الانطلاق منه، من نظم الماء نحو المجتمع، ذلك أن هياكل ونظم عمل شبكة الري، تحفظ لنا هي الأخرى بعض الأحداث التي حدثت خلال تاريخها وساهمت في بلورتها، ومن هذه القناة نتقدم لإعادة قراءة بعض معالم التحول الاجتماعي بالبادية المغربية وأثره على تدبير المياه، وذلك من خلال تفكيك عناصر شبكة ري "النزاع على الغروس الواقعة على حافتي وادي فاس"¹، أو ما عرف بنازلة أهل أزكان وأهل مزدغة السفلى، ومع ما أخذه النقاش حول هذه النازلة من معالجة ونقاش²، فإن الملاحظات حولها وما استنبط من نصها من نتائج وخلاصات يبقى مفتوحا، وفيما يلي سوف نعمل على الاستفادة من مادتها في عرض الوضع البشري بمجال النزاع، وربطه بالشبكة المائية وانتشار الاستغلاليات الزراعية.

تم قراءة النازلة على أساس التمثيل للنزاع على الماء ما بين أهل العالية والسافلة، وخلال هذه القراءة تم التركيز على طبيعة النزاع والعوامل التي قد تكون وراءه، فقدم العامل الاجتماعي معززا بتأثير الحلول المريني بالمجال، كما قدم العامل الاقتصادي بالاعتماد على بعض الاشارات من النازلة وتعزيزها بما حملته نصوص الوزن من اشارات على تطور في النشاط الزراعي، فيما تردد العامل الطبيعي بتوظيف مادة النازلة وإشاراتهما، ومن خلال إعادة البحث في النازلة سوف نترك جانبا موضوع النزاع لنحاول توظيف مادتها في إعادة بناء المحيط البشري والخريطة الزراعية بمجال النزاع.

يتضمن المجال الذي تدور حوله النازلة، مجرى ماء ومجموعة عيون، وحول هذه الموارد المائية نشأت مآخذ ماء (أسداد) واستغلاليات زراعية، تعدد أصحابها كما تباينات مواضعها، ونضع الجدول أسفله لعرض الخريطة المائية والزراعية بمجال النازلة ومختلف العناصر والأطراف المرتبطة بها.

¹ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج10، ص ص 5-20.

² - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص ص 315-326.

جدول رقم 42: موارد الماء بنازلة أهل أزكان ومزدغة السفلى والعناصر البشرية المرتبطة بها

موارد الماء	المنشآت المرتبطة بها	المستغلون لها	الوحدات الزراعية
عين أزكان + عينان + أعين أخرى (غير محددة العدد)	سدين متقاربين	-	جنات
عين ماء خارجة أسفل جنان لمطة + ما رشح من ماء السدين أعلاها	سد كرداد ثلاثة أرحاء ¹	قلعة أزكان	جنات وفدادين وأصول زيتون
عينان نابعتان أسفل خندق عن يمين الهابط في الوادي + ما رشح من ماء سد كرداد	سد	مجشر القلع	بيوت مجشر القلع جنات وفدادين
عين يافعة بأملك إبراهيم البريدي يسار الهابط في الوادي	-	أملك إبراهيم البريدي	جنان
عين الكنف + ما رشح عن سد كرداد + وفائض ما عين أملك إبراهيم البريدي	سد قلالة	مجشر بمقربة من قلعة أزكان	جنات وفدادين وأصول زيتون
عين السلطان تتبع أسفل جنان أبي يعشان + رشوحات سد قلالة	سد ساقية ابن وراسن والتي تتفرع عنها سواق أخرى	-	جنات وفدادين متعددة
ما يرشح من ماء من سد ساقية ابن وراسن	ثمانية أسداد (5 بأملك عمر بن رحو + 3 بين أملك بن رحو وبين أملك مزدغة)	أملك عمر بن رحو + مزدغة	أملك
ما تبقى من ماء في الوادي بعد الأسداد الثمانية بأملك عمر بن رحو وما بينها وبين مزدغة.	12 سدا (9 منها للسقي + 3 لرفع الماء لأرحى)	مزدغة	غروس

يمكننا أن نلاحظ من خلال الجدول، تنوعاً في أسماء الاستغلاليات الزراعية المنتشرة على حافتي الوادي، حيث تنتظم جنات وفدادين وأصول زيتون بما نعتقد أنه المجال الذي يحتله أهل أزكان، ثم تنتقل إلى استغلاليات كبيرة في مجال أم تدشال (أم مجشام)، وهو ما عبر عنه نص النازلة بأملك عمر بن رحو، لينتهي المشهد الزراعي عند غروس مزدغة. ويبدو أن هذا الانتظام لا يشكل فقط على تنوعاً في الاستغلاليات الزراعية، بل يمكن أن يقرأ كذلك مؤشراً على طبيعة المجال وخريطة الانتاج الزراعي به، ذلك أن ضيق المساحات القابلة للاستغلال بالمنحدرات العليا لمجرى الوادي فرض على أهلها انجاز استغلاليات ضيقة تعرف بجنان أو فدان، وهي استغلاليات تكفي لتلبية الحاجيات المعاشية للقائمين عليها، وغالباً ما تكون عنوان

¹ - ذكرت ثلاثة أرحاء أخرى لم تسمح لنا مادة النازلة بتعيين مجالها لوجود بياض في نص النازلة حال دون تعيين موضعها.

للأراضي المسقية، وهذا ما يتأكد بما ذكره مارمول كرخال من أن بجبل أركان "عدة عيون بالحي المأهول ومناطق مكسوة بأشجار الزيتون والحدائق والكروم".¹

بعد الجنات والفدادين تأتي أملاك عمر بن رحو، لتمثل لمجال يتسع فيه سرير الوادي، وتتباع فيه الكتل الجبلية شيئاً ما، تاركة فضاء لقيام استغلاليات كبيرة، يحتمل أن يكون الجزء الأكبر منها عبارة عن أرض بورية، ودليلنا في هذا الزعم هو حجم المياه الذي كان عليها أن تنقسم استغلاله مع ما تبقى من أسداد مزدغة.²

ثالث أشكال أشكال الاستغلال الزراعي بمجال النزاع، هو غروس مزدغة، والواضح أن هذه الغروس، هي ذاتها تلك البساتين الكبيرة المسورة التي أشار مارمول كرخال إلى وجودها بمحيط مزدغة، أو باديتها - حسب تعبير الوزان - والتي تصلح لغراسة أشجار الزيتون والعديد من الأشجار المثمرة والفواكه، ناهيك عن الشعير والكتان والقنب.³

هكذا جعلنا هذه الوقفة مع بعض ملامح الخريطة الزراعية بمجال النازلة، أمام انتظام للحقول والحوارات الزراعية تتحكم فيه إمكانية استفادتها من مياه الوادي وموقعها من مجراه. وعلى هذا الأساس، نتوافق مع ما ذهب إليه الأستاذ عمر بنميرة من "أن جل الأملاك المعروفة بأسماء لها علاقة بالأسرة المرينية"⁴، ذلك أن هذه الأملاك تتواجد في نهاية مجال أركان، ويعني بذلك "أملاك عمر بن رحو"، "جنان لمطة"، "أملاك جنان إبراهيم البريدي"، "جنان أبي يعشان". لكن ومع ذلك نتساءل هل كانت العناصر المرينية هي الوحيدة التي ظهرت حادثة بمجال النازلة؟ وهل لخريطة الأسماء التي تحتفظ لنا بها النازلة أن تقدم لنا بعض ملامح التحول الاجتماعي الذي عرفه مجال النازلة وأثره على تعامل أهله مع موارد الماء به؟

¹ - مارمول كرخال، إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد زنيير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، دار النشر المعرفة، 1988-1989، ج2، ص281.

² - إذ يشير نص النازلة إلى أن ما يخرج من سد ساقية ابن وراسن "يجرى في بطن الوادي المذكور إلى أن يرفعه أسداد ثمانية عن يمين الهابط وعن شماله بأمر مجشال، منها خمسة في أملاك عمر بن رحو، ومنها ثلاثة فيما بين أملاك عمر ومزدغة"، وهو مقدار ماء ضعيف بالمقارنة مع الحصص المرصودة من صبيب العيون التي تغذي سواقي العالية يحتفظ به أهل أركان لسقي مزروعاتهم. الونشريسي، المعيار، م. س، ج8، ص 7.

³ - الوزان، وصف إفريقيا، م. س، ج1، ص363. مارمول كرخال، إفريقيا، م. س، ج2، ص 274.

⁴ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 323.

تسمح لنا النازلة بالوقوف على أسماء تجمعات بشرية: لمطة، مجشر القلع، قلعة أزكان، مجشر بالقرب من قلعة أزكان، مزدغة. إلى جانب أسماء أصحاب بعض الملكيات الزراعية: إبراهيم البريدي، أبي يعشان، عمر بن رحو. وأخيرا نعثر على عناصر مائبة تحمل أسماء أعلام بشرية وأخرى تحيل على مناصب سياسية: ساقية بن وراسن وعين السلطان. تسمح لنا هذه الصورة الطبونمية للأسماء البشرية بمجال النازلة، من الحديث عن وجود تنوع في العناصر المستوطنة به، الشيء الذي يفيد قيام اختلاط وتداخل بينها، خاصة وما تمة الإشارة إليه من أن "الغروس التي بالوادي... متصلة أو في حكم المتصلة إلا يسيرا بين حد أرجان المذكور وأم مجشال المذكورة وحد مزدغة المذكورة"¹، وهذا مما يؤكد على انقسام مجال النازلة -حسب انقطاع الغروس- إلى ثلاثة مقاطع، يبدو أن المأهولين منها اثنان: مجال أزكان ومزدغة، على اعتبار عدم إشارة رسم المعاينة حين وصف مجال أم مجشال لأية عناصر تفيد بوجود استقرار بشري، حتى أن الأرحاء التي جاء على ذكرها لا تقع أي منها بهذا الجزء من مجال النازلة. ومما يزيد من تأكيد هذا الزعم هو تقديم النزاع على أنه بين أهل أزكان ومزدغة السفلى، الأمر الذي يجعل من باقي الأسماء والعناصر البشرية ومجمل التسميات الواردة في رسم المعاينة، تظهر وكأنها تفرعات وأسماء عناصر انضافت إلى العناصر القديمة الاستقرار على هذه المياه.

يمكننا أن نلاحظ من ضمن الأسماء الواردة أعلاه اسم "لمطة"، والذي يرتبط بأحد بطون صنهاجة استوطن بسوس، ولا نملك ما نبرر به ورود اسمها هنا مقترنا بأحد أجنة عالية أزكان، غير أن محمد مزين يذكر أن جموعا من قبيلة لمطة الصنهاجية استوطنت ناحية فاس²، ويعتقد أن هؤلاء الصنهاجيين قدموا إلى المنطقة قبل التحاق المرينيين بها.³ ومن ثم فمن الوارد أن يكون جنان لمطة المذكور هنا في النازلة له علاقة بوجه ما بهذه القبيلة أو بأحد أفرادها أو أسرها، وإن كان الذكر بصيغة الجمع "جنان لمطة" يفيد نسبته إما إلى أسرة لمطية أو قبيلها.

¹ - الونشريسي، المعيار، م. س، ج8، ص 8.

² - محمد مزين، فاس وبإيديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي (1549م-1637م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية -جامعة محمد الخامس- الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 12، مطبعة المعارف الجديدة، ط1، 1986م،

ج1، ص ص 105-106

³ - نفسه، ص 102

من جهة أخرى يربط عمر بنميرة بين بعض أسماء ملاك الأرض الواردة أسماؤهم بالأسرة المرينية، ويقصد "جنان إبراهيم البريدي" و"ساقية ابن وراسن" و"أملاك عمر بن رحو" ذات الخمسة أسداد، ويرى أن ذلك يمثل لاستقرار مزارعين "جدد يتمتعون بحصانة الانتماء للقوة السياسية الحاكمة"¹، وإذا أمكننا دعم انتماء عمر بن رحو إلى الأسرة المرينية بما أورده ابن خلدون ونقله عنه الناصري، من أنه (عمر بن رحو) كان من عصابة (قرابة) المرينين²، وهو الذي تولى قيادة الحرب بسببته حين تغلب عليها المرينيون سنة 709هـ/1310م، ونزداد تعرفنا على صلة هذا الأخير بالأسرة المرينية بما كتب ابن خلدون من أن "أولاد سوط النساء من ولد عبد الحق، أهل عصابة واعتزاز على قومهم، وهم أولاد إدريس وعبد الله... وخلف عبد الله ثلاثة من الولد تشعب فيهم نسله، وهم: يعقوب ورحو وإدريس"³، لا ريب إذن من أن تكون أملاك عمر بن رحو إقطاعا سلطانيا، ويمكن دعم هذا القول، بما قد يفهم من تسمية العين التي ترتبط بسد ساقية ابن وراسن وأسداد أملاك عمر بن رحو بـ "عين السلطان"، من ارتباط ملكيتها بالسلطان.

ومما يعزز هذا الاعتقاد في كون أملاك عمر بن رحو الشاسعة -حسب أوصاف النازلة- تمثل للاقطاعات السلطانية، ما أشارنا إليه سالفًا من أن اشارات النازلة لا تقدم لنا شيئًا يفيد قيام استقرار بشري بمجالها (أم مجشام)، وهذا ما يتوافق مع ما سطره محمد مزين، من أن الأراضي السلطانية -على العهد الوطاسي- والتي كانت في ملك السلطان والأسرة الحاكمة، يتم استغلالها عن طريق منحها "لمزارعين يحرقونها ويغلقون مقابل أرباح معينة"⁴.

لم نتمكن من الوصول إلى حقيقة أصل باقي الأسماء الواردة في النازلة، ولم نجد من الاشارات ما يعيننا في تقديم أي قراءة حولها، غير أن ذلك لا يمنع من اعتقادنا متوافقين في ذلك مع ما ذهب إليه عمر بنميرة من الاعتقاد في ارتباط أصل نزاعها بالتحويلات العميقة التي عرفتتها الخريطة البشرية بالمغرب خلال القرن الثالث عشر⁵، والتي لا يبدو أن العناصر

¹ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 323.

² - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 7، ص 317. الناصري، الاستقصا، م. س، ج 3، ص 101.

³ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م. س، ج 7، ص 490.

⁴ - محمد مزين، فاس وباديتها، م. س، ج 2، ص 423.

⁵ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م. س، ص 323.

المرينية هي الوحيدة التي وفدت خلالها على مجال النازلة، بل أن الربط بين الأصل العربي لبعض الأسماء الواردة في النازلة "البريدي" "أبي يعشان"، مع ما نقف عليه في سيرة سلالة رحو بن عبد الله بن عبد الحق المريني من ارتباط بالأندلس، يدفعنا إلى الاعتقاد بإمكانية استقدامهم للأندلسيين لهذا المجال للاستفادة من خبرتهم في خدمة الأرض المقطعة لهم، وربما يكون هؤلاء المستقدمون هم أو حفدتهم الذين تحدث مارمول كاريخال عن كونهم غرسوا بسهل أركان "حدائق من شجر التوت لتربية دود القز"¹، غير أن ذلك لا يقدم تأكيداً على أهمية العامل الاقتصادي في تفسير النازلة كما ذهب عمر بنميرة، إذ حدد الوزن كما كاريخال مجال قيام هذه الغروس بسهل أركان، حيث يقيم السكان أكبر قسم من فصل الشتاء في أكواخ، ما قد يفيد تنقلهم عنها صيفاً نحو الجبال، فيكون أصحاب هذا المجال من أهل أركان الجبليين ومجال الغراسة هو السهل المحاذي لمزدغة، والذي قد لا يعني غير أملاك عمر بن رحو الواردة في النازلة.

من جهة أخرى، يبدو أن ما تمت معاينته عن يسار الهابط في الوادي، بين مجشر القلع المذكور وسد قاله في أملاك جنان إبراهيم البريدي من عين يافعة، "تسقي ذلك الجنان وجنات معه، وقصارها أن تقوم بسقي تلك الجنات عند الاحتياج للسقي، وعند الاعتناء عن السقي ليس له موقع سوى بطن الوادي"²، قد لا تعني سوى تحقق انباط هذه العين من طرف "إبراهيم البريدي"، ومن تم تملك ماءها وأحياها به الأرض القريبة منها، والتي تحولت بفضل ذلك إلى أملاك خاصة له، فيما أن لقبه "البريدي" يحملنا على الاعتقاد بحدائته على المجال الأمازيغي، خاصة مع تموضع أملاكه في مجال وسط بين تجمعين قرويين: مجشر القلع والمجشر بقرب قلعة أركان، فيكون بذلك تخصيصه بالذكر في رسم المعاينة دليلاً مضافاً على تأثير التحولات الاجتماعية ومساهمتها في تنامي التنافس على الماء.

وهكذا يبدو أنه في الوقت الذي يقدم فيه العامل الاجتماعي لتفسير التدافع على الماء بالبادية المغربية، فإن نوازل الماء بما تتضمنه من إشارات، تفيد في ملاحظة التحولات

¹ - مارمول كاريخال، إفريقيا، م. س، ج2، ص 281.

² - الونشريسي، المعيار، م. س، ج8، ص 7.

الاجتماعية بالبادية المغربية، ومن تم تتحول الهياكل والنظم التقليدية لتدبير الماء إلى منافذ
نحو دراسة تطور النظام الاجتماعي.

نتائج وخلاصات:

استهدف هذا الباب في فصلين، ثلاثة مسائل: التصوف، والتقنيات المائية، التجمعات البدوية حول الماء، ومنها كان ارتباطه بأحوال العمران بالبادية المغربية، وبعد تحليل المتحصل لهذه الغاية من معطيات مصدريّة، وبالاتماد على بعض المقاربات الحديثة، أمكن التأكيد على بعض النهايات التي خلص إليها البحث في هذا الباب:

▲ ظل حضور الإسهام الصوفي بالمصادر التاريخية- في الإعمار المائي ضعيفا، إذا ما قورن بمكانة إسهامه التاريخي في تعمير البادية المغربية.

▲ دعمت الرمزية الصوفية مركزية الماء في الاستقرار بالبادية المغربية، وتبعاً لمستوى وجوده بالمجال وحاجة الناس إليه، صاغت مرجعيتها المادية، والتي يتحول بفضلها المتصوف إلى باعث للحياة.

▲ يبرز النظر إلى التقنيات المائية بالبادية المغربية، بمنطق الحاجي للعمران البدوي، قيام أهل البادية بسلك العديد من المسالك، وإنتاج العديد من الحلول التقنية والهندسية في مواجهة تقلبات الطقس وصعوبات البيئة من حولهم.

▲ التدبير التقني للموارد المائية معطى طبيعي (مناخي وتضاريسي)، وفي الآن ذاته نتيجة للحاجة الاجتماعية.

▲ لم يكن أهل البادية المغربية خلال الفترة المدروسة، في حاجة لإنجاز مشاريع مائية في ظل آلية إنتاج اجتماعي للتفتت وإعادة التشكل، وما يستتبعها من غياب لتفكير مركزي في ممارسة السلطة على المجال وليس الجباية والتعبئة الحربية فقط.

▲ انحصر دور التجربة المرينية في إنتاج بعض كبار ملاكي الأراضي، الذين مهدوا لقيام بعض المشاريع المائية في مجالات محدودة، لم يكتب لها الاستمرار لظروف التحول السياسي والاجتماعي غير المستقر.

▲ يدعم انتشار بعض التقنيات المائية المرتبطة بتجارب حضارية إنسانية خارجية (الخطارات، النواعير...)، فكرة التلاقح الحضاري في ميدان التدبير التقني بالبادية المغربية، ومن تم يجعل من امتزاجها بالموثرات المحلية في حالة البادية المغربية، تأكيدا على أصالتها الاجتماعية، جزءاً من المكون الثقافي لأهل هذه البادية.

▲ تنظيم تدبير الموارد المائية بالبادية المغربية، معطى اجتماعي أسست له الثوابت الطبيعية (التضاريس، وتقلبات المناخ).

▲ تبدو تجليات ثقافة الندرة واضحة في بعض التدابير المتخذة في تقسيم المياه وتنظيم توزيع حظوظه.

▲ أبرز النظر في الصراع حول الماء، عمق ارتباط تدبيره بالهندسة الاجتماعية لأهل البادية، وكذا ظهور تدبير الاستفادة من بعض تقنياته وجهًا من أوجه هذه الهندسة.

وهكذا يكون تدبير الماء، نتاجا لثنائيتي التملك/الأحقية في الاستغلال والتعاقد الاجتماعي حول الماء (نظام النوبات والحصص)، ويبدو أن كلا هذين الأساسين قد خضع لتأثير الظروف الطبيعية والبشرية، وأمكن بفضل ذلك دراسته عكسيا للوصول للبدايات الأولى للاجتماع البشري، لكن ذلك لا يزال في حاجة إلى الكثير من ضبط التوليفات الخاصة، والانتباه لأبسط الجزئيات في إطار تركيب تاريخي، يتجاوز الاستشهاد المباشر بالوثائق إلى تقديم قراءات مجردة، تراعي التحول الاجتماعي بالبادية المغربية في مختلف العصور والمراحل التاريخية.

خاتمة

انطلق الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث من تتبع مفهوم البادية في المعاجم العربية، وتبين من خلاله كيف أنه شديد الارتباط بعنصر الماء، فهو أساس التمييز بين البادية والحاضرة، أي الاجتماع حول الماء (الحضر) أو الانطلاق من نقاط الماء ومواطنه نحو مساقط الغيث ومنابت الكلاً (البادية). فالماء والزراعة، والماء والماشية، هما الأساسان اللذان تحكما في التحديد المعجمي لتعريف أهل البادية، بعدما عين المجال (البادية) بكل الفضاء الذي يوجد خارج الحاضرة.

شغل مفهوم البادية على المستوى المعجمي، فضاء واسعا متعدد الخصائص التضاريسية، الشيء الذي استتبعه تنوع في الخصائص الطبيعية من بادية إلى أخرى، وبتنوع خصائصها جاء تباين التنظيمات الاجتماعية المشكلة بها، وذلك تبعا لعنصرين أساسيين؛ النظام الإنتاجي، وشكل الاستقرار، فكان البدو أهل مساكن وقرار، وأيضا أهل وبر وانتقال. كما أنهم أيضا ممتنون للزراعة وأرباب للماشية. مستقرين على الماء ومتنقلين عنه، وبالمحصلة، ظهر تباين في تفاعل البدو مع محيطهم البيئي بين الفاعلين فيه والخاضعين لشروطه وتقلباته، أو بمعنى أدق تباينت درجة خضوع البدو للمعطى الطبيعي.

ظهرت مختلف تجليات المقاربة اللسانية لمفهوم البادية، على الصورة التي نقلتها المصادر التاريخية حول البادية المغربية، فكان تنوع خصائصها الطبيعية سببا في الوقوف على تنوع في أشكال استيطان ما وراء الحواضر من قرى وضواحي وأرياف وجبال وصحاري... غير أن ما يجمع بين مختلف التنظيمات الاجتماعية لسكان البادية المغربية هو الانتظام في هيئة بنايات قبلية، يبدو أن تشكيلاتها البشرية تتباين من مجال لآخر، وذلك تبعا للعناصر المتحركة في استيطان كل مجال على حدة، فنقاط الماء عناصر جاذبة لاختلاط العناصر، فيما التنقل عنها أداة أساس للانعزال وحفظ الأنساب، ومن ثم بدا التمييز بين المستقرين على الماء من أهل البادية والمتنقلين عنه واضحا منذ البداية، وانتهى مشهدا عاما وواقعا تاريخيا من خلال إشارات المصادر التاريخية، والتي فصلت بين المجموعات البدوية على أساس الانتساب الصريح أو بفعل المجاورة والتساكن.

انتظمت القبيلة المغربية، المرادف الأساس لاجتماع أهل البادية، على شكلين مميزين، أحدهم يتأسس على التنوع وينبني على التجاور والتشارك، والآخر يرفض الاختلاط، ويعطي من قيمة القرابة الدموية. وضع النسب معيارا للتصنيف، فيما بدى المجال محددًا للتوزيع المجالي،

فظهرت الصحاري وقمم الجبال فضاءات لمناشدة الصراحة في النسب، والاستقواء بالعصبية، فيما قدمت السهول مساحاتٍ لتداخل العناصر، يستوجب الاستقرار بها الاختلاط والمشاركة في الموطن والاعلاء من قدر المصلحة بدل التعصب للقرابة الدموية. بين الصنفين لم يغيب الماء، إذ ارتبط في حال الصنف الأول، والذي يتعيش من الرعي بموارد ماشيته، بتعيين المواطن بنقاط الماء التي يتردد عليها في سيره، نحو منابت الكأ لماشيته، فكانت حاجته منه بقدر حاجة ماشيته، كما أنه بحكم القرابة الدموية يتشارك الاستفادة من موارده بشكل جماعي.

أما الصنف الثاني، والذي يتعيش من الزراعة، فالماء عصب استقراره، إذ على موارد الماء تشكلت تجمعات بدوية تضافرت فيها عناصر المجتمع المحلي من تجاور لأسر مختلفة بمنطقة جغرافية محددة، وقيام تفاعل اجتماعي بين عناصر تلك التجمعات، كما وتحقق لديهم إحساس بالانتماء المشترك، الذي لا يقوم على مجرد روابط القرابة الدموية، وإن كان هذا الصنف الأخير هو الذي يعبر عن مرحلة متقدمة من الانتقال البدوي نحو الحضارة، إلا أنه في عرف المصادر المغربية، يمثل رمزا للخضوع للمغرم والإذلال، فصور وكأنه نموذج غير مستحب بالنسبة للبناء الاجتماعي بالبوادي المغربية خلال العصور الوسطى، فهو ضرورة حتمية ينتهي إليها الانتقال الاجتماعي تحت إكراه الضعف والخضوع.

كان الانتعاش من الرعي واستيطان الفيافي وأعالي الجبال، يعني في تصور المصادر الحرية والقدرة على الدفاع عن النفس، فيما مثل الاستقرار والزراعة للضعف والهوان، ولم يكن التحول من حال إلى حال يتم على سبيل التطور الطبيعي والحتمي، بقدر ما أنه كان يخضع لظروف وتقلبات الطبيعة من أزمات مناخية وتحولات سياسية، فمع أن ابن خلدون جعل من غاية البدو الانتهاء إلى الحضارة، إلا أنه كان يرمي إلى تغلبهم (البدو) على الحواضر، وليس الاستقرار على موارد الماء والاشتغال بالزراعة، ومن تم فمقولته ذات حمولة سياسية، تعني تحقق السلطة للبدو وليس انتقالهم نحو الاستقرار وحضور مواطن الماء وعدم الانتقال عنها.

اتجه الاهتمام خلال الفصل الثاني من هذا البحث، نحو بناء إطار نظري معزز بنصوص تاريخية، لمجالات التحول الاجتماعي بالبادية المغربية، والتي يلتبس منها أن تكون ذات علاقة بعنصر الماء، ذلك أنه أسهمت الأحداث والتحولات الاجتماعية التي تلت هزيمة العقاب (609هـ/1212م) في إحداث تحول في البناء الاجتماعي بالبادية المغربية، إذ ازدادت أهمية العامل الأمني في التأثير على النظم الاجتماعية لأهل البادية المغربية، وأضحى الماء

والأمن محددين أساسيين للتنظيم القبلي، ذلك أن الرغبة في سكنى البادية يستوجب وجود الماء أولاً ثم توفر القوة الدفاعية لضمان سلامة الجماعة، لتتشأ مجتمعات محلية تقبل التجاور وتتأسس على التراتب الاجتماعي، في إطار علاقات الغلبة والخضوع، وفي سياق هذه العلاقات نمت ظاهرة الانتساب بالمجاورة على حساب نظام القرابة الدموية في التشكيل القبلي المغربي.

ومن خلال البحث اتضح أن انقسام مجتمع أهل البادية بين رعاة ومزارعين، لم ينته باضطراب القبائل المستقرة مشاركة مجالاتها مع القبائل الوافدة المتنقلة، بل انتقل ذات الانقسام إلى بنى التجمع القبلي الواحد، فتحول إلى تراتب اجتماعي يتذيل فيه المزارعون الهرم، بحكم أنهم الخاضعون لسطوة الرحل الذين استولوا على أوطانهم بالقوة والغلبة، والذين تعددت العوامل الدافعة بهم نحو مجالات المستقرين بين ما هو سياسي (ضعف السلطة المركزية) وطبيعي (موجات الجفاف...) وحتى ديموغرافي...

عاشت البادية المغربية خلال العصر الوسيط، عموماً، وأواخره على وجه التحديد، على وقع حركية قبلية، تميزت بحدوث التقاءات كبرى، بعدما توغلت القبائل القادمة من مناطق الجنوب والجنوبية الشرقية نحو الداخل، محدثة زعزعة على مستوى البنيات المحلية للتجمعات المستوطنة للبوادي المغربية، وقد نتج عن هذا الأمر حصول تحولات على مستوى طبيعة الاجتماع البدوي (التساكن القبلي)، وكذا الروابط القبلية، الأخذ في الانتقال نحو نظيمة الانتساب بالمجاورة بدل الركون إلى نظام القرابة الدموية، وقد شكلت مختلف هذه التحولات توجهها ودينامية مجتمعية، تسير على نقيض الصورة السائدة عن البناء القبلي المغربي، والمتمثلة في نظام العصبية القبلية، والذي اتخذ ابن خلدون مفتاحاً لفهم تعاقب الدول بالمغرب، فعلى نقيض نظام القرابة الدموية، كان الاختلاط والاندماج في بنيات قبلية تعلي من قيمة المجال القبلي، وتتحد لحفظه تحت اسم قبلي يحتضن عناصر مختلفة تتجاور في المجال، وقد لا ترتبط فيما بينها بقرابة دموية.

نظرياً فالبناء القبلي بصفته الاجتماع البشري الأبرز لسكنى البادية المغربية، قد انتقل من أسس وروابط دموية إلى تدبير إشكالية التشارك في استغلال المجال، عبر بوابة الانتظام في قبائل تقبل الانتساب. وعليه، تكون موارد الماء ضمن المشترك الواجب تدبيره. ومن ثم، البناء

على فكرة ارتباط دعم هذه التحولات للتأسيس للنظم التقليدية في تدبير الماء، وفق شروط وتفاعلات البنية القبلية.

لقد انتظم أهل البادية المغربية ضمن وحدات اجتماعية، تنطلق من الأسرة وتنتهي إلى القبيلة والحلف، وعبر هذه الوحدات وانحدارا إلى الأفراد كان يتم مباشرة الأنشطة الإنتاجية، وتدبير استغلال الموارد الطبيعية، ضمن تجمعات بشرية يربط بينها الإقامة المشتركة في مكان محدد اجتماعيا، وهو المجال الذي يمثل موطن القبيلة، وكان يشمل مواردها المائية، والتي لاشك كانت تشترك في استغلالها كما باقي عناصر المجال الأخرى من مراعي وأراض زراعية، على أساس الترتيب الذي انتهت إليه بفعل مسلسل الالتقاء والتصادم الذين حكما تفاعل البنى القبلية بالمغرب خلال الفترة المدروسة.

وكما تميزت البادية المغربية بالتنوع على مستوى الخصائص الطبيعية، فإنه كذلك تميزت التجمعات السكانية بالتنوع، وذلك تبعا لعدة اعتبارات من قبيل الموقع من الحواضر، وأنماط الإنتاج وشكل الاجتماع، وهكذا نجد القرى الكبيرة بالسهول الساحلية، حيث يتطلب البقاء التكتل في جموع كثيرة للدفاع، فيما قامت المداشر بالمناطق الشمالية في جبال الريف، وهي تجمعات سكانية متفرقة المساكن، وانتشرت القصور والقرى المسورة بالواحات، وارتفعت القصبات في جبال الأطلس، فيما رافقت الخيام الرحل أينما حلوا وارتحلوا... وكان من بين البواعث على قيام هذه الفسيفساء السكانية بالبادية المغربية عنصر الماء.

لقد تتبع الفصل الثالث من الباب الأول مظاهر انعكاس المناخ على الحياة الاجتماعية بالبادية المغربية، وذلك من خلال رصد بعض تجلياته في نصوص المصادر التاريخية وكتب الرحلات الجغرافية، والتي يظهر من خلالها وجود انعكاسات متعددة للعامل المناخي في الحياة الاجتماعية لأهل البادية المغربية، ويمكن اختزالها في ثلاثة مستويات:

1. النظام الاجتماعي

2. نظام الإنتاج

3. دينامية التفاعلات الاجتماعية والمجالية

وبالمحصلة، فالواضح أن ارتباط الحياة البدوية بالفلاحة، جعل مختلف الأنشطة المتعلقة بالتنظيمات الاجتماعية بالبادية المغربية، تتحرك وفق معطيات يعود جزء هام منها إلى المتغير المناخي، والذي يتشابك مع مختلف التحولات التي طبعته الفترة المدروسة من تقلبات سياسية

وحركات اجتماعية، بل وتطورات على صعيد المحيط الدولي للمغرب، ليرسم المشهد العام للبلاد، من حيث تطور البنيات القبلية، وأثرها على الحدث السياسي والعسكري في الآن ذاته.

انعكس تطور البنيات القبلية على استغلال المجال المغربي، وفق قواعد التطور الاجتماعي واستجابة لمعطيات البيئة، والتي يأتي ضمنها المناخ، متغيراً يضبط إيقاع الممارسات الاجتماعية من جهة، ويتحكم في الحركية البشرية من جهة ثانية. ذلك أنه ما انفكت مختلف التحولات التي عرفتھا البادية المغربية، تأتي بفعل أو تحت تأثير التقلبات المناخية، وفي ظل تبدلاته الفصلية، حيث يظهر المناخ متحكماً في الممارسات الزراعية والرعية معاً، وعبرهما يتوغل للتأثير في الفعل الاجتماعي للمنتعشين من هذين القطاعين، بل ويستمر في التأثير ليصل لمختلف المرتبطين بالنشاط الفلاحي، فكانت الجباية واسطة المخزن بالقبائل، كما كانت مختلف الأنشطة التجارية والصناعية مرتبطة بها كذلك ومتأثرة بما يلحقها جراء المتغير المناخي، وانتهاء بالحركات البشرية التي كانت تخلخل القواعد الإنتاجية كلما دفعتها الأحوال المناخية للنزوح عن مجالها نحو مجال غيرها.

عمد البحث لإثبات بعض الخلاصات النظرية، التي انتهى إليها الباب الأول منه، إلى البحث في بعض أحوال العمران البدوي، وذلك من خلال رصد بعض مظاهر حركة الإعمار والتدبير الاجتماعي للماء بالبوادي المغربية، باعتبارهما منفذين يمكن من خلالهما التدليل على الارتباط الحاصل بين عنصر الماء والتحولات الاجتماعية بالبادية المغربية، خلال الفترة ما بين القرنين 7 و10 هـ/ 13 و16 م. ومنه اتضح أن هذه التحولات دفعت بالتيار الصوفي إلى اعتلاء مواقع مهمة في النظام الاجتماعي المغربي بوجه عام، كما أن الأدوار التي لعبها المتصوفة بالبادية المغربية خلال الفترة المدروسة، كان لها أثر في تزعمهم للمشهد البدوي، خالقين فيه فرصاً للاستقرار على موارد الماء ومتملكين للسلطة الرمزية في تنظيم شؤونهم ومساعدة أهل البادية في تلافي خلافاتهم بشأنه.

ومن استقراء سير بعض أهل الصلاح قبل وخلال الفترة المدروسة، اتضح توجه عدد من رجال الصلاح من المتصوفة المغاربة نحو خدمة الأرض، وتعزيز هذا الاتجاه الصوفي مع الحركة الجزولية، التي طبع رجالها تاريخ البادية المغربية، مخلفين وراءهم مراكز قروية تم انعاش العمران فيها بفضل مجهوداتهم العمرانية والتي لم يغفلوا فيها عن الاهتمام بمادة الماء وتنظيمه. كانت نقط الماء مجال تأسيس للزوايا الصوفية التي يتحول عدد منها إلى قرى

صوفية، أو تخلق لنفسها (الزاوية) محيطا بدويا تابعا لها، وعبر الاعتقاد في مؤسسها وولايته يتوغل نفوذها الروحي للتحكم في تنظيم شؤون الجماعات المحيطة بها ومن ضمنها تنظيم تدبير الماء، ليس هذا فحسب بل اشتغل المتصوفة في تشييد وإقامة المنشآت المائية، ومن تم أصبح لهم منفذ لتملك بعض الحظوظ من الماء، ومنه أمكن القول بارتباط غايات إحياء الأرض والتخلص من الصورة النمطية عن المتصوفة أشخاصا متكاسلين غير منتجين، إضافة إلى تزايد الحاجة الاجتماعية في فترات الأزمات لملاجئ توفر للناس الأمن والإطعام، الشيء الذي دفع بالمتصوفة خاصة من التيار الجزولي نحو النزوع نحو الاشتغال على استغلال الأرض، والتي يتطلب إعدادها حتما توفر الماء وضمان إمداداتها منه، ومن تم اشتغال رجال الصلاح على البحث على مجالاته للتأسيس لمشاريعهم الإيعارية وتوسيع دائرة نفوذ طوائفهم.

بعد استقراء عدة جوانب من العمارة السكنية والمائية بالبادية المغربية، من خلال الإشارات المصدرة، تبين أنه علاوة على مكانة الماء في الاستقرار البشري وما ينتج عنه من أحوال ومظاهر، كان الماء كذلك أحد الفواعل التاريخية في عمران البادية المغربية، وتجسد هذا الحضور في مختلف الأفعال الواعية وغير الواعية للأعمال البشرية، سواء في ميدان التحكم في موارد الماء وتنظيمه (التقنيات المائية)، أو في مجال عمارته السكنية، الشيء الذي ارتبط بمختلف مظاهر التحول التاريخي والثقافي لجماعة أهل البادية خلال هذه الفترة.

هكذا وبعدما توقف جزء من البحث في الباب الأول على تنوع التجمعات السكنية بالبادية المغربية، أظهرت قراءة جغرافية المساكن وهندستها في الباب الثاني منه، وجود تنوع في الأشكال الهندسية للمباني، والتي امتد تباينها المناطقي ليصل إلى العناصر المستعملة في البناء وجودة المبنى، وذلك -حسب ما انتهى إليه البحث- بسبب الظروف المناخية والإمكانات التي توفرها البيئات المحلية المحيطة بالمسكن، ثم لاعتبار نمط العيش والحمولة الثقافية للعناصر المستوطنة لها. وبهذا تعزز هذه العناصر التأكيد على عمق التحول الاجتماعي بالبادية المغربية خلال الفترة المدروسة، والذي تجسد في حصول تداخل في الأنماط المعمارية، وتجاوز الأنماط الخاصة بالرحل، مع مقابلتها الخاصة بالمستقرين، فيما استمر حضور المناخ فاعلا مركزيا في الحياة البدوية وموجها لسلوكات أهل البادية.

ناقش البحث مسألة التدبير التقني لموارد الماء، في إطار الحركية الاجتماعية لأهل البوادي المغربية، ثم كذلك باستحضار سؤال الحاجة ضمن قراءة ابن خلدون، وتطور حاجيات

الحياة البدوية بفعل تطور العمران البدوي وأحواله، فانتهى البحث إلى أن حركية الإنسان في المجال أسهمت في نقل ونشر تقنيات وأساليب التحكم في المياه، والتي يصعب حصر أصول العديد منها نتيجة تعدد الآراء في ذلك وتنوع المادة المصدرة المؤرخة لوجودها بمناطق مختلفة من المعمور، غير أن الوقوف عند جغرافية انتشار بعضها بالمغرب أمكن من الانتباه إلى دور العامل الاجتماعي ذلك، خاصة مع قيام حركة تفاعل بين المجالات المغربية المختلفة على المستويين المناخي والمجالي؛ أي من حيث التقسيمات الكبرى مجالات الندرة نحو مجالات الوفرة (التدبير والتقنين)، أو الحواضر في اتجاه القرى والمداشر (الجانب التقني).

حاول البحث كذلك، إثبات أثر الحالة العامة للمشتغلين بالفلاحة على مستوى الاستغلال التقني للموارد المائية بالبادية المغربية، وذلك من خلال الوقوف عند تقنية الناعورة التي كثيرا ما أرخ ظهورها بالمغرب بالفترة المرينية، وتبين من خلال هذه المحاولة أن ضعف إمكانيات المشتغلين بالفلاحة المادية ومستواهم المعيشي، مع عدم بروز مؤشرات تقيد بشدة الحاجة إلى تقنيات مائية غير السائدة بالمغرب آنذاك، وكلها عناصر يمكن أن تمثل جوابا يستعاض به عن القول بضعف الإسهام المريني في ميدان الفلاحي بوجه عام ومسألة الاعداد الهيدروفلاحي بوجه خاص، وفي المقابل تجلّى أثر التدافع الاجتماعي بغرض السيطرة على المجال في رسم بعض مشاهد التدبير التقني للمياه، حيث كثيرا ما ارتبطت المشاريع الهامة في هذا الباب بالأعمال الجماعية.

وبالاعتماد على منطق الحاجة، تبدو الصور التي تنقلها المصادر حول التقنيات المائية بالبادية المغربية، انعكاسا للتنوع المناخي وتضاريسها ومن تم طبيعة وجود الماء. وعموما، فقد شهدت البادية المغربية خلال الفترة المدروسة انتشار عدد من التقنيات المائية، غير أن هذا الانتشار تميز بالتباين المجالي، ليس فقط بسبب عنصري المناخ والتضاريس، ولكن أيضا لأسباب اجتماعية واقتصادية، إذ تظهر مجالات النفوذ المريني مناطق تطور هيدروفلاحي بالمقارنة مع المجالات الأخرى التي يأتي فيها الحديث عن التقنيات المائية مقترنا بحوادث الصراع حول الماء.

ومن خلال البحث أيضا، تبين أن المستوى المعرفي أو التقني للمغاربة فترة العصر الوسيط لم يكن بالجامد أو المنيع عن تقبل الإبداعات الهندسية الخاصة بتدبير موارد الماء، لكن الوضع الاجتماعي، ونمط الإنتاج السائد حكما على حاجة الإنسان المغربي إلى الماء، في

حدود التعامل البسيط مع الإكراه البيئي، ومن تم فلن نستطيع القول إن المغرب هبة لنهر أو واد، أو حتى نظام تساقط الأمطار، ولكن بالإمكان الحديث عن بادية مغربية هبة لأهلها، للتفاعلات القائمة بينهم، لمسار تحولهم عبر المجال والزمن.

امتد التأثير الاجتماعي في علاقة أهل البادية المغربية بالماء خلال الفترة المدروسة، إلى مستوى التدبير التقني للمياه، والذي لم يكن ليخرج عن حاجة المجتمع إليه. حاجة خضعت لشروط الإنتاج المتناسبة مع بنية المجتمع البدوي، فما بين استجابة أهل البادية من الرحل، واستجابة أهل الفلح، تباينت التقنيات المائية، كما أن هناك اختلافا ما بين أساليب تدبير الماء بالمجالات الرطبة (السهول الأطلسية) وأساليب تدبيره بالمجالات الواحية وهوامش الصحراء والصحراء، ومع تعدد الحملات الثقافية للعناصر البشرية، تعددت مسميات التقنيات والحظوظ المائية.

وفي الوقفة التي خصها البحث للعلاقة ما بين الماء والبناء القبلي بالمغرب، أثبت أن جملة القضايا التي يطرحها تدبير الماء بالبادية المغربية، هي نتاج تطورات وتحولات اجتماعية بالأساس، تعززت بعناصر الجغرافيا والاقتصاد الفلاحي، فأضحت تحديات تاريخية. نمت واتسع أثرها، ومعه ازدادت تعقيدا وغموضا، تجلى أساسا في نظم تدبير موارد الماء، لكنه امتد بعيدا إلى نسج العلاقات حولها، ومنها نحو البنى القبلية كيانات قل دونها إمكان البقاء منفردا في بوادي المغرب "نهاية العصر الوسيط"، وبهذا يكون نظام المياه بالبادية المغربية خلال نفس الفترة سببا ونتيجة في الآن ذاته لجملة التفاعلات القبلية، إنه باختصار، يحكي قصة تلك الفترة (الغضب التعديت، التغلب على الأوطان...) كما تحكي نظم تدبيره (الماء) تفاعلاتها الاجتماعية.

وفي الأخير انتهى البحث، إلى أن الاختلالات التي عرفها التدبير العرفي للماء ببادية مغرب "نهاية العصر الوسيط"، يرجع عدد منها إلى الخلطة التي عرفتها البنيات الاجتماعية بالمغرب ككل، الشيء الذي يبدو أنه أثر على الهياكل الاجتماعية القائمة، ولئن كانت الطرق الصوفية إحدى العناصر التي طفت على السطح لمعالجة هذا الخلل، فإن دعوة الشرف كان لها امتياز رمزي في مجتمع تزداد فيه أهمية مكانة المتصوفة، في ضمان استمرارية التوازنات، وتفادي التصادمات القبلية.

لائحة المصادر والمراجع

المصادر:

❖ المصادر المخطوطة:

- ابن هلال ابراهيم السجلماسي، نوازل ابن هلال السجلماسي، مخطوط بمؤسسة الملك عبد العزيز
ال سعود للدراسات الاسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، قسم المخطوطات رقم: ms229-
m7.html.
- المجاجي عبد الرحمن بن عبد القادر الراشدي، التعريج والتبريج في ذكر أحكام المغارسة
والتصيير والتوليح، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز ال سعود للدراسات الاسلامية والعلوم
الإنسانية، الدار البيضاء، قسم المخطوطات، رقم: 2/033.

❖ المصادر المطبوعة:

- الأجدابي أبي إسحاق، الأزمنة والأنواء، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية- المملكة
المغربية.
- ابن الأحمر إسماعيل، روضة النسر في دولة بني مرين، مطبوعات القصر الملكي، المطبعة
الملكية- الرباط، 1362هـ/1962م.
- الادريسي الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة، 1422هـ/2002.
- الأزدي أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد،
لغة جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط1، 1987م.
- لغة تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة
السنة، القاهرة - مصر، ط1، 1415هـ/1995م.
- الأزهري الهروي، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1،
2001م.
- الأصفهاني أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية،
بيروت، ط1، 1417هـ.
- الأصمعي، الإبل، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق - سورية، ط1،
1424هـ/2003م.

- البادسي عبد الحق بن إسماعيل، **المقصد الشريف والمنزعة اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، المطبعة الملكية، 1982.
- ابن بَرِّي عبد الله، **غلط الضعفاء من الفقهاء**، تحقيق حاتم صالح الضامن، عالم الكتب - بيروت، ط1، 1407هـ/1987م.
- ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ.
- البعلقي محمد بن أحمد المرابط السوسي، **مناقب البعلقي**، حققه وهياة للطبع محمد المختار السوسي، مطبعة الساحل - الرباط، ط1، 1408هـ/1987م.
- البكري أبي عبيد الله، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1403هـ.
- **المسالك والممالك**، حققه وقدم له ادريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992.
- البلخي محمد الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط2.
- ابن البناء، رسالة ابن البناء، ضمن كتاب **رسالتان في الأنواع**، تحقيق إبراهيم القادري بوتشيش وسعيد بنحمادة، منشورات المجموعة المغاربية للدراسات التاريخية والحضارات المقارنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة مولاي إسماعيل - مكناس، 2015.
- البندنجي اليمان بن أبي اليمان، **التقفية في اللغة**، تحقيق خليل إبراهيم العطية، الجمهورية العراقية - وزارة الأوقاف - إحياء التراث الإسلامي، مطبعة العاني - بغداد، 1976م.
- البيدق أبي بكر الصنهاجي، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.
- البيروني الخوارزمي، **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة**، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1403هـ.
- التادلي أبي يعقوب يوسف بن يحيى، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997.
- ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت.

- الجزري علي بن يحيى، المقصد المحمود في تلخيص العقود، الجزء الثاني، تحقيق فايز السلمي، أطروحة لنيل الدكتوراه، جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية، 1422هـ.
- الحموي ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995.
- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - ط2، 1980م.
- ابن حوقل، صورة الأرض، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، 1938م.
- ابن الخطيب لسان الدين،
- للإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ.
- أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964.
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.
- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ / 1988م.
- الدرجيني أبي العباس أحمد، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، ج1، مطبعة البعث - قسنطينة - الجزائر (د. ت).
- الدينوري عبد الله، الأنواء في مواسم العرب، دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - الهند، 1357هـ / 1956م. الجرائيم، تحقيق محمد جاسم الحميدي، وزارة الثقافة، دمشق، (د. ت).
- الرابي بنيامين، رحلة بنيامين التطيلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 2002م.
- الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي شيري، دار الفكر - بيروت، ط1، 1414هـ.
- ابن أبي زرع علي الفاسي؛
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1973.
- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط، 1972.
- زروق أحمد، الكناشة صور من الذكريات الأولى، تقديم وتحقيق علي فهمي خشيم، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة - ليبيا، 1980م.

- الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط2.
- ابن سيده المرسى أبو الحسن علي بن إسماعيل،
المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1،
1417هـ/1996م.
- المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1،
1421هـ/2000م.
- شاردان السير جون، رحلات في فارس، تعريب صلاح صلاح، دار السديدي للنشر والتوزيع - أبو ظبي، ط1، 2005م.
- الشعبي عبد الرحمن بن محمد الغرناطي، تحفة الحكام، دار الفكر - بيروت، ط3، 1401هـ/1981م.
- الصُّحاري سلمة بن مُسْلِم العَوْنِي، الإبانة في اللغة العربية، تحقيق عبد الكريم خليفة وآخرون، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط - سلطنة عمان، ط1، 1420هـ/1999م.
- الصفدي، تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، تحقيق السيد الشرقاوي، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط1، 1407هـ/1987م.
- العبدري أبو عبد الله، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1426هـ/2005م.
- ابن عبدون، ثلاث رسائل أندلسية في ادب الحسبة والمحتسب، (رسائل ابن عبدون)، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955.
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط3، 1983م.
- ابن عسك الشفشاوني محمد، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر - الرباط، ط2،
1397هـ/1977م.
- العطار محمد بن أحمد، كتاب الوثائق والسجلات، تحقيق شالميتا وكورنطي، مجمع الموثقين المجريطي، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مجريط، 1983.

- العلمي عيسى بن علي الحسني، النوازل، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ج2، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، مطبعة فضالة- المحمدية، 1406هـ - 1986م.
- العمري ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1423هـ.
- ابن العوام الإشبيلي، الفلاحة الأندلسية، ج1، تحقيق أنور أبو سويلم وسمير الدروبي وعلي ارشيد محاسنة، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان - الأردن، ط1، 1433هـ/2012م.
- ابن غازي العثماني محمد، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية- الرباط، ط2، 1408 - 1988.
- الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ - 1987م.
- الفاسي محمد المهدي، ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع ومن لهما من الأتباع، تحقيق وتعليق عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1994.
- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط8، 1426هـ / 2005م.
- الفيومي أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ج2، المكتبة العلمية - بيروت.
- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت- لبنان.
- القضاعي أبو عبد الله محمد بن سلامة، مسند الشهاب، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2، 1407 - 1986.
- ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقيير، تحقيق ونشر محمد الفاسي وآدولف فور، الرباط، 1965.
- الكافي صاحب، المحيط في اللغة، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت- لبنان، ط1، 1414هـ/1994م.
- كرخال مرمول، إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد زنيير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، دار النشر المعرفة، 1988-1989.

- الكرخي، المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 2004م.
- الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار لبن قتيبة - الكويت، ط1، 1409هـ/1989م.
- مجهول برتغالي، سقوط سانتاكروز، تعريب أحمد صابر، 1994.
- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة - افاق عربية، بغداد، 1986.
- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979.
- ابن مخلوف محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه؛ عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م.
- ابن مرزوق محمد التلمساني، المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيجيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، 1401/1981.
- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي القاهرة، ط3، 1411هـ/1991م.
- المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت - لبنان، 1997.
- المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط3، 1414هـ.
- المهلب الحسن بن أحمد العزيزي، المسالك والممالك، جمعه وعلق عليه ووضع حواشيه: تيسير خلف، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق، 2006.
- الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، تحقيق وتعليق؛ جعفر الناصري ومحمد الناصري، (9 ج)، دار الكتاب - الدار البيضاء 1955 - 1956.
- نشوان بن سعيد الحميري اليمني، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإيراني - د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، ط1، 1420هـ/1999م.
- النميري ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م.

- النووي أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، تحرير ألفاظ التنبيه، تحقيق عبد الغني الدقر، دار القلم - دمشق، ط1، 1408هـ.
- النويري شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1424هـ/2004م.
- الهروي محمد بن أحمد بن الأزهر، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، تحقيق مسعد عبد الحميد السعدني، دار الطلائع.
- الوزان الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.
- الونشريسي أحمد، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج مجموعة من الفقهاء تحت إشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، دار الغرب الإسلامي - بيروت (1401هـ/1981م).
- اليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.

مراجع باللغة العربية:

أ - الكتب:

- ❖ إ. دان روس، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي المواجهة المغربية للامبريالية الفرنسية (1881-1912)، ترجمة أحمد بوحسن، منشورات زاوية، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط1، 2006.
- ❖ إد الفقيه أحمد، نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي (شرعا، وعرفا، وتشريعا)، منشورات كلية الشريعة - أكادير، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط1، 1423هـ/2002م.
- ▲ استيتو محمد، الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و17م، مؤسسة النخلة - وجدة، ط1، 2004.
- ▲ أعفيف محمد، توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 70.
- ❖ أفا عمر، تاريخ المغرب المعاصر (دراسات في المصادر والمجتمع والاقتصاد)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 34، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط1، 2001-2002.

❖ انكلر أليكس، مقدمة في علم الاجتماع، ترجمة وتقديم محمد الجوهري وآخرين، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1977.

▲ أيت تعاربت محمد، التشكيلات القبلية والبنىات الاقتصادية والاجتماعية بظاا وأثر التدخل الفرنسي عليها وردود الفعل المحلية 1883-1956، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومة وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط، ط1، 2017.

❖ إيزاكا إيميليو بلانكو، القانون العرفي الريفي، ترجمة محمد الوالي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الترجمة، رقم 3، مطبعة المعارف الجديدة، 2004.

❖ البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، 1992.

❖ بلنقيه محمد، الجغرافيا القول عنها والقول فيها، المقومات الإستمولوجية، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط1، 1423هـ/2002م. أوليات في الجغرافيا الزراعية، منشورات الشركة المغربية لتنمية النشر والتوزيع، ط2، 1987.

❖ بن منصور عبد الوهاب، قبائل المغرب، المطبعة الملكية - الرباط، 1388هـ/1968م.

▲ بنميرة عمر، النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان الثامن والتاسع / 14 و 15)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 67، مطبعة الأمنية - الرباط، ط1، 2012.

❖ البوزيدي أحمد، التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن 17 مطلع القرن 20) دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، آفاق متوسطة، 1994

❖ بونت بيار وميشال إيزار وآخرون، معجم الاتنولوجيا والانتريولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، بيروت - لبنان، ط2، 1432هـ/2011م.

❖ بيرك بيتر، علم الاجتماع والتاريخ، ترجمة داوود صالح رحمة، منشورات دار علاء الدين، دمشق - سوريا، ط1، 2007.

❖ التوفيق أحمد، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1912)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط3، 1432هـ/2011م.

❖ توينبي ارنولد، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011.

٨ تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث 1، منشورات عكاظ- الدار البيضاء، 2010.

❖ الجابري عابد، فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط6، أبريل 1994.

❖ جاييس غليك، نظرية الفوضى علم اللامتوقع، ترجمة أحمد مغربي، دار الساقى، بيروت - لبنان، ط1، 2008.

❖ حافظي علوي حسن، سجل ماسة وإقليمها في القرن 8هـ/14م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1997.

❖ حبيدة محمد، المغرب النباتي الزراعة والاعذية قبل الاستعمار، تقديم عبد الأحد السبتي، منشورات ملتقى الطرق، 2018.

❖ حجي محمد، الحركة الفكرية في عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، المحمدية، 1977.

❖ حركات ابراهيم، المغرب عبر التاريخ، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة- الدار البيضاء، ط 2000/1420.

❖ حسن محمد، البادية والمدينة الافريقية في العهد الحفصي، ج1، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، تونس، (د. ت).

❖ دهمان محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر . بيروت . لبنان ودار الفكر . دمشق . سوريا، ط1، 1410هـ/ 1990م.

❖ دو فوكو شارل، التعرف على المغرب (1883-1884)، ترجمة المختار بلعربي، إشراف الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، 1998.

❖ دوزي رينهارت بيتر آن، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط1، من 1979 - 2000م.

٨ ديار عبد السلام، البادية المغربية بين التحديث وإعادة إنتاج البنيات التقليدية -منطقة قرية بامحمد كنموذج-، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، تخصص علم الاجتماع، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الانسانية- فاس، السنة الجامعية 1993-1994.

❖ الدينوري عبد الله، **الأنواء في مواسم العرب**، دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد- الهند، 1357هـ/ 1956م.

❖ الرابي بنيامين، **رحلة بنيامين التيطلي**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 2002م.

❖ ريفيه دانييل، **تاريخ المغرب من مولاي إدريس إلى محمد السادس**، ترجمة المهندس أحمد ابن الصديق، المركز الثقافي العربي، ط1، 2020.

▲ زيتوني حكيمة، **حركية المتصوفة الجزوليين خلال القرن 10هـ/16م وبداية القرن 11هـ/17م**، بحث لنيل شهادة الماستر في تاريخ الجنوب المغربي، تحت إشراف د. الكبير عطوف، جامعة ابن زهر- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- أكادير، السنة الجامعية، 2013/2011.

▲ ستيتو محمد، **الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16م**، مركز ابن خلدون للدراسات والأبحاث والترجمة والتحقيق، مطابع الرباط نت، ط1، 2020.

❖ السوسي المختار، **المعسول**، ج18، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1963. **إليغ قديما وحديثا**، المطبعة الملكية- الرباط، 1386هـ/ 1966م.

▲ الشاذلي عبد اللطيف، **التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري**، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل 4، مطابع سلا، 1989.

❖ شلومبيرجر إمانويل، **الرحلة إلى المغرب**، ست عشرة رسالة إلى أمي مؤرخة من 13 مارس إلى أبريل 1882م، ترجمة بوشعيب الساوري، إفريقيا الشرق، ط 2014.

❖ شيميري لور، **المناخ**، ترجمة زينب منعم، إصدارات المجلة العربية، كتاب العربية رقم 150، ط1، 1435هـ/2014م.

❖ الصافي محمد، **واد نون خلال القرن 19 مساهمة في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي من خلال وثائق محلية**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومة وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2016.

▲ الطويل محمد،

- **الفلاحة المغربية في العصر الوسيط**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط، السنة الجامعية: 1987-1988.

- **النقل والتنقل في المغرب خلال العصر الوسيط**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس- أكادال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط، السنة الجامعية 1996-1997.

❖ العروي عبد الله،

- مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط2، 2000.

- مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 2005.

❖ علوي أحمد عبد اللوي، مدغرة وادي زيز إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر

الحديث، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، 1416هـ/1996م،

❖ العلوي مولاي النقي، أصول المغاربة، إعداد وإخراج علال ركوك وحفيظة الهاني، منشورات المعهد

الجامعي للبحث العلمي، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، 2016.

❖ فيرون ريمون، الصحراء الكبرى، ترجمة جما الدين الدناصورى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1993.

❖ فيريول جيل، معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة وتقديم بسام محمد الأسعد، دار ومكتبة الهلال-

بيروت.

❖ القبلي محمد، المجتمع والحكم والدين بالمغرب في نهاية "العصر الوسيط"، منشورات المعهد الملكي

للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، ط1، 2017.

❖ قربان ملحم، خلدونيات: السياسة العمرانية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-

لبنان، ط1، 1404هـ/1984م.

❖ كار ادورد هاليت، ما هو التاريخ؟، ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات

والنشر، بيروت، ط1، 1976.

❖ كارتسيف فلاديمير وبيوتر خاز انوفسكي، آلاف السنين من الطاقة، ترجمة محمد غياث الزيات،

سلسلة عالم المعرفة، ع 187، يوليو 1994.

❖ كامب غابرييل، البربر ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات إفريقيا الشرق، 2014.

❖ مجموعة مؤلفين، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، إشراف محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث

في تاريخ المغرب، مطبعة عكاظ الجديدة، الرباط، ط1، 2011.

❖ المحداد الحسن، الماء والإنسان بحوض سوس: إسهام في دراسة نظام مائي مغربي، منشورات مركز

ابن تومرت للدراسات والنشر والوثيق، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية -أكادير، سلسلة

أبحاث وأطروحات، 2003.

❖ مزيان أحمد، فجيج (فكيك)، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر

(1845-1903م)، مطبعة فجر السعادة، 1988م،

- ▲ مزين محمد، فاس وباديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي (1549م-1637م)، منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية -جامعة محمد الخامس - الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 12، مطبعة المعارف الجديدة، ط1، 1986م.
- ❖ مسدالي فاطمة، المجتمع القروي الدكالي والتغير المرتبط بتدخل الدولة الزمامرة نموذجا، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - الرباط، 2005.
- ❖ مغربي عبد الغني، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد الشريف بن دالي، المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر.
- ❖ المنوني محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط3، 2000/1420.
- ▲ مهديان امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي (دراسة سوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي للسقي بواحة تودغي)، منشورات جامعة ابن زهر - أكادير، طباعة ونشر سوس - أكادير، ط1، 2012.
- ❖ موسى عز الدين أحمد، النشاط الاقتصادي بالمغرب الإسلامي خلال القرن 12هـ/12م، دار الشروق، بيروت، 1983.
- ❖ مونتاني روبرت، الحياة الاجتماعية والسياسية للبربر، ترجمة محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، 2014.
- ❖ الناصري محمد، الجبال المغربية مركزيها - هامشيتها - تنميتها، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة المناهل - الرباط، ط2، 2003.
- ❖ الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط، من منتصف القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2007.
- ❖ الهراس المختار، القبيلة والسلطة تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، نشر المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، مطبعة الرسالة - الرباط، 1988.
- ❖ هيل دونالد، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، ع305، يوليو 2004.
- ❖ هيلدبرت إزنا، الحيز الجغرافي، ترجمة محمد إسماعيل الشيخ، مطبوعات جامعة الكويت - الكويت، 1994.

٨ اليملولي رشيد، **الضرائب في الغرب الإسلامي وأثرها في التاريخ السياسي (441-868هـ/ 1049م-1464م)**، أطروحة دكتوراة في التاريخ، وحدة التكوين والبحث: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي الوسيط، جامعة المولى إسماعيل - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مكناس، السنة الجامعية: 2010-2011.

ب - المقالات:

❖ أرفاك شفيق،

- "المجتمع التمنارتي ملاحظات أولية حول البنى الاجتماعية"، ضمن أعمال الندوة الوطنية: **واحات باني العمق التاريخي ومؤهلات التنمية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط1، 1999، (ص ص 65-75).

- "أيت حربيل"، **معلمة المغرب**، ج10، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 3356-3357).

❖ ازيكو صدقي علي، "تأحيات"، **معلمة المغرب**، ج6، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 1995-1997).

❖ استيتو محمد، "مأوي المساكين والفقراء والغرباء في المغرب خلال العصر الحديث (نماذج من القرنين 16 و 17م)"، ضمن مؤلف؛ **دراسات تاريخية في العمارة والسكن**، تنسيق: محمد استيتو وعبد المجيد بهيني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وجدة، ط1، 2008، (ص ص 112-118).

❖ اسطفان كسيل، حيوانات ونباتات شمال إفريقيا في العهود العتيقة، تعريب محمد التازي سعود، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس**، ع8، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، 1406-1986، (ص ص 105-132).

❖ إسكان الحسين، "تكنولوجيا التحكم في الماء بالجنوب المغربي خلال العصر الوسيط"، **مجلة أمل**، ع24، السنة الثامنة، 2001، (ص ص 16-28).

❖ الأكل المختار، مادة القبيلة، **معلمة المغرب**، ج19، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 6605-6606).

❖ آيت حمزة محمد،

- مادة "الريف"، **معلمة المغرب**، ج13، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 4527-4529)

- التدجين وتدبير المراعي عند امكونة الأطلس الكبير الأوسط، ضمن كتاب: **تدبير الموارد المحلية بالمغرب**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية- سلسلة دراسات وأبحاث رقم 71، دار أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط، ط1، 2018، (ص ص 99-117).

❖ بامي جمال، العمران الصوفي بين الاسطورة والتاريخ، **مجلة أمل**، العدد 41، السنة 2013، (ص ص 16-28).

❖ البركاني عبد الحنين، "من اللهجة الريفية [أو تاريفيت نموذجاً] نحو البحث عن "فصحى" أمازيغية"، **مجلة تاريخ المغرب**، العددان السابع والثامن، محرم 1419/ ماي 1998، (ص ص 165-179).

❖ البزاز محمد الامين، "الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط**، ع 16، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، (ص ص 115-120)

❖ البليشي علي، "مادة الجفاف المناخي"، **معلمة المغرب**، ج9، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 3043-3047).

❖ بنحمادة سعيد، الملكية العقارية وقانون الماء ببلاد المغرب والأندلس بين التشريع النظري والتنزيل التاريخي دراسة لأثر الجغرافيا التاريخية في تبيئة القانون، ضمن أعمال ندوة: **التاريخ والقانون التقاطعات المعرفية والاهتمامات المشتركة**، أعمال مهداة للأستاذ: محمود إسماعيل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مكناس، سلسلة الندوات، رقم 22، مطبعة مكناس برانت شوب، 2009.

❖ بنسالم ليلى، "التحليل الانقسامي لمجتمعات المغرب الكبير: حصيلة وتقييم"، ضمن كتاب: **الانترولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي**، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، ط1، 1988، (ص ص 11-42).

❖ بنكرعي حليلة،

- "تدبير الموارد المائية في مغرب ما قبل الحماية"، **مجلة البادية المغربية (الماضي - الحاضر - المستقبل)**، العدد الثاني - السنة الثانية - 2008، نشر وتوزيع مكتبة دار السلام - الرباط، (ص ص 71-76).

- "أصول نظام الارض في المغرب وطرق استغلالها (1459-1669)", مجلة البادية المغربية (الماضي - الحاضر - المستقبل)، العدد الثالث، السنة الثالثة-2009، نشر مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع- الرباط، (ص ص 67-72).

❖ بنميرة عمر، قضايا المياه بالمغرب الوسيط من خلال أدب النوازل، ندوة: التاريخ وأدب النوازل، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 46، مطبعة فضالة - المحمدية، ط1، 1995، (ص ص 77-86).

❖ بومزكو أحمد،

- "ملاح من شخصية الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي"، ضمن أعمال الندوة الوطنية: وإحات باني العمق التاريخي ومؤهلات التنمية، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية- أكادير، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، ط1، 1999، (ص ص 51-63).

- مادة "المعذر"، معلمة المغرب، ج21، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 7187-7188).

❖ بيرك جاك، "في مدلول "القبيلة" بشمال إفريقيا، ضمن كتاب؛ الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، ط1، 1988، (ص ص 113-125).

❖ التازي عبد الهادي، الماء والغذاء في التراث الإسلامي والتاريخ العربي، ضمن ندوة: الماء والتغذية وتزايد السكان، منشورات أكاديمية المملكة المغربية- الرباط، 1982.

❖ التوفيق أحمد، "إيلال"، معلمة المغرب، ج3، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 931-932).

❖ تيتاو حميد، "المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية"، ضمن أعمال ندوة: الفلاحة في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ط1، 1440هـ/2019م، (ص ص 97-127).

❖ حافظي علوي حسن،

- مادة "بني معقل"، معلمة المغرب، ج5، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 1569-1572).

- مادة "الجمال"، معلمة المغرب، ج9، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 3089-3090).

❖ حبيدة محمد،

- "التقنية والتنظيم ملاحظات أولية حول القرنين 17 و 18م"، ندوة الماء في تاريخ المغرب، كلية الآداب، عين الشق، الدار البيضاء، 1999م، (ص ص 127-133).

- التاريخ والجغرافية التاريخية، ضمن كتاب: بؤس التاريخ (مراجعات ومقاربات)، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015، (ص ص 143-152).

- "التاريخ الاجتماعي مارك بلوك ولوسيان فيفر"، ضمن المدارس التاريخية (برلين - السوربون - استراسبورغ)، من المنهج إلى التنازع، دار الأمان - الرباط، ط1، 2018، (ص ص 76-88).

❖ حمودي عبد الله، "الداخلي والخارجي في التنظير للظاهرة القبلية خطوة في طريق تأسيس خطاب انثروبولوجي مستقل"، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 19 - المجلد الخامس - شتاء 2017، (ص ص 11-56).

❖ حنداين محمد، "سكتانة"، معلمة المغرب، ج15، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص 5018).

❖ الراجي خديجة، الأرض من خلال المناقب السوسية "القرن 16"، ضمن أعمال الندوة الوطنية: واحات باني العمق التاريخي ومؤهلات التنمية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير، سلسلة الندوات والأيام الدراسية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 1999. (ص ص 39-49).

❖ رمضان محمد، مادة "الجمال"، معلمة المغرب، ج9، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 3087-3089).

❖ السبت عبد الأحد، "التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج: ملاحظات أولية"، ضمن كتاب: البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 14، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989. (ص ص 43-57).

❖ شقرون محمد، مادة "البادية المغربية"، معلمة المغرب، ج3، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 972-975).

❖ صالحية محمد، "الفيزياء والحيل عند العرب"، مجلة قضايا عربية، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، العدد 1- السنة 9- 1986، بغداد- العراق.

❖ الطويل حجاج محمد،

- "عودة إلى القبائل الهلالية"، مجلة أمل، العدد الثاني- السنة الأولى- 1992، دار قرطبة للطباعة والنشر- الدار البيضاء، (ص ص 130-135).

- مصامدة "الجبل ومصامدة السهل"، ضمن ندوة: الجبل في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-جامعة سيدي محمد بن عبد الله- فاس، سلسلة ندوات ومناظرات العلوم الإنسانية-3-، 1994، (ص ص 34-47).

- "دكالة بين الشدة والرخاء"، ضمن ندوة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 4، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، جامعة شعيب الدكالي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المملكة المغربية 2002. (ص ص 41-51).

- مادة "السانية"، معلمة المغرب، ج14، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 4830-4831).

❖ العجلوي الموساوي، "تقنيات استخراج المياه الباطنية في مناجم الفضة بالمغرب (2-7هـ/8-13م)، ضمن ندوة: الماء في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- عين الشق، الدار البيضاء، 1999، (ص ص 103-116).

❖ عمالك أحمد، مادة "السكتاني أبو بكر"، معلمة المغرب، ج15، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 5018-5019).

❖ الفارسي لحسن، "تحولات السكن وتنظيم المجال الجبلي بوادي أوريك"، مجلة دراسات مجالية، ع 5، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، المطبعة والوراقة الوطنية الداوديات- مراكش، دجنبر 2010، (ص ص 84-97).

❖ الفكيكي حسن، مادة "جزولة" (الشمال)، معلمة المغرب، ج9، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 3002-3004).

❖ القبلي محمد،

- "ملاحظات حول التجارب الوجدانية الوسيطية ببلاد المغرب الكبير"، ضمن كتاب؛ **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، مطبعة فضالة- المحمدية (المغرب)، ط1، 1987، (ص ص 7-20).

- "حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر الميلادي"، ضمن كتاب؛ **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط (علائق وتفاعل)**، دار توبقال للنشر - الدار البيضاء، ط1، 1997، (ص ص 41-70).

❖ كسيل اسطفان، حيوانات ونباتات شمال إفريقيا في العهود العتيقة، تعريب محمد التازي سعود، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس**، ع8، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، 1406-1986، (ص ص 105-132).

❖ كلنير إرنست، "السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية"، ضمن مؤلف **الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي**، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، ط1، 1988، (ص ص 43-59).

❖ كنتوري عائشة، "الرحى المائية بمدينة فاس"، ضمن ندوة؛ **الماء بتانسيقت تاريخ وتقنيات**، مراكش، 2002، (ص ص 88-94).

❖ مدني طارق، "أركيولوجيا الماء: مقاربات ومجالات"، مقال ضمن كتاب: المؤتمر الخامس عشر للاتحاد العام للآثاريين العرب (13-15 أكتوبر 2012) - جامعة محمد الأول-وجدة، ج2، 1433هـ/2012م، (ص ص 1399-1412).

❖ مسدالي فاطمة، الثابت والمتغير في أعراف الأسرة البدوية بمنطقة دكالة، ضمن؛ **الأعراف بالبادية المغربية**، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة ابن طفيل- القنيطرة، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم1، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع- الرباط، ط1، 2004، (ص ص 95-108).

❖ مندي مارثا، "الغيل المبارك نظام الري والتنظيم الاجتماعي في وادي زهر باليمن خلال القرون الثلاثة الماضية"، **مجلة دراسات تاريخية**، السنة الحادية عشرة، ع 35-36، أذار - حيران، 1990، (ص ص 177-216).

❖ الناصري محمد، مادة "الجفاف المناخي"، **معلمة المغرب**، ج9، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 3043-3050).

❖ ناعمي مصطفى،

- مادة "تكنة"، **معلمة المغرب**، ج8، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 2511-2515).

- مادة "جزولة"، **معلمة المغرب**، ج9، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 2999-3002).

❖ الهلالي محمد ياسر، "أثر القحط والمجاعات والبيئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط"، ضمن ندوة: **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 4، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الجديدة، جامعة شعيب الدكالي، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المملكة المغربية 2002، (ص ص 167-226)

❖ هوزالي أحمد، مادة "الأطلس الكبير"، **معلمة المغرب**، ج2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط، ط2، 1435هـ/2014م، (ص ص 497-503).

مراجع بلغات أجنبية

Livres:

- ▲ BEDOUCHA, *L'eau l'amie du puissant, une communauté oasienne du sud Tunisien*, publication de CNRS et CNL, 1987.
- ▲ BERQUE Jacques, *Les Structures Sociales Du Haut-Atlas*, P.U.F, Paris, 1978.
- ▲ BRIGNON et Autres, *Histoire Du Maroc*, Paris, 1967.
- ▲ BURESI Pascal, Ghouirgate Mehdi, *Histoire du Maghreb Médiéval XIe-XVe siècle*, Paris, CURSUS ARMAND COLIN, 2013.
- ▲ CLAVAL (Paul), *Géographie Humaine et économique contemporaine*, PUF FONDAMENTAL, 1984.
- ▲ CODELIER Maurice, *Les Tribus L'histoire et face aux Etats*, Paris, CNRS éd, 2010.
- ▲ El Faiz (M.), *Les maîtres de l'eau, Histoire de l'hydraulique arabe*, Acte sud, 2005.
- ▲ Fernand Braudel, *La Méditerranée et le Monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II*, T1, Paris, Librairie Armand colin, 4^{eme} éd, 1979.

- ▲ GANTOURI Aicha, **Le Moulin Hydraulique de Fès**, Thèse de Doctorat de L'université de Paris I, Année Universitaire 1989-1990.
- ▲ Goblot (H.), **Les Qanâts : Une Technique d'Acquisition de l'Eau**, Paris, Mouton, 1979.
- ▲ LERNER Daniel, **The passing of traditional society, modernizing the Middle East**, The free press, New-York, collier-Macmillan limited, London, 1968.
- ▲ MADANI Tarik, **L'eau dans le monde musulman médiéval**, Thèse de Doctorat de L'université Lyon II, 2003. (copie numérique), sans numéros de pages.
- ▲ MASSIGNON louis, **Le Maroc dans les premières années du XVI siècle**, tableau géographique d'après Léon l'africain, Alger, 1906.
- ▲ Meunie (J.D); **Le Maroc saharien des origines au XVIe siècle**, T1, Paris, Librairie Klincksieck, 1982.
- ▲ Morsy Magali, **Les Ahansala- Examen du Role Historique d'une Famille Maraboutique de l'Atlas Marocain au XVIIIe siècle**, Paris, Mouton, 1972.
- ▲ Buresi Pascal, Mehdi Ghouirgate, **Histoire du Maghreb Médiéval XIe-XVe siècle**, Paris, Cursus Armand Colin, 2013.
- ▲ RALEIGH, **Elementary politics**, London, ed. H. Fraude, 1905.
- ▲ Raymond Boudon et Bourricout (F.), **Dictionnaire Critique de la Sociologie**, Paris, PUF, 1962.
- ▲ Rocher Guy, **Introduction à la sociologie générale: Le changement social**, Édition HMH. Ltée, 1968
- ▲ Rostow (w.w.), **Les étapes croissance économique**, Paris, 1962.
- ▲ Theodore (S.), **Hamerow: Reflections on History and Historians**, The University of Wisconsin press, 1987.
- ▲ TREMOULINAS Alexis, **Sociologie des changements sociaux**, Paris, édition la Découverte, 2006.
- ▲ VEYNE (P.), **Comment on écrit L'histoire**, Paris, Seuil, 1971.

Magazines:

❖ ALLAIN charles,

- «**Les Citernes Et Les Margelles De Sidi-Bou-Othman**», Hesperis, T XXXVIII, 3^{ème}-4^{ème} trimestres, 1951. (pp 423-440).

- «**Reconnaissances Archéologiques Dans Le Massif des Rehamna et la Bahira II, une organisation agricole almohade dans la Bahira**» Hesperis, T XLI, 3^e-4^e trimestres 1954. (pp 435-458).
- ❖ BELLIL Rachid, «**Kabylie: La Région dans les écrits Arabes**», Encyclopédie berbère, 26/2004, (pp 4016-4022).
- ❖ MICHAUX Billaire, «**les terres collectives au Maroc et la tradition**», dans Bulletin de L'Afrique française, 1924.
- ❖ BIRABEN (J. N), «**La Peste Noire en Terre de L'islam, in L'histoire**», Revue Mensuelle, N°11, Paris, avril 1979.
- ❖ BODIN Marcel, «**La Zaouia De Tamegrout**», In Archives Berbères, T III, 1918. (pp 280-289).
- ❖ BRUNET Roger, «**Analyse Des Paysages Et Sémiologie, Eléments pour un débat**», L'espace géographique, T3, N°2, 1974. (pp 120-126)
- ❖ CARBONERO Maria Antonia, «**Technologie hydraulique et système de distribution collective de l'eau en al-Andalus**», Monde arabe: la société, la terre, le pouvoir, N°45, Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, 1987. (pp. 133-141).
- ❖ Célérier Jean, «**La Transhumance Dans Le Moyen- Atlas**», Hespéris, T(3) VII, 1^{er} Trimestre, 1927. (pp53-68).
- ❖ Colas (R.), «**Répartition de L'habitat Rural**», Bulletin de L'association de Géographes Français, N°169-170, 1945. (pp 51-56).
- ❖ DEMANGEAN (A.),
 - «**La Géographie de L'habitat Rural**», Annales de Géographie, N°199, 15 janvier 1927, (pp1-23).
 - «**La Géographie de L'habitat Rural (Deuxième article)**», Annales de géographie, N°200, Année 1927. (pp 97-114).
- ❖ DESPOIS Jean, «**Essai sur L'habitat Rural du Sahel Tunisien**», Annales des géographie, N°225, 1931. (pp259- 274).
- ❖ EL MOUNTASSIR (A.), «**Mesures (sud du Maroc)**», Encyclopédie berbère, 31/2010, (pp 4903-4905).
- ❖ FOSSIER Robert, «**villages et villageois**», Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, 21^e congrès, Caen, 1990, (pp. 207-214).
- ❖ GAST (M.) and Delheur (J.), «**Calendrier**», Encyclopédie berbère, 11/1992, (pp 1713-1720).

- ❖ GRANDGUILLAUME Gilbert, «**Régime économique et structure du pouvoir: le système des foggara du Touat**», In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°13-14, 1973. (pp437-457)
- ❖ HANCHANE Mohamed et EL MOULOUDI M'hamed, «**Habitat Rural au Maroc: essai de régionalisation selon des critères socio-économiques; cas des provinces Taza et Guercif**», Revue espace géographique et société Marocaine, N°31, janvier 2020, (pp241-254).
- ❖ HENESENS Jean, «**Enquête Nationale Sur L'habitat Rural Traditionnel Au Maroc**», Bulletin économique et social du Maroc-Rabat, Vol 32, 1970, (pp 99-115).
- ❖ KAPLAN Michel, «**Le Village Byzantin: Naissance d'une Communauté Chrétienne**», Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, 21^e congrès, Caen, 1990, (pp 15-25).
- ❖ Laoust (E.), «**Le Nom De La Charrue et de Ses Accessoires Chez Les Berbères**», Les Archives Berbères, Publication du Comité d'études Berbères de Rabat, V 3, 1918, (pp 1-29)
- ❖ LAZAREV Grigori, «**Les concessions foncières au Maroc, Contributions à l'étude de la formation des domaines personnels dans les compagnes marocaines**», in Annales Marocaines de sociologie, 1968. (pp 99-135)
- ❖ NAMI Mustapha, «**ces bâtisses qui construisent les territoires et les paysages culturels**», Hespéris-Tamoda LII(3) (2017). (pp 35-57).
- ❖ PEYRON Mickael, «**Habitat Rural et vie montagnarde dans le Haut Atlas de Midelt**», tome 64, Revue de Géographie Alpine, T 64, N°3, 1976. (pp327-363).
- ❖ PLETSCHE Alfred, «**Eléments traditionnels et évolution récente dans l'oasis du Dra (Maroc)**», Méditerranée, (deuxième série), Tome 29, N°2, 1977. (pp 35-43)
- ❖ REBUFFAT (R.), «**Citernes**», Encyclopédie Berbère, 13/1994. (pp 2014-2027).
- ❖ VERHULST Adrian, «**Villages et villageois au moyen Age**», Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public, 21^e congrès, Caen, 1990. (pp. 9-13).

الفهارس

الجدول:

الرقم	موضوعه	الصفحة
1	الشبكة المائية للأطلس الكبير	37
2	محطات الطريق الصحراوي بين المغرب وبلاد السودان الغربي من خلال المسالك والممالك للبكري	41
3	مستويات التعصب القبلي	44
4	أنواع المساكن البدوية حسب لويس ماسينيون	45
5	مشاهد من استيطان جبال المغرب من خلال مؤلف وصف إفريقيا للحسن الوزان	51
6	أحوال التساكن القبلي بالمغرب من خلال كتاب العبر لابن خلدون	62
7	مراتب النسب عند العرب	74
8	تحول الحياة القبلية من خلال تصور ابن خلدون	80
9	شكل تعامل الغالب من القبائل مع المتغلب عليه منها	86
10	توطين القبائل العربية بالمغرب من خلال كتاب العبر - الجزء السادس -	88
11	من مشاهد الرعي بالمغرب من خلال كتاب المسالك والممالك للبكري	123
12	التوزيع السنوي للأعمال الرعوية	125
13	توزيع حصص توريد الإبل من كتاب الإبل الأصمعي	128
14	احتساب الأيام الممكنة لورود الماء حسب عمليات الأظماء	129
15	احتساب الأيام الممكنة لورود الماء حسب عمليات الأجزاء	130
16	حركات الجماعات الرعوية	134
17	الملاحظات المناخية وآليات خدمة الأرض من خلال التقويم الفلاحي	140
18	جرد للقطيع الحيواني بالمغرب من خلال مؤلف وصف إفريقيا للوزان	147
19	التوزيع المجالي للإنتاج الزراعي والنباتي بالمغرب من خلال كتاب وصف إفريقيا	154
20	توطين متصوفة بادية الريف من خلال المقصد الشريف للبادسي	179
21	جملة الطوائف الصوفية بالمغرب حسب ابن قنفذ	186
22	أصناف السكن بالبادية المغربية	198
23	المباني في علاقة بنمط العيش والاستقرار	203
24	العوامل المؤثرة على أنماط السكن الريفي وفق قراءة	207
25	مواد البناء بالبادية المغربية من خلال وصف إفريقيا للحسن الوزان	210
26	مجالات تأثير المناخ في السكن بالبادية	214
27	الاحتفاء الإخباري ببعض التقنيات المائية بالمغرب خلال العصر الوسيط	225
28	الناعورة من خلال الاشارات المصدرة	229
29	توزيع "افتراضي" للتقنيات المائية بالمجال المغربي بالنظر إلى طبيعة السطح ومورد الماء	237

253	جرد بالسنوات الجافة والمطيرة بمجال المغرب في الفترة ما بين 609-986هـ / 1212-1578م	30
255	توزيع السنوات المطيرة والجافة بالمغرب خلال الفترة من 609هـ / 1212م إلى 989هـ / 1581م	31
261	توطين جموع المعقل بالمغرب على عهد ابن خلدون	32
267	أنواع التجمع والتشتت القروي	33
270	تطور الصراع القبلي بالسوس الأقصى	34
271	تطور الوضع القبلي بحوز مراكش	35
283	طبيعة وآليات قياس الحصص المائية	36
284	عناصر وأجزاء قياس الحظ من الماء من خلال نوازل المعيار للونشريسي	37
292	أشكال استغلال الأرض بالمغرب من خلال مؤلف وصف إفريقيا للوزان	38
301	التدبير الاجتماعي للماء وفق سلم جلنر الانقسام	39
302	عناصر الترتيب لتنظيم استغلال المياه بالبادية المغربية خلال العصر الوسيط	40
303	الأنساق المائية بالبادية المغربية	41
308	موارد الماء بنازلة أهل أركان ومزدغة السفلى والعناصر البشرية المرتبطة بها	42

الخرائط

الرقم	موضوعها	الصفحة
1	أشكال التجمعات القروية بالمغرب	47
2	الانتشار القبلي بالمغرب خلال العصر الوسيط	83
3	إنتاج وتربية الدواب والأبل بالمغرب الوسيط	153
4	التوزيع الجغرافي لبعض المنتجات الفلاحية بالمغرب خلال العصر الوسيط	159
5	مناطق مقدمات الجبال بالمغرب	169
6	التوزيع القبلي وبداية التمدد المريني بالمغرب أواسط القرن الثالث عشر للميلاد	233

الأشكال

الرقم	موضوعه	الصفحة
1	رسم لتقنية الزنبيل المعلق	51
2	خط توضيحي لتصوير ابن خلدون لتطور حياة الجماعات البدوية	60
3	خطاطة لجوانب التداخل في النظام القبلي بالبادية المغربية من خلال ألفاظ كتاب العبر لابن خلدون	63
4	خطاطة للعناصر المتحركة في العمران بالبادية	72
5	خطاطة ربط ابن خلدون النسب الصريح بالعصبية القبلية	76
6	خطاطة توضيحية لشكل التحول في النظام القبلي بالبادية المغربية	116
7	تباين الغطاء النباتي بسفوح الأطلس المتوسط	158
8	أثر الانحدار على التربة	160
9	رسم مبسط للتنظيم المجالي القديم بالدير	164

196	خطاطة لتفاعل عنصر الماء ضمن نسق العمران الصوفي	10
205	خطاطة السكن الريفي حسب معطيات تقرير مسح وطني للسكن الريفي التقليدي	11
244	رسم مبسط لهيكل ناعورة	12
247	رسمين لشكلي عجنتي الطاحونة المائية	13
256	رسم بياني لحالة التذبذب المناخي بالمغرب خلال الفترة ما بين 609-989هـ / 1212-1581م	14
289	رسم لأداة لقياس تدفق الخطارة عند مخرجها	15
300	سلم الجماعات القبلية حسب جنس	16

الصور

الرقم	موضوعها	الصفحة
1	مشاركة أهل بادية الصحراء في استغلال الآبار	240
2	عملية استخراج الأتربة من بئر	241
3	تقنية أغرور	242

فهرس الموضوعات:

4.....	مقدمة
5.....	1-تحفظات:
10.....	2-الإشكالية:
11.....	3-معطيات، تصور وفرضيات:
13.....	4-أهمية البحث:
14.....	5-مسألة المنهج:
15.....	6-خطة البحث:
16.....	7-المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:
25.....	الباب الأول: الماء والإنسان ببادية مغرب "نهاية العصر الوسيط"
26.....	تمهيد
29.....	الفصل الأول: البدو والبادية؛ المفاهيم - المجال والمجتمع
31.....	أ. المفاهيم والخصائص
31.....	1-المفاهيم والمصطلحات
35.....	2-وقفة مع خصائص المجال البدوي المغربي
55.....	II. الحياة الاجتماعية لأهل البادية
55.....	1-البداءة ومسألة التغير الاجتماعي
61.....	2-الدورة الاجتماعية لأهل البادية
69.....	الفصل الثاني: البادية مجال للقبلية
70.....	أ. العمران البدوي؛ حدود التفسير وإمكانية التأويل
84.....	II. التفاعلات القبلية بالبادية المغربية
84.....	1-الالتقاء والتصادم
97.....	2-التفتت ..
104.....	III. بنية القبيلة المغربية
104.....	1-البنىات الاجتماعية

109	2-الوحدات الاستيطانية:.....
117	الفصل الثالث: المناخ والبادية بين المعاش والانتعاش
119	ا.المناخ والمجتمع البدوي.....
119	1-جماعات النجعة.....
137	2-جماعات الفلح.....
143	II.المناخ والإنتاج بالبادية.....
144	1-المشهد الحيواني:.....
154	2-المشهد الزراعي:.....
164	III.المناخ والتحركات البشرية بالبادية المغربية.....
164	1-نظيمة المشتى والمصيف.....
167	2-عنصر الماء بين النزوح والاستيطان.....
172	نتائج وخلاصات:.....
174	الباب الثاني: الماء وال عمران بالبادية المغربية ما بين القرنين 7 و10هـ
175	تمهيد.....
177	الفصل الأول: الماء والتعمير ببادية مغرب ما بين القرنين 7 و10 الهجريين
178	ا.الماء- التصوف والاستقرار بالبادية.....
179	1-المتصوفة وتأمين الاستقرار.....
189	2-الماء وال عمران الصوفي بالبادية المغربية.....
198	II.الماء وهندسة السكن بالبادية المغربية.....
198	1-فسيفساء السكن بالبادية المغربية نهاية العصر الوسيط.....
209	2-الماء وهندسة المساكن بالبادية المغربية.....
217	III.تقنيات استغلال الموارد المائية بالبادية المغربية.....
217	1-نقل وانتقال تقني.....
235	2-تقنيات الإعداد المائي بالبادية.....
250	الفصل الثاني: بادية المغرب من خلال الماء
251	ا.هاجس الماء في فترة اجتماعية حرجة.....

252	1-وهم الرطوبة.....
259	2-جماعة جديدة وسياق قديم.....
266	II.البادية؛ مياه وتساكن.....
266	1-مجال البادية؛ القبلية نحو القرية.....
273	2-ماء وتراب وجماعة.....
278	III.الماء يصف القبيلة.....
279	1-الحمولة الثقافية لتوزيع الماء وآلياته.....
292	2-ترتيب اجتماعي حول الماء.....
316	نتائج وخلاصات:
318	خاتمة.....
327	لائحة المصادر والمراجع.....
350	الفهارس.....